رواية

هنري جيمس

بورتريه سيِّدة

الجزء الأول

ترجمة
د. أنوار يوسف

مكتبة 1176



بورتريه سيّدة

بورتريه سيّدة

هنري جيمس

ترجمة: د. أنوار يوسف

عنوان الكتاب بالإنكليزية:

The Portrait of a Lady

By Henry James

Translated by Dr. Anwar Yousef

الطبعة الأولى: فبراير ـ شباط، 2022 (1000 نسخة)



بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

info@daralrafidain.com | dar alrafidain
daralrafidain@yahoo.com | Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com | @daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN. 978 - 9922 - 643 - 80 - 9

هنري جيمس

مكتبة | 1176



بورتريه سيّدة

الجزء الأول

ترجمة

د. أنوار يوسف



www.daralrafidain.com

ملخص

إيزابيل آرتشر، فتاة أميركية مثقفة ومحبوبة لكن فقيرة، هبطت عليها ثروة من السماء جعلتها هدفاً لصائدي الثروات. فماذا ستفعل؟

المترجمة


mohamed khatab

هنري جيمس

روائي وناقد إنجليزي من أصل أميركي ولد عام 1843 في نيويورك لعائلة غنية وتوفي سنة 1916، قرأ وهو في سن صغيرة الأدب الإنجليزي والأميركي والفرنسي والألماني والروسي، وسافر في ريعان شبابه بين أميركا وأوروبا. شارك في تحرير العديد من المجلات الشهرية مثل مجلة «أتلانتيك». يُعتبر مؤسس وقائد مدرسة الأدب الواقعي، وآمن بأن الفن الروائي يعتمد على الانطباعات الغنية التي تغذي خيال الكاتب من البيئة المحيطة. كتب أكثر من 24 رواية طويلة مثل (ديزي ميلر) و(أجنحة اليمامة) و(الطبق الذهبي) و(ساحة واشنطن) وعدداً كبيراً من القصص القصيرة والمسرحيات وعدداً كبيراً جداً من الرسائل والمحاضرات الأدبية. اشتهر هنري جيمس في رواياته بتلاقي أميركا وأوروبا من خلال شخصياته الروائية، وكذلك استخدامه البديع للمونولوج أو الحوار الداخلي للشخصيات كما سنلاحظ ذلك في رواية بورتريه سيدة أو صورة سيدة والذي تحول إلى عمل سينمائي بنفس العنوان عام 1996 قامت ببطولته نيكول كيدمان ونال العديد من الجوائز.

الفصل 1

هناك، في أوقات معينة، ساعاتٌ قلائل في الحياة تكون سارّة أكثر من الساعة المخصصة للمراسم المعروفة بشاي وقت العصر. فهناك أوقات سواءً تتناول فيها الشاي أو لا ـ بعض الناس لا يفعلون ذلك طبعاً ـ يكون فيها الحدث بحد ذاته باعثاً على البهجة. إن تلك الأوقات التي أنوي أن أستعرضها في بداية هذه القصة البسيطة قد كشفَتْ عن جوٍّ رائع لضيافةٍ بسيطة.

كانت تجهيزات هذه الوليمة الصغيرة قد أُعِدَّتْ فوق مرجٍ لبيتٍ ريفي إنجليزي عتيق في ما يجب أن أُطلق عليه، قلب مساءٍ صيفيٍّ رائع. كان جزءٌ من العصر قد ولّى، لكن تبَقّى الكثير منه، وما تبَقّى كان ذا طبيعةٍ هي الأروع والأكثر استثنائية. إذ ما كان الغسق الحقيقي ليحلَّ لعدة ساعاتٍ؛ لكن فيض نور الصيف قد بدأ بالانحسار، واستحال الهواء رقيقاً، والظّلال طويلة فوق المرج الناعم الكثّ. لقد استطالت تلك الظلال ببطء رغم ذلك، وعبَّر المشهد عن ذلك الإحساس بالسكينة الذي سيحلّ، والذي ربما يكون المصدر الرئيسي لاستمتاع المرء بمشهدٍ كهذا، في ساعةٍ كتلك. إن الفترة من الساعة الخامسة إلى الساعة الثامنة في مناسباتٍ معينة هي زمن وجيز؛ لكن في مثل مناسبةٍ كهذه، يمكن لهذا الزمن أن يكون عبارة عن زمنٍ لا نهائي من المتعة فحسب. الأشخاص المعنيون يستمتعون بهدوء، ولم يكونوا من النوع الذي من المفترض أن يخدم المعجبين الاعتياديين بالمراسم التي ذكرْتُها. الظلال التي على المرج الصقيل مستقيمة وشديدة النحول؛ كانت ظلالَ رجلٍ عجوز يجلس على كرسي خفيض من الخيزران المَجْدول قرب منضدة واطئة

قُدِّمَ عليها الشاي؛ وظلال شابين يمشيان جيئةً وذهاباً أمامه وهما يتحدثان أحاديث متقطعة. تناول الرجل العجوز كوبه بين يديه، وكان كوباً كبيراً بشكل غير معتاد وذا نموذج مختلف عن بقية الطقم وملوّن بألوان براقة. لقد تخلص من محتواه بتأنٍّ كبير وهو يحمله لوقتٍ طويل قريباً من ذقنه ووجهه ناحية المنزل، أمّا رفيقاه فإمّا تركا شايهما أو كانا غير مباليين بميزته؛ فدخّنا السيجار وهما يواصلان مشيهما. نظر أحدهما من حينٍ لآخر، وهو يسير، باهتمامٍ خاص إلى الرجل العجوز الذي، لم يكن مُدرِكاً للمراقبة، كان قد ثبّت نظره على الواجهة الحمراء الأنيقة لمسكنه.

كان المنزل الذي انتصب خلف المرج، مبنًى يستحق إمعاناً في النظر كهذا، وكان الشيء الأكثر تميزاً للنموذج الإنجليزي الخاص الذي حاولتُ أن أصفه. لقد انتصب على تلّةٍ واطئة فوق النهر، النهر كان نهر التايمز الذي يبعد أربعين ميلاً عن لندن. الواجهة الجملونية الطويلة المتكونة من الطوب الأحمر بمظهرها العام، والذي لعب الزمن والطقس عليها كل أنواع الخدع البصرية فقط ليجملاها ويشذّباها، قد تجلّتْ للمرج بمساحاته من اللبلاب، وبمداخنه العنقودية، ونوافذه المغطاة بكثافة بالنباتات المعترشة. كان للمنزل اسم وتأريخ. سيكون الرجل العجوز الذي يتناول شايه، مسروراً ليخبرك عن هذه الأمور: كيف بُني في عهد إدوارد السادس، كيف استضاف لليلةٍ واحدة إليزابيث العظيمة (التي بسطتْ شخصَها المهيب على سريرٍ ضخمٍ، فخمٍ، خشنٍ بشكلٍ رهيب والذي لا يزال يشكل الفخر الرئيسي لغرف النوم)، كيف انسحق وتشوه كثيراً أثناء حروب كروميل[1]، وتم إصلاحه بعد ذلك وتكبيره في عهد عودة الحكم الملكي؛ وأخيراً، بعد أن أُعيد بناؤه وتغيير شكله في

---

(1) كروميل: هو أوليفر كروميل، قائد عسكري وسياسي إنجليزي، قام بحرب أهلية قلب فيها نظام الحكم في إنجلترا من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري عام 1649، توفي عام 1658 بسبب الملاريا. (المترجمة)

القرن الثامن عشر، كيف انتقل إلى الحراسة الشديدة لمصرف أميركي داهية، والذي اشتراه أساساً (بسبب ظروفٍ من العسير جداً استعراضها) لأنه عُرض للبيع في صفقة رابحة: اشتراه وهو متبرّم كثيراً من بشاعته، ومن عتاقته، ومن عدم ملاءمته، والذي أصبح الآن في نهاية العشرين عاماً، يشعر بعاطفةٍ جماليةٍ حقيقيةٍ تجاهه بحيث عرف كل قممه، وكان سيخبرك بدقةٍ أين يجب عليك أن تقف لتراها متحدة، ويخبرك بدقةٍ عن الساعة التي تتساوى فيها ظلال بروزاته المختلفة التي تسقط برقةٍ شديدة على البناء القرميدي الدافئ المتهالك. إلى جانب ذلك، وكما ذكرتُ، يمكنه أن يحصي معظم المالكين والساكنين الذين تعاقبوا عليه والذين كان بعضهم من المشاهير؛ رغم ذلك فإنه يقوم بذلك بقناعةٍ غير قابلة للمناقشة بأن آخر مرحلة من مصيره لم تكن أقل شرفاً.

لم تكن واجهة المنزل التي تطلّ على ذلك الجانب من المرج الذي نحن معنيون به هي واجهة المدخل، فقد كان ذلك في جانبٍ آخر تماماً. سادت العزلة هنا بشكلٍ كبير، ولم يبدُ البساط العشبي الرحب الذي غطّى قمة التل المسطحة سوى امتدادٍ لعزلةٍ فخمة. ألقت أشجار البلوط والزان الهادئة الضخمة ظلاً كثيفاً كظلالِ ستائر مخملية؛ وكان المكان مؤثثاً، كالغرفة، بمقاعد ذات وسائد مع سجاد غني بالألوان، والكتب والأوراق ملقاة على العشب. كان النهر على بعد مسافة معينة حيث بدأت الأرض، أي المرج، بالانحدار، أو بمعنى أصح، انتهتْ. لكنه كان رغم ذلك مهبطاً ساحراً إلى الماء.

الرجل العجوز الذي كان جالساً عند مائدة الشاي، والذي وصل من أميركا قبل ثلاثين عاماً، قد جلب معه على رأس أمتعته، سحنته الأميركية؛ ولم يجلبها معه فقط، بل جعلها في المقدمة كي يستعيدها بثقةٍ تامة عندما يعود إلى بلده. حالياً، من الواضح أنه من غير المحتمل بأن يزحزح نفسه؛ إن رحلاته قد انتهت، وكان يرتاح الراحة التي تسبق الراحة الأبدية. لديه وجه نحيل حليق ذو قسماتٍ موزّعة بتناسق وتعبير ذي حدّة هادئة. كان واضحاً أنه وجهٌ لم تكن

فيه مظاهر الشكوى كبيرة، لذلك سيماء الحكمة القانعة ميزة فيه. بدا أن هذا الوجه يروي بأنه كان ناجحاً في الحياة، مع ذلك بدا أنه يروي أيضاً أن نجاحه هذا لم يكن استثنائياً وباعثاً للحسد، بل كان لديه الكثير من الإخفاقات.

كان لديه بالتأكيد خبرةٌ كبيرةٌ بالبشر، لكن هناك براءة ساذجة قليلاً في الابتسامة الباهتة التي داعَبَتْ وجنته الذاوية، الواسعة وأشعلت البهجةَ في نظرته الضاحكة عندما وضع أخيراً على مهلٍ وبعنايةٍ كوب الشاي الكبير الخاص به على المائدة. كان مرتدياً بعناية حلّةً سوداء مُنَظَّفة جيداً بالفرشاة، لكن لفَّ وشاحٌ ركبتيه، وقدماه ملفوفتان بخفٍّ سميكٍ مزخرف.

رقد كلبٌ جميل من نوعٍ كولي على العشب قرب كرسيه وهو يراقب وجه سيده بنفس الرقة تقريباً التي شعر بها السيد تجاه الهيئة الخارجية الجليلة الوقورة للمنزل؛ ورافق من حينٍ لآخر كلبٌ صغيرٌ منفوشٌ نشيطٌ من نوع التِّرْيَر السيدين الآخرَيْن.

كان أحدهما رجلاً مجبولاً جداً بشكل لافت للنظر، بعمر الخمسة وثلاثين عاماً، ذا وجه إنجليزي كإنجليزية الرجل العجوز الذي وصَفْتُه للتو. كان شيئاً آخر، وجه صبيح بشكلٍ لافت للنظر، نَضِر، جميل وواضح، وذو سمات قويمة وحازمة، عين رمادية مرحة، ولحية كستنائية مزينة بشكلٍ أنيق. كان لهذا الشخص حظ سعيد، ومظهر استثنائي بهي ـ مظهر المزاج السعيد المطعم بثقافة عالية ـ ستجعل أي مُشاهِد تقريباً يحسده كيفما اتفق. كان متعلاً ومتحفزاً وكأنّه قد عاد من نزهة طويلة؛ ارتدى قبعةً بيضاء بدت كبيرةً جداً عليه؛ عقد يديه الاثنتين وراء ظهره، كان قد جَعَّد في إحداهما ـ القبضة الكبيرة البيضاء المجبولة جيداً ـ زوجاً من القفازات المتسخة المصنوعة من جلد الكلاب.

كان رفيقه، الذي كان يقدِّر طول المرج الذي إلى جانبه، شخصاً ذا نموذج مختلف تماماً، والذي رغم أنه قد يثير فضولاً كبيراً، إلا أنه، ليس كالآخر، ما

كان ليشجعك لتتمنى أن تكون مكانه حتى ولو على نحوٍ أعمى. كان طويلاً نحيلاً، مُرَكَّباً بشكلٍ ركيك وواهن، له وجهٌ دميمٌ سقيمٌ مليحٌ ساحرٌ، مُزَوَّد، وليس مُزَيَّناً، بشاربٍ ولحيةٍ غير منتظمين. بدا ذكياً ومريضاً ـ وذلك مزيج من الصفات غير مناسب إطلاقاً. ارتدى سترة مخمليّة بنيّة اللون، ووضع يديه في جيوبه. كان هناك شيء ما في الطريقة التي أدّى بها ذلك بيَّنَتْ أن تلك العادة كانت متأصِّلةً فيه. لمشيته سمة التثاقل والتخبط، إذ لم تكن ساقاه قويتين. وكما ذكرتُ سابقاً، كلما مرّ بالرجل العجوز الجالس على كرسيه، يقوم بتثبيت نظره عليه؛ وعند تلك اللحظة كنتَ ستلاحظ بسهولة من خلال تشابه وجهيهما أنهما أبٌ وابنه. فَهِمَ الأب في النهاية نظرة ابنه ومنحه ابتسامة خفيفة تجاوباً معه وقال: (إن صحتي جيدة تماماً).

فسأل الابن: (هل شربتَ الشاي؟).

ـ (نعم، واستمتعتُ به).

ـ (هل أقدّم لكَ المزيد؟).

فكّر الرجل العجوز بهدوء: (حسناً، أعتقد بأنني سأنتظر وأرى). لديه في كلامه نبرةٌ أميركية.

تساءل الابن: (هل تشعر بالبرد؟).

ففرك الأب ساقيه ببطء: (حسناً، لا أعلم. لا يمكنني أن أقول شيئاً حتى أشعر به).

قال الرجل الأصغر سناً ضاحكاً: (ربما قد يشعر أحدٌ بدلاً عنك).

ـ (أوه، آمل أن يشعر أحدٌ بدلاً عني! هلّا شعرْتَ من أجلي يا لورد واربيرتون؟).

فقال الرجل الذي يخاطَب باللورد واربيرتون بسرعة: (أوه، نعم أنا ملزم بأن أقول لكَ بأنكَ تبدو مرتاحاً بشكلٍ رائع).

ـ (حسناً، أعتقد بأنني كذلك، في معظم النواحي).

نظر الرجل العجوز نحو الأسفل إلى وشاحه الأخضر وعدَّله فوق ركبتيه: (إن الحقيقة هي أنني كنتُ مرتاحاً لسنواتٍ عديدة جداً لدرجةٍ اعتقدتُ بأنه لأنني اعتدتُ على ذلك كثيراً أصبحتُ لا أشعر بذلك).

قال اللورد واربيرتون: (نعم، إنه ملل الراحة، فنحن فقط من يعلم متى نكون مرتاحين).

علَّقَ رفيقُه: (ما يصعقني هو أننا استثنائيون نوعاً ما).

دمدم اللورد واربيرتون: (أوه، نعم، فنحن استثنائيون بلا شك).

بعد ذلك، بقي الرجال الثلاثة صامتين لبرهة؛ وقف الرجلان الأصغر سناً وهما ينظران إلى الرجل الآخر الذي طلب للتو المزيد من الشاي. تابَعَ اللورد واربيرتون بينما ملأ رفيقُه كوب الرجل العجوز ثانيةً: (كان عليّ أن أفكر بأنكَ ستكون مستاءً من ذلك الوشاح).

صاح الرجل ذو السترة المخملية: (أوه، لا، عليه أن يحتمل الوشاح! لا تضع أفكاراً كهذه في رأسه).

قال الرجل العجوز ببساطة: (إنه يعود لزوجتي).

ـ (أوه، إذا كان لأسباب عاطفية....)، فأومأ اللورد واربيرتون معتذراً.

واصل الرجل العجوز: (أعتقد بأنه يجب عليّ أن أعطيه لها عندما تأتي).

ـ (هلّا امتنعتَ عن فعل شيء من هذا القبيل، أنت ستحتفظ به لتغطي ساقيك العتيقتين المسكينتين).

قال الرجل العجوز: (حسناً، لا يجب عليكَ أن تشتِمَ ساقَيّ، فأنا أعتقد بأنهما جيدتان كساقيك).

أجاب ابنه وهو يقدم له الشاي: (أوه، أنت حرٌّ تماماً بشتم ساقيّ).

ـ (حسناً، فنحن بطّتان عرجاوان؛ لا أعتقد بأن هناك فرقاً كبيراً).

ـ (أنا ممتنٌّ لكَ كثيراً لتسميتي بالبطة. كيف هو شايك؟)

ـ (حسناً، إنه حارٌّ قليلاً).

ـ (المفروض أن يكون ذلك ميزة).

همهم الرجل العجوز بلطفٍ: (آه، هناك الكثير من الميزات. إنه ممرضٌ جيد جداً يا لورد واربيرتون).

فسأل سيادتُه: (ألا تعوزه الرقة قليلاً؟)

ـ (أوه، لا، إنه ليس قليل الرقة ـ على اعتبار بأنه هو نفسه مريض. إنه ممرضٌ جيدٌ جداً ـ بالنسبة لممرضٍ مريض. أنا أطلق عليه ممرضي المريض لأنه هو نفسه مريض).

فصاح الشاب الدميم: (أوه، تعال يا أبي).

ـ (حسناً، أنت فعلاً كذلك؛ أتمنى لو لم تكن كذلك. لكنني أعتقد بأنكَ لا تحتمل ذلك).

قال الشاب: (قد أحاول، فهذه فكرة).

سأل والدُه: (هل مرضْتَ يوماً يا لورد واربيرتون؟).

فكّر اللورد واربيرتون لحظة: (نعم يا سيدي، مرة واحدة، في الخليج الفارسي).

قال الشاب الآخر: (إنه يستهزئ بك يا أبي، فتلك نوع من الدعابة).

أجاب الوالد بصدق: (حسناً، يبدو أن هناك العديد جداً من الدعابات الآن. أنت لا تبدو وكأنّك كنت مريضاً على أية حال يا لورد واربيرتون).

قال صديق اللورد واربيرتون: (إنه مريض بسبب الحياة؛ كان يقول لي ذلك تواً؛ إنه يعيشها بخوف).

سأل الرجلُ العجوز بشكلٍ جاد: (هل هذا صحيح يا سيدي؟).

ـ (لو كان صحيحاً، فابنك لم يمنحني العزاء. إنه شخص شرير لِأتَحدَّثَ إليه ـ إنه كلبي[1] أصولي. إنه لا يبدو بأنه يؤمن بأي شيء).

فقال الشخص المتهم بالكلبية: (ذلك نوع آخر من الدعابة).

فشرح والدُه للورد واربيرتون: (هذا لأن صحته ضعيفة جداً، إنها تؤثر على عقله وتشوّه الطريقة التي ينظر بها إلى الأشياء؛ يبدو بأنه يشعر وكأنّه لم يحظَ بفرصةٍ أبداً. لكن الأمر برمته نظري تقريباً كما تعلم، ولا يبدو بأنها تؤثر على روحه، فنادراً ما أراه تعيساً ـ مثلما هو الآن. فهو دائماً ما يبعث بي البهجة).

نظر الشاب الذي وُصف كذلك إلى اللورد واربيرتون وضحك.

ـ (هل ذلك إطراء حماسي أم اتهام بالطيش؟. هل تريد مني أن أطبّق نظرياتي يا أبي؟).

صاح اللورد واربيرتون: (يا إلهي، لا بدّ أننا سنرى بعض الأشياء الشاذة!).

قال الرجل العجوز: (آمل أن لا تستعمل تلك اللهجة).

ـ (إن لهجة واربيرتون أسوأ من لهجتي؛ فهو يدّعي بأنه ضجرٌ، وأنا لستُ ضجراً مطلقاً. أنا فقط أجد الحياة مثيرة جداً للاهتمام).

ـ (آه، مثيرة جداً للاهتمام. لا يجب عليكَ أن تُسَلِّم بأنها كذلك، تَعْلَمُ ذلك!).

فقال اللورد واربيرتون: (أنا لا أشعر بالملل أبداً عندما آتي إلى هنا. فالفرد يحظى بمحادثة مفيدة كهذه لدرجة غير اعتيادية).

سأل الرجلُ العجوز: (هل هذا نوع آخر من الدعابة؟ ليس لديك عذر

---

(1) كلبي: أي يؤمن بالفلسفة الكلبية. وتسمى أيضاً الفلسفة التشاؤمية، أسسها الفيلسوف أنتيستنيس في القرن الرابع قبل الميلاد. والكلبيون لا يثقون بوجود الخير في الطبيعة البشرية. (المترجمة)



لتكون ضجراً في أي مكان. عندما كنتُ في سنك لم أكن قد سمعتُ أبداً بشيءٍ كهذا).

ـ (لا بدّ أنك نضجتَ في وقتٍ متأخرٍ جداً).

ـ (كلا، لقد كبرتُ بسرعة جداً؛ كان ذلك هو السبب فحسب. عندما كنتُ بعمر العشرين عاماً، كنتُ قد نضجتُ فعلاً بشكلٍ هائجٍ جداً. كنتُ أعمل بكل قوتي وجهدي. ما كنتَ لتشعر بالملل لو كان لديك شيء تفعله. لكن جميعكم يا معشر الشباب عاطلون جداً، تفكرون كثيراً جداً بمسراتكم. أنتم صعبو الإرضاء جداً ومتثاقلون جداً ومترفون جداً).

صاح اللورد واربيرتون: (أوه، أنا أقول إنك لستَ الشخص المناسب لتتهم مخلوقاً بكونه مترفاً جداً!)

فسأل الرجلُ العجوز: (هل تقصد لأنني مصرفي؟).

ـ (نعم، لهذا السبب، لو أَعجَبَك. ولأن لديك موارد مالية لا محدودة لدرجة عالية، أليس كذلك؟).

دافَعَ الشاب الآخر بشكلٍ متسامح: (إنه ليس غنياً جداً. فقد تبرَّعَ بقدرٍ هائل من المال).

قال اللورد واربيرتون: (حسناً، أعتقد بأنها كانت في حوزته، وفي تلك الحالة، هل يمكن أن يوجد دليل أفضل من ذلك على الغنى؟ لا تَدَعْ فاعلَ خيرٍ مشهور يتحدث عن ولع المرء بالمسرات).

ـ (إن أبي مولع بالمسرات ـ بمسرات الناس الآخرين).

هزّ الرجل العجوز رأسه: (أنا لا أدَّعي بأنني تبرعتُ بأي شيء لأبعث السرور بمعاصريّ).

ـ (يا أبي العزيز، أنت متواضعٌ جداً!).

قال اللورد واربيرتون: (إنها نوعٌ من الدعابة يا سيدي).

ـ (أنتم يا معشر الشباب لديكم العديد جداً من الدعابات، وإن لم يكن لديكم دعابات فلن يتبقى لديكم شيء).

علَّقَ الشاب الدميم: (لحسن الحظ هناك دائماً المزيد من الدعابات).

ـ (أنا لا أصدق ذلك ـ أعتقد أن الأمور تزداد جدّيّة. أنتم يا معشر الشباب ستكتشفون ذلك).

ـ (الجدية المتزايدة للأمور إذن ـ تلك هي الفرصة الكبيرة للدعابات).

قال الرجل العجوز: (ستكون كلها دعابات مقيتة. فأنا مقتنع بأنه ستكون هناك تغييرات كبيرة؛ وليست كلها نحو الأحسن).

صرَّح اللورد واربيرتون: (أنا متفق معك تماماً يا سيدي. فأنا متأكدٌ جداً بأنه ستكون هناك تغييرات كبيرة، وأنه ستحدث كل الأنواع من الأمور الغريبة، لهذا السبب أجد صعوبة كبيرة جداً في تطبيق نصيحتك؛ فكما تعلم، لقد أخبرتني في اليوم السابق بأنه يجب عليّ أن «أستحوذ» على شيء ما. فالمرء يتردد في الاستحواذ على شيء قد يُخسَف به بشدة في اللحظة التالية).

قال رفيقه: (يجب عليك أن تستحوذ على امرأةٍ جميلة).

وأضاف من قبيل الشرح لوالده: (إنه يحاول بصعوبة الوقوع في الحب).

صاح اللورد واربيرتون: (إن النساء الجميلات قد يَكُنَّ متمايلات مع الهواء!).

أجاب الرجل العجوز: (كلا، كلا، سيكنّ رصينات. لن يكنّ متأثرات بالتغييرات الاجتماعية والسياسية التي أشرتُ لها تواً).

ـ (تقصد بأنهن لن يكنَّ منقرضات. حسناً، إذن سأضع يدي على واحدة منهن بأسرع ما يمكنني وأربطها حول عنقي كطوق نجاة).

قال الرجل العجوز: (إن السيدات سينقذننا ـ أقصد أن أفضل ما فيهن سينقذنا ـ لأنني أؤثِّر بينهن. تجمَّلْ لواحدةٍ مناسِبة وتزوجْها وستصبح حياتك ممتعة أكثر بكثير).

طبَع صمتٌ خاطفٌ ربما من جانب مستمعيه شعوراً بأصالة هذا الكلام، لأنه لم يَخْفَ لا على ابنه ولا على زائره بأنَّ تجربته الشخصية في الزواج لم تكن تجربة سعيدة. رغم ذلك، وعلى حد قوله، فهو له تأثير وتلك الكلمات قد يكون القصد منها اعترافٌ بخطإٍ شخصي؛ رغم أنه طبعاً لم يكن من الصواب بالنسبة لرفيقَيْه أن يشيرا بهذا الوضوح إلى أنّ السيدة المفضلة لديه لم تكن واحدة من أفضل النساء.

سأل اللورد واربيرتون: (لو تزوجتُ امرأةً مثيرةً للاهتمام فسأصبح مؤثِّراً: هل هذا هو ما تقصده؟ أنا لستُ متحمساً إطلاقاً بشأن الزواج، فابنك قد منحك فكرةً خاطئةً عني، لكن لا أحد يعلم ما قد تفعله بي امرأةٌ مثيرة للاهتمام).

قال صديقه: (أُحبُّ أن أرى فكرتك عن المرأة المثيرة للاهتمام).

ـ (يا رفيقي العزيز، ليس بإمكانك أن ترى أفكاراً ـ خاصةً أفكاراً لا مادية للغاية كأفكاري. لو تمكنتُ فقط أن أفهم نفسي ـ فسيكون ذلك خطوة عظيمةً مقدماً).

قال الرجل العجوز: (حسناً، قد تقع في حب أي واحدة تحلو لك، لكن يجب عليك ألّا تقع في حب ابنة أخت زوجتي).

انفجر ابنه ضاحكاً: (سيعتقد بأنك تقصد ذلك النوع من التحرش! يا أبي العزيز، لقد عشتَ مع الإنجليز لثلاثين عاماً والتقطتَّ العديد من الأشياء التي يقولونها، لكنك لم تتعلم أبداً الأشياء التي لا يقولونها!).

ردّ الرجل العجوز بكل هدوء: (أنا أقول ما يحلو لي).

قال اللورد واربيرتون: (لم أتشرف بمعرفة ابنة أخت زوجتكَ. أعتقد بأنها المرة الأولى التي سمعتُ بها عنها).

ـ (إنها ابنة أخت زوجتي، لقد أتت بها السيدة تاتشيت إلى إنجلترا).

ثم شرح السيد تاتشيت الشاب: (إن أمي، كما تعلم، تقضي فصل الشتاء

في أميركا، ونحن ننتظر عودتها. لقد كتبَتْ بأنها اكتشفَتْ ابنة أخت وأنها دعَتْها لتأتي معها).

قال اللورد واربيرتون: (فهمتُ ـ ذلك لطفٌ منها. هل السيدة الشابة مثيرة للاهتمام؟).

ـ (نحن بالكاد نعرف عنها شيئاً أكثر منك، فأمي لم تتطرق للتفاصيل. إنها تتواصل معنا بشكلٍ رئيسي بواسطة البرقيات، وبرقياتها مبهمة نوعاً ما. يقولون إن النساء لا تعرف كيف تكتبها، لكن أمي احترَفَتْ فن الاختصار بشكلٍ تام؛ «أميركا مملة، الطقس الحار مريع، عائدة إلى إنجلترا مع ابنة أختي، أول باخرة، كابينة محترمة». هذه هي نوع الرسائل التي نتلقاها منها ـ وتلك كانت آخر ما وصل. لكن كانت هناك واحدة أخرى قبل هذه والتي أعتقد بأنها تضمنَتْ أول تلميح عن ابنة الأخت: «غيَّرْتُ الفندق، سيّئ جداً. الموظف وقح، العنوان هنا. أخذتُ ابنة الأخت، ماتت السنة الماضية، أذهبُ إلى أوروبا، أختان، مستقلتان تماماً». نادراً ما نتوقف أبي وأنا متحيرين بسبب ذلك؛ فهي تقبل العديد جداً من التفسيرات).

قال الرجل العجوز: (هناك شيء واحد واضحٌ فيها، وهي أنها منحَتْ موظف الفندق عنواناً).

ـ (أنا لستُ متأكداً حتى من هذا، لأنه دفعها إلى تغيير المكان. لقد ظنّنّا في البداية أن الأخت المذكورة قد تكون أخت الموظف، لكن التلميح التالي لابنةِ أختٍ يبدو أنه يُثبت أن الإشارة هي إلى إحدى خالاتي. فكان هناك سؤال لمن تعود الأختان الأخريان. إنهما على الأرجح اثنتان من بنات خالتي الراحلة. لكن من هما «المستقلتان تماماً» وبأي معنى يُستعمل المصطلح؟

ـ إن هذه النقطة لم تُحسَم لحدّ الآن. هل تنطبق العبارة بشكلٍ خاص أكثر على السيدة الشابة التي تَبَنَّتْها أمي أم أنها تخص أختها على حدٍّ سواء؟

ـ وهل استعمِلَتْ بمعنى أخلاقي أم مالي؟ هل تعني بأنهما غنيتان، أم تعني

أنهما لا ترغبان بالخضوع لأي التزامات؟ أم هل هي تعني ببساطة بأنّ لهما عاداتهما الخاصة بهما؟).

أشار السيد تاتشيت: (أيّاً كان ما تعني، فمن المؤكد جداً بأنها تعني ذلك).

قال اللورد واربيرتون: (سترى بنفسك. متى ستصل السيدة تاتشيت؟).

ـ (نحن لا نعلم تماماً. حالما تتمكّن من إيجاد كابينة محترمة. ربما هي تنتظرها الآن. ثم إنها قد تكون حطَّتْ في إنجلترا الآن).

ـ (في هذه الحالة ستكون على الأرجح قد أرسَلَتْ لكم برقية).

قال الرجل العجوز: (إنها لا ترسل برقيةً أبداً عندما تنتظر منها ذلك ـ بل عندما لا تنتظر منها ذلك. فهي تحب أن تهبط عليّ فجأة. إنها تعتقد بأنها ستجدني أفعل شيئاً خاطئاً. هي لحدّ الآن لم تجدني كذلك أبداً، لكن لا يمكن ثنيها عن عزمها).

كان تخمين ابنها عن الموضوع مناسباً أكثر: (إن الاستقلالية التي تتحدث عنها هي حصتها من طبائع العائلة).

ـ (فمهما بلغت الشخصية المرموقة لتلك السيدتين الشابتين، فإن شخصيتها المرموقة تضاهي شخصيتهما. إنها تحب عمل أي شيء بنفسها ولا تؤمن بقدرة أي شخص يساعدها. إنها تظنني لستُ بذي فائدة أكثر من طابع بريدي بلا مادة لاصقة، وما كانت لتسامحني لو تجرأتُ على الذهاب إلى ليفربول لاستقبالها).

سأل اللورد واربيرتون: (هلّا أعلمْتَني على الأقل متى تصل قريبتك؟).

أجاب السيد تاتشيت: (فقط تحت الشرط الذي ذكَرْتُه ـ أن لا تقع في حبها!).

ـ (إن ذلك يصعقني بشدة. ألا تظنني صالحاً بما يكفي؟).

ـ (أنا أرى بأنكَ صالح جداً ـ لأنني لا أريد منها أن تتزوجك، فهي لن تأتي

هنا لتبحث عن زوج، على ما آمل. فالعديد جداً من السيدات الشابات يفعلن ذلك وكأنه لا يوجد رجال صالحون في الوطن. ثم إنها ربما تكون مخطوبة، فالفتيات الأمريكيات مخطوبات عادةً على ما أعتقد. علاوةً على ذلك، فأنا بعد كل شيء غير متأكد من أنك ستكون زوجاً رائعاً).

ردَّ ضيف السيد تاتشيت: (من المحتمل جداً أنها مخطوبة، فقد عرفتُ عدداً لا بأس به من الفتيات الأمريكيات وكُنَّ دائماً مخطوبات. لكن لا يمكنني أبداً أن أرى أن ذلك قد شكَّل فرقاً، حسب كلامي! أما فيما يخص كوني زوجاً صالحاً، فأنا غير متأكد من ذلك أيضاً. إذ ليس بوسع المرء سوى المحاولة!).

ابتسم الرجل العجوز الذي كان موقفه من الفكرة فكاهياً بشكلٍ عام: (حاوِلْ قدر ما يحلو لك، لكن لا تحاول مع ابنة أخت زوجتي).

قال اللورد واربيرتون بشكل فكاهي أكبر: (آه، حسناً، فربما في النهاية لن تستحق المحاولة!).

***

الفصل 2

بينما حدث تبادل المجاملات هذا بين الاثنين، تجوَّل رالف تاتشيت مبتعداً قليلاً بمشيته المتراخية المعتادة ويداه في جيوبه، وكلبه التِّرْيَر الصاخب عند كعبيه. كان وجهه ناحية المنزل لكن عينيه مثبتتان بتأملٍ على المرج ليرى امرأةً كانت قد ظهرتْ لتوها عند المدخل الواسع للحظاتٍ قبل أن ينتبه لها. لقد لفت انتباهه لها تصرُّف كلبه الذي وثب فجأة إلى الأمام باندفاعاتٍ يسيرة من نباحٍ صاخب كان يُفهَم منه، رغم ذلك، على أنه علامة ترحيب أكثر من أنه علامة تحدٍّ. الفتاة المعنيّة هي سيدة شابة، بدا على الفور أنها فهمتْ ترحيب الوحش الصغير. تقدَّمَ بسرعةٍ كبيرة ووقف عند قدميها وهو ينظر نحوها وينبح بشدة. عندئذٍ، وبدون تردد، انحنَتْ ومسكَتْ به بيديها حاملةً إيّاه وجهاً لوجه بينما واصل ارتجاجه السريع. لدى سيده الآن الوقت ليلاحقه وليرى صديقة بانشي الجديدة التي كانت فتاةً طويلة القامة بثوبٍ أسود اللون والتي بدت من النظرة الأولى جميلة. كانت حاسرة الرأس وكأنّها مقيمة بالمنزل ـ وهي حقيقةٌ سبَّبَتْ إرباكاً لابن سيدها مُدرِكةً لتلك المناعة ضد الضيوف والتي اعتبِرَتْ ضرورية لبعض الوقت بسبب اعتلال صحة الأخير.

في تلك الأثناء، كان السيدان الآخران قد لاحظا أيضاً القادمة الجديد.
تساءل السيد تاتشيت: (ويحي، من هي تلك المرأة الغريبة؟).

علَّقَ اللورد واربيرتون: (ربما هي ابنة أخت السيدة تاتشيت ـ السيدة الشابة المستقلة. أعتقد، من الطريقة التي تمسك بها الكلب، بأنها يجب أن تكون هي).

كان كلب الكولي أيضاً قد سمح لانتباهه بأن ينحرف وهرول باتجاه السيدة الشابة التي عند المدخل وهو يحرك ذيله ببطء عندما ذهب.

دمدم الرجل العجوز: (لكن أين زوجتي؟ أعتقد بأن السيدة الشابة قد تركَتْها في مكانٍ ما، فهذا جزءٌ من الاستقلالية).

تحدثت الفتاة إلى رالف وهي تبتسم بينما كانت لا تزال تحمل كلب التِّرْيَر: (هل هذا هو كلبك الصغير يا سيدي؟).

ـ (كان لي قبل لحظة، لكنكِ فجأةً اكتسَبْتِ مظهراً لافتاً للنظر بملكيته).

تساءلت الفتاة: (ألا يمكننا أن نتشاركه؟ إنه ساحرٌ صغير).

نظر رالف إليها لحظةً، كانت جميلةً بشكلٍ غير متوقع. ثم أجاب: (عموماً يمكنكِ امتلاكه).

بدا أن السيدة الشابة تملك ثقةً كبيرةً في نفسها وفي الآخرين، لكن هذا الكرم المفاجئ جعلها تحمّر خجلاً. فأوضَحَتْ وهي تُنزِل الكلب: (يجب أن أخبركَ بأنني على الأرجح ابنة خالتكَ)، وأضافت بسرعة عندما قفز إليها كلب الكولي: (وهذه ابنة خالة أخرى!).

صاح الرجل ضاحكاً: (على الأرجح؟ لقد اعتقدتُ أن الأمر كان محسوماً تماماً. هل وصلتِ مع أمي؟)

ـ (نعم، منذ نصف ساعة).

ـ (وهل أودَعَتْكِ هنا وغادرتْ ثانيةً؟).

ـ (كلا، لقد ذهبَتْ مباشرةً إلى غرفتها وأخبرَتْني أنه في حال رأيتُكَ عليّ أن أقول لكَ بأنه يجب عليكَ أن تأتي إليها هناك في تمام الثامنة إلا ربعاً).

نظر الشاب إلى ساعته: (أشكركِ كثيراً جداً، سأكون دقيقاً في الموعد). ثم نظر إلى ابنة خالته قائلاً: (مرحباً بكِ هنا، أنا مسرورٌ برؤيتكِ).

كانت تنظر إلى كل شيء بنظرةٍ تدل على فطنة واضحة ـ إلى رفيقها، إلى

الكلبين، إلى الرجلين اللذين تحت الأشجار، إلى المنظر الجميل الذي أحاط بها: (لم أكن قد رأيتُ أبداً شيئاً بهذا الجمال كهذا المكان. لقد طفتُ في جميع أرجاء المنزل. إنه ساحرٌ جداً).

ـ (أنا آسف بأنكِ انتظَرْتِ هنا طويلاً بدون معرفتنا بذلك).

ـ (أخبرَتْني والدتك بأن الناس في إنجلترا يصلون من السفر بهدوءٍ شديد، لذا اعتقدتُ بأن الأمر على ما يرام. هل أحد أولئك الرجلين هو والدك؟).

قال رالف: (نعم، الرجل العجوز، الرجل الجالس).

فضحكت الفتاة: (أنا لا أعتقد بأنه الرجل الآخر. من هو الرجل الآخر؟).

ـ (إنه صديقنا ـ اللورد واربيرتون).

ـ (أوه، لقد وددتُ أن يكون هناك لورد كما في الروايات تماماً!). ثم صاحت فجأةً وهي تنحني وتلتقط الكلب الصغير ثانيةً: (أوه، أيها المخلوق الصغير!).

بقيَتْ واقفةً حيث التقيا، ولم تقترح السير أو التحدث إلى السيد تاتشيت، وبينما هي لابثة قرب العتبة، رشيقةً وفاتنة، تساءل محدثها فيما إذا كانت تتوقع أن يأتي الرجل العجوز إليها ويقدم لها احتراماته، فالفتيات الأمريكيات معتادات على القدر الكبير من التبجيل، وكان قد تم التلميح إلى أن هذه الفتاة شخصية مرموقة. في الواقع، لقد استطاع رالف رؤية ذلك في وجهها. مع ذلك، تجرأ بالسؤال: (ألن تأتي وتتعرّفي إلى والدي؟ إنه كبيرٌ في السن ومُقعَد ـ إنه لا يغادر مقعده).

صاحت الفتاة وهي تتقدم إلى الأمام على الفور: (آه، مسكين، أنا آسفة جداً! فقد أخذتُ انطباعاً من والدتكَ بأنه كان نوعاً ما ـ نوعاً ما نشيطاً بشدة).

كان رالف تاتشيت صامتاً لبرهة ثم قال: (إنها لم تره لمدة عام).

ـ (حسناً، لديه مكانٌ جميلٌ يجلس فيه. تعال معي يا كلب الهوند الصغير).

قال الشاب وهو ينظر نظرةً جانبية لمن كانت بجواره: (إنه مكانٌ عتيقٌ عزيز).

فسألَتْ وقد توجَّه انتباهها ثانيةً نحو كلب التِّرْيَر: (ما اسمه؟)

ـ (اسم أبي؟).

قالت السيدة الشابة بحماس: (نعم، لكن لا تخبره بأنني سألتُكَ).

وصلا في هذا الوقت إلى حيث كان يجلس السيد تاتشيت العجوز، فنهض على مهلٍ من مقعده ليقدّم نفسه.

قال رالف: (لقد وصلتْ أمي، وهذه هي الآنسة آرتشر).

وضع الرجل العجوز يديه الاثنتين على كتفيها ونظر إليها للحظةٍ بلطفٍ بالغ ومن ثَمَّ قبَّلها بشجاعة: (إنه لسرورٌ عظيم لي أن أراك هنا، لكني أود لو كنتِ قد منحْتِنا فرصةً لاستقبالكِ).

قالت الفتاة: (أوه، لقد تم استقبالنا. فقد كان تقريباً هناك الكثير جداً من الخدم في القاعة، وكانت هناك امرأةٌ عجوز لطيفة عند البوابة).

ـ (يمكننا عمل أفضل من ذلك ـ لو كان لدينا إشعار!). ووقف الرجل العجوز هناك وهو يبتسم، يفرك يديه، ويهزّ لها رأسه ببطء: (لكن السيدة تاتشيت لا تحب الاستقبال).

ـ (لقد ذهبَتْ مباشرةً إلى غرفتها).

ـ (نعم، وأقفلَتْ على نفسها. إنها تفعل هذا دائماً. حسناً، أعتقد بأنني سأراها في الأسبوع القادم). واستعاد زوج السيدة تاتشيت على مهلٍ وضعيته السابقة.

قالت الآنسة آرتشر: (قبل هذا)، وأضافت وهي تستدير نحو رالف باسمةً: (ستنزل للعشاء ـ في الساعة الثامنة. لا تنسَ الساعة الثامنة إلا رُبعاً).

ـ (ماذا سيحدث في الثامنة إلا رُبعاً؟).

قال رالف: (سأرى أمي).

فعلَّق الرجل العجوز: (آه، ولدٌ محظوظ!)، وراقَبَ ابنة أخت زوجته وقال: (عليكِ أن تجلسي، ـ عليكِ أن تتناولي بعض الشاي).

أجابت هذه السيدة الشابة: (لقد قدموا لي الشاي في غرفتي لحظة وصولي هناك). وأضافت وهي تثبت نظرها على مضيفها الكريم: (أنا آسفة بأنك متوعك الصحة).

ـ (أوه، أنا رجلٌ عجوزٌ يا عزيزتي. لقد حان وقتي لأصبح عجوزاً، لكني سأتحسن لاستقدامكِ إلى هنا). كانت تنظر حولها ثانيةً ـ إلى المرج، إلى الأشجار الضخمة، نهر التايمز الفضّي الكثير القصب، المنزل العتيق الجميل.

وبينما هي مندمجة في هذه النظرة العامة، جعلَتْ فيها حصةً لرفاقها؛ نظرةً واسعة الإدراك، مفهومة بسهولة، لشابةٍ ذكية ونبيهة بوضوح. جلسَتْ وأبعدَتِ الكلب الصغير، وكانت يداها البيضاوان اللتان في حضنها مطويتين فوق ثوبها الأسود؛ كان رأسها منتصباً، عينها براقة، التفَّ قوامُها اللدن بسهولة بهذه الطريقة وتلك، تمايُلاً مع الرشاقة التي لفتَتْ بها الأنظار بوضوح. كانت انطباعاتها متعددة، وقد انعكسَتْ جميعها بابتسامةٍ صافيةٍ ثابتة: (لم أرَ شيئاً كهذا بهذا الجمال أبداً).

قال السيد تاتشيت: (إنه يبدو جميلاً جداً). ثم أضاف بتهذيبٍ وليس مطلقاً بمزاحٍ فظّ، وبإدراك أن سنّه المتقدم قد سمح له بقول أشياء كهذه ـ حتى لأشخاصٍ شباب قد يجفلون منها: (أعرف الطريقة التي سَحَرَكِ بها. لقد مررتُ بكل ذلك. لكنكِ جميلةٌ جداً).

إن درجة الإجفال التي شعرَتْ به هذه الشابة ليست بحاجة إلى أن تُقاس بدقة، فقد نهضَتْ على الفور، رغم ذلك، والحمرة تعلو وجهها والتي لم تكن إنكاراً لذلك. فأجابت بضحكة حادة: (أوه، نعم، فأنا محبوبةٌ طبعاً! كم هو عمر منزلكَ؟ هل هو من عصر الملكة إليزابيث؟).

قال رالف تاتشيت: (إنه من العصر المبكر لآل ثيودور). فاستدارت نحوه وهي تراقب وجهه: (العصر المبكر لآل ثيودور؟ كم هو شيء رائعٌ جداً! وأعتقد بأن هناك الكثير غيره).

ـ (هناك الكثير من المنازل أفضل بكثير).

احتجَّ الرجل العجوز: (لا تقل ذلك يا بنيّ، فلا يوجد شيء أفضل من هذا).

قال اللورد واربيرتون الذي لم يكن قد تكلم لحدّ تلك اللحظة لكنه ظل مُلقياً نظرة اهتمام على الآنسة آرتشر: (كنتُ قد حصلتُ على منزلٍ جيد. أعتقد بأنه أفضل نوعاً ما من بعض النواحي). أمالَ نفسه قليلاً وهو يبتسم، فقد كان لديه أسلوب ممتاز مع النساء. فقدَّرَتِ الفتاةُ ذلك على الفور، فهي لم تكن قد نسيَتْ بأن ذلك كان اللورد واربيرتون. فأضاف: (أودُّ كثيراً جداً أن أُريكِ إيّاه).

هتف الرجل العجوز: (لا تصدقيه، لا تَرَيْه! إنه ثكنة قديمة بائسة ـ لا يجب أن يُقارَن بهذا).

قالت الفتاة وهي تبتسم للورد واربيرتون: (لا أدري ـ لا أستطيع أن أحكم).

لم يهتم رالف تاتشيت بهذا النقاش بتاتاً، فنهض ويداه في جيوبه وهو ينظر بعظمة كَمَن يودُّ أن يجدد حديثه مع ابنة خالته المُكتَشَفة حديثاً. فتساءل من قبيل الاستهلال: (هل أنت مولعة جداً بالكلاب؟). لقد بدا أنه يدرك بأن تلك كانت بدايةً خرقاء لرجلٍ حذق.

ـ (مولعة جداً بها في الحقيقة).

واصَلَ حديثه مع ذلك بشكلٍ أخرق: (يجب عليكِ أن تحتفظي بكلب التّرْيَر).

ـ (سأحتفظ به عندما أكون هنا، بسرور).

ـ (آمل أن يكون ذلك لمدةٍ طويلة).

ـ (أنتَ لطيفٌ جداً. لا أعرف ذلك، فخالتي هي من يجب أن يحسم ذلك).

نظر رالف إلى ساعته ثانيةً: (سأحسمه معها ـ في الثامنة إلا رُبعاً).

قالت الفتاة: (أنا مسرورةٌ بوجودي هنا عموماً).

ـ (أنا لا أصدق بأنكِ تسمحين للأمور أن تُحسَم لكِ).

ـ (أوه، نعم، لو حُسِمَتْ مثلما أرغب).

قال رالف: (سأحسم هذا مثلما أنا أرغب. فمما لا تفسير له أنه لا يجب علينا أن نعرفكِ).

ـ (كنتُ هناك ـ عليكَ فقط أن تأتي وتراني).

ـ (هناك؟ أين تقصدين؟).

ـ (في الولايات المتحدة: في نيويورك وألباني وأماكن أميركية أخرى).

ـ (لقد كنتُ هناك ـ في طول البلاد وعرضها، لكني لم أركِ أبداً. فلا أستطيع أن أفهم ذلك).

فتلعثمَتِ الآنسة آرتشر تماماً: (ذلك كان بسبب خلافٍ ما، بين والدتكَ وبين أبي بعد وفاة والدتي الذي حدث عندما كنتُ طفلة. نتيجةً لذلك، لم نتوقع أبداً أن نراكم).

فصاح الشاب: (آه، لكنني غير محيط بكل شجارات والدتي ـ لا سمح اللّٰه!). فواصَلَ الكلام بشكل أكثر وقاراً: (هل فقدتِ أباكِ مؤخراً؟).

ـ (نعم، منذ أكثر من عام. بعد ذلك، كانت خالتي كريمة جداً معي. فقد أتت لتراني واقترَحَتْ بأنه يجب عليّ أن آتي معها إلى أوروبا).

قال رالف: (فهمت. لقد تبنّتْكِ).

فحدَّقَتِ الفتاة وعاد لها احمرار الوجه مع نظرة ألم مؤقتة أضفَتْ على محدثها ذعراً وقالت: (تبنَّتْني؟).

لقد أخفق في تقدير تأثير كلماته. فسارَ فوراً اللورد واربيرتون، الذي ظهر بأنه كان راغباً على الدوام بمشهدٍ أقرب للآنسة آرتشر، باتجاه ابنَيّ الخالة. وعندما فعل ذلك ثبَّتَتْ نظراتَها الأوسع عليه.

(أوه، لا، إنها لم تتبنّني، فأنا لستُ مرشحة للتبنّي).

دمدم رالف: (ألتمسُ ألف عذر، فقد قصدتُ ـ لقد قصدتُ....). بالكاد عرف ما قَصَدَ.

ـ (لقد قصَدتَّ بأنها استحوذَتْ عليّ. نعم، إنها تحب الاستحواذ على الناس. كانت كريمةً جداً معي، لكنني)، فأضافت بحماسة جليّة تؤكد رغبةً في عدم التحفّظ: (فخورةٌ بحريتي).

صرخ الرجل العجوز من على كرسيه: (هل تتحدثين عن السيدة تاتشيت؟ تعالي هنا يا عزيزتي وحدثيني عنها، فأنا ممتنٌّ دائماً للمعلومات).

تلعثمت الفتاة ثانيةً وهي تبتسم، وأجابت: (إنها حقاً خيّرة جداً). بعد ذلك، ذهبَتْ لزوج خالتها الذي أُثير طربُه بكلماتها.

تُرِكَ اللورد واربيرتون واقفاً مع رالف تاتشيت الذي قال له بعزم: (لقد رغبْتَ قبل قليل أن ترى فكرتي عن امرأةٍ مثيرةٍ للاهتمام. هذه هي!).

***

الفصل 3

السيدةُ تاتشيت ذات طباع غريبةٍ كثيرة بالتأكيد، ومن هذه الطباع تصرُّفها بالعودة إلى منزل زوجها بعد أشهرٍ عديدة، والذي كان مثالاً ملحوظاً. كانت لها طريقتها الخاصة بفعل كل ما فَعَلَتْهُ، وهذا أبسط وصفٍ لشخصيةٍ نادراً ما تنجح بمنح انطباعٍ عن الذوق حتى وإن كانت بدون حركات تحررية مطلقاً. قد تفعل السيدة تاتشيت القدر الكبير من أعمال البِرّ، لكنها لم تكن مسرورة أبداً. إن عادتها هذه الخاصة بها والتي كانت مولعة بها، لم تكن هجومية بحد ذاتها ـ بل كانت فقط مميزة عن عادات الآخرين بشكلٍ واضح. حِدّة تصرفاتها واضحة للغاية، بحيث يكون لها بالنسبة للأشخاص الحساسين أحياناً تأثير السكين. ظهرت هذه الرقة الشديدة في سلوكها خلال الساعات الأولى لعودتها من أميركا تحت ظروفٍ بدا فيها أن أول ما ستفعله هو تبادل التحيات مع زوجها وابنها. دائماً ما تقوم السيدة تاتشيت في ظروفٍ كهذه ولأسبابٍ اعتبَرَتْها فاضلةً، باللجوء إلى عزلةٍ غير قابلةٍ للاختراق، مؤجِّلَةً المراسم العاطفية أكثر حتى تكون قد أصلحَتْ بشكلٍ كامل عيب ثوبها الذي لم تمتلك أدنى سبب ليكون ذا أهمية كبيرة، لأنها لم تكن تكترث لا للجمال ولا للغرور. كانت امرأةً عجوزاً ذات وجه عادي، بلا جمال وبلا أي حُسْنٍ كبير، لكن ذات احترام بالغ لدوافعها الشخصية. كانت مستعدةً عادةً لتُفَسِّر ذلك ـ عندما يُطلَب منها التفسير كعمل من أعمال المعروف، وفي حالةٍ كهذه يكون مختلفاً كلياً عن التفسيرات التي تُعزى إليها.

كانت واقعياً منفصلة عن زوجها، لكنها تتظاهر بأنها تفهم أن لا شيء

غير اعتيادي في الموضوع. لقد اتضح في مرحلة مبكرة من ارتباطهما بأنه لا يجب عليهما أبداً أن يطلبا نفس الشيء في الوقت نفسه، وقد شجعَتْها هذه الظاهرة على أن تنقذ هذا الاختلاف من الهبوط إلى المستوى المبتذل. لقد فعلَتْ ما بوسعها لتحققه قانونياً ـ وهو الجانب الأكثر رفعةً، بالذهاب للعيش في فلورنسا حيث اشترت بيتاً وأثبتَتْ نفسها، وبترك زوجها يعتني بالفرع الإنجليزي لمصرفه. هذا التدبير أسعدها كثيراً، فقد كان حازماً بشكلٍ مناسب جداً، وقد صعق زوجَها كضوءٍ في حيٍّ ضبابي في لندن حيث كانت هذه أحياناً الحقيقة الأكثر وضوحاً التي عرفها، لكنه كان سيفضِّل لو يكون لتلك الأمور غير الطبيعية غموضاً أكبر. فالموافقة على عدم الموافقة قد كلفه جهداً. كان مستعداً لأن يوافق على كل شيء تقريباً عدا هذا، ولم يرَ سبباً لتكون الموافقة أو الرفض مترابطين بهذا الشكل الرهيب. لم تنغمس السيدة تاتشيت لا في حسراتٍ ولا تكهنات، وتأتي عادةً مرة واحدة في السنة لتقضي شهراً مع زوجها، وهي مدةٌ تعاني خلالها على ما يبدو لتقنعه بأنها تبنَّتِ المنهج الصائب.

لم تكن مُحِبَّةً لنمط الحياة الإنجليزي، ولديها ثلاثة أو أربعة أسباب لذلك، والتي تشير إليها باستمرار، تَعَلَّقَتْ بأمور ثانوية عن ذلك النمط العتيق، لكن بالنسبة للسيدة تاتشيت، كانت مبرِّراً بشكلٍ كافٍ لعدم الإقامة. لم تستسغْ صلصة الخبز التي، على حد قولها، بدت كاللبخة وطعمها كالصابون؛ واعترضَتْ على استهلاك الخدم للبيرة؛ وأيَّدَتْ أن المرأة البريطانية التي تغسل الملابس لم تكن متمكنة من عملها (كانت السيدة تاتشيت دقيقةً جداً بشأن مظهر ملابسها). كانت تردُّ زيارةً لبلدها في فتراتٍ ثابتة، لكن هذه الزيارة الخيرة كانت أطول من أيٍّ من سابقاتها.

كانت قد استحوذَتْ على ابنة أختها ـ هناك شكٌّ ضئيل بشأن ذلك. في أحد المساءات الماطرة، قبل أربعة أشهر من سرد حدوثها، كانت هذه السيدة

الشابة جالسة بمفردها مع كتاب. إن نقُل إنها منشغلة جداً، فمعناه أن وحدتها لم تضغط عليها لأنّ حبها للمعرفة له طبيعة خصبة وخيالها كان قوياً. رغم ذلك، كانت هناك في ذلك الوقت حاجة لحدثٍ جديد في وضعها والذي فعل وصولُ زائرةٍ غير متوقعة الكثيرَ لإصلاحه. لم يُعْلَن عن وصول الزائرة، بل سمعَتْها الفتاة تتجول في الغرفة المجاورة. كان المنزل منزلاً عتيقاً في ألباني، منزلاً كبيراً مزدوجاً مربع الشكل، مع إعلان بالبيع على نوافذ إحدى الغرف السفلية. كان هناك مدخلان، أحدهما مهجور ولمدة طويلة لكنه لم يُلْغَ أبداً. كانا متماثلَيْن تماماً ـ أبواب بيضاء كبيرة ذات إطار مقوّس ونوافذ عريضة على جانبي الباب، تجثم فوق انحناءاتٍ صغيرة من الحجر الأحمر الذي انحدر على الجانبين إلى الرصيف القرميدي للشارع. شكّل المنزلان معاً مسكناً واحداً، تمت إزالة الحائط المشترك ودَمْج الغرف. تلك الغرف التي فوق السلّم كثيرة للغاية وقد طُليت أرجاؤها على نحوٍ متماثل تماماً بلونٍ أبيض مصفرّ ازداد شحوباً مع الزمن. هناك في الطابق الثالث نوع من الرواق المقنطر يصل جانبي المنزل وقد اعتادت إيزابيل وأخواتها في طفولتهن على تسميته نفقاً والذي رغم أنه كان قصيراً ومُضاءً جيداً، إلا أنه بدا دائماً للفتاة غريباً ومهجوراً، خاصةً في مساءات الشتاء. لقد قضت طفولتها في المنزل في فتراتٍ مختلفة، في تلك الأيام التي عاشت فيها جدتها لأبيها. بعد ذلك، كان هناك غياب لعشر سنوات أعقبته عودة إلى ألباني قبل وفاة والدها. كانت جدتها لأبيها، السيدة آرتشر العجوز، قد أظهرَتْ حسن ضيافة كبير في الفترة المبكرة، خاصةً ضمن نطاق العائلة، وطالما قضت الفتيات الصغيرات أسابيع تحت سقفه ـ كان لدى إيزابيل عنها أسعد الذكريات. كان نمط الحياة مختلفاً عن النمط الذي في بيتها، أكبر، أكثر وفرة، وعملياً مبتهجاً أكثر. كان نظام المنزل غير واضح بشكلٍ يثير العجب، وفرصة الإصغاء إلى حديث إحدى عجائزه (والذي كان بالنسبة إيزابيل متعة لا تُقدّر بثمن) لا نهاية لها تقريباً. كان هناك غدوٌّ ورواح مستمرّان، إذ أظهر أبناء وبنات جدتها لأبيها وأطفالهم

أن لهم حق التمتع بإقامة دعوات الحضور والبقاء بحيث بدا المنزل إلى حدٍّ ما بمظهر حانة قروية صاخبة تُدار من قبل سيدة عجوز تندب كثيراً ولا تدفع فاتورة واحدة. لم تعرف إيزابيل طبعاً شيئاً عن الفواتير، لكن حتى وهي طفلة كانت ترى بيت جدتها لأبيها مشحوناً بالعاطفة. هناك في الجزء الخلفي منه شرفة مسقوفة فيها أرجوحة كانت مصدر متعة هزازة، ووراء هذه حديقة طويلة تنحدر نحو الاسطبل وتحوي أشجار خوخ حميمةٍ بشكلٍ لا يصَدَّق. كانت إيزابيل تبقى مع جدتها لأبيها في مواسم مختلفة، لكن لجميع زياراتها طعم الخوخ بطريقةٍ ما. كان هناك على الجانب الآخر عبر الشارع منزل عتيق يسمى المنزل الهولندي ـ وهو بناءٌ خاص يعود تاريخه إلى عهد المستعمرات الأولى، تكوَّن من القرميد المطلي باللون الأصفر والمتوَّج بجملون كان قد خُصِّصَ للغرباء، مُسنَد بأوتاد خشبية متداعية ويواجه الشارع من الجانب. كانت تشغله مدرسة ابتدائية مختلطة للأطفال أُديرَتْ، أو بالأحرى تُرِكَت تُدار من تلقاء نفسها، من قبل سيدة تعبِّر عن عواطفها جهراً. الذكرى الرئيسية لإيزابيل عنها هي أن شعرها كان مثبتاً بأمشاط غريبة خاصة بالنوم عند الأصداغ، وبأنها كانت أرملة شخص ذي مكانة مهمة. كان قد سُمح للفتاة الصغيرة بإرساء أساس المعرفة في هذه المؤسسة، لكن عندما أمضت يوماً واحداً فيها احتجَّت ضد قوانينها، فسُمِح لها بالبقاء في البيت حيث اعتادت في أيام شهر أيلول، عندما تكون نوافذ المنزل الهولندي مفتوحة، أن تسمع همهمة أصوات طفولية تردد جدول الضرب ـ وهو حدثٌ اختلط فيه الابتهاج بالحرية وألم الإقصاء بشكلٍ لا يمكن تمييزه. إن أساس معرفتها كان قد أُرسِيَ فعلاً بالبطالة التي قضَتْها في بيت جدتها لأبيها حيث كان لها حرية استعمال مكتبةٍ مليئةٍ بالكتب المصورة والتي اعتادت تسلقها على كرسي لإنزالها، لأن معظم سكان المنزل الآخرين لم يكونوا أناساً قارئين. عندما تجد كتاباً على ذوقها ـ كانت تهتدي في الاختيار بشكلٍ رئيسي بصور الكتب ـ تحمله إلى مساحة ضيقة خفية تقع خلف المكتبة والتي كانت تُسمّى بشكل تقليدي

ولسببٍ لا يعرفه أحد، بالمكتب. لمن كان يعود المكتب، وفي أية فترةٍ قد ازدهر، لم تعرف أبداً، إذ كان يكفيها بأنه تضمن صدًى ورائحةً عتيقة مريحة، وأنها كانت حجرة مخزية بسبب قطع الأثاث القديمة التي لم تكن عيوبها دائماً ظاهرة للعيان (بحيث بدا أن لقب مخزية لا تستحقه وجعلها ضحية للظلم)، والتي، كعادة الأطفال، أقامت معها علاقات بشرية تقريباً، ودرامية بالتأكيد. كان هناك على وجه الخصوص أريكة قديمة من وبر الجمل والتي أفضتُ إليها بمائة همٍّ طفولي. كان المكان مديناً بالكثير من كآبته الغامضة إلى حقيقة أنه يتم الدخول إليه مباشرةً من الباب الثاني للمنزل، الباب الذي كان مُداناً ومحكم الإغلاق بمزاليج، والذي وجَدَتْ فتاةٌ صغيرةٌ نحيلة أنه من المستحيل فتحه بمفردها، فعرفَتْ أن ذلك الباب الصامت الذي لا يتحرك يُفضي إلى الشارع. لو لم تكن النوافذ التي على جانبيّ الباب مغطاة بورقٍ أخضر لتمكَّنَتْ من النظر خارجاً، إلى المنحدر البني الصغير والرصيف القرميدي المتداعي تماماً. لكن لم يكن لديها الرغبة بالنظر إلى الخارج لأن هذا سيتعارض مع نظريتها بأن هناك مكاناً غريباً خفي في الجانب الآخر ـ مكانٌ أصبح لخيالِ طفلةٍ وفقاً لمزاجه المختلف، منطقة ممتعة ومرعبة.

كانت إيزابيل لا تزال جالسة في «المكتب» في ذلك المساء الكئيب من بدايات الربيع والذي ذكَرْتُهُ تواً. في هذا الوقت كان لديها المنزل برمته لتختار منه، وكانت الغرفة التي اختارَتْها هي الأكثر كآبة من حيث المنظر. لم تفتح أبداً الباب المقفل، ولا أزالت الورق الأخضر (الذي تم تجديده من قبل أيادي أخرى) من على نوافذه الجانبية، إذ لم تتأكّد بنفسها من أن الشارع العام يقع وراءه. تساقطَتْ أمطارٌ فجّة، باردة بقوة. كان فصل الربيع حقاً يُغري بالعزلة ـ وقد بدا إغراءً ساخراً مخادعاً. ورغم ذلك، أبدت إيزابيل أقل اهتمام ممكن لغدر الطبيعة. فثبَّتَتِ اهتمامها على كتبها وحاولَتْ إصلاح ذهنها. إذ خطر لها مؤخراً أن ذهنها على قدرٍ كبير من الشرود وأنها قد استنفَدَتِ الكثير من المهارة في تدريبه على الخطوة العسكرية وتعليمه ليتقدم، ليتوقف، ليتراجع،

ليؤدي حتى أكثر المناورات تعقيداً بأمرٍ واحد. كانت قد مَنَحَتْهُ للتو أوامر بالسير وكان يخطو بتثاقل فوق سهول رملية عن تاريخ الفكر الألماني. فجأة، شعرَتْ بخطوةٍ مختلفةٍ جداً عن خطوتها الذهنية، فأصغَتْ قليلاً وعرفَتْ بأن أحداً ما كان يتحرك في المكتبة المتصلة بالمكتب، وقد أدهشَها ذلك أول الأمر كمن يتوقع زيارةً من شخصٍ ما ثم يتبيّن فوراً بعد ذلك أنها خطوات امرأةٍ وغريبةٍ ـ وأنه لم يكن زائرها المتوقع. كان لتلك الخطوات طبيعة فضولية، تجريبية، والتي أوحت إلى أنها ما كانت لتتوقف عند عتبة المكتب. في الحقيقة، كان مدخل هذه المساحة الضيقة تحتله حالياً سيدة توقَفَتْ هناك ونظرَتْ بصرامةٍ جداً إلى بطلتنا. كانت امرأةً عجوزاً، ترتدي معطفاً كاملاً ضد المطر، لديها وجه مستدق نوعاً ما. فبدَأَتِ الكلام: (أوه، هل هذا هو المكان الذي تجلسين فيه عادةً؟)، ونظرَتْ حولها إلى الكراسي والموائد غير المتناسقة. قالت إيزابيل وهي تنهض لتستقبل المتطفلة: (ليس عندما يكون لديّ ضيوف). فحوَّلَتِ اتجاهها لظهر المكتبة بينما واصَلَتِ الزائرة النظر حولها: (يبدو أن لديكِ الكثير من الغرف الأخرى، إنها في حالة أفضل نوعاً ما، لكن كل شيء متهرئ بشكلٍ هائل). تساءلَتْ إيزابيل: (هل جئتِ لتتفرجي على المنزل؟ ستريه لكِ الخادمة).

ـ (لا ترسلي بطلبها، فأنا لا أريد أن أشتريه. لقد ذهبَتْ على الأرجح لتبحث عنكِ وتتجول في الطابق الأعلى. لم تبدُ ذكيةً على الإطلاق، ومن الأفضل أن تخبريها أن الموضوع لا يهم).

بعد ذلك، لما وقفَتِ الفتاة هناك حائرة ومندهشة قالت لها هذه الناقدة غير المتوقعة بسرعة: (أعتقد بأنكِ إحدى البنات؟). ظنَّتْ إيزابيل بأن لها طباعاً غريبة: (ذلك يعتمد على بنات من تقصدين).

ـ (السيد آرتشر الراحل ـ وأختي المسكينة).

فقالت إيزابيل بتمهّل: (آه، لا بدّ أنكِ خالتنا المجنونة ليديا!).

ـ (هل هذا هو ما قاله والدكِ لتخاطبيني به؟. أنا خالتكِ ليديا لكنني لستُ مجنونةً مطلقاً، فليس لدي هلاوس!. وأي من البنات أنت؟).

ـ (أنا أصغر الثلاث، واسمي إيزابيل).

ـ (نعم، الأخريان هما ليليان وإيديث. وهل أنت الأجمل؟).

قالت الفتاة: (ليس لدي أدنى فكرة).

ـ (أعتقد بأنكِ كذلك).

وبهذه الطريقة أصبحَتِ الخالة وابنة الأخت صديقتين. كانت الخالة قد تشاجرَتْ مع زوج أختها قبل سنوات، بعد موت أختها، وهي تعنفه على الطريقة التي كان يربّي بها بناته الثلاث. ولكونه رجلاً عصبي المزاج، طلب منها أن تهتم بشؤونها الخاصة وكانت قد نفّذَتْ ما طلبه منها، ولسنواتٍ عديدة لم تتصل به. وبعد وفاته لم توجه كلمة واحدة لبناته اللواتي نشأن على وجهة النظر غير المحترمة هذه عنها والتي رأينا للتو إيزابيل وهي تفشيها.

كان تصرف السيدة تاتشيت، كالعادة، موزوناً تماماً. فقد نَوَتِ الذهاب إلى أميركا لتعتني باستثماراتها (التي لم يكن لزوجها علاقة بها رغم منصبه المالي الكبير) ورغبَتْ باستغلال هذه الفرصة لتتحقق من حالة بنات أختها. لم تكن هناك حاجة لتكتب لهن لأنها لن تعلّق أهميةً لأي قصة عنهن ستستنبطها من خلال رسالة، فقد آمَنَتْ، دائماً، بأن ينظر المرء بنفسه. رغم ذلك، فقد اكتشفت إيزابيل بأن خالتها عرفَتْ قدراً لا بأس به عنهن، وعرفَتْ بشأن زواج الأختين الكبيرتين، وعرفَتْ أن أباهما ال كان قد ترك القليل جداً من المال، وفقط ذلك البيت الذي في الباني الذي ورثه، والذي يجب أن يُباع لأجل مصلحته، وعرفَتْ أخيراً أن إدموند لادلو، وهو زوج ليليان، قد أخذ على عاتقه تَوَلّي هذا الموضوع على اعتبار أن الزوجين الشابين اللذين وصلا إلى ألباني خلال فترة مرض السيد آرتشر باقيان هناك في الوقت الراهن، كما أن إيزابيل نفسها تسكن في المكان القديم.

سألَتِ السيدةُ تاتشيت رفيقتَها التي أجْلَسَتْها في حجرة الاستقبال الأمامية التي تَفَقَّدَتْها بدون حماس: (ما هو الثمن الذي تتوقعين مقابله؟).

قالت الفتاة: (ليس لدي أدنى فكرة).

أجابت خالتُها: (هذه هي المرة الثانية التي قلتِ فيها هذا لي. ومع ذلك، فأنتِ لا تبدين غبية مطلقاً).

ـ (أنا لستُ غبية، لكنني لا أعلم أي شيء عن المال).

ـ (نعم، فهذه هي الطريقة التي تربيتِ بها ـ وكأنكِ ورثتِ مليوناً. ماذا ورثْتِ في الحقيقة؟).

ـ (أنا في الواقع لا أستطيع أن أخبركِ، عليكِ أن تسألي إدموند وليليان، فهما سيعودان خلال نصف ساعة).

قالت السيدة تاتشيت: (في فلورنسا، نطلق عليه منزلاً سيّئاً جداً؛ لكن هنا، أتجرأ وأقول بأنه سيجلب ثمناً عالياً. يجب أن يساوي مبلغاً كبيراً لكل واحدةٍ منكن. إلى جانب ذلك، لا بدّ أن لديكِ شيئاً آخر، إنه من الغريب للغاية أنكِ لا تعرفين، فموقع البيت ذو قيمة وربما سيهدمونه ويعملونه سلسلة من المتاجر. أتعجب من أنكِ لا تفعلين ذلك بنفسكِ، فبإمكانكِ تأجير المتاجر للاستفادة الكبيرة).

حدَّقَتْ إيزابيل، ففكرة تأجير متاجر كانت جديدة عليها، قالت: (آمل بأن لا يهدموه، فأنا مولعة به للغاية).

ـ (أنا لا أرى ما الذي يجعلكِ مولعة به، فوالدكِ مات هنا).

أجابت الفتاة بغرابة نوعاً ما: (نعم، لكنني لا أكرهه لهذا السبب، فأنا أحب الأمكنة التي حدثَتْ فيها أشياء ـ حتى وإن كانت أشياء محزنة. لقد مات العديد من الناس هنا والمكان مفعم بالحياة).

ـ (هل هذا هو ما تسميه مكان مفعم بالحياة؟).

ـ (أعني مفعم بالتجارب ـ بمشاعر وأحزان الناس، وليس بأحزانهم فقط، لأنني كنتُ سعيدة جداً هنا وأنا طفلة).

ـ (ينبغي لكِ أن تذهبي إلى فلورنسا إذا كنتِ تحبين المنازل التي تحدث فيها أشياء ـ خاصةً حوادث الموت. أنا أعيش في قصرٍ قديمٍ قُتل فيه ثلاثة أشخاص؛ ثلاثة أشخاص كانوا مشهورين، ولا أعلم كم أكثر من ذلك إلى جانب هؤلاء).

كرَّرَتْ إيزابيل: (في قصرٍ قديم؟).

ـ (نعم يا عزيزتي، وهو شيء مختلف جداً عن هذا. فهذا برجوازي جداً).

شعرَتْ إيزابيل ببعض التأثر لأنها كانت دائماً تعتبر منزل جدتها لأبيها شيئاً رفيعاً، لكن التأثر كان من النوع الذي قادها لتقول: (أود كثيراً جداً الذهاب إلى فلورنسا).

فأعلنَتِ السيدة تاتشيت: (حسناً، لو ستكوني فتاة طيبة جداً وتفعلين كل ما أقوله لكِ، فسآخذكِ إلى هناك).

فازداد تأثر شابتنا واحمرّتْ قليلاً وابتسمَتْ لخالتها بصمت: (أفعل أي شيء تقولينه لي؟ لا أعتقد بأنني أستطيع أن أعدكِ بذلك).

ـ (كلا، أنت لا تبدين كشخصٍ من هذا النوع. فأنتِ لكِ عاداتكِ الخاصة بكِ. لكن ليس عليّ أن ألومكِ على ذلك).

هتفَتِ الفتاة بسرعة: (ومع ذلك، لكي أذهب إلى فلورنسا كنتُ سأعِدُ بأي شيء تقريباً!).

كان إدموند وليليان بطيئين في العودة، وحظَتِ السيدة تاتشيت بمحادثةِ ساعةٍ متواصلة مع ابنة أختها التي وجدَتْ خالتها شخصيةً غريبةً ومثيرةً للإعجاب: شخصيةً بارزة في الأساس ـ الأولى من نوعها والتي التقَتْها يوماً. كانت غريبة الأطوار مثلما تخيلَتْ إيزابيل دائماً. ولحدّ الآن كلما سمعَتِ

الفتاة عن أناسٍ يوصفون بغرابة الأطوار، يكون لديها فكرةٌ عنهم على أنهم بغيضون أو مخيفون. فدائماً ما أوحى لها هذا التعبير بشيء شاذ وحتى شرير. لكن خالتها جَعَلَتْهُ موضوع سخرية بالغة لكن عفوية أو كوميديا وجعلها تسأل نفسها، فيما إذا سيبقى الطابع العام، الذي كان هو كل ما عَرَفَتْهُ عنها، مثيراً للإعجاب دائماً. لم يسبق لأي أحد بالتأكيد في أية مناسبة أن أَسَرَها بهذه الطريقة كهذه المرأة القصيرة القامة ذات الشفتين الرفيعتين والعينين المتألقتين وذات المظهر الغريب والتي عوَّض سلوكُها المميز عن مظهرها المتواضع، وتحدثَتْ بتواضعٍ صادم عن قصور أوروبا وهي تجلس هناك بمعطفٍ مطريٍّ متهرئٍ. لم يكن هناك شيء متهور بشأن السيدة تاتشيت، سوى أنها لم تُظهِر تفاخراً بالتفوق الاجتماعي؛ ومن خلال الطريقة التي يتحدث بها عظماء الأرض، تمتعَتْ بمعرفة كيفية التأثير على ذهنٍ غير متحيز وسريع التأثر. في البداية، أجابت إيزابيل على عددٍ لا بأس به من الأسئلة، وكان من الواضح من خلال إجاباتها أن السيدة تاتشيت قد كوَّنَتْ رأياً حاسماً عن ذكائها. لكن بعد ذلك، سألَتْ عدداً لا بأس به من الأسئلة، وكانت إجابات خالتها، أيّاً كان المنعطف الذي اتَّخَذَتْهُ، قد صعقها كمن لديه ارتجاع شديد للطعام.

انتظرَتِ السيدةُ تاتشيت عودة الابنة الأخرى لأختها طوال وقتٍ اعتبرَتْهُ معقولاً. لكن حينما لم تصل السيدة لادلو في الساعة السادسة، استعَدَّتْ للمغادرة.

ـ (لا بدّ أن أختكِ منهمكة في القيل والقال. هل هي معتادة على البقاء في الخارج لساعاتٍ طويلة؟)

أجابت إيزابيل: (لقد كنتِ أنت في الخارج بقدرها هي تقريباً. فهي لم تغادر البيت سوى قبل وقتٍ قصيرٍ من دخولكِ).

نظرَتِ السيدة تاتشيت إلى الفتاة بدون استياء، فقد بدا أنها تتمتع بردٍّ جريءٍ، وأنها مهيأة لتكون مهذبة: (ربما لم يكن لديها عذر جيد كعذري.

أخبريها بأن عليها أن تأتي وتراني هذا المساء في أي وقتٍ في ذلك الفندق المريع. يمكنها أن تجلب معها زوجها لو تحب. لكنها ليست بحاجة لأن تجلبكِ، فسوف أرى الكثير منكِ لاحقاً).

***

الفصل 4

كانت السيدة لادلو هي أكبر الأخوات الثلاث، وكان يُعتقد كالعادة أنها الأكثر تعقُّلاً. إن التصنيف الدارج هو أن ليليان هي الأخت العملية، وإيديث هي الأكثر جمالاً، وإيزابيل هي الأكثر «ثقافةً». كانت السيدة «كيز»، وهي ثاني المجموعة، زوجةً لضابطٍ في التشكيل الهندسي العسكري للولايات المتحدة. ولأن قصتنا لا تتعلق بها، فسنكتفي بالقول بأنها فعلاً كانت جميلة جداً وأنها شكّلَتْ زينة لتلك المخافر العسكرية المختلفة، خاصةً في الغرب القديم الطراز الذي نُفي إليه زوجها مما سبَّب استياءها. أما ليليان، فقد تزوجَتْ محامياً من نيويورك. وهو شاب ذو صوت جهوري وممتلئ حماسة لمهنته. لم يكن الزواج لامعاً أكثر من زواج إيديث، لكن نادراً ما يُذكَر عنها بأنها من الشابات اللواتي يسعدهن أن يتزوجن إطلاقاً ـ كانت أكثر بساطة بكثير من أخواتها. رغم ذلك، فقد كانت سعيدة جداً. والآن؛ وهي أمٌّ لصبيين متعجرفين، ومالكةٌ لبيتٍ قرميدي بني يشبه وتداً أُدخِلَ بعنفٍ في الشارع الثالث والخمسين؛ بدت مبتهجةً بحالها كشخصٍ فرَّ بجرأةٍ. كانت قصيرة القامة ومكتنزة، وكان ادِّعاؤها الفهم أمراً مشكوكاً فيه، لكنها مُنِحَتْ حضوراً وإن ليس مهيباً. كانت علاوةً على ذلك، كما يقول الناس، قد تحسنَتْ منذ زواجها، وأكثر شيئين تدركهما بوضوح في الحياة هما قوة زوجها في الجدال وأصالة أختها إيزابيل. كانت تلمح دائماً: (لم أتماشَ أبداً مع إيزابيل ـ وكان ذلك سيأخذ كل وقتي). على الرغم من ذلك فقد أحاطَتْها بنظرة حزنٍ نوعاً ما، تراقبها كما تراقب كلبةٌ أم من نوع السَّبَنْيَل كلباً طليقاً من نوع الهوند. وقد

أشارت مراراً إلى زوجها: (أريد أن أراها متزوجة بأمان ـ فهذا ما أريد أن أراه). كان إدموند لادلو معتاداً على أن يجيب بنبرةٍ مسموعة للغاية: (حسناً، لا بدّ أن أقول بأنه ليس لدي رغبة خاصة بتزويجها).

ـ (أنا أعلم بأنكَ تقول ذلك لغرض الجدال. فأنتَ دائماً تتخذ السبب المخالف. أنا لا أفهم ماذا لديكَ ضدّها باستثناء أنها أصيلة جداً). كان السيد لادلو قد أجاب لأكثر من مرة: (حسناً، أنا لا أحب الأصيلات، أنا أفضّل المقلّد. فإيزابيل قد كُتِبَتْ بلغة أجنبية لا أستطيع فهمها. يجب عليها أن تتزوج أرمنياً أو برتغالياً). فصاحت ليليان التي ظنَّتْ أن إيزابيل قادرة على فعل أي شيء: (أخشى أن ذلك هو ما ستفعله!).

أصغت باهتمامٍ كبير لقصة الفتاة عن ظهور السيدة تاتشيت. وفي المساء استعَدَّتا للاستجابةً لأوامر خالتهما. لم يتبقَّ أثرٌ لِما قالَته إيزابيل عندئذٍ سوى كلمات أختها التي عجَّلَتْ بلا شك برسالةٍ شفوية إلى زوجها بأن الاثنتين تستعدان للقيام بالزيارة: (أنا آمل بشكلٍ كبير أن تفعل شيئاً كريماً لإيزابيل، إذ من الواضح أنها أحبَّتْها كثيراً).

تساءل إدموند لادلو: (ما الذي تتمنين منها أن تفعله؟ أن ترسل لها هديةً كبيرة؟).

ـ (في الواقع، كلا. لا شيء من هذا القبيل، سوى أن تهتم بها وتتعاطف معها، فمن الواضح أنها الشخص المناسب تماماً الذي يقدرها، فقد عاشت كثيراً جداً في مجتمعٍ أجنبي وأخبرَتْ إيزابيل الكثير عنه. فكما تعلم، أنت ترى إيزابيل دائماً أجنبية نوعاً ما).

ـ (هل تريدين منها أن تمنحها قليلاً من عاطفة أجنبية، إيه؟ أتعتقدين بأنها لا تحصل منها على ما يكفي من البيت؟).

قالت السيدة لادلو: (حسناً، عليها أن تسافر إلى الخارج، فهي الشخص المناسب تماماً الذي يجب أن يسافر إلى الخارج).

ـ (وأنتِ تريدين من السيدة العجوز أن تأخذها، أليس هذا هو المقصد؟).

قالت السيدة لادلو: (لقد عرَضتْ أن تأخذها معها ـ إنها تتشوق لتذهب إيزابيل معها. لكن ما أريد منها أن تفعله عندما توصلها إلى هناك هو أن تمنحها جميع الميزات. فأنا متأكدة بأن كل ما علينا فعله هو أن نمنحها فرصة).

ـ (فرصة لأجل ماذا؟).

ـ (فرصة لتتطور).

صاح إدموند لادلو: (أوه يا موسى!، آمل أن لا تتطور أكثر من ذلك!).

أجابت زوجته: (لو لم أكن متأكدة بأنكَ قلتَ ذلك لأجل الجدال فقط، لشعرتُ بسوءٍ جداً، لكنك تعلم بأنكَ تحبها).

قال الشاب مازحاً لإيزابيل بعد ذلك بينما يُفَرِّش قبعته: (هل تعلمين بأنني أحبكِ؟).

فصاحت الفتاة التي كان صوتها وابتسامتها رغم ذلك أقل تعجرفاً من كلماتها: (أنا متأكدة بأنني لا أهتم فيما إذا كنتَ تحبني أم لا!).

قالت أختها: (أوه، إنها تشعر بالعظمة منذ زيارة السيدة تاتشيت)، لكن إيزابيل تحدَّتْ هذا التوكيد بقدرٍ لا بأس به من الجدّيّة: (لا يجب عليكِ أن تقولي ذلك يا ليلي، فأنا لا أشعر بالعظمة مطلقاً).

قالت ليلي المصلحجية: (أنا متأكدةٌ بأن لا ضرر في ذلك).

ـ (آه، لكن لا يوجد شيء في زيارة السيدة تاتشيت يجعل المرء يشعر بالعظمة).

صاح لادلو: (أوه، إنها أكثر عظمة من أي وقتٍ مضى!).

قالت الفتاة: (عندما أشعر بالعظمة، فسيكون ذلك لسببٍ أفضل).

سواء شعرَتْ بالعظمة أم لا، فهي على أية حال شعرَتْ بأنها مختلفة. شعرَتْ كأنَّ شيئاً ما قد حدث لها. جلسَتْ لبعض الوقت تحت المصباح وحيدةً ويداها فارغتان، مُهمِلَةً هواياتها المعتادة. ثم نهضَتْ وجالت حول الغرفة، ومن غرفةٍ

إلى أخرى، مُفَضِّلَةً الأماكن التي فيها ضوء المصباح الخافت قد انطفأ. كانت قلقةً، وحتى مرتبكةً، وارتجفَتْ قليلاً للحظات. إن أهمية ما حدث لم يكن متناسباً مع ظاهرهِ، فقد كان هناك فعلاً تغيير في حياتها، وإن ما سيجلبه معه، كان لحد الآن مبهماً للغاية. لكن إيزابيل كانت في موقفٍ منح أهميةً لأي تغيير. لديها الرغبة بأن تترك الماضي وراءها، وأيضاً، كما قالت لنفسها، لتبدأ من جديد. إن هذه الرغبة في الحقيقة لم تكن وليدة اللحظة، بل كانت مألوفةً كصوت المطر على النافذة، وقادها ذلك لأن تبدأ من جديد في أحيانٍ كثيرة. أغمضَتْ عينيها عندما جلسَتْ في أحد الأركان المظلمة لحجرة الاستقبال الهادئة، لكن لم يكن ذلك رغبةً في النوم، بل على العكس من ذلك، وهو لأنها شعرَتْ بأنها يقظة ورغبَتْ بالتأكد من إحساس فِهْمِ الكثير جداً من الأشياء في الحال. كان خيالها من عادته نشيطاً بشكلٍ مضحك، فعندما لا يُفتَح الباب يقفز من النافذة. فهي في الحقيقة لم تكن معتادة على حجزه وراء متاريس. وفي اللحظات الهامة عندما ستكون مسرورةً باعتمادها على قرارها وحده، تدفع ثمن تَلَقّيها تشجيعاً لا تستحقه على قدرة الفهم بدون أخذ القرار. والآن، بإدراكها أن إشارة التغيير قد حانت، حضر بالتدريج حشدٌ من صور الأشياء التي ستتركها وراءها. فعادت إليها سنوات وساعات حياتها، واستعرضَتْها لوقتٍ طويل في سكونٍ اخترقَتْهُ فقط دقات الساعة البرونزية الكبيرة. لقد كانت حياةً سعيدةً جداً، وكانت شخصاً محظوظاً جداً ـ هذه هي الحقيقة التي بدا أنها برزت بشكلٍ أكثر حيوية. فلقد حظيت بالأفضل من كل شيء، وكان ذلك ميزةً بأنها لم تعرف أبداً شيئاً أليماً على وجه التحديد في عالمٍ كانت ظروف العديد جداً من الناس جعلَتْهم في وضع لا يُحسَدون عليه. لقد اتضح لإيزابيل أنه حتى الشيء الأليم، كان غائباً تماماً عن إدراكها لأنه قد استخلصَتْ من خلال إلمامها بالأدب بأنه كان دائماً مصدراً للتشويق، وحتى للتهذيب. فوالدها كان قد أبعده عنها ـ والدها الكريم، المحبوب كثيراً، الذي كان لديه دائماً كره مماثل نحوه. لقد كان من السعادة الكبيرة أن يحظى بابنته.

وإيزابيل أيضاً نشأت لتفخر بنسبها. منذ وفاته، تخيلَتْ بأنها تراه وكأنه يدير جانبه الأكثر شجاعة نحو أطفاله وكأنه لم ينجح في تجاهل الألم تماماً. لكن ذلك جعل فقط عاطفتها تجاهه أكبر. لقد كان من الصعوبة جداً، بل وحتى من المؤلم، بأن تتصوره كريماً جداً، سهل المراس جداً، لا مبالياً جداً، لاعتباراتٍ لئيمة. لقد ارتأى العديد من الأشخاص بأنه بالَغَ في هذه اللامبالاة، خصوصاً العدد الكبير من أولئك الذين أقرضهم المال. لم تكن إيزابيل أبداً على علم بشكل قطعي تماماً بآرائهم، لكن قد يهم القارئ أن يعرف بأنهم صرحوا بأنه لم يكن يستغل حياته استغلالاً كبيراً جداً عندما لاحظوا في السيد آرتشر الراحل بوضوح مقاماً كريماً وخلقاً أخّاذاً جداً (في الحقيقة كان دائماً ما يأخذ شيئاً ما، على حد قول أحدهم). لقد أضاع ثروةً كبيرةً، وكان لاهياً بشكلٍ مؤسف، إذ كان معروفاً بأنه كان مقامراً بلا حساب. ذهب بعض منتقديه القساة جداً بعيداً جداً بقولهم إنه حتى لم يربِّ بناته، وبأنهن لم يحظين بتعليم نظامي، ولا ببيت دائم، وبأنهن فسدن وأُهمِلْنَ بسرعة، وبأنهن عشن مع الحاضنات والمربيات (السيئات جداً كالعادة) أو أنهن أُرسِلْن إلى مدارس تافهة تُدار من قبل الفرنسيين والتي طُرِدْنَ منها وهن يبكين.

إن وجهة النظر هذه عن الموضوع تثير سخط إيزابيل، لأن وفقاً لإحساسها كانت فرصها كبيرة. حتى وإن كان والدها قد ترك بناته لثلاثة أشهر في نيوشاتل برفقة خادمة فرنسية هربت مع نبيلٍ روسي متواجد في نفس الفندق - حتى في هذا الموقف غير العادي (حدثٌ لفتاةٍ بعمر الأحد عشر عاماً) لن تكون خائفةً ولا خجلةً منه، بل ستعتقده حدثاً رومانسياً بثقافة متحررة.

كان لدى والدها طريقة متبجحة للنظر إلى الحياة التي كان قلقه منها وسلوكه النافر العرضي برهاناً. لقد رغب من أطفاله، حتى وهم صغار، أن يروا الكثير عن الحياة قدر الإمكان، وقد كان لهذا السبب، قبل أن تبلغ إيزابيل الرابعة عشرة، أن نَقَلَهن ثلاث مرات عبر المحيط الأطلسي مانحاً إياهن في

كل مرة فكرةً بضعة أشهرٍ عن الموضوع المقترح: وهي طريقةٌ أثارت فضول بطلتنا بدون أن تجعلها تقتنع بها. كان عليها أن تكون مناصرة لوالدها، لأنها كانت أكثر عضو من مجموعته الثلاثية «بديلاً» عن المعارضين له والذين لم يذكرهم. في أيامه الأخيرة، كانت رغبته الكبيرة بمغادرةِ حياةٍ يبدو فيها فِعْلُ ما يحلو للمرء يتزايد بصعوبة كلما كبر في السن، قد خفّتْ بشكل عقلاني بألم الانفصال عن ابنته الذكية، المتفوقة، الاستثنائية. لاحقاً، عندما توقفَتِ الرحلات إلى أوروبا، كان لا يزال يُري بناته كل أنواع الدلال. وإذا كان قد تكدَّر بشأن أمور تخص المال، فلا شيء أبداً سيسبب اضطراب شعورهم بسبب الممتكات العديدة.

لم يكن لدى إيزابيل ذكرى أنها كانت في نيويورك عضواً ناجحاً لفرقة رقص، رغم أنها رقصَتْ بشكلٍ جيدٍ جداً. كانت أختها إيديث، كما قال كل شخص، أكثر جاذبية بكثير. كانت إيديث مثالاً عجيباً جداً للنجاح بحيث إن إيزابيل لم تتمكن من تخيل ما الذي خلق هذه الخاصية، أو حدود قدرتها الخاصة للمرح والقفز والصياح فرحاً ـ فوق كل شيء، مصداقية المظهر. أعلن تسعة عشر شخصاً من أصل عشرين (من ضمنهم الأخت الصغرى نفسها) أن إيديث هي أجمل الاثنتين بشكلٍ مطلق. لكن الشخص العشرين، إضافةً إلى قيامه بنقض هذا الرأي، قد تكرَّم بالتفكير في جميع الأخريات على أنهن سوقيات متجملات. كان لدى إيزابيل في أعماق نفسها رغبة سويّة أكثر جموحاً للسعادة مما لدى إيديث. لكن أعماق نفس هذه السيدة الشابة كانت مكاناً نائياً انقطع عن التواصل الخارجي بسبب قوى متقلّبة كثيرة جداً. لقد رأت الشبان الذين أتوا بأعداد كبيرة لرؤية أختها، لكنهم عموماً كانوا خائفين منها. فقد كان لديهم اعتقاد بأن التحدث معها يتطلب استعداداً خاصاً. وطافت حولها سمعة القراءة بكثرة كغطاءٍ من الغيوم لإحدى الآلهات في شعرٍ ملحمي. كان يُعتقد بأنها تخلق أسئلةً صعبة وتُبقي المحادثة على نارٍ هادئة. لقد أحبت الفتاة المسكينة أن يُعتقد بشأنها أنها ذكية، لكن كرهَتْ أن

يُعتقد بأنها تحب الكتب. لقد اعتادت أن تقرأ في الخفاء وأن تتفادى العرض المبهرج رغم أن ذاكرتها كانت ممتازة. كان لديها رغبةٌ عظيمةٌ للمعرفة، لكنها في الحقيقة فضَّلَتْ قليلاً أي مصدر للمعلومات على الصفحات المطبوعة. كان لديها فضول هائل عن الحياة، وكانت تُمعن النظر وتتساءل باستمرار. لقد حملَتْ بداخلها ذخيرة عظيمة عن الحياة، وكانت أعمق متعها هي أن تشعر بالاستمرارية بين اختلاجات روحها وانفعالات الحياة. لهذا السبب كانت مولعةً برؤية الحشود العظيمة والامتدادات الشاسعة للريف، وبالقراءة عن الثورات والحروب، وبالتفرج على الصور التاريخية ـ وهي نوعٌ من المساعي التي بحقها دائماً كانت قد اقترفَتِ الخطأ الشعوري بمنحها صورةً أسوأ في سبيل الجوهر. عندما وقعت الحرب الأهلية، كانت لا تزال فتاة يافعة جداً، لكنها أمضت شهوراً من هذه الفترة الطويلة في حالة من الحماس العميق، شعرَتْ فيها أحياناً (لارتباكها الكبير) بأنها ثائرة قليلاً بشكل مشوش بشأن شجاعة كل من الجيشين.

إن حذر المحبين المرتابين طبعاً لم يتجاوز أبداً عن جعلها من المحرمات الاجتماعية، لأن عدد أولئك الذين كلما اقتربوا منها تخفق قلوبهم بسرعة فقط بما يكفي لتُذكِّرهم بأن لهم رؤوساً أيضاً، قد أبقاها جاهلةً بالانضباط الفائق لجنسها وعمرها. لقد حظيَتْ بكل شيء يمكن أن تحظى به فتاة: العطف، الإعجاب، أنواع الحلوى، الإطراء، إحساس عدم الحرمان من امتيازات الحياة التي عاشتها، مناسبات كثيرة للرقص، الكثير من الثياب الجميلة، صحيفة لندن اكسباكتاتور، آخر الإصدارات، موسيقى جونو، أشعار براوننغ، نثر جورج إليوت. إن هذه الأشياء كلما تستعيدها الذاكرة، تراها جزّأتْ نفسها الآن إلى حشدٍ من المشاهد والصور. وعادت إليها الأشياء المنسية، واحتجبَتْ عن الرؤية أشياءُ أخرى عديدة اعتقدَتْ مؤخراً بأنها لحظات عظيمة. وكانت النتيجة خليطاً من الصور المتنوعة كما في آلة المِشكال، لكن حركة الآلة توقفَتْ في النهاية بدخول الخادمة معلنةً اسم سيدٍ محترم.

اسم السيد المحترم هو كاسبار غودوود. كان شاباً مستقيماً من بوسطن عرف الآنسة آرتشر للاثني عشر شهراً الأخيرة. ولظنه أنها أكثر الشابات جمالاً في زمانها، أعلن أن الزمن، وفقاً للقاعدة التي أشرتُ إليها، هي فترة تافهة من التاريخ. كتب لها أحياناً، وكان يكتب لها خلال أسبوع أو اثنين. كانت تظن أنه من الممكن جداً أن يأتي ـ لو كانت تنتظره في يومٍ ممطر. والآن، وقد عَلِمَتْ بأنه هنا، مع ذلك، لم تشعر بلهفة لاستقباله. كانَ أرقَّ شابٍّ رأتْهُ يوماً، كان بالفعل شاباً رائعاً، لقد أثار فيها شعوراً من الاحترام الرفيع النادر. لم تشعر أبداً بأنها مضطربة من أي شخصٍ آخر مثلما تشعر بذلك نحوه. كان يُعتقد من قبل الدنيا كلها بأنه يتمنى الزواج بها، لكن ذلك كان طبعاً بينهما فقط. يمكن أن يُجزَم على أقل تقدير بأنه رحل من نيويورك إلى ألباني خصيصاً ليراها لأنه علم، وهو في المدينة السابقة، حيث كان يقضي بضعة أيام وحيث كان قد تمنى أن يجدها، بأنها لا تزال في العاصمة.

تأخرت إيزابيل بضع دقائق في الذهاب إليه؛ تجولت في أرجاء الغرفة بإحساسٍ جديد من الارتباك. لكن في النهاية حضرَتْ بنفسها، ووجدَتْه واقفاً قرب المصباح. كان طويل القامة، قوياً ورسمياً نوعاً ما. كان أيضاً نحيفاً وأسمر. لم يكن جميلاً بشكل رومانسي، بل كان جميلاً بشكلٍ باهت نوعاً ما، لكن لملامح وجهه مظهرٌ يشد انتباهكَ، والذي عُوِّضَ وفقاً للجمال الذي تعتقده بعينين زرقاوين ذاتَي ثبات ملفت للنظر، عينان ذاتا مظهرٍ يختلف عن مظهره هو نفسه، وحنكٍ مضلَّع نوعاً ما والذي من المفترض أنه يدل على حزم. قالت إيزابيل لنفسها بأنه يبدو حازماً هذه الليلة. رغم ذلك، وفي خلال نصف ساعة، قام كاسبار غودوود، الذي كان قد وصل متفائلاً مثلما هو حازم، بالعودة إلى مسكنه بإحساسِ إنسانٍ مهزوم. يمكن أن نضيف بأنه لم يكن إنساناً يقبل الهزيمة بسهولة.

***

الفصل 5

كان رالف تاتشيت فيلسوفاً، لكن مع ذلك قرع على باب غرفة والدته (عند السابعة إلا ربعاً) بقدرٍ لا بأس به من اللهفة. حتى الفلاسفة لديهم ما يفضّلونه، ويجب الاعتراف بأن من أسلافه، كان والده هو من تَوَلّاه بشكل أكبر لشعوره بحلاوة إعالة الأبناء. إذ كان والده، كما يقول لنفسه دائماً، أمومياً أكثر؛ أما والدته من الناحية الأخرى، فكانت أبوية أكثر، وحتى متحكّمة، وفقاً لمصطلحات اليوم. مع ذلك، فقد كانت مولعةً جداً بابنها الوحيد، وتصرّ دائماً على أن يقضي ثلاثة أشهر من السنة معها. قدَّم رالف العدالة التامة على عاطفتها وعرف في تصوراتها وفي حياتها المنظّمة تماماً والهانئة، أن دوره يأتي دائماً بعد المواضيع الأخرى الأقرب لاهتمامها، وهي الالتزام بالمواعيد الدقيقة لتنفيذ العاملين لما توصي به.

وجدها مرتدية بشكلٍ كامل استعداداً للعشاء، لكنها عانقت ابنها بيديها المغطتين بالقفازات وأجلسَتْهُ إلى جانبها على الأريكة. سألَتْ عن صحة زوجها بشكلٍ دقيق وعن صحة الشاب. وبتلقّيها تقريراً غير برّاقٍ عن الاثنين، أشارت إلى أنها مقتنعة أكثر من ذي قبل بحكمتها بعدم تعريض نفسها للمناخ الإنجليزي وبهذه الحالة يمكن الاستغناء عنها. ابتسم رالف لفكرة الاستغناء عن والدته، لكنه لم يُشِرْ إلى تذكيرها أن مرضه لم يكن سببه المناخ الإنجليزي الذي يُغَيِّبُ نفسه عنه لجزءٍ كبير من كل سنة.

كان صبياً صغيراً جداً عندما قَدِمَ والدُه دانييل تريسي تاتشيت، المواطن من روتلاند في ولاية فيرمونت، إلى إنجلترا كشريك ثانوي في مصرفٍ حيث

حصل بعد عشر سنوات على مِلكيّة غالبة. رأى دانييل تاتشيت أمامه في بلده التي اتخذها والتي أخذ عنها منذ البداية نظرة بسيطة وحكيمة ومناسبة، مسكناً لمدى الحياة. لكن، كما كان يقول لنفسه، لم تكن لديه نيّة بالتخلّي عن أميركيته ولا لديه الرغبة في أن يُعَلِّمَ ابنه الوحيد أية حيلةٍ ماكرةٍ كهذه. فبالنسبة له، أن يعيش في إنجلترا بطريقة مشابهة لهم وفي الوقت نفسه غير متخلٍّ عن أصله، هي مشكلة قابلة للحل جداً بحيث رأى أنه من البساطة بشكلٍ مماثل أن يقوم وريثُه القانوني بعد موته بإدارة المصرف العتيق الكئيب بطريقةٍ أميركية مرحة. كان يجتهد في تأصيل هذا المرح بإرسال الصبي إلى الوطن من أجل تعليمه. فأنهى رالف عدة فصول دراسية في مدرسة أميركية وحصل على درجة علمية من إحدى الجامعات الأميركية. وبعدها، حينما صَعَقَ والدَه عند عودته كأميركي وطني بشكلٍ مفرط، أُسكِنَ في منزلٍ في أوكسفورد لثلاث سنوات. لقد ابتلعَتْ أوكسفورد هارفارد وأصبح رالف في النهاية إنجليزياً تماماً. مع ذلك، كان امتثاله الظاهري للعادات التي أحاطت به، هو غطاء العقل الذي استمتع باستقلاليته بشكلٍ كبير، والذي لم يوجد شيء أثقَلَ نفسه عليه طويلاً، والذي استرسل في حريةٍ لا حدود لها من الإطراء وهو الميّال بشكلٍ طبيعي للمغامرة والسخرية. لقد انطلَقَ بكونه شاباً واعداً، وتميَّزَ في أوكسفورد مما سبَّبَ لوالده رضاً يفوق الوصف، وقال الناس الذين حوله إن مما يدعو للرثاء أن يكون شخصٌ ذكي كهذا محروماً من الوظيفة. فهو يمكنه أن يحظى بوظيفةٍ عند العودة إلى وطنه (رغم أن هذا الموضوع مُغَلَّف بالشك)، حتى لو كان السيد تاتشيت راغباً بأن يرحل معه (والذي لم يكن صحيحاً)، فسيكون من الصعب عليه أن يجعل الأمور على ما يرام بشكلٍ دائم بينه وبين الرجل العجوز الذي أشار إليه بأنه أعز أصدقائه. لم يكن رالف متعلقاً فقط بأبيه، بل معجباً به ـ فقد كان يحترمه. كان دانييل تاتشيت لحكمته، رجلاً نابغة. ورغم أنه هو نفسه لم تكن لديه كفاءة في طقوس مهنة الأعمال المصرفية، إلا أنه منح اهتمامه لتعلم القدر الكافي منه ليدير الرقم الكبير

الذي ضارب به والدُه. لم يكن هذا الشيء هو ما أستمتع به بشكلٍ رئيسي، بل كان الوجه العاجي الناعم، المصقول على النمط الإنجليزي الذي تحدّى به الرجل العجوز قدرات الذكاء. لم يدخل دانييل تاتشيت لا إلى هارفارد ولا إلى أوكسفورد، وإذا كان قد وضع بين يدي ابنه مفتاح النقد الحديث، فذلك كان خطؤه هو. لدى رالف الذي كان رأسه مليئاً بأفكارٍ لم يخمنها والده أبداً، احترام كبيرا لإبداع الأخير. إن الأميركيين سواء كانوا محققين أو مخططين، يُشاد بهم للسهولة التي يكيّفون بها أنفسهم للظروف الخارجية، لكن السيد تاتشيت جعل من حدود مرونته نفسها شطراً من أساس نجاحه الكبير، فقد احتفظَ بِجِدَّةٍ معظم آثار كفاحه الأولي. كانت نبرته، كما لاحظ ابنُه ذلك دائماً بسرور، نبرة أكثر أحياء نيوإنغلاند رقيّاً. في نهاية حياته، أصبح في وطنه دمثاً مثلما كان غنياً، وجمع بين الحكمة التامة والاستعداد ظاهرياً للتآخي، وكانت «مكانته الاجتماعية» التي لم يهتم لها مطلقاً، لا تشوبها شائبة كفاكهةٍ لم يمسها أحد. كان شعوره موصداً تماماً، وذلك ربما بسبب افتقاره للخيال ولِما يسمى بالوعي التأريخي، لكن بالنسبة للكثيرين كان السبب هو الانطباعات التي تعملُها عادةً الحياة الإنجليزية على الغريب المهذب. كانت هناك اختلافات معينة لم يفهمها أبداً، عاداتٍ معينة لم ينشأ عليها أبداً، أشياء مبهمة لم يتلفّظ بها أبداً. فيما يخص تلك الأخيرة، كان ابنه سيظن به ظناً سيئاً في اليوم الذي تلفّظ بها.

كان رالف عند مغادرته لأكسفورد قد أمضى سنتين في الترحال، والذي بعده وجد نفسه جالساً على كرسي مرتفع في مصرف والده. إن مسؤولية وشرف منصبٍ كهذا لا يُقاس، حسب اعتقادي، بارتفاع الكرسي الذي يعتمد على اعتباراتٍ أخرى: كان رالف في الواقع، الذي يمتلك ساقين طويلتين، مولعاً بالوقوف، وحتى بالمشي، في محل عمله. كان مضطراً أن يكرّس فترةً محدودةً فقط لهذه العادة، لأن بعد حوالي ثمانية عشر شهراً أصبح مدركاً بأنه مريض

بشكلٍ خطير. فقد أُصيب بنزلة برد حادة والتي وطَّنَتْ نفسها في رئتيه وتركتهما في حالةٍ من الاضطراب الأليم. كان عليه أن يترك العمل ويطبّق حرفياً الأمر المحزن بالامتناع عن العمل ليعتني بنفسه. استهان في البداية بالمهمة، فقد تخيّل بأنها لم تكن نفسه مطلقاً التي يعتني بها، بل شخصٌ لا يثير الاهتمام وغير مثير للاهتمام ليس له علاقة به. وإن هذا الشخص رغم ذلك، قد تحسن، ورالف في النهاية كَبُرَ ليحمل ضغينةً وحتى رهبةً غير ظاهرةٍ تجاهه.

إن التعاسة تجذب أناساً على جميع الشاكلات، وإن رجلنا الشاب بشعوره أن هناك بشأنه شيئاً ما في خطر ـ فسيهاجمه هذا الشعور غالباً وسيكرس قدراً من التركيز كما يجب والذي لديه تأثير إبقاء ذلك المسكين حياً. بدأت إحدى رئتيه بالشفاء، وعقدت الرئة الأخرى العزم على أن تحذو حذوها، وقد تمت طمأنته بأنه سيستمر بالعيش لشتاءات عديدة لو كان سيتوجه لتلك المناخات التي يتجمع فيها المسلولون بشكلٍ رئيسي. عندما كان حبه للندن يزداد بشكلٍ بالغ، لعن تفاهة الإقصاء إلى تلك المناخات: لكنه في نفس اللحظة التي لعن فيها، أطاع. وتدريجياً، عندما وجد أن رئته الحساسة شاكرةٌ حتى للإحسان المقيت، تشاوَرَ معهما بلطف. فقضى فصل الشتاء، في الخارج، إن صح التعبير، يتنعّم بالشمس، يبقى داخل المنزل عندما تعصف الريح، يذهب للنوم عندما تمطر، ولمرةٍ أو اثنتين، عندما يتساقط الثلج طوال الليل، لا ينهض ثانيةً أبداً.

لقد أعانته ذخيرةٌ خفيّة من اللامبالاة ـ كقطعة كعكٍ دسّتها له مربية طيبة بين أغراضه المدرسية الأولى ـ وساعدت على استِمالته كي يقوم بالتضحية لأن في أفضل الأحوال كان عاجزاً جداً عن أي شيء على الإطلاق إلا عن تلك اللعبة المرهقة. وكما قال لنفسه، لم يكن هناك بالفعل شيء أراد أن يفعله كثيراً لذا لم يترك في النهاية ميدان الشجاعة. في الوقت الحالي، بدا رغم ذلك أن أريج الفاكهة المحرّمة يغمره من حينٍ لآخر ويذكّره أن أحسن الملذات هي الإسراع في التنفيذ. إن العيش كالطريقة التي عاش بها الآن كان يشبه كتاباً

جيداً بترجمةٍ سيئة ـ وهي متعةٌ ضئيلة لشابٍ شعَر بأنه من الممكن أن يصبح عالم لغة ممتاز. لقد قضى فصول شتاءٍ جيدة وفصول شتاءٍ سيئة، ولأن الأولى دامت فترةً أطول، فقد كان في بعض الأحيان أُلعوبةً لتخيّل الشفاء الوهمي. لكن ذلك التصور تبدد قبل حوالي ثلاث سنوات من حصول الأحداث التي تبدأ بها هذه القصة: فقد بقي على هذه الحالة أطول من المعتاد في إنجلترا، وكان قد بوغت بطقسٍ سيّئ قبل وصوله إلى الجزائر. لقد وصل ميتاً أكثر منه حياً وبقي هناك لبضعة أسابيع بين الحياة والموت. إن تماثله للشفاء كان معجزةً، لكن أول فائدة جناها منه هو لِيُطَمْئِنَ نفسه بأن معجزاتٍ كهذه لا تحدث سوى مرة واحدة. لقد قال لنفسه إن ساعته كانت تلوح في الأفق وإنه توجّب عليه أن يترقبها. مع ذلك، فقد كان واضحاً بالنسبة له أيضاً أن يقضي هذه الفترة من الوقت بشكلٍ طيّب بما يلائم انشغالاً كهذا. إن الاستخدام الضئيل لقدراته، مع احتماليةِ فقدانها قد أصبح متعةً باهرة، فقد اتضحت له متعة التفكير التي لم تكن ظاهرة أبداً. لقد كان الوقت متأخراً عندما اكتشَفَ صعوبة أن يضطر المرء إلى أن يتخلى عن فكرة جعْل نفسه مميزاً، وهي فكرة مزعجة لكونها مبهمة ومع ذلك تبعث على البهجة لأنه اضطر أن يقاوم بنفس المشاعر الاندفاعات المثيرة للنقد الذاتي. كوَّنَ عنه أصدقاؤه في الحال رأياً أكثر مرحاً وعزوه إلى نظريةٍ هزّوا رؤوسهم بشأنها بشكلٍ ذكي، وهي أنه سيستعيد صحته. لم تكن رباطة جأشه سوى نسق الأزهار البرية الموضوعة على رفاته.

من المحتمل جداً أن خاصية تذوّق كل ما هو جميل في الشيء المشاهَد بحد ذاتها هي المسؤولة بشكل رئيسي في اهتمام رالف المتأثر سريعاً بقدومِ سيدةٍ شابة والذي من الواضح أنّ قدوماً لم يكن تافهاً. فقد أخبره شيء ما بأنه يوجد هنا عمل يكفي على مدى الأيام المتتالية لو كان مستعداً له بشكل كبير. ويمكن أن نضيف من قبيل الإيجاز، أن مخيلة العاشق، لكونها مختلفة

عن مخيلة المعشوق، لا تزال تمتلك مكاناً ضمن مخططه المصغر، لكنه منع نفسه من الإخلال في التعبير. رغم ذلك، لا ينبغي عليه أن يوحي لابنة خالته بأية عاطفة. ولا هي ستكون قادرة، حتى وإن حاوَلَتْ ذلك، على مساعدته على ذلك.

قال لوالدته: (والآن أخبريني عن السيدة الشابة، ماذا تنوين أن تفعلي لها؟)

قالت السيدة تاتشيت بسرعة: (أنوي أن أطلب من والدكَ أن يستضيفها ثلاثة أو أربعة أسابيع في جاردن كورت).

قال رالف: (لستِ بحاجة إلى أن تتوقفي على أي من تلك الشكليات بهذه الطريقة. فأبي سيطلب منها ذلك كأمرٍ مفروغٍ منه).

ـ (لا أعلم بشأن ذلك، فهي ابنة أختي وليست ابنة أخته).

ـ (عجيب يا أمي، يا له من إحساسٍ بالتملك!. فهذا هو السبب من طلبه منها ذلك. لكن بعد ذلك ـ أقصد بعد ثلاثة أشهر «لأنه من الغريب أن تطلبي من الفتاة المسكينة أن تبقى سوى ثلاثة أو أربعة أسابيع تافهات». ماذا تنوين أن تفعلي بها؟)

ـ (أنوي أن آخذها إلى باريس. أنوي أن أشتري لها الملابس).

ـ (آه، نعم، فذلك أمر طبيعي. لكن عدا ذلك؟).

ـ (سأدعوها لتقضي فصل الخريف معي في فلورنسا).

قال رالف: (لا تَتَعالَيْ عن التفاصيل يا أمي العزيزة. أود أن أعرف ماذا تنوين أن تفعلي معها عموماً).

صرّحَتِ السيدة تاتشيت: (واجبي!). وأضافت: (أعتقد بأنكَ تتعاطف معها كثيراً جداً).

ـ (كلا، لا أعتقد بأنني أتعاطف معها، فهي لا تجذبني كإحساسٍ مغرٍ، بل أعتقد بأنني أحسدها. رغم ذلك، قبل أن أكون متأكداً، امنحيني تلميحاً عن مكمن واجبكِ).

ـ (بأن أريها أربع دولٍ أوروبية ـ سأترك لها خيار اثنتين منهم ـ وبمنحها الفرصة لتهذيب نفسها على الطريقة الفرنسية والتي تعرفها أساساً بشكلٍ جيد).

عبس رالف قليلاً: (يبدو ذلك جافاً نوعاً ما ـ حتى السماح لها باختيار اثنتين من الدول).

قالت والدته ضاحكةً: (إذا كان جافاً يمكنكَ السماح لإيزابيل بمفردها أن تبلله!. فهي بارعةٌ كأمطار الصيف، والنهار).

ـ (هل تقصدين بأنها مخلوقةٌ موهوبة؟).

ـ (أنا لا أعلم فيما إذا هي مخلوقةٌ موهوبة. إنها فتاةٌ ذكية ذات إرادةٍ قوية ومزاج منشرح. فهي ليس لديها فكرة عن الملل).

قال رالف: (يمكنني تخيّل ذلك). ثم أضاف بسرعة: (كيف ستتفقان أنتما الاثنتان؟).

ـ (هل تقصد بذلك بأنني مملة؟ أنا لا أعتقد بأنها تجدني مملة. بعض الفتيات قد يجددنني كذلك، أنا أعلم. لكن إيزابيل حويطة جداً من ذلك. أعتقد بأني أُسَلّيها. نحن متفقتان لأنني أفهمها، فأنا أعرف أي نوع من الفتيات هي، إنها واضحة جداً، وأنا واضحة جداً: أي نعلم تماماً ماذا تتوقع إحدانا من الأخرى).

صاح رالف: (آه، يا أمي العزيزة، دائماً ما يعرف المرء ماذا يتوقع منكِ! فأنتِ لم تفاجئيني أبداً سوى مرة واحدة، وتلك هي اليوم ـ بتقديمكِ لي ابنة خالة جميلة لم أكن شاكاً أبداً بوجودها).

ـ (هل تراها جميلةً جداً للغاية؟).

ـ (جميلة جداً فعلاً. لكنني لا أشدد على ذلك، لكن مظهرها العام على أنها شخصٌ مهم هو ما يصدمني. فمَن هذه المخلوقة النادرة، وما هي؟ أين وَجَدتِها وكيف تعرَّفتِ عليها؟).

ـ (لقد وجدتُها في منزلٍ عتيق في ألباني، جالسةً في غرفةٍ كئيبة في يومٍ ممطر تقرأ كتاباً ثقيلاً، تُضجر نفسها حتى الموت. إنها لم تعلم بأنها كانت ضجرة. لكنني عندما تركتُها، بدت ولا شك ممتنة جداً لهذه الخدمة. قد تقول بأنه ما كان ينبغي عليّ أن أُعَرِّفَها بنفسي ـ وانه كان ينبغي علي أن أتركها بمفردها. قد يكون هناك قدر من الصواب في ذلك، لكنني تصرفتُ بضميرٍ حي. فقد فكرتُ بأنها ملائمةٌ لشيءٍ أفضل، وقد خطر لي بأنه سيكون من اللطف أن أجعلها تسافر معي وأن أقدمها إلى العالم. إنها تعتقد بأنها تعرف الكثير عنه ـ كمعظم الفتيات الأميركيات، لكنها مخطئة بشكلٍ سخيف كمعظم الفتيات الأميركيات. هل تعلم، لقد فكرتُ بأنها ستشرفني، فأنا أحب أن يؤخذ عني رأيٌ جيد. وبالنسبة لامرأةٍ في سني، لا يوجد هناك أمرٌ مريح، بطريقةٍ ما، أكثر من ابنة أختٍ جذّابة. أنت تعلم بأنني لم أرَ بنات أختي لسنوات، فقد كنتُ مرفوضةً تماماً من قبل الأب، لكنني نويتُ دائماً أن أفعل شيئاً لهنّ إنْ مات. فتأكدتُ أين يمكن أن يوجدن، ومن ثم، وبدون أية مقدمات، ذهبتُ وقدمتُ نفسي. هناك اثنتان أُخريان وكلتاهما متزوجتان، لكنني رأيتُ الكبرى فقط التي كان لديها، بالمناسبة، زوج غير متحضّر بالمرة. وافقَتِ الزوجةُ التي اسمها ليلي على فكرة اعتنائي بإيزابيل، فقد قالت بأن هذا ما كانت تحتاجه أختها تماماً ـ بأن يعتني أحدٌ ما بها. لقد تحدثَتْ عنها كما تتحدث أنت عن شخصٍ عبقري صغير السن ـ بقليل من الحماس والرعاية. ربما سبب ذلك هو عبقرية إيزابيل، لكن في تلك الحالة لم أعلم لحدِّ الآن اتجاهها الخاص. كانت السيدة لادلو بشكلٍ خاص حريصةً بشأن أخذي لها إلى أوروبا، فكلهم يعتبرون أوروبا كأرضٍ للهجرة والنجاة وملجأً لأهلهم الفائضين عن الحاجة، وإيزابيل نفسها بدت مسرورةً جداً بالقدوم، وقد تم ترتيب الأمر بسهولة. كانت هناك عقبة صغيرة بخصوص المال، لأنها بدت كارهة لأن تخضع لالتزامات مالية. لكن لديها مدخول مالي متواضع وتعتقد بأنها تسافر على نفقتها).

أصغى رالف باهتمام إلى هذا التقرير الحكيم والذي لم يكن اهتمامه بموضوعه قد فَتُرَ بسببه، فقال: (آه، إذا كانت عبقرية، فيجب أن نكتشف اتجاهها الخاص، هل سيكون ربما في الغَزَل؟)

ـ (لا أعتقد ذلك. قد تشك في ذلك في البداية، لكنكَ ستكون مخطئاً. أعتقد بأنكَ لن تكون محقاً بشأنها بسهولة على أية حال).

فهتف رالف بتهلل: (إذن واربيرتون مخطئ! فهو يداهن نفسه بأنه اكتشَفَ ذلك).

هزت والدته رأسها: (لن يفهمها اللورد واربيرتون. ليس بحاجة لأن يحاول).

قال رالف: (إنه ذكي جداً، لكن من العدل أن يكون محتاراً ولو لمرة واحدة).

أشارت السيدة تاتشيت: (ستستمتع إيزابيل بإيقاع لوردٍ في حيرة).

فعبس ابنها قليلاً: (ماذا تعرف هي عن اللوردات؟).

ـ (لا شيء مطلقاً. وذلك سيحيره أكثر).

رحَّب رالف بتلك الكلمات بضحكةٍ ونظر خارج النافذة، ثم سأل: (ألن تنزلي لرؤية والدي؟).

قالت السيدة تاتشيت: (عند الساعة الثامنة إلا ربعاً).

نظر ابنها إلى ساعته: (إذن لديكِ ربع ساعة. أخبريني المزيد عن إيزابيل).

فتابَعَ بعد أن رفضَتِ السيدة تاتشيت طلبه وهو يعلن بأن عليه أن يكتشف بنفسه: (حسناً، إنها ستشرفكِ بالتأكيد. لكن ألن تزعجكِ أيضاً؟).

ـ (لا آمل ذلك. لكن إن فعلَتْ ذلك فلن أضيق بسببه. لن أضيق بذلك أبداً).

قال رالف: (إنها تعجبني كشخصٍ عادي جداً).

ـ (إن الناس العاديين ليسوا أكثر إزعاجاً).

قال رالف: (كلا، فأنتِ نفسكِ دليل على ذلك. أنت عادية للغاية، وأنا متأكد بأنكِ لم تزعجي أي أحدٍ أبداً، ففعْلُ ذلك يتطلب جهداً. لكن أخبريني، فقد خطر في ذهني للتو: هل إيزابيل قادرة على جعل نفسها غير مقبولة؟).

صاحت والدته: (آه، أنت تسأل الكثير جداً من الأسئلة!. اكتشِفْ ذلك بنفسك).

رغم ذلك لم تنتهِ أسئلته، فقال: (كل هذا الوقت ولم تخبريني ماذا تنوين أن تفعلي بها).

ـ (أفعلُ بها؟ أنت تتحدث وكأنها قطعة من القماش. لن أفعل أي شيء بها مطلقاً. وهي نفسها ستفعل كل شيء تريده، لقد لمَّحَتْ لي بذلك).

ـ (ماذا قصدتِ إذن في برقيتكِ بأن شخصيتها كانت مستقلة).

ـ (أنا لا أعلم أبداً ماذا أقصد في برقياتي ـ خاصةً تلك التي أُرسلها من أميركا، فالوضوح مكلف جداً. إنزِلْ إلى والدكَ).

قال رالف: (لم تبلغ بعد الثامنة إلا ربعاً).

أجابت السيدة تاتشيت: (يجب أن أراعي نفاد صبره).

عرف رالف ما يجب عليه أن يتذكر عن نفاد صبر والده، لكنه قدم ذراعه لوالدته بدون أن يجيب. شجعه ذلك، وهما ينزلان سويةً، ليوقفها للحظة في منتصف النزول من السلّم ـ سلّمٌ عريض، رحب، مصنوع من البلوط الذي اسْوَدَّ بفعل الزمن، والذي كان إحدى الميزات الأكثر سحراً لجاردن كورت. فابتسم: (أليس لديكِ نيّة بتزويجها؟).

ـ (تزويجها؟ سأكون حزينةً لألعب عليها خدعةً كهذه! لكن بعيداً عن ذلك، إنها قادرة تماماً على تزويج نفسها. فلديها كل التسهيلات)

ـ (هل تقصدين أن تقولي بأنها اختارت زوجاً؟).

ـ (لا أعلم بشأن زوج، لكن هناك شاباً في بوسطن....!). فواصل رالف الكلام، إذ لم تكن لديه رغبة بأن يسمع عن الشاب الذي في بوسطن: (كما يقول والدي، هن دائماً مخطوبات!).

كانت والدته قد أخبرَتْهُ بأنه يجب أن يُشبع فضوله من الأساس، وسرعان ما أصبح واضحاً بأنه لن يعوزه السبب. فقد حظي بقدرٍ لا بأس به من الحديث مع قريبته الشابة عندما تُرِكَ الاثنان معاً في غرفة الاستقبال.

أما اللورد واربيتون ـ الذي كان قد جرى بالحصان حوالي عشرة أميال من بيته ـ عاد وامتطى الحصان وغادر قبل العشاء. وبعد ساعةٍ من انتهاء وجبة الطعام هذه، انسحب السيد والسيدة تاتشيت اللذان بدا أنهما فرغا تماماً من الشكليات، إلى حجرتيهما، تحت الذريعة الشرعية التعب.

أمضى الشاب ساعةً واحدة مع ابنة خالته. أما هي، فعلى الرغم من أنها كانت مسافرة لنصف اليوم، إلا أنها بدت وكأنها لم تُمضِ وقتاً إلى هذا الحد. لقد كانت متعَبة حقاً، وقد عرفَتْ ذلك، وعرفَتْ بأنها ستدفع ثمن ذلك في الصباح. لكن كان من عاداتها في هذه الفترة أن تتحملِ التعب إلى آخر درجة وتعترف بذلك فقط عندما ينهار التصنُّع. فبعض التصنُّع الجيد كان مستطاعاً في الوقت الحالي. كانت متشوِّقةً، أو كما قالت لنفسها، كانت تعوم.

طلبَتْ من رالف أن يريها اللوحات، فقد كان هناك عدد كبير جداً منها في المنزل، معظمها من اختياره الخاص. كانت أفضلها مرتبة في رواقٍ بلوطيٍّ ذي أبعادٍ رائعة، والذي اشتمل على غرفة جلوس عند كل نهاية منه، والتي تضاء عادةً في المساء.

لم يكن الضوء كافياً إلى الحد المناسب ليريها اللوحات، وقد تُعَلَّق الزيارة ليوم غد؛ لقد تجرأ رالف بإبداء هذا الاقتراح. لكن بدت إيزابيل خائبة الأمل. رغم ذلك، بقيت مبتسمة ـ وقالت: (لو سمحت، أود أن أراها قليلاً فقط). لقد كانت متحمسة وعرفَتْ بأنها كانت متحمسة، والآن ظهرَتْ كذلك، فهي

لم تحتمل ذلك. قال رالف لنفسه: (إنها لا تحتمل الاقتراحات) لكنه قالها بدون انزعاج، فقد رقّه عنه إلحاحُها، بل حتى أسعده.

كانت المصابيح على حواملها وبينها مسافات معينة، وكان الضوء معتدلاً، إن لم يكن مشوشاً وقد سقط على مربعاتٍ ضبابية غنية بالألوان وعلى الطلاء الذهبي الباهت للأُطُر الضخمة، وعملتْ بريقاً على أرضية الرواق الصقيلة. أخذ رالف شمعداناً وتجوّل حول الغرفة وهو يشير إلى الأشياء التي أحَبَّها. استرسلَتْ إيزابيل في صيحاتِ تعجبٍ قليلة وتمتمات وهي تنحني للوحةٍ تلو أخرى. كانت خبيرةً بشكلٍ واضح، فقد امتلكَتْ ذوقاً فطرياً، وقد دُهش لذلك. أخذَتْ بنفسها شمعداناً وحملَتْهُ على مهلٍ هنا وهناك. رفعَتْهُ عالياً، وحينما فعلَتْ ذلك، وجد نفسه يتوقف وسط المكان وهو يثبت عينيه على اللوحات أقل بكثير مما على تواجدها. في الحقيقة، لم يخسر شيئاً بهذه النظرات الهائمة لأنها كانت تستحق النظر أكثر من معظم الأعمال الفنية. لقد كانت نحيلةً بشكلٍ لا يمكن إنكاره، وخفيفةً بشكلٍ يمكن وزنه، وطويلةً بشكلٍ يمكن قياسه. عندما كان الناس يرغبون بتمييزها عن الآنستين آرتشر الأخريين، يسمونها دائماً بالصفصافة. فشعرها، الذي كان داكناً بل مائلاً للسواد، كان باعثاً على الحسد للكثير من النساء. وعيناها الرماديتان الفاتحتان، الحازمتان قليلاً ربما في لحظاتها الأكثر جدية، تمتلكان اتساعاً ساحراً من البراءة.

سارا على مهلٍ من أحد جوانب الرواق إلى الجانب الآخر، ثم قالت: (حسناً، الآن، أنا الآن أعلم أكثر مما علمتُ عندما بدأتُ!).

فرد عليها ابن خالتها: (يظهر أن لديكِ شغفاً شديداً بالمعرفة).

ـ (أعتقد ذلك، فمعظم الفتيات جاهلات بشكلٍ رهيب).

ـ (أنتِ تدهشينني لأنكِ مختلفة عن معظم الفتيات).

تمتمت إيزابيل التي فضَّلَتْ أن لا تسهب الآن عن نفسها: (آه، بعضهن سيدهشنكَ ـ عدا الطريقة التي يتحدثن بها!). ثم استمرت بسرعة لتُغيّر الموضوع: (أخبِرني من فضلك ـ أليس هناك شبح؟).

ـ (شبح؟).

ـ (شبح قلعة. شيء يظهر. نحن في أميركا نطلق عليهم أشباح).

ـ (نطلق عليهم ذلك هنا أيضاً عندما نراهم).

ـ (إذن، أنتم ترونهم فعلاً؟ يُتَوَقَّع ذلك، في هذا البيت العتيق الرومانسي).

قال رالف: (إنه ليس بيتاً عتيقاً رومانسياً. ستكونين خائبة الأمل لو ظننتِ ذلك. إنه بيت عادي بشكلٍ موحش. لا توجد رومانسية هنا سوى تلك التي جَلَبْتِها معكِ).

ـ (جلبتُ قدراً لا بأس به. لكن يبدو لي بأنني جلبتُها إلى المكان الصحيح).

ـ (لكي تحافظي عليها من الأذى بالتأكيد. إذ لن يحدث لها شيء هنا أبداً بين أبي وبيني).

نظرَتْ إيزابيل إليه لبرهة: (ألا يوجد أحدٌ هنا أبداً سوى والدكَ وأنت؟)

ـ (والدتي طبعاً).

ـ (أوه، أعلم بشأن والدتكَ. إنها غير رومانسية. أليس عندكم أناس آخرون؟)

ـ (قليل جداً).

ـ (أنا آسفة لذلك، فأنا أحب كثيراً جداً أن أرى أناساً).

قال رالف: (أوه، سندعو كل البلاد لتسلّيكِ).

أجابت الفتاة بشكلٍ ساهم: (الآن أنت تسخر مني. من هو السيد الذي كان في المرج عندما وصلتُ؟)

ـ (إنه جارٌ من إحدى المقاطعات. إنه لا يأتي دائماً).

قالت إيزابيل: (أنا آسفة لأجل ذلك، فقد أحببتُه).

فاعترض رالف: (عجباً، فقد بدا لي أنكِ بالكاد تحدثتِ معه).

ـ (هوِّنْ عليكَ، فأنا أحبه بنفس القدر، وأحب والدكَ أيضاً بشكلٍ كبير).

ـ (لا يمكنك أن تفعلي أفضل من ذلك، فهو أعز من العزيز).

قالت إيزابيل: (أنا حزينة جداً لأنه مريض).

ـ (يجب عليكِ أن تساعديني للاهتمام بهِ. يحسن أن تكوني ممرضة جيدة).

فأضافت: (لا أعتقد بأنني كذلك، فقد قيل لي بأن لدي الكثير جداً من النظريات. لكنكَ لم تخبرني عن الشبح).

لم يكترث رالف رغم ذلك لهذه الملاحظة: (بما أنكِ تحبين أبي وتحبين اللورد واربيرتون، أستنتجُ أيضاً بأنكِ تحبين أمي).

ـ (أنا أحب والدتكَ كثيراً جداً بسبب ـ بسبب....). ووجدتْ إيزابيل نفسها وهي تحاول أن تحدد سبباً لعاطفتها تجاه السيدة تاتشيت. فقال مرافقها ضاحكاً: (آه، لن نعرف السبب أبداً!).

أجابت الفتاة: (أنا أعرف السبب دائماً، وهو أنها لا تنتظر أحداً أن يحبها. فهي لا تهتم فيما إذا أحدٌ يحبها أم لا).

قال رالف: (إذن أنت تعشقين ـ سوء طبعها؟ حسناً، أنا أقتدي بأمي بشكلٍ كبير).

ـ (أنا لا أعتقد بأنكَ تقتدي بها مطلقاً، فأنتَ ترغب من الناس أن يحبوك وتحاول أن تجعلهم يحبوك).

فصاح بذعر والذي لم يكن ظريفاً أبداً: (يا إلهي كيف تفهمين المرء!). فواصلت ابنة خالته الكلام: (لكنني أحبكم جميعاً بنفس القدر. ستكون الطريقة التي تحسم بها الموضوع هي أن تريني الشبح).

هز رالف رأسه بشكلٍ حزين وقال: (يمكنني أن أريه لكِ لكنكِ لن ترينه أبداً، فهذا الشرف لا يُمنح لأي أحد، فهو أمرٌ غير مرغوب فيه. فهو لن يُرى

أبداً من قبل شخصٍ شاب، سعيد، بريء مثلكِ. إذ يجب أن تعاني أولاً، تعانين بشكلٍ كبير، وأن تكتسبي معرفةً بائسة. فبتلك الطريقة تكون عيناكِ منفتحتين له. لقد رأيتُه منذ مدة طويلة).

أجابت إيزابيل: (لقد أخبرتكَ للتو فقط بأنني مولعة جداً بالمعرفة).

ـ (نعم، بالمعرفة السعيدة ـ بالمعرفة الممتعة. لكنكِ لم تُعانِي وغير مستعدة لتعاني. آمل أن لا تري الشبح أبداً!).

لقد أصغت له باهتمامٍ وعلى شفتيها ابتسامة، لكن بجاذبية أكيدة في عينيها. كانت قد أدهشَتْهُ لأنها جريئة نوعاً ما، مثلما وجدها فاتنة ـ في الحقيقة كان ذلك جزءاً من سحرها وتساءل ماذا ستقول، فقالت: (أنا لستُ خائفة وأنتَ تعلم ذلك)، وهو ما بدا جريئاً جداً تماماً.

ـ (ألستِ خائفة من المعاناة؟).

أضافت: (نعم أنا خائفة من المعاناة، لكنني لستُ خائفة من الأشباح. وأنا أعتقد أن الناس تعاني بسهولة جداً).

فقال رالف وهو ينظر إليها ويداه في جيوبه: (أنا لا أعتقد بأنكِ تعانين).

أجابت: (أنا لا أرى بأن ذلك عيبٌ، إذ ليس من الضروري مطلقاً أن تعاني، فنحن لم نُخلَق لذلك).

ـ (أنتِ التي لم تُخلَقي لذلك بالتأكيد).

ـ (أنا لا أتحدث عن نفسي). وابتعدَتْ قليلاً.

قال ابن خالتها: (كلا، إنه ليس عيباً. بل أن تكون قوياً هو من الفضائل).

علقت إيزابيل: (سيطلقون عليكَ قوياً، فقط إن لم تعانِ).

خرجا من غرفة الاستقبال الأصغر التي كانا قد عادا إليها من الرواق، وتوقفا في القاعة عند أسفل السلّم. هنا قدّم رالف لمرافقته شمعتها التي كان قد أخذها من أحد الأركان: (لا تبالِي بما يطلقون عليكِ. فعندما تعانين

سيطلقون عليكِ البلهاء، فالغاية العظيمة هي أن تكوني سعيدة قدر الإمكان).

نظرَتْ إليه قليلاً. كانت قد أخذَتْ شمعتها ووضعَتْ قدمها على السلم البلوطي وقالت: (حسناً، ذلك هو ما أتيتُ إلى أوروبا لأجله، وهو أن أكون سعيدة قدر الإمكان. طاب مساؤكَ).

ـ (طاب مساؤكِ! أتمنى لكِ كل الموفقية، وسأكون مسروراً للغاية بالمساهمة فيها!)

فاستدارت مبتعدةً وراقبها وهي تصعد على مهلٍ. ثم عاد إلى غرفة الاستقبال الفارغة ويداه دائماً في جيوبه.

***



الفصل 6

كانت إيزابيل آرتشر شابةً تمتلك نظريات عديدة، وكان خيالها نشطاً بشكلٍ ملفت للنظر. كان قدرها أن تمتلك عقلاً أكثر تميزاً من معظم الأشخاص الذين رماها القدر بينهم، وأن تمتلك إدراكاً أكبر للحقائق المحيطة بها، وأنْ تهتم بالمعرفة المُطَعَّمة بالجهل. الحقيقة هي أنها بدت بين معاصريها كشابةٍ ذات عمق استثنائي في التفكير، لأن هؤلاء الناس المتميزين لا يعيقون أبداً إعجابهم من أن يصل إلى فهمِ ما لا يدركونه هم أنفسهم، وتحدثوا عن إيزابيل كأعجوبةٍ في التعليم، مخلوقة يُروى عنها أنها تقرأ للأدباء الكلاسيكيين ـ أي كتبهم المترجمة. نشرَتْ عمتُها، السيدة فيريان، في إحدى المرات إشاعةً بأن إيزابيل كانت تؤلف كتاباً ـ كانت السيدة فيريان تكنّ احتراماً للكتب، وأكدَتْ أن الفتاة ستصبح مشهورة عند طباعته. كانت السيدة فيريان تحترم الأدب، والكتب التي تمتعتْ بذلك الاحترام هي تلك الكتب المتعلقة بشعور الحرمان. كان بيتها الكبير الملفت للنظر لتناسق الموائد الفسيفسائية والسقوف المزخرفة، غير مجهز بمكتبة ولم يحتوِ سوى على نصف دزينة من الروايات المطبوعة على شكل مجلدات على رفٍّ في حجرةِ إحدى الآنسات فيريان. كانت معرفة السيدة فيريان عملياً بالأدب محددة بصحيفة النيويورك إنترفيوَر. فبعد أن تكون قد قرَأتَ الإنترفيوَر تكون قد فقَدْتَ كل إيمانكَ بالحضارة، كما قالت بشكلٍ منصف جداً. هدفها من هذه المقولة هو إلى حدٍّ ما لتُبعِدَ الإنترفيوَر عن طريق بناتها، فقد كانت عازمة على تربيتهن بالشكل الصحيح. ولم يقرأنَ شيئاً مطلقاً. أما انطباعها فيما يخص أعمال إيزابيل فقد

كانت وهميةً تماماً. فالفتاة لم تحاول أبداً تأليف كتابٍ، ولم يكن لديها رغبة لأمجاد التأليف، فهي لم تمتلك موهبة التعبير، والقليل جداً من وعي الإنسان العبقري. كانت لديها فقط فكرة عامة بأن الناس محقون عندما يعاملونها وكأنها متفوقة بعض الشيء.

فسواء كانت متفوقة أم لا، فالناس كانوا محقين بالإعجاب بها لو ظنوها كذلك، لأنه بدا لها دائماً أن عقلها يتحرك أسرع من عقولهم، وشجّع ذلك تَبرُّماً قد يُخلَط بسهولة بينه وبين الاستعلاء. يمكن الجزم وبدون إبطاء أن إيزابيل كانت على الأرجح عُرضةً تماماً لخطيئة احترام الذات؛ فهي دائماً ما تستقصي وبإعجابٍ حدود طباعها، وكانت معتادة على التسليم جدلاً بأنها محقة استناداً إلى دليل غير كافٍ؛ تُعامِل نفسها على أساس من التقدير. بينما كانت أخطاؤها وهواجسها دائماً كأخطاء وهواجس كاتب سيرة ذاتية مهتم بالحفاظ على أهمية موضوعه ويبتعد عن التفصيل. كانت أفكارها عبارة عن تشابكٍ من الاختصارات المبهمة والتي لم تُصَحَّح أبداً بآراءِ أناسٍ يتكلمون على أساس الخبرة.

فيما يخص الاعتقاد، كان لديها طريقتها الخاصة، وقد قادها ذلك إلى ألف طريق متعرج سخيف. عندما تكتشف في لحظات معينة بأنها كانت مخطئة على نحوٍ بشع، تقوم بمعاملة نفسها بإذلالٍ عميق لمدة أسبوع، بعد ذلك تقوم برفع رأسها عالياً ثانيةً أكثر من ذي قبل، لأن الأمر سيكون بلا جدوى، فهي لديها رغبة عطشى في أن يكون لديها رأيٌ مناسبٌ عن نفسها. لديها رأي بأن الحياة تستحق العيش فقط تحت هذا الشرط: وهو على المرء أن يكون واحداً من أفضل الناس، وأن يكون مدركاً للانضباط الدقيق (لم تصبر على معرفة أن انضباطها كان دقيقاً)، وأن يتحرك ضمن عالمٍ من النور، من المعرفة العفوية، من الدوافع البهيجة، من الإلهام الدائم. لم يكن من الضروري تقريباً زرع الشك في أنفسنا مثلما هو غير ضروري زرع الشك في نفس أفضل صديق:

ينبغي على المرء أن يحاول أن يكون أفضل صديق لنفسه وأن يمنح لنفسه بهذه الطريقة رفقة مميزة.

امتلكت الفتاة خيالاً رفيعاً بشكلٍ مؤكد والذي قدّم لها خدمات لا بأس بها ولعب عليها حيلاً كثيرةً جداً. لقد أمضت نصف عمرها في التفكير بالجمال والشجاعة والشهامة. كان لديها قرارٌ ثابتٌ في اعتبار العالم مكاناً من التألق، من التوسع الحر، من الأحداث التي لا تُقاوَم: إذ اعتبَرَتْ أن من البغيض أن تكون خائفاً أو خجلاً. كان لديها أمل أبدي بأن لا تفعل أبداً أي شيء خاطئ. ولقد استاءت بشدة من الأخطاء المحضة التي في مشاعرها بعد أن اكتشَفَتْها (وقد جعلها هذا الاكتشاف دائماً ترتعد وكأنها فرَّتْ من مصيدةٍ كانت ستمسك بها وتخنقها) بحيث إن فرصة إيقاع أذى محسوسٍ بشخصٍ آخر تواجَدَ فقط بالصدفة يجعلها في بعض الأحيان تحبس أنفاسها. فذلك يصعقها دائماً كأسوإِ شيء ممكن أن يحدث لها. بالمجمل، لو تأملنا الأمر، فهي لم تكن جاهلةً بالأمور الخاطئة، بل لا تحب مظهرها، لكنها تعترف بها عندما تصححها بصعوبة.

من الخطإِ أن تكون أنانياً، أن تكون حسوداً، أن تكون مخادعاً، أن تكون قاسياً؛ فقد رأت القليل جداً من شرور الحياة، لكنها رأت نساءً كَذَبْنَ وحاولن أذية بعضهن البعض. إن رؤية أمورٍ كهذه أثار روحها السامية؛ إذ بدا أنه من غير اللائق أن لا تستهجنها. إن ما يعرّض الروح السامية للخطر كان خطر التناقض طبعاً ـ خطر الحفاظ على الراية بعد هجر الميدان، وهو نوع مخادع جداً من السلوك وكأنه تقريباً إهانة للراية. لكن إيزابيل، التي لم تعرف الكثير عن السلاح الثقيل الذي تكشف عنه النساء الشابّات، أطْرَتْ نفسها بأنّ هذه التناقضات ما كانت ستُلاحَظ أبداً في سلوكها. إذ ينبغي أن تكون حياتها منسجمة دائماً مع ألطف الانطباعات التي ستكوّنُها، فهي ستكون ما ظهرت عليه وستظهر على ما كانت عليه. أحياناً تذهب بعيداً بتمنيها أن تجد نفسها يوماً ما في موقفٍ

صعب بحيث ستستمتع بشرف البطولة كما يتطلب الموقف. عموماً، فهي بمعرفتها الضئيلة، وبمثالياتها المتكلّفة، وبثقتها البريئة والعمياء، وبمزاجها العنيف والمتسامح، وخليط الفضول والرقة، الحيوية واللامبالاة، وبرغبتها بالظهور بمظهرٍ جيد، وبأن تكون حتى الأفضل إن أمكن، وبإصرارها على أن تفهم، أن تجرّب، أن تعرف، وتركيبتها التي تجمع بين الروح الرقيقة العفوية المتوهّجة مع إنسان الظروف المتحمس والمتفرّد: كانت ستصبح ضحيةً سهلةً للنقد العلمي إنْ لم تكن عازمة على أن تثير من جانب القارئ دافعاً أكثر حساسية وأكثر ترقباً بمعنى الكلمة. إحدى نظرياتها هي أن إيزابيل آرتشر كانت محظوظةً جداً في كونها مستقلة وأنها يجب أن تستغل هذه الحالة. لم تُطلِق عليها أبداً حالة العزلة أقل مما تطلق عليها حالة البقاء بمفردها، فقد ظنت أن أوصافاً كهذه ضعيفة. وإلى جانب ذلك، حثَّتها أختها ليلي باستمرار بأن تأتي وتقيم معها.

كانت لديها صديقةٌ تعرَّفَتْ عليها بعد وفاة والدها بفترة قصيرة، والتي كانت مثالاً سامياً جداً للنشاط النافع بحيث اعتبرَتْها إيزابيل دائماً قدوة. تمتاز هنريتا ستاكبول بكفاءةٍ مثيرة للإعجاب. انطلقَتْ في مجال الصحافة بشكلٍ بارع، وكانت رسائلها إلى صحيفة الإنترفيوَر من واشنطن، نيوبورت، ذا وايت ماونتينز، وأماكن أخرى، تُقتبَس عالمياً. صرّحَتْ إيزابيل بثقة بأنها مقولات «عابرة». لكنها احترمَتْ شجاعة ومقدرة والحس الفكاهي للكاتبة التي لم يكن لديها والدان وأملاك وتبنَّتِ الأبناء الثلاثة لأختها المُقْعَدة والأرملة، وكانت تدفع فواتير مدارسهم من إيرادات عملها الأدبي. كانت هنريتا في طليعة الارتقاء، ولديها آراءٌ واضحة في معظم الأمور. كانت رغبتها الباقية في ذهنها منذ مدة طويلة، هي أن تأتي إلى أوروبا وتكتب سلسلة من الرسائل إلى الإنترفيور من وجهة نظر ثورية ـ وهي المغامرة الأقل صعوبة، لأنها عرفت تماماً مقدّماً إلامَ ستدعو آراؤها، والى كمِّ الاعتراضات التي ستركّز عليها

معظم المؤسسات الأوروبية. عندما سمعَتْ أن إيزابيل كانت قادمة، رغبَتْ بأن تنطلق على الفور ظنّاً منها طبعاً بأنه سيكون من الممتع أن تسافر الاثنتان معاً. رغم ذلك، اضطرَّتْ لتأجيل هذه المغامرة.

لقد رأت إيزابيل إنسانةً رائعة ولمَّحَتْ لها في بعض كتاباتها رغم أنها لم تذكر هذه الحقيقة أبداً لصديقتها التي ما كانت لتُسَرّ بها والتي لم تكن متابِعة منتظمة للإنترفيوَر. كانت هنرييتا، بالنسبة لإيزابيل، برهاناً على أن المرأة يمكنها أن تكفي نفسها بنفسها وأن تكون سعيدة. كانت مصادر معلوماتها واضحة؛ لكن حتى وإن لم يمتلك المرء الموهبة الصحفية، وعبقرياً في التخمين، كما قالت هنرييتا، فإن ما سيرغب به العامة هو شخص لا يستفيدون منه من خلال ذلك، شخصٌ لا يمتلك رسالةً ولا موقفاً مفيداً من أي نوع، وأن يستسلم لأن يكون تافهاً وفارغاً. لقد قررَتْ إيزابيل بشجاعة أن لا تكون فارغة. فلو صبر المرء الصبر الجميل فسيلاقي النتيجة الملائمة. لم تكن هذه السيدة الشابة طبعاً، من بين نظرياتها، بلا مجموعةٍ من الآراء التي تخص موضوع الزواج. كان في مقدمة اللائحة هو اقتناعها ببذاءة التفكير فيه بشكل كثيراً جداً. ولقد صَلَّتْ بصدق بأن تتمكن من التحرر من الانحدار إلى الشغف به. فقد اعتقدَتْ بأن على المرأة أن تكون قادرة على العيش بمفردها بغياب هذا الضعف الاستثنائي، وأن بمقدورها تماماً أن تكون سعيدة بدون رفقة شخصٍ رديء التفكير نوعاً ما من الجنس الآخر. لقد أُجيبَتْ صلاة الفتاة بشكلٍ وافٍ جداً، فقد كان هناك في داخلها شيء ما حرّاً ومستبداً ـ شيء ما قد يقوم خاطبٌ غير فاهم وميّال للإيجاز بتسمية هذا الشيء بارداً وقاسياً ـ منعها لحد الآن من التفاخر الكبير بالتكهن في موضوع الأزواج المحتمَلين، إذ إن القليل من الرجال الذين رأتهم من بدا أنه يستحق الفناء المهلك، وقد أضحكَتْها فكرة أن على أحدهم أنْ يتقدم للزواج كباعثٍ للأمل ومكافأة على الصبر.

قبع عميقاً في نفسها ـ حيث تتواجد أعمق الأشياء هناك ـ ايمانٌ بأنه إنْ بزغَ بعض الضوء فسيمكنها أن تمنح نفسها تماماً؛ لكن عموماً من المرعب جداً أن تكون هذه الفكرة جذّابة. لقد حامت أفكار إيزابيل حول هذه الفكرة، لكن نادراً ما تستقر عليها طويلاً، وبعد فترةٍ قصيرة تنتهي بإنذارات التحذير. لقد بدا لها دائماً أنها فكّرَتْ كثيراً جداً في نفسها. يمكنكَ أن تجعلها تحمرّ خجلاً في أي يوم من أيام السنة حين تسميها بالمغرورة. كانت تخطط دائماً للارتقاء وترغب بالتفوق وتُتابع تطورها. كان لطبيعتها، في تصوّرها، صفة معينة شبيهة بالحديقة، بأثر الأريج وهمهمة الأغصان، والتعريشات الضليلة والأفق الممتد، والتي جعلتها تشعر بأن ذلك التأمل الذاتي كان في النهاية رياضة في الهواء الطلق، وأن زيارةً إلى أعماق روح المرء كانت غير مؤذية عندما يعود المرء منها بحضنٍ مليء بالأزهار. لكن كان دائماً ما يتم تذكيرها بأن هناك حدائق أخرى في العالم غير حدائقها الرائعة، وأن هناك علاوة على ذلك أماكن كثيرة جداً والتي ليست بحدائق إطلاقاً بل فقط مناطق مزعجة ومظلمة مزروعة بكثافة بالقبح والبؤس. وضمن تيار حب الاستطلاع الذي كانت تعوم عليه مؤخراً والذي أوصَلَها إلى إنجلترا العتيقة هذه، والذي قد يحملها ثانيةً إلى أبعد من ذلك، قامت دائماً بالتحقق من تفكير آلاف الناس الذين كانوا أقل سعادةً منها ـ وهي فكرةٌ جعلَتْها لوهلةٍ في أحسن حال، فالفهم التام يظهر كنوع من التكبّر. ماذا على المرء أن يفعل لنفسه وشقاء الحياة موجود في مخطط الطيبين؟ يجب الاعتراف بأن هذه المسألة لم تُعِقْها طويلاً، فقد كانت صغيرةً جداً في السن، متلهفةً جداً على الحياة، جاهلةً جداً بالمعاناة. إنها تعود دائماً إلى نظريتها، وهي أنه ينبغي على الشابّة التي ظنّ كل شخصٍ في النهاية أنها ذكية، أن تبدأ بالحصول على انطباعٍ عام عن الحياة. كان هذا الانطباع ضرورياً لمنع الأخطاء، وبعد أن يتم تحقيقُ ذلك، قد تجعل الظرف البائس للآخرين موضوعاً لاهتمامها الخاص.

كانت إنجلترا بالنسبة لها إلهاماً، وقد وجدتْ نفسها مسرورة كطفلٍ وهو في مرحلة الإيماء. كانت في رحلاتها إلى أوروبا وهي طفلة قد رأت فقط البر الرئيسي، ورأته من نافذة غرفة الأطفال. كانت باريس، وليست لندن، هي قِبْلَةَ والدها، وطبعاً لم يتغلغل أطفاله في اهتماماته العديدة. وعلاوة على ذلك، كانت مَشاهد ذلك الوقت تزداد بهتاً وبُعداً، وامتلكَتْ أرستقراطية العالم القديم الذي رأته الآن في كل شيء، كل السحر والغرابة.

بدا بيت زوج خالتها كلوحةٍ دبَّتْ فيها الحياة، ولم توجد زينة جميلة قد فاتت إيزابيل؛ فالإتقان الفخم لجاردن كورت قد كشف على الفور عن عالمٍ وأشبَعَ حاجةً. فالغرف الكبيرة الواطئة ذات السقوف البنيّة والأركان المعتمة، الكِوى التي في الجدران والنوافذ المثيرة للفضول، الضوء الخافت على الألواح المعتمة والمصقولة، واللون الأخضر الغامق خارجاً الذي بدا دائماً وكأنه يسترق النظر إلى الداخل، إحساس العزلة المُنَسَّقة جيداً وسط «الملحق» ـ وهو مكانٌ حيث تكون فيه الأصوات عابرة بشكلٍ رائع وحيث يُكتَم صوت الخُطى بفعل الأرضية نفسها، وتُزال من الجو اللطيف كل حِدّةِ الكلام وكل صخبِ الحديث؛ كانت كثيرةً على ذوق سيدتنا الشابة التي لعبَ ذوقها دوراً كبيراً في عواطفها.

كوَّنت صداقةً سريعة مع زوج خالتها وجلسَتْ مراراً بجانب كرسيه عندما نقله خارجاً إلى المرج. لقد أمضى ساعاتٍ في الهواء الطلق وهو جالس ويداه مطويتان كإله المنزل[1] الهادئ العطوف، إله خدماتٍ أنهى مهمته وتلقّى أجره وكان يحاول الذهاب لأسابيع وشهورٍ تكوَّنَتْ من أيام الإجازة فقط. لقد سلَّتْهُ إيزابيل أكثر مما ظنَّتْ ـ كان التأثير الذي تولده في الناس مختلفاً دائماً عن ما تتخيل ـ وهو منح لنفسه عادةَ شرف جعْلِها تثرثر. كان بهذا التفاهم قد لطَّفَ

(1) آلهة المنزل: هو إله أو روح تحمي المنزل وتعتني بكامل الأسرة، وكان اعتقاداً شائعاً في الوثنية في أجزاء كثيرة من العالم. (المترجمة).

من حديثها الذي امتلَكَ الكثير من الحدّة التي تُلاحَظ في حديث السيدات الشابات لبلدها، واللواتي تُمنَح لهن فوراً آذان العالم أكثر مما تُمنَح لأخواتهن في بلدانٍ أخرى. إن إيزابيل، كمعظم الفتيات الأميركيات، قد شُجِّعَتْ للتعبير عن نفسها، وأُبدِيَ الاهتمام بتعليقاتها، وكان يُتَوَقَّع بأنها تمتلك حماسة وآراء. لكن بلا شك لم تعد للعديد من آرائها سوى قيمة هزيلة، وضاع الكثير من حماسها عند التحدث، لكن ذلك قد ترك أثراً بالإضفاء عليها طابع التظاهر بأنها على الأقل تشعر وتفكر، وبالإسباغ أيضاً على كلماتها عندما تتأثر فعلاً، ذلك الوضوح الصاعق الذي اعتبَرَهُ الكثير جداً من الناس علامة على التفوق.

اعتاد السيد تاتشيت أن يفكر بأنها ذكَّرَتْهُ بزوجته عندما كانت زوجته في مرحلة مراهقتها. فلأنها كانت حيوية وعفوية وسريعة الفهم ـ وهي صفات ابنة أختها إن جاز التعبير ـ كان قد وقع في حب السيدة تاتشيت. رغم ذلك، لم يجاهر إلى الفتاة أبداً بهذا التشابه لأنه إن كانت السيدة تاتشيت يوماً ما تشبه إيزابيل، فإيزابيل لم تكن مطلقاً كالسيدة تاتشيت. كان الرجل العجوز مفعماً بالعطف تجاهها، فقد مرّ وقتٌ طويل، كما قال، منذ أن حظيا بإنسانٍ شاب في المنزل، وإن حفيف ثوب بطلتنا السريعة الحركة، ذات الصوت الواضح، كان مريحاً لشعوره كصوت الماء الجاري. فأراد أن يعمل شيئاً لأجلها ووَدَّ لو تطلبه منه. لكنها ما كانت تطلب منه شيئاً سوى الأسئلة، فمنها طلَبَتِ الكثير، ولزوج خالتها ولعٌ كبير بالإجابة، رغم أن إلحاحها يأتي على أشكالٍ حيّرَتْهُ أحياناً. لقد سألَتْهُ بشكلٍ هائل عن إنجلترا، عن الدستور البريطاني، الشخصية الإنجليزية، أوضاع السياسة، عادات وأعراف العائلة المالكة، خصوصيات النبلاء، طريقة عيش وتفكير جيرانه. وعند توسّلها ليجيبها عن تلك المواضيع، تتساءل عادةً فيما إذا كانت الإجابة تتطابق مع الأوصاف المذكورة في الكتب. نظر إليها الرجل العجوز دائماً بابتسامته الذاوية الرقيقة بينما يقوم بتمليس الوشاح المفروش على ساقيه. قال في إحدى المرات: «الكتب؟ حسناً. أنا لا

أعرف كثيراً عن الكتب. عليكِ أن تسألي رالف عنها، فأنا دائماً أتأكد بنفسي ـ أحصل على معلوماتي بالطريقة الطبيعية. أنا حتى لم أسأل الكثير من الأسئلة، فأنا فقط أبقى صامتاً وأقوم بالملاحظة. حظيتُ طبعاً بفرصٍ جيدة جداً ـ أكثر مما كانت ستحظى به بشكل طبيعي سيدةٌ شابة. فأنا ذو طبعٍ فضولي وإن قد لا تتخيلين ذلك لو راقبْتِني: مع ذلك، كلما راقَبْتِني كثيراً يجب أن أراقبكِ أنا أكثر. فقد كنتُ أراقب هذا الشعب لما يزيد عن الخمسة وثلاثين عاماً ولا أتردد في القول بأنني اكتسَبْتُ معلوماتٍ كثيرة. فهو على العموم بلد لطيف ـ ربما ألطف مما كنا نظن عندما كنا على الجانب الآخر[1]. هناك بعض الإصلاحات التي أود أن أراها تُستَحدَث، لكن لا يبدو بأنهم يشعرون بضرورتها عموماً لحد الآن. فعندما يشعرون عموماً بضرورة شيء ما، يتدبّرون إنجازه عادةً، لكنهم يبدون مرتاحي البال قليلاً بشأن الانتظار حتى ذلك الحين. أنا بالتأكيد أشعر بأنني في وطني وأنا بينهم أكثر مما توقعتُ عندما أتيتُ إلى هنا لأول مرة. أعتقد أن سبب ذلك هو لأنني حظيتُ بدرجةٍ كبيرة من النجاح. فعندما تكون إنساناً ناجحاً، ستشعر أكثر وكأنك في وطنكَ بشكلٍ طبيعي).

فسألَتْ إيزابيل: (هل تعتقد بأنني لو كنتُ إنسانةً ناجحة فسأشعر وكأنني في وطني؟)

ـ (يجب أن أعتقد بأنه ممكن جداً، وأنكِ بالتأكيد ستكونين إنسانة ناجحة. فهنا يحبون كثيراً جداً السيدات الأميركيات الشابات ويُظهرون لهن القدر الكبير من العطف. لكن لا يجب عليكِ أن تشعري كثيراً جداً بأنكِ في وطنكِ، تعلمين ذلك).

فأكَّدَتْ إيزابيل بشكلٍ حاسم: (أوه، أنا متأكدة بأنه سيُرضيني بأي حال من الأحوال، فأنا أحب المكان كثيراً، لكنني لستُ متأكدة بأنني سأحب الناس).

ـ (إن الناس، أناسٌ طيبون جداً خصوصاً لو تحبينهم).

---

(1) على الجانب الآخر: يقصد أميركا. (المترجمة)

ردّت إيزابيل: (ليس لدي شك بأنهم طيبون، لكن هل هم طيبون عندما تكون بصحبتهم؟ فهم لن يسرقوني ولن يضربوني، لكن هل سيرضونني؟ هذا ما أود من الناس أن يفعلوه. أنا لا أتردد بقول ذلك لأنني أفهم ذلك دائماً. أنا لا أعتقد بأنهم لطفاء جداً مع الفتيات، فهم ليسوا لطفاء معهن في الروايات).

قال السيد تاتشيت: (أنا لا أعلم عن الروايات. أعتقد بأن الروايات تمتلك القدر الكبير من البراعة، لكني لا أعتقد بأنها دقيقة جداً. ففي إحدى المرات مكثَتْ لدينا هنا سيدة تكتب روايات. كانت صديقةً لرالف وطلب منها أن تنزل لدينا. كانت عمليّة جداً وثائرة تماماً على كل شيء. لكنها لم تكن من نوع الأشخاص الذين يمكنكِ الاعتماد عليهم كدليل. كانت خيالية جداً بشكلٍ مطلق ـ أعتقد بأن هذا ما كانت عليه. بعد ذلك، قامت بنشر عمل روائي من وحي الخيال تبيَّنَ من خلاله أنها قامت بوصفي بشكلٍ يمكنكِ القول بأنه كاريكاتيري. أنا لم أقرأه، لكن رالف ناولَني فقط الكتاب مؤشّراً على الفقرات الهامة. لقد تبيَّن بأنه وصفٌ لكلامي عن: الطباع الأميركية، التكلم بخُنّة، عقائد الأميركيين، عَلَم أميركا. حسناً، لم يكن دقيقاً مطلقاً، إذ لم تتمكن من الإصغاء بانتباه. لم يكن لدي اعتراض لكتابتها تقريراً عن كلامي لو أحبَّتْ ذلك، لكنني لم أحب فكرة أنها لم تتعب نفسها بالإصغاء إليه. أنا طبعاً أتحدث كأميركي ـ لا أستطيع أن أتحدث كزنجي. فكيفما أتحدث، أجعلهم يفهمونني جيداً هنا. لكنني لا أتحدث كالرجل العجوز الذي في رواية تلك السيدة، فهو لم يكن أميركياً، وما كنا لنحتويه هناك بأي ثمن. أنا أذكر هذه الحادثة لكي أوضح لكِ فقط بأن الروايات ليست دقيقة دائماً. أنا لم أحظَ بفرصٍ كثيرة لكي أهتم بالسيدات الشابات لأن ليس لدي بنات، ولأن السيدة تاتشيت تقيم في فلورنسا. يبدو أحياناً وكأنّ الشابات من الطبقة الأدنى لا يُعامَلْنَ بشكلٍ جيد، لكني أعتقد بأن وضعهن يكون أفضل في الطبقة العليا وحتى في الوسطى إلى حدٍّ ما).

هتفت إيزابيل: (لطيف. كم هو عدد الطبقات التي لديهم؟. خمسون تقريباً على ما أعتقد).

ـ (حسناً، أنا لا أعلم بأنني أحصيتُها يوماً، فأنا لم أهتم أبداً بالطبقات. وتلك هي فائدة أن تكون أميركياً هنا، وهو أنك لا تنتمي إلى أية طبقة).

قالت إيزابيل: (آمل ذلك. تخيَّلْ أن ينتمي شخصٌ لطبقةٍ إنجليزية!).

ـ (حسناً، أعتقد أن بعضهم يرتاحون نوعاً ما ـ خاصةً تجاه الأعيان. لكن بالنسبة لي هناك طبقتان فقط: الناس الذين أثق بهم، والناس الذين لا أثق بهم. ومن بين تلك الاثنتين يا عزيزتي إيزابيل، أنت تنتمين إلى الأولى).

فقالت الفتاة بسرعة: (أنا ممتنة لكَ كثيراً).

بدت طريقتها أحياناً بتقبُّل الإطراءات جافة نوعاً ما وتخلّصَتْ منها بأسرع ما تستطيع. لكن فيما يخص هذا الأمر، فقد كانت مُساءة الفهم أحياناً. إذ يُظَن بأنها لامبالية تجاهها، بينما هي في الحقيقة كانت ببساطة غير راغبة بإظهار كم أسعَدَتْها بشكلٍ لا متناهٍ. فإظهارها لذلك معناه إظهار الكثير جداً. أضافت: (أنا على يقين بأن الإنجليز تقليديون جداً).

فوافقها السيد تاتشيت: (لديهم كل شيء منظّم بشكلٍ جيد. فكل شيء مقرر مسبقاً ـ لا يهملونه لآخر لحظة).

قالت الفتاة: (أنا لا أحب أن يُقَرَّرَ كل شيء مسبقاً. أنا أحب الشيء الفجائي أكثر).

بدا زوج خالتها مبتهجاً لوضوحها في ما تفضّله، فأجاب: (حسناً، لقد تَقَرَّرَ مسبقاً بأنكِ ستحظين بنجاحٍ كبير. أعتقد بأنكِ ستحبين ذلك).

ـ (لن أحظى بالنجاح لو كانوا تقليديين بشكلٍ سخيف. فأنا على الأقل لستُ تقليدية بشكلٍ سخيف. أنا عكس ذلك تماماً، وهذا ما لن يحبونه).

قال الرجل العجوز: (كلا، كلا، أنت مخطئةٌ تماماً. لا يمكنكِ أن تقرري ماذا سيحبون. إنهم على النقيض تماماً، وتلك هي نزعتهم الأساسية).

فقالت إيزابيل وهي تقف أمام زوج خالتها ويداها ممسكتان بحزام ثوبها الأسود وهي تقلّب نظرها بعناية في المرج: (آه، حسناً، ذلك سيناسبني تماماً!)

***

الفصل 7

أسعَدَ الاثنان نفسيهما مراراً وتكراراً بالحديث عن سلوك الشعب البريطاني وكأنَّ السيدة الشابة قد راق لها ذلك، لكن في الواقع بقي الشعب البريطاني في الوقت الحالي لا مبالياً بالآنسة إيزابيل آرتشر بعمق، والتي رماها حظها في أكثر بيوت إنجلترا كآبةً، على حد قول ابن خالتها. كان رفاق زوج خالتها المصاب بالنقرس قليلين جداً، ولم تكن السيدة تاتشيت تنتظر زيارات من جيران زوجها لأنها لم تُنشئ علاقات معهم. كان لديها ذوقها الخاص رغم ذلك، فقد أحبَّتْ أن تتلقّى بطاقات دعوة. أما بالنسبة لِما يُسَمّى عادةً بالتواصل الاجتماعي، فلديها ميل قليل تجاهه، لكن لم يسعدها شيء أكثر من أن تجد مائدة القاعة الخاصة بها وقد ابْيَضَّتْ بقطعٍ مستطيلة من بطاقات الدعوة الرمزية. لقد أطرت نفسها بأنها كانت امرأة نزيهة جداً وبأنها خبيرة بالحقيقة السائدة التي تقول أن لا شيء في العالم يحصل بلا سبب. لم تلعب دوراً اجتماعياً كسيدة للجاردن كورت، وليس من المفروض أن يُعمَل أدنى حساب لغدوّها ورواحها في البلدة المحيطة. لكن من المؤكد بشكل مطلق بأنها لم تشعر أن عدم الاكتراث بهم هو أمر خاطئ، وأن إخفاقها (المبرَّر جداً حقيقةً) بجعل نفسها مُهمة في الحي، لم يكن له علاقة كبيرة بقسوة تصوراتها عن بلد زوجها المتبناة. وجدت إيزابيل نفسها في الحال في الموقف الفريد بالدفاع عن العُرف البريطاني ضد خالتها. فقد اعتادت السيدة تاتشيت على وضع الدبابيس في هذه الوثيقة المهيبة وشعرَتْ إيزابيل دائماً بدافع لإخراج تلك الدبابيس، ليس لأنها تخيلَتْ بأنها تسبب بضررٍ للورق القديم المتين،

بل لأنه بدا لخالتها بأنها يمكنها الاستفادة بشكلٍ أفضل من حِدّتها. كانت هي نفسها انتقادية جداً، وذلك كان حدثاً طارئاً على عمرها، وجنسها، ووطنيتها. لكنها كانت عاطفية أيضاً، وكان هناك شيء ما في جفاف طبع السيدة تاتشيت جَعَلَ ينابيع أخلاقها تتفجّر.

استفهمت إيزابيل من خالتها: (والآن، ما رأيكِ؟ عندما تنتقدين كل شيء هنا فينبغي أن يكون لديكِ رأي، ورأيكِ لا يبدو بأنه أميركي ـ فقد اعتقدْتِ أن كل شيء هنا غير مناسب تماماً. فأنا عندما أنتقد فلديّ آرائي، وهي أميركيةٌ تماماً!).

قالت السيدة تاتشيت: (يا سيدتي الشابة العزيزة، هنالك آراء عديدة في العالم بعدد الناس العاقلين لكي نأخذ بها. قد تقولين بأن ذلك لا يجعلها كثيرةً جداً!. أميركية؟، ليس بالنسبة للعالم، فذلك محدود بشكلٍ صاعق. فحمداً للّه أن آرائي شخصية!).

فكرَتْ إيزابيل أن هذه هي إجابة أفضل مما اعترَفَتْ به، فقد كانت وصفاً مقبولاً لطريقتها الخاصة بالحكم على الأمور، لكن لم يبدُ من الجيد بالنسبة لها أن تفصح عن ذلك، إذ إن إفصاحاً كهذا على لسان شخصٍ صغير العمر وأقل استناراً بالحكمة من السيدة تاتشيت سيدل على التكبر وحتى على التعجرف. مع ذلك، فقد خاطرَتْ بالتحدث به مع رالف الذي تحدّثَتْ معه كثيراً والذي كان حديثها معه ذا أسلوب سَمَحَ كثيراً بالتهور. فقد اعتاد ابن خالتها أنْ، إنْ صَحَّ التعبير، يمازحها، وأسس معها على الفور لقباً ليمزحا على أي شيء، ولم يكن من النوع الذي يهمل ميزات لقبٍ يُمنَح كهذا. فاتهَمَتْهُ بالافتقاد الغريب للجديّة، وبالضحك على كل الأشياء ابتداءً من نفسه. إن التبجيل الدقيق الذي امتلَكَهُ قد تركَّزَ بأسره على والده، أما بالنسبة للبقية، فقد مارس مزاحه بشكلٍ لامبالٍ على ابن والده، وعلى الرئتين الضعيفتين لهذا الرجل، وعلى حياته العديمة الفائدة، وعلى والدته الرائعة، وأصدقائه

(وبخاصةً اللورد واربيرتون)، وعلى بلده المتبناة والأصلية، وعلى ابنة خالته الساحرة المكتَشَفة حديثاً.

قال لها في إحدى المرات: (أنا أحتفظ بجوقة موسيقية في غرفتي السابقة، تعمل بنظام العزف المستمر وتمنحني خدمتين ممتازتين: تمنع وصول أصوات العالم من الوصول إلى الحجرات الخاصة، وتجعل العالم يعتقد أن الرقص مستمر في الداخل).

لقد كانت الموسيقى الراقصة في الحقيقة هي ما سَمِعْتِهِ عادةً عندما وَصَلْتِ على مسمعٍ من جوقة رالف، وهي أكثر موسيقى الفالس طرباً طافت يوماً في الهواء. إذ وجدَتْ إيزابيل نفسها مراراً متأثرةً بعزف الكمان الأبدي هذا، وودَّتْ أن تشق طريقها عبر الغرفة ـ السابقة، كما أطلق عليها ابن خالتها، وتدخل الحجرات الخاصة. فلم يكن مهماً كثيراً تأكيدُه لها بأنها كانت مكاناً كئيباً جداً، إذ كانت ستُسعَد بأن تأخذ على عاتقها أن تستكشفها وتقوم بترتيبها. فلم تكن سوى قلة ترحيب منه أن أبقاها خارجاً. ولكي تعاقبه على ذلك، وجَّهَتْ إيزابيل ضربات لا حصر لها بسوط سخريتها الشبابية الواضحة. لا بدّ من القول أن سخريتها كانت قد مورست إلى حدٍّ كبير في الدفاع عن النفس، لأن ابن خالتها سلّى نفسه بأن أطلق عليها اسم «كولومبيا»، وعندما يتهمها بالوطنية تستشيط غضباً. لقد رسم لها كاريكاتيراً صُوِّرَتْ فيه كشابةٍ جميلة جداً ملتفة على غرار الموضة السائدة بطيّات العَلَم الوطني. كان رعب إيزابيل الأكبر في الحياة في هذه الفترة من تطورها، هو أن تظهر ضيقة التفكير، وما خافت منه ثانياً بعد هذا هو أن تكون كذلك حقاً. لكنها رغم ذلك لم تتحرج من أن تزخر بإحساس ابن خالتها وتتظاهر بالتحسّر على جمال بلدها الأصلي. فستبقى كأميركية كما كان يسعده أن يشير إليها، وإذا أراد أن يضحك عليها، كانت ستكلّفه بالكثير من العمل. لقد دافعَتْ عن إنجلترا ضد أمه، لكن عندما أنشدَ رالف مدائحه عمداً لكي، على حد قولها، يستفزّها، وجدَتْ

نفسها قادرة على أن تخالفه في نقاط عديدة. بدت طبيعة هذه البلاد العتيقة الصغيرة حلوة بالنسبة لها كطعم إجاصة شهر تشرين الأول، وكان اقتناعها هذا أساسه الأنفس الطيبة التي مَكَّنَتْها من تَقَبُّلِ مزاح ابن خالتها وتردّه بالمثل، وإنْ فَتُرَ حسّها الفكاهي للحظات فليس السبب لأنها عومِلَتْ بقسوة بل لأنها فجأةً شعرَتْ بالحزن تجاه رالف. فقد بدا لها أنه كان يتحدث كالأعمى وأن لديه شجاعة ضئيلة في ما يقول.

في إحدى المرات قالت له: (لا أدري ما هي مشكلتكَ، لكنني أعتقد بأنكَ دجّال كبير).

فأجاب رالف الذي لم يكن معتاداً على أن يُخاطَبَ بقسوةٍ كهذه: (تلك هي صفتكِ أنت).

ـ (أنا لا أدري بِمَ أنت مهتم؟ فأنا لا أعتقد بأنكَ تهتم لأي شيء. أنت لا تهتم حقاً لإنجلترا عندما تمتدحها، أنت لا تهتم لأميركا حتى عندما تتظاهر بالإساءة إليها).

قال رالف: (أنا لا أهتم بشيء سواكِ يا ابنة خالتي العزيزة).

ـ (لو تمكنتُ من تصديق حتى ذلك فسأكون مسرورةً جداً).

فهتف الشاب: (آه، حسناً، سآمل ذلك!).

قد تكون إيزابيل صَدَّقَتْهُ، ولم تكن بعيدةً عن الحقيقة، فقد فكَّر فيها كثيراً وكانت ماثلةً في فكره دائماً. ففي يومٍ ما، عندما كانت أفكاره عبئاً عليه كثيراً، أنعشها وأحياها وصولُها المفاجئ الذي لم يبشّر بشيء والذي كان هديةً كريمة من القدر، مانحةً لها أجنحة وشيئاً ما لتطير من أجله. إذ كان رالف المسكين غارقاً في الاكتئاب لعدة أسابيع، وقبع منظره، الكئيب عادةً، تحت ظلال غيمةٍ أكثر عتمة. فقد ازداد قلقاً على والده الذي بدأ مرض النقرس الذي كان منحصراً في ساقيه، بالصعود إلى مناطق مهلكة أكثر. كان الرجل العجوز مريضاً بشكلٍ خطير في فصل الربيع، وهمس الأطباء لرالف أن نوبةً أخرى لن يكون التعامل معها سهلاً.

لقد بدا للتو بأنه قد تحرر من الألم، لكن رالف لم يتمكن من التخلص من الشك بأن ذلك كان مكيدة العدو الذي ينتظره لينزع سلاحه، وفي حال نجحَتِ الخطة، سيكون هناك أمل قليل في أية مقاومة كبيرة. لقد افترَضَ رالف دائماً أن أباه سيعيش أطول منه ـ أي إن اسمه هو من سيُنادى عليه أولاً. كان الأب والابن رفيقين مقربين، ولم تكن فكرة أن يُترَكَ وحده يتحمل مسؤولية بقايا حياةٍ لا طعم لها، سعيدةً بالنسبة للشاب الذي اتّكَلَ دائماً وضمنياً على مساعدة والده العجوز في الاستفادة القصوى من عملٍ بائس. فمع احتمالية فقدان مشجعه الأكبر، يكون رالف قد فقد فعلاً إلهامه الأوحد. إن توفيا في الوقت نفسه، فسيكون ذلك من الجيد تماماً، لكن بدون تشجيع رفقة والده، فبالكاد يجب عليه أن يصبر لينتظر دوره. لم يكن لديه الدافع ليشعر بأنه لا غنًى عنه بالنسبة لوالدته، فقد كان لديها قاعدة بأن لا تحزن. لقد ذكّر نفسه طبعاً بأن من القسوة بحق والده أن يطلب، من بين الاثنين، مِنَ الطرفِ المسيطر بدلاً من الطرف المذعن أن يشعر بالجرح المحسوس. وتذكَّرَ أن الرجل العجوز كان قد تعامَلَ دائماً مع تكهنه لنهايةٍ مبكرة كسفسطة بارعة سيكون مسروراً بتكذيبها لحد الآن قدر استطاعته بالموت أولاً. لكن من بين الانتصارين اللذين هما تكذيبُ ابن سفسطائي، والتمسك لفترة أطول بهذا التكذيب، مع كل الإخفاقات التي تمتع بها، لم يَعتبِر رالف أن من الخطيئة أن يطلب التنازل عن الأخيرة للسيد تاتشيت.

كانت تلك مسائل لطيفة، لكن وصول إيزابيل أنهى حيرته بشأنها، بل حتى ظهر بأنه قد يكون وصولها تعويضاً عن الضجر غير المحتمل لصمود والده الكريم. لقد تساءَلَ فيما إذا كان يحمل «حباً» لهذه الشابة العفوية التي من ألباني، لكنه قرر عموماً بأنه لم يكن كذلك. فبعد أن عرفها لأسبوعٍ واحد، استقَرَّ على هذا الرأي تماماً. كان اللورد واربيرتون محقاً بشأنها، فقد كانت شخصاً صغيراً مثيراً للاهتمام فعلاً. فتساءل رالف كيف اكتشَفَ جارُه ذلك

بسرعة. ثم قال: إن ذلك كان فقط برهاناً آخر على القدرات العالية لصديقه التي أُعجِبَ بها دائماً بشكلٍ كبير. إن لم تكن ابنة خالته أكثر من ضيفة بالنسبة له، فرالف كان مدركاً بأنها كانت ضيفةً ذات طرازٍ رفيع.

قال لنفسه: (أنْ ترى شخصيةً مؤثرةً كهذه، لهو قوة حماسية صغيرة حقيقية، لهو أرق شيء في الطبيعة. إنها أجمل من أكثر أعمال الفن جمالاً ـ من النقوش الإغريقية، من تيتيان العظيم، من كاتدرائيةٍ قوطيّة. من المريح جداً أن تُداوى بشكلٍ جيد للغاية بينما يبحث المرء عن أقل من ذلك. لم أكن يوماً أكثر همّاً، أكثر مللاً من الأسبوع الذي سبق مجيئها، ولم أتوقع أبداً أن يحدث أدنى شيء باعث على البهجة، وفجأةً، تلقيتُ لوحةً لتيتيان بالبريد كي أعلقها على حائطي ـ نقشاً إغريقياً أضعه فوق رف الموقد، مفتاح قصرٍ جميلٍ دُسَّ في يدي وقيل لي أن أسير فيه وأتأمل. أيها المسكين، لقد كنتَ تعيساً بشكلٍ يبعث على الحزن، والآن من الأفضل أن تلتزم الهدوء الشديد وأنْ لا تتذمر ثانيةً أبداً). كانت أحاسيس هذه الصور الفكرية حقيقية جداً، لكن لم يكن حقيقياً بالضبط أن رالف تاتشيت أُعطِيَ مفتاحاً في يده.

كانت ابنة خالته فتاةً لامعة جداً، وكانت ستحظى، على حدِّ قوله، بقدرٍ لا بأس به من المعرفة. لقد احتاجَتْ إلى المعرفة فقط. كان رأيه بشأنها غير حصيف رغم أن هذا الرأي كان ناتجاً عن تأمل ونقد؛ لقد استطلَعَ القصر من الخارج وأُعجِبَ به كثيراً، نظر إلى الداخل عند النوافذ وكوَّنَ انطباعاً جميلاً مماثلاً لحجمه، لكنه شعر بأنه قد رآه خَطفاً فقط وأنه لحدّ الآن لم يقف تحت السقف. فقد كان الباب مغلقاً، ورغم امتلاكه للمفاتيح في جيبه إلا أنه كان متأكداً بأن أي واحد منها لن يكون مناسباً.

كانت ذكية وكريمة، وطبيعتها رقيقة وعفوية. لكن ماذا كانت ستفعل بنفسها؟ كان هذا السؤال غير مألوف لأن بالنسبة لمعظم النساء، لم يكن للمرء فرصة ليسأل هذا السؤال، إذ إن معظم النساء لا يفعلن شيئاً بأنفسهن

مطلقاً، فهن ينتظرن رجلاً يأتي بتلك الطريقة ويحقق لهن مصيرهن، وهي عقليات سلبية بعض الشيء بشكلٍ ظريف. أما إيزابيل فقد كانت أصالتها في أنها منحت للمرء انطباعاً بأن لها أهدافها الخاصة بها. قال رالف: (عسى أن أكون متواجداً عندما تقضي عليهم، لا تفرج عليهم!).

لقد آلَ إلى رالف طبعاً أن يعمل كمُضَيِّف للمكان. فالسيد تاتشيت كان مقيداً بكرسيه، وكان حال زوجته حال نزيلٍ متجهم بعض الشيء. لهذا السبب امتزَجَ الواجب والعطف بشكلٍ متناسق في الإدارة التي أُفضِيَت إلى رالف. لم يكن عدّاءً عظيماً، لكنه تجوَّل في الأرض مع ابنة خالته، وهي تسليةٌ لأجلها بقي الطقس مناسباً بإصرارٍ لم يعمل له تصوُّر إيزابيل الكئيب نوعاً ما عن الطقس حساباً. وفي المساءات الطويلة التي لم يكن طولها سوى مقياس لحماسها المُتْرَع، يتجولان في قاربٍ على النهر، النهر الصغير العزيز كما كانت تطلق عليه، حيث كان الشاطئ المقابل الذي بدا هادئاً، جزءاً من واجهة المنظر الطبيعي. أو ينطلقان عبر البلاد في السيارة المكشوفة ـ وهي سيارة منخفضة رحبة ثقيلة العجلات استخدمَتْ كثيراً من قبل السيد تاتشيت سابقاً، لكنه توقف الآن عن الاستمتاع بها، واستمتعَتْ بها إيزابيل كثيراً. ولم تملَّ أبداً من قيادة الخيول الخطرة لزوج خالتها وهي تمسك باللجام بطريقةٍ أثبتَتْ لسائس الخيل بأنها «تعرف»، فقادتها عبر الأزقة الملتوية والشوارع الجانبية المليئة بالأحداث القروية التي توقعت بثقة أن تجدها؛ أكواخ بائدة مبنية من القش والخشب، حانات بائدة مليئة بالغبار وشِباك العنكبوت، مستنقعات بائدة لحديقةٍ عامة عتيقة، ولمحات من حدائق خالية بين أسيجةٍ من الأشجار ازدادَ سمكها في منتصف فصل الصيف.

عندما وصلا للبيت وجدا أن الشاي قد تم تقديمه على المرج كالمعتاد، وأن السيدة تاتشيت لم تتملص من خطر تقديم الكوب لزوجها. لكن الاثنين جلسا صامتين لمعظم الوقت وقد أسند الرجل العجوز رأسه إلى الخلف

وعيناه مغمضتان، وانشغَلَتْ زوجته بحياكتها مرتديةً مظهر عمق التفكير الاستثنائي الذي تتأمل به بعض السيدات حركة إبر حياكتهن.

في أحد الأيام، وصل زائرٌ ما، وكان الشابان عائدين مشياً إلى المنزل بعد قضاء ساعة في النهر ولاحظا اللورد واربيرتون وهو جالس تحت الأشجار وقد انخرَطَ في محادثةٍ مع السيدة تاتشيت يمكن إدراك حتى عن بعد بأنها محادثة عابرة. فاقتيدَ من مكانه مع حقيبة سفر وطلب عشاءً ومبيتاً كما كان الوالد وابنه يطلبان ذلك منه عادةً. اكتشفَتْ إيزابيل التي رأته لنصف ساعة في يوم وصولها، في هذه البرهة القصيرة بأنها أحبَّتْهُ. فقد ترك فعلاً انطباعاً حاداً بعض الشيء على شعورها الرقيق، وقد فكّرَتْ فيه عدة مرات. فأمِلَتْ أن تراه ثانيةً ـ وأمِلَتْ أيضاً أن ترى بضعة أناسٍ آخرين. لم يكن الجاردن كورت موحشاً، فالمكان نفسه كان ممتازاً، وزوج خالتها كان أكثر فأكثر نوعاً من الأسلاف الاستثنائيين، ولم يكن رالف يشبه أي ابن خالة آخر التقته من قبل ـ ففكرتُها عن أبناء الخالة تميل إلى الكآبة. ثم تجددت انطباعاتها بشكلٍ حي وسريع بحيث لحدّ الآن بالكاد يوجد أثر فجوة في وجهة النظر. لكن إيزابيل احتاجت إلى أن تذكّر نفسها بأنها كانت معجبة بطبيعة الإنسان وأن أولى أمنياتها عند السفر إلى الخارج هو أن ترى عدداً كبيراً من الناس. عندما قال لها رالف، كما فعل عدة مرات: (أتَعَجَّبُ من أن تجدي ذلك قابلاً للاحتمال، يجب عليكِ أن تري بعضاً من الجيران وبعضاً من أصدقائنا، لأن لدينا القليل منهم حقاً، وإن لن تتخيلي ذلك) ـ وعندما عرض أن يستضيف ما أسماه «الكثير من الناس» ويجعلها تتعرف على المجتمع الإنجليزي، شجّعَتْ هذه اللفتة الكريمة وتعهّدَتْ مقدماً أن تشتبك في جدال. رغم ذلك، فالقليل من مساعيه في الوقت الحاضر قد تَحَقّق ويمكن أن نُطَمْئنَ القارئ بأنه لو تأخر الشاب في تحقيقها، فذلك لأنه اكتشَفَ أن مهمة التكفل برفيقته بأي حال من الأحوال صعب للغاية كاحتياجه إلى مساعدة طارئة.

تحدثت معه إيزابيل مراراً عن «نماذج»، وكانت كلمةً لعبَتْ دوراً كبيراً في مفرداتها. لقد تحدثَتْ معه ليفهم بأنها ترغب برؤية المجتمع الإنجليزي متمثلاً بمجموعاتٍ بارزة، فقال لها وهما يسيران من جانب النهر ورأى اللورد واربيرتون: (حسناً، لدينا الآن نموذج).

سألت الفتاة: (نموذج من ماذا؟).

ـ (نموذج لرجل إنجليزي).

ـ (هل تقصد بأنهم جميعاً يشبهونه؟).

ـ (أوه، لا، ليس كلهم يشبهونه).

قالت إيزابيل: (إذن فهو نموذج مناسب لأنني متأكدة بأنه لطيف).

ـ (نعم، إنه لطيف جداً، ومحظوظ جداً).

تبادل اللورد واربيرتون المحظوظ المصافحة مع بطلتنا وأمِلَ أن تكون بخير، فقال: (لم أكن بحاجة لأن أسأل عن هذا لأنكِ كنتِ تستعملين المجاديف).

أجابت إيزابيل: (كنتُ أجدف قليلاً. لكن كيف علمتَ ذلك؟).

قال سيادة اللورد وهو يشير إلى رالف تاتشيت بابتسامة: (أوه، أنا أعلم بأنه لا يجدف. فهو كسول جداً).

أجابت إيزابيل وهي تخفض صوتها قليلاً: (لديه عذراً جيداً لكسله).

فهتف اللورد واربيرتون بمرحه الرنان: (آه، إن لديه عذر جيد لكل شيء!).

قال رالف: (إن عذري بعدم التجديف هو أن ابنة خالتي تجدف بشكل جيد جداً. فهي تفعل أي شيء بشكل جيد، ولا تلمس شيئاً لا تعشقه!).

أعلن اللورد واربيرتون: (إن ذلك يجعل المرء يرغب بأن يُلمَس، يا آنسة آرتشر؟).

ـ (اسمَحْ بأنْ تُلمَس بمشاعر حقيقية ولن تتأذى من ذلك).

ذلك ما قالته إيزابيل التي تمكنت من أن تفكر بأن إعجاباً كهذا لم يكن مؤشراً على عقلٍ ركيك بقدر ما هو مؤشراً على وجود أمورٍ كثيرة برعَتْ بها إن كان قد أسعدها بأنْ يُقال بأن منجزاتها كانت كثيرة. فرغبتها في أن تُطرى تمتلك على الأقل عنصر التواضع الذي من الضروري دائماً أن يُسنَد بدليل.

لم يُمْضِ اللورد واربيرتون الليلة في جاردن كورت فقط بل أُقنِعَ ليبقى لليوم الثاني. وعندما انتهى اليوم الثاني، قرر أن يؤجل مغادرته حتى الغد. خلال هذه الفترة تحدَّثَ عن الكثير من ملاحظاته لإيزابيل التي قبلَتْ هذا الدليل على احترامه بلطفٍ شديد. لقد وجدَتْ نفسها تحبه بشكلٍ بالغ، فقد كان الانطباع الذي عمله عليها له وزنه. لكن في نهاية أحد المساءات التي قضتْها برفقته، بالكاد عجزَتْ عن رؤيته كبطل رومانسي وإن بدون إثارة تماماً. فابتعدَتْ لتستريح مع إحساسٍ بالحظ الجيد ومع إدراكٍ سريع بسعادةٍ محتملة.

قالت: (من اللطيف جداً أن تعرف أناساً ساحرين كهؤلاء) وهي تقصد بكلمة «هؤلاء» ابن خالتها وصديق ابن خالتها. يجب أن يُضاف علاوة على ذلك أن حادثاً قد وقعَ أظهَرَ بأنه لا بدّ عليها أن تضع سعادتها موضع الاختبار. إذ ذهب السيد تاتشيت إلى الفراش في التاسعة والنصف، لكن زوجته بقيتْ في غرفة الاستقبال مع باقي أعضاء المجموعة، فأطالت سهرتها لأقل من ساعة. ومن ثم، وهي تنهض، نبّهَتْ إيزابيل بأن الوقت قد حان لأن نقول للسيدين تصبحان على خير. لم يكن لإيزابيل حتى تلك اللحظة رغبة بالذهاب للنوم، إذ إن المقام، وفقاً لإحساسها، قد اكتسب طابع المرح وليس من المعتاد إنهاء الأوقات السعيدة بهذا الوقت المبكر. لذلك، وبدون أي تفكير، أجابت ببساطة جداً: (هل من الضروري أن أذهب يا خالتي؟. سأصعد خلال نصف ساعة).

أجابت السيدة تاتشيت: (من المستحيل أن أنتظركِ).

فوعدت إيزابيل بمرح: (آه، لا داعي لأن تنتظري!. فسيضيء رالف شمعتي).

فهتف اللورد واربيرتون: (أنا سأضيء شمعتكِ. اسمحي لي بأن أضيء شمعتكِ يا آنسة آرتشر! لكن ألتمسُ منكِ أن لا يكون ذلك قبل منتصف الليل).

فثبّتَتِ السيدة تاتشيت عينيها الصغيرتين البراقتين عليه لوهلةٍ وحوَّلَتْهُما ببرود إلى ابنة أختها: (لا يمكنكِ البقاء بمفردكِ مع السيدين، فأنتِ لستِ ـ أنت لستِ في ألباني المباركة يا عزيزتي).

فنهضت إيزابيل وقد احمرّتْ خجلاً وقالت: (وددتُ لو كنتُ هناك).

فانفجر رالف: (أوه، أقول يا أمي...).

فتمتم اللورد واربيرتون: (يا سيدة تاتشيت العزيزة!).

فقالت السيدة تاتشيت بعظمة: (أنا لم أصنع بلدكَ يا سيدي اللورد. يجب عليّ أن أقبل بها كما وجدتُها).

سألت إيزابيل: (ألا يمكنني البقاء مع ابن خالتي الوحيد؟).

ـ (لم أكن أعلم بأن اللورد واربيرتون هو ابن خالتكِ).

فاقترَحَتِ الزائرة: (ربما من الأفضل أن أذهب للنوم! فذلك سيحلّ الموضوع).

فنظرت السيدة تاتشيت بيأس قليلاً وجلسَتْ ثانيةً: (أوه، إن كان ضرورياً فسأسهر حتى منتصف الليل). في تلك الأثناء، منح رالف إيزابيل شمعدانها. لقد كان يراقبها، فقد بدا له أن مزاجها قد تأثر ـ وهو حدثُ قد يكون مثيراً للاهتمام. لكنه لو كان قد توقّعَ أي انفجار فقد خاب أمله لأن الفتاة ببساطة ضحكَتْ قليلاً وأومأتْ تحية المساء وانسحبَتْ برفقة خالتها. بالنسبة له، كان منزعجاً من أمه، حتى وإن ظن بأنها كانت محقّة. انفصلت السيدتان فوق

عند باب غرفة السيدة تاتشيت. لم تكن إيزابيل قد نطقَتْ بأي شيء وهي في طريقها إلى الأعلى.

قالت السيدة تاتشيت: (أنتِ طبعاً ساخطة لتعارضي معكِ).

فكَرَتْ إيزابيل: (أنا لستُ ساخطة لكنني مندهشة ـ ومتحيرة كثيراً. ألم يكن من المناسب أن أبقى في غرفة الاستقبال؟)

ـ (ولا بأدنى قدر. فالشابات هنا ـ في البيوت المحترمة ـ لا يجلسن بمفردهن مع الرجال في الليل).

قالت إيزابيل: (إذن فقد كنتِ محقّة بأنْ أخبَرْتِني ذلك. فأنا لم أفهم ذلك، لكنني مسرورة جداً لأنني عرفتُه).

أجابت خالتها: (سوف أُنبّهكِ دائماً كلما أراكِ تأخذين ما يبدو بالنسبة لي الكثير من الحرية).

ـ (أرجوكِ أن تفعلي ذلك. لكنني لا أقول بأنني سأعتقد دائماً بأن اعتراضاتكِ صائبة).

ـ (من المرجح جداً بأنها ليست كذلك. فأنتِ متعلّقة بعاداتكِ الخاصة بكِ).

ـ (نعم، أعتقد بأنني متعلقة بها جداً. لكنني دائماً أودّ أن أعرف الأشياء التي ليس على المرء أن يفعلها).

فسألت خالتُها: (لكي تفعلينها؟)

قالت إيزابيل: (بل لكي أختار).

***

الفصل 8

تجرأ اللورد واربيرتون بتعبيره عن أمنيةٍ أن تأتي يوماً ما وترى منزله، وهو مكانٌ قديم جداً ومثير للفضول، لأنها حريصة على الانطباعات الرومانسية. وقد انتزَعَ من السيدة تاتشيت وعداً بأن تجلب ابنة أختها معها إلى لوكلي. وعبَّرَ رالف عن رغبته بأن يُحضِرَ السيدتين في حال إن تمكَّنَ والده من الاستغناء عنه. أكَّدَ اللورد واربيرتون لبطلتنا أن في تلك الأثناء ستحضر أخواته ويرينها. لقد علمت شيئاً عن أخواته خلال الساعات التي قضياها معاً عندما كان في جاردن كورت لأنها سبرت غوره بشأن نقاط عديدة متعلقة بعائلته. عندما ثار اهتمام إيزابيل، سألَتْ عدداً كبيراً جداً من الأسئلة. ولأن مرافقها كان متحدثاً مستفيضاً، دفعَتْهُ إلى هذا الشأن بدون جهد إطلاقاً. فأخبرها أن لديه أربع أخوات وأخوين، وأنه فقد والديه. كان الإخوة والأخوات أناساً طيبين جداً ـ قال: (ليسوا أذكياء على وجه التحديد، تعلمين، لكنهم محترمون ومؤنسون). وكان بارعاً جداً في جعل الآنسة آرتشر تطلب معرفتهم جيداً.

كان أحد إخوته في الكنيسة، اتخذ سكن العائلة الذي في لوكلي والذي كان أبرشية ضخمة وممتدة، وكان شخصاً متميزاً بالرغم من تفكيره بشكلٍ مختلف عنه بشأن كل موضوع يمكن تصوره. ومن ثم ذكر اللورد واربيرتون بعض الآراء التي يؤمن بها أخوه والتي كانت آراءً دائماً يُدلي بها أمام إيزابيل، واعتقدَتْ بأنها متبناة من قبل قسم كبير من العائلة الإنسانية. في الواقع، لقد رأت بأن العديد منها كانت هي نفسها تؤمن بها، حتى أكَّدَ لها بأنها مخطئة تماماً، وأن ذلك كان من المستحيل حقاً، وأنها بلا شك تخيلَتْ بأنها تَبَنَّتْها،

وأنها يمكن أن تتأكد بأنها ستجدها تافهة إن تأمّلَتْ بها قليلاً. عندما أجابت بأنها كانت قد تأمّلَتْ مسبقاً عدة قضايا لها علاقة بالموضوع وباهتمامٍ شديد، أعلن بأنها كانت فقط مثالاً آخر من الذين تصادَمَ معهم ـ إن الحقيقةَ هي أن الأميركيين من بين جميع الناس في العالم من يؤمنون بالخرافات بشكلٍ أكبر. إنهم محافظون دنيئون ومتعصبون، كل واحد منهم. لا يوجد محافظون كالمحافظين الأميركيين. وإن زوج خالتها وابن خالتها يثبتان ذلك؛ إذ لا يوجد شيء يمكن أن يكون من العصور الوسطى أكثر من العديد من آرائهم، فلديهم آراء بأن الناس الذين يعيشون في إنجلترا هذه الأيام من المخجل الاعتراف بهم. وقال سيادة اللورد ضاحكاً بأن لديهم علاوة على ذلك وقاحةً بالتظاهر بأنهم يعرفون عن احتياجات ومُهلِكات إنجلترا العتيقة المملّة العزيزة المسكينة أكثر مِن مَن وُلد فيها وامتَلَكَ حصةً كبيرةً فيها ـ وهو أمر مخجل أكثر!. من كل ذلك، فهمَتْ إيزابيل أن اللورد واربيرتون كان نبيلاً من الطراز الحديث، مصلحاً، راديكالياً، مزدرياً للأساليب القديمة.

أخوه الآخر الذي كان في الجيش في الهند، همجي نوعاً ما وعنيد، ولم يكن ذا فائدة لحد تلك اللحظة سوى عمل الديون التي على واربيرتون تسديدها. وهذه إحدى الميزات المُكلفة للأخ الأكبر. قال صديقها: (لا أعتقد بأنني سأدفع المزيد، فهو يعيش بشكلٍ باهظ أفضل مما أعيش، ويتمتع برفاهيات لم يسمع بها أحد ويعتقد نفسه رجلاً أكثر رقياً مني. بما أنني راديكالي متمسك بالمبدإِ، أُفَضِّلُ المساواة فحسب، ولا أفضّل الاهتمام بالإخوة الأصغر).

كانت اثنتان من أخواته الأربع، الثانية والرابعة، متزوجتين. إحداهما أبلت بلاءً حسناً على حد قوله. أما الأخرى فبين بين. كان زوج الكبرى، وهو اللورد هايكوك، شخصاً طيباً جداً، لكن متحفظ مرعب لسوء الحظ، و زوجته ككل الزوجات الإنجليزيات الطيبات، أسوأ من زوجها. أما الأخرى، فقد تزوجت من محامٍ صغير في نورفولك. ورغم أنها تزوجت منذ مدة قصيرة، إلا أن لديها

حالياً خمسة أطفال. نقل اللورد واربيرتون هذه المعلومات وغيرها أكثر بكثير إلى مستمعته الأميركية الشابة مكلفاً نفسه توضيح العديد من الأشياء وليميط اللثام لإدراكها عن خصوصيات الحياة الإنجليزية. كانت إيزابيل في أغلب الأحيان مستمتعةً بصراحته وبالتسامح القليل الذي يبديه إما تجاه تجربتها الشخصية أو تجاه خيالها، فقالت: (إنه يعتقد بأنني متوحشة وبأنني لم أرَ أشواكاً وملاعق). واعتادت أن تسأله أسئلة ساذجة لأجل الاستمتاع بسماعه وهو يجيب بجديّة. بعد ذلك عندما يسقط في الفخ تقول: (من المؤسف أنك لا تستطيع أن تراني وأنا بطلاء الحرب والريش[1]، فلو كنتُ أعرف كم أنت لطيف مع المتوحشين، لكنتُ أحضرتُ معي زيّي الأصلي!).

كان اللورد واربيرتون قد سافر عبر الولايات المتحدة وعرف عنهم أكثر بكثير من إيزابيل. كان كريماً جداً بقوله إن أميركا كانت البلد الأكثر سحراً في العالم، لكن ذكرياته عنها ظهرَتْ تشجع فكرة أن الأميركيين في إنجلترا سيحتاجون لأن يُشرَحَ لهم الكثير جداً من الأشياء، قال: (لو فقط شرحْتِ أنت لي عن الأشياء في أميركا!. فقد كنتُ متحيراً نوعاً ما في بلدكِ في الحقيقة، لقد كنتُ مذهولاً، وكانت المشكلة أن الشروحات حيرتني أكثر. تعلمين، أعتقد بأنهم منحوني الشروحات الخطأ عن عمد، فهم بارعون في ذلك بعض الشيء هناك. لكن أنا عندما أشرح، يمكنكِ أن تثقي بي، فلا يوجد هناك خطأ ما بشأن ما أقوله لكِ).

لم يكن هناك على الأقل خطأ في كونه ذكياً جداً ومثقفاً وعارفاً بكل شيء تقريباً في الحياة. لم تشعر إيزابيل أبداً بأنه فعلها ليستعرض نفسه رغم أنه قدّم أكثر اللمحات تشويقاً وإثارة. ورغم أنه كان قد حظي بفرصٍ أقل، وأنه، كما صاغَتْها، تعثَّرَ من أجل تقديرٍ أكبر، إلا أنه كان بعيداً قدر الإمكان عن

---

(1) طلاء الحرب والريش: هي الأصباغ والريش التي يستعملها تقليدياً الهنود الحمر لتزيين الوجه والجسد قبل الحرب. (المترجمة)

التباهي بذلك. لقد استمتَعَ بأفضل الأشياء من الحياة، لكنها لم تفسد شعوره بالانسجام. كانت طبيعته مزيجاً من أثرٍ لخبرةٍ واسعة أتت له بسهولة! ـ مع تواضعٍ صبياني تقريباً في بعض الأحيان لم يتغير حلاوته أو طعمه بالعموم ـ من إضافة درجةٍ من عطفٍ جِدّيّ ـ إذ كان مستساغاً كشيء له مذاق.

قالت إيزابيل لرالف بعد أن غادر اللورد واربيرتون: (أحب كثيراً جداً هذا النموذج من الرجل الإنجليزي). فردَّ رالف: (وأنا أيضاً أحبه ـ أحبه بصدق، لكني أشفق عليه أكثر).

فنظرَتْ إليه إيزابيل استنكاراً: (لماذا، فهو يبدو لي أن عيبه الوحيد هو أن المرء لا يمكنه أن يشفق عليه ولو قليلاً. إذ يبدو بأنه يحظى بكل شيء، يعرف كل شيء، أن يكون كل شيء).

أصرَّ رالف: (أوه، إنه فقير!).

ـ (لا أعتقد بأنكَ تقصد من ناحية الصحة؟).

ـ (كلا، فبالنسبة لهذه، فهو سليمٌ بشكلٍ مقيت. ما أقصده هو أنه رجلٌ ذو منصبٍ كبير يلعب به كل أنواع الحيل. إنه لا يرى نفسه مهماً).

ـ (هل يعتبر نفسه أضحوكة؟)

ـ (أسوأ بكثير. إنه يعتبر نفسه عبئاً ثقيلاً ـ مُضطَهَداً).

قالت إيزابيل: (حسناً، ربما يكون كذلك).

ـ (ربما يكون كذلك ـ رغم أنني بشكلٍ عام لا أعتقد ذلك. لكن في تلك الحالة، ما هو أكثر شيء يُرثى له من الاضطهاد الواعي والمُدرَك ذاتياً والذي زُرع بأيادٍ أخرى ومتجذّر عميقاً، سوى التألم من استبداده؟. بالنسبة لي، وأنا في مكانه، أكون مهيباً كتمثال بوذا، يحتل مكاناً يروق لمخيلتي، مسؤوليات عظيمة، إمكانيات عظيمة، اعتبار عظيم، ثروة عظيمة، قوة عظيمة، مشارَكة طبيعية في الشؤون العامة لبلدٍ عظيم؛ لكنه مشوش تماماً بشأن نفسه، موقعه،

قوته، وفي الحقيقة كل شيء في الحياة. إنه ضحيةَ عصرٍ حرج. لقد توقف عن الإيمان بنفسه ولا يعلم بماذا يؤمن. وعندما أحاول إخباره «لأنني لو كنتُ في مكانه فسأعرف جيداً بماذا يجب أن أؤمن» يطلق عليَّ المتعصّب المدلّل. أعتقد بأنه جديّاً يراني فلسطينياً بغيضاً. إنه يقول بأنني لا أفهم زماني. أنا بالتأكيد أفهمه أكثر مما يفهمه هو الذي لا يمكنه لا أن يناقض نفسه ولا أن يتبعها).

قالت إيزابيل: (إنه لا يبدو بائساً جداً).

ـ (من الممكن أن لا يكون كذلك، فعلى الرغم من كونه رجلاً ذا ذوقٍ رفيع بقدرٍ لا بأس به، إلا أنني أعتقد بأن لديه عادةً ساعاتٍ غير مريحة. لكن ماذا يجب القول عن إنسانٍ بإمكانياته بأنه ليس بائساً؟ إلى جانب ذلك، أعتقد بأنه كذلك).

قالت إيزابيل: (أنا لا أعتقد).

أجاب ابن خالتها: (حسناً، إن لم يكن كذلك، فيجب أن يكون كذلك!).

في المساء، أمضَتْ ساعةً واحدة مع زوج خالتها على المرج حيث جلس الرجل العجوز كالعادة ووشاحه فوق ساقيه، وكوب شايه المخفف بين يديه. سألها طوال المحادثة ماذا اعتقَدَتْ بشأن زائرهم الجديد. كانت إيزابيل سريعة: (أعتقد بأنه ساحر).

قال السيد تاتشيت: (إنه شخصٌ لطيف لكني لا أنصحكِ بأن تقعي في حبه).

ـ (إذن لن أفعلها. لن أقع في الحب إلا بناءً على نصيحتكَ). أضافت إيزابيل: (إن ابن خالتي يقص عليّ قصة حزينة نوعاً ما عن اللورد واربيرتون).

ـ (أوه، حقاً؟. لا أعلم ماذا يمكن أن يوجد ليقوله. لكن عليكِ أن تتذكري أن رالف لا بدّ أن يتكلم).

قالت إيزابيل: (إنه يعتقد أن صديقكَ مخرِّبٌ جداً ـ أو ليس مخرّباً تماماً!. لا أستطيع أن أفهم تماماً أيّاً منهما).

هز الرجل العجوز رأسه ببطء وابتسم وأنزَلَ كوبه: (أنا أيضاً لا أعرف أيّاً منهما. إنه يشطح بعيداً جداً، لكن من الممكن جداً أنه لا يشطح تماماً. إنه يبدو بأنه يرغب بأن يستغني عن عددٍ لا بأس به من الأشياء الجيدة، لكنه يبدو بأنه يريد أن يبقى هو نفسه. أعتقد بأن ذلك أمر طبيعي لكن متناقض نوعاً ما).

قالت إيزابيل: (أوه، آمل بأن يبقى هو نفسه. فإذا كان عليه أن يستغني عن أصدقائه فسيفتقدونه بحزن).

قال الرجل العجوز: (حسناً، أعتقد بأنه سيبقى ويسلّي أصدقاءه. سوف أفتقده كثيراً جداً بالتأكيد هنا في جاردن كورت، فهو يسليني دائماً عندما يأتي، وأعتقد بأنه يتسلّى أيضاً. هنالك عددٌ كبير من أمثاله يجوبون في المجتمع. إنهم رائجون جداً الآن، ولا أعلم ماذا يحاولون فعله، فيما إذا كانوا يحاولون إشعال ثورة. آمل على أية حال أن يؤجلوها بعد أن أموت. فكما ترين، يريدون فصل كل شيء، لكني هنا صاحب أرض كبيرة نوعاً ما ولا أُريد أن أُفصَل عن أرضي، إذ ما كنتُ لآتي إلى هنا لو كنتُ قد رأيتُ بأنهم سيتصرفون كذلك).

استمرَّ السيد تاتشيت بمرحٍ مستفيض: (لقد أتيتُ لأنني اعتقدتُ بأن إنجلترا كانت بلداً آمناً. أنا أُسميها خدعة منظّمة لو كانوا سيُدخلون أية تغييرات كبيرة، إذ سيوجد هناك عدد كبير خائبي الأمل في تلك الحالة).

صاحت إيزابيل: (أوه، آمل فعلاً أن يُحْدِثوا ثورة!. فسأُسعَد برؤية ثورة).

قال زوج خالتها مازحاً: (دعيني أفهم، أنا أنسى فيما إذا أنت إلى جانب الشيوخ أم إلى جانب الشباب، فقد سمعتُ بأنكِ تتبنين وجهات نظر مخالفة كهذه).

ـ (أنا إلى جانب الاثنين. أعتقد بأنني إلى جانب كل شيء قليلاً. فبالنسبة للثورة، أعتقد بأنني يجب أن أكون موالية جداً وفخورة ـ بمقتضى مصداقية

أسباب اندلاعها. فالمرء يتعاطف أكثر معهم ولديهم فرصة ليتصرفوا بشكلٍ رفيع. أقصد بشكلٍ معبِّر جداً).

ـ (لا أدري ماذا أفهم مما تعنين بالتصرف بشكلٍ معبّر. لكن يبدو لي بأنكِ تفعلين ذلك دائماً يا عزيزتي).

فقاطعَتْه الفتاة: (أوه، أيها الرجل الرائع، كم أتمنى تصديق ذلك)!.

فواصَلَ السيد تاتشيت كلامه: (أخشى أنكِ، في النهاية، لن تُسعَدي بالذهاب بمهابة للمقصلة هنا الآن. فإن أردتِ أن تري ثورةً كبيرة، يجب عليكِ أن تزورينا لمدة طويلة. فكما ترين، عندما تأتين إلى صلب الموضوع، لن يناسبهم أن تعيري اهتماماً لكلامهم).

ـ (عمن تتكلم؟).

ـ (حسناً، أقصد اللورد واربيرتون وأصدقاءه ـ الراديكاليين من الطبقة العليا. فأنا بالطبع أعلم في النهاية الطريقة التي يهاجمون بها. فهم يتحدثون عن تغييرات، لكنني لا أعتقد بأنهم يدركون ذلك تماماً. فأنتِ وأنا، كما تعلمين، نعلم ماذا يعني العيش تحت ظل قوانين ديموقراطية: لقد ظننتُها دائماً مناسبة جداً، لكنني كنتُ معتاداً عليها من البداية. علاوة على ذلك أنا لستُ لورداً. فأنتِ سيدة يا عزيزتي، لكن أنا لستُ لورداً. في أيامنا هذه وها هنا، لا أعتقد بأنها تؤثر فيهم، فهي قضية كل يوم وكل ساعة، وأنا لا أعتقد بأن العديد منهم سيجده مقبولاً مثلما فهموا. وإذا أرادوا أن يحاولوا ذلك، فذلك شأنهم طبعاً، لكنني لا أعتقد بأنهم سيحاولون جاهدين).

سألت إيزابيل: (ألا تعتقد بأنهم مخلصون؟).

أقرَّ السيد تاتشيت: (حسناً، إنهم يريدون أن يشعروا بأنهم صادقون، لكن ذلك يبدو وكأنهم طرحوا معظمه نظرياً، فآراؤهم الراديكالية نوع من التسلية وعليهم أن يحظوا ببعض التسلية. وقد يكون لديهم رغبات أكثر قسوة من هذه، فكما ترين، إنهم مترفون جداً، وتلك الأفكار المتعاظمة، هي عن

بذخهم المفرط، فهذا يُشعرهم بأنهم فضلاء ومع ذلك لا يهدمون مكانتهم، فهم يفكرون كثيراً في مكانتهم. لا تدعي أحداً منهم أبداً أن يُقنعكِ بأنه ليس كذلك، لأنكِ إذا بدأتِ على هذا الأساس فستنتهين بسرعة).

تابعَتْ إيزابيل مناقشة زوج خالتها باهتمام شديد والتي كشف عنها بصراحته الطريفة. ورغم أنها تأرجحَتْ جاهلةً بالأرستقراطية الإنجليزية، إلا أنها وجدَتْها منسجمة مع انطباعاتها العامة عن الطبيعة البشرية. لكنها وجدَتْ نفسها مستعدةً لأن تضيف اعتراضاً بالنيابة عن اللورد واربيرتون: (أنا لا أعتقد بأن اللورد واربيرتون مخادع. لا يهمني ما هم عليه الآخرون. فأنا أود أن أرى اللورد واربيرتون وهو تحت الاختبار).

أجاب السيد تاتشيت: (خلّصيني أيتها السماء من أصدقائي!. إن اللورد واربيرتون شاب ظريف جداً ـ شاب رقيق جداً. إنه يجني مائة ألف في السنة، ويمتلك خمسين ألف آكر من أرض هذه الجزيرة الصغيرة والعديد من الأشياء الأخرى إلى جانب ذلك. لديه نصف دزينة من المنازل يعيش فيها، له مقعد في البرلمان مثلما لدي واحدٌ على طاولة العشاء. له اهتمامات رفيعة ـ يهتم بالأدب، بالفن، بالعلوم، بالسيدات الشابات الفاتنات. والأكثر رفعةً هو اهتمامه بالآراء الجديدة، فهي تمنحه الكثير من السرور ـ ربما أكثر من أي شيء آخر عدا السيدات الشابات. إن بيته العتيق الذي هناك ـ ماذا يسميه، لوكلي؟ ـ جذّابٌ جداً، لكنني لا أعتقد بأنه مريح كمنزلي. ذلك لا يهم. على أية حال، فهو لديه منازل أخرى عديدة جداً. إن آراءه لا تؤذي أي أحد على حد رؤيتي، وهي بالتأكيد لا تؤذيه. وإذا حدث ووُجِدَتْ ثورةٌ، فسينسلخ بسهولةٍ جداً، وما كانوا ليمسوه، سيتركونه كما هو، فهو محبوب كثيراً).

تنهدَتْ إيزابيل: (آه، لا يمكن أن يصبح شهيداً حتى لو رغب بذلك!، ذلك أمر جبان جداً).

قال الرجل العجوز: (إنه لن يصبح شهيداً ما لم تجعلينه أنت شهيداً).

هزت إيزابيل رأسها؛ ربما كان هناك شيء مضحك، لأنها فعلَتْها بلمسةٍ من الكآبة: (لن أجعل أبداً أي أحدٍ شهيداً).

ـ (لن تصبحي شهيدة، آمل ذلك).

ـ (لا آمل ذلك. إذن أنت لا ترثي لحال اللورد واربيرتون كما يفعل رالف؟)

فنظر إليها زوج خالتها لبرهةٍ بجديّة رقيقة الجانب: (في النهاية، نعم، أرثي لحاله!)

***

الفصل 9

وصَلَتِ الآنستان مولينو، أختا هذا الرجل النبيل، تواً ليسألا عنها. أحبَّتْ إيزابيل السيدتين الشابتين اللتين ظهرتا لتكشفا عن طابعٍ هو الأكثر أصالة. وعندما وصفَتْهما لابن خالتها بهذا التعبير، أعلن بأنه لا يمكن أن توجد صفة أقل استعمالاً من هذه للآنستين مولينو لأن هناك خمسين ألف شابةٍ في إنجلترا تشبههما تماماً. على أية حال، بغض النظر عن هذه الميزة، احتفظَتْ زائرتا إيزابيل بسلوكٍ ذي لطفٍ وخجل بالغَيْن، وبامتلاكهما، كما فكَّرَتْ، عيوناً كأحواضٍ مائية متناسقة، «بحيرة للزينة» تتوسط روضةً من نباتات الغرنوق. قالت بطلتنا لنفسها: (على أية حال، مهما يكونا، فهما ليستا كئيبتين). واعتبرَتْ ذلك جمالاً بارزاً، بدلاً من اثنتين أو ثلاث من صديقات صباها اللواتي كن للأسف عرضة للتخاصم (لأصبحن لطيفات جداً بدونه)، ناهيك بأن إيزابيل كانت تشكّ أحياناً بأنه نزعةٌ من نزعاتها الشخصية.

لم تكن الآنستان مولينو في باكورة شبابهما، لكنهما امتلكتا بشرة براقة ونضرة، وبعض الشيء من ابتسامة الطفولة. نعم، فعيونهما التي أُعجبَتْ إيزابيل بها كانت مدوّرة، هادئة، مطمئنة. وجسداهما أيضاً، ذوا الاستدارة الوافرة، كانا مكسوين بسترتين مصنوعتين من جلد الفقمة. كان تآلفهما عظيماً، عظيماً لدرجة أنهما كانتا محرجتين قليلاً من إظهاره. لقد ظهرتا خائفتين بشكل ما من السيدة الشابة التي قدمَتْ من الجانب الآخر من العالم، وأظهرتا، بدلاً من أن تنطقا، أمنياتهما الطيبة. لكنهما أوضحتا لها بأنهما أمِلَتا بأنْ تأتي للغداء في لوكلي حيث تعيشان مع أخيهما، وبالتالي يمكنهما أن

يرياها كثيراً جداً جداً. سألتا لو كان بإمكانها المجيء يوماً ما للمبيت: فهما تنتظران أناساً في يوم التاسع والعشرين، لذا ربما يمكنها المجيء والناس موجودون هناك.

قالت الأخت الأكبر: (أخشى أنه لا يوجد أي شخص مهم جداً. لكنني أتجرأ وأقول بأنكِ ستتقبّلينا كما نحن).

أجابت إيزابيل التي امتدِحَتْ مراراً بإسراف: (سأجدكما باعثتين للبهجة. أعتقد بأنكما فاتنتان كما أنتما).

احمرَّت زائرتاها خجلاً، وأخبرها ابن خالتها بعد أن غادرتا بأنها إذا قالت أشياء كهذه لتلكما الفتاتين المسكينتين، فستعتقدان بأنها كانت تمارس عليهما أسلوباً متهوراً ومتحرراً، فقد كان متأكداً بأنها كانت المرة الأولى التي سُمّيتا بها فاتنتين.

أجابت إيزابيل: (لا أستطيع تحمل ذلك. أعتقد بأنه من الجميل أن تكون هادئاً جداً ومتعقلاً وقنوعاً. أحب أن أكون كذلك).

صاح رالف بحماس: (لا سمح اللّه!).

قالت إيزابيل: (أقصد أن أحاول أن أقلدهما. أرغب بشدة أن أراهما وهما في البيت).

لقد حظيت بهذا الشرف بعد بضعة أيام عندما انطلقَتْ إلى لوكلي بصحبة رالف ووالدته. وجَدَتِ الآنستين مولينو وهما جالستان في غرفة استقبالٍ واسعة (أدرَكَتْ بعد ذلك بأنها واحدة من غرف الاستقبال الكثيرة) منجّدة بقماشٍ باهت. لقد ارتدتا في هذه المناسبة ملابس مخملية سوداء.

لقد أحبتْهُما إيزابيل في البيت حتى أكثر مما أحبتهما وهما في جاردن كورت، وكانت مندهشةً أكثر من ذي قبل بحقيقة أنهما لم تكونا كئيبتين. فقد بدا لها قبل ذلك بأنهما إن كان فيهما عيبٌ ما، فهو الحاجة إلى تشغيل العقل. لكنها رأت في الوقت الحالي بأنهما جديرتان بتعاطفٍ عميق.

قبل الغداء، كانت لوحدها معهما لبعض الوقت عند أحد جوانب الغرفة بينما تحدّث اللورد واربيرتون من على مسافةٍ مع السيدة تاتشيت. سألت إيزابيل: (هل صحيح أن أخاكما راديكالي جداً؟). كانت إيزابيل تعرف أن هذا صحيح، لكننا رأينا أن اهتمامها بالطبيعة البشرية كان شديداً، وكان لديها رغبة بإثارة الآنستين مولينو.

قالت ملدريد، الأخت الأصغر: (يا إلهي، نعم. إنه في الطليعة تماماً).

قالت الآنسة مولينو: (إن واربيرتون في الوقت نفسه أهل للمسؤولية تماماً).

راقَبَتْه إيزابيل لبرهةٍ في الجانب الآخر من الغرفة، لقد كان يحاول جاهداً بشكلٍ واضح أن يجعل نفسه مقبولاً لدى السيدة تاتشيت. كان رالف قد استقبلَ الزحف الواضح لأحد الكلاب أمام النار التي لم تتواقح عليها حرارة شهر آب الإنجليزي في الأرجاء العتيقة للمكان.

سألت إيزابيل مبتسمةً: (هل تعتقدين أن أخاكِ مخلص؟).

صاحت ملدريد بسرعة: (أوه، لا بدّ أنه كذلك، تعلمين!) بينما حدَّقَتِ الأخت الأصغر إلى بطلتنا بصمت.

ـ (هل تعتقدين بأنه سيتحمل الاختبار؟).

ـ (الاختبار؟).

ـ (أقصد أن يتخلى عن كل هذا مثلاً).

قالت الآنسة مولينو وهي تحاول إيجاد المقدرة على الكلام: (أن يتخلى عن لوكلي؟).

ـ (نعم، والأماكن الأخرى. ماذا تسمى؟).

تبادلت الأختان نظراتٍ خائفة تقريباً، فسألت الأخت الأصغر: (هل تقصدين بسبب النفقات؟).

قالت الأخرى: (أتجرأ وأقول بأنه قد يتخلى عن واحد أو اثنين من منازله).
سألَتْ إيزابيل: (هل سيتخلى عنهم مقابل لا شيء؟)
قالت الآنسة مولينو: (لا يمكنني تخيل تخليه عن أملاكه).
ردت إيزابيل: (آه، أخشى بأنه مخادع!. ألا تعتقدين بأنه منصب زائف؟).
كانت رفيقتاها قد فقدتا السيطرة على نفسيهما بوضوح. فتساءلت الآنسة مولينو: (منصب أخي؟).
قالت الأخت الأصغر: (يُعتقد بأنه منصب جيد جداً. فهو أول منصب في هذا الجانب من البلاد).
فانتهزت إيزابيل الفرصة لتشير: (أتجرأ أن أقول بأنكما تعتقدان بأنني وقحة جداً. أنا أعتقد بأنكما تحترمان أخاكما وخائفتان بعض الشيء منه).
قالت الآنسة مولينو ببساطة: (من الطبيعي أن يحترم المرء أخاه).
ـ (لو كنتما تفعلان ذلك، فلا بدّ أنه طيب جداً ـ لأنكما طيبتان بشكلٍ رائع كما هو واضح).
ـ (إنه لطيف إلى درجة كبيرة. والخير الذي يفعله لن يكون محدوداً أبداً).
أضافت ملدريد: (إن جدارته معروفة، وكل امرئ يؤمن بأنها هائلة).
قالت إيزابيل: (أوه، يمكنني أن أرى ذلك. لكني لو كنتُ مكانه فسأتمنى أن أقاتل حتى الموت: أعني من أجل إرث الماضي. إذ سأتمسّكُ به).
تجادلت ملدريد بلطف: (أعتقد بأن على المرء أن يكون سخياً. فنحن كنا دائماً كذلك، حتى منذ الأزمنة المبكرة) .
قالت إيزابيل: (آه، حسناً. لقد أحرزتما نجاحاً عظيماً جراء ذلك، لا أندهش بأنكما تحبانه. أرى بأنكما مولعتان بأعمال التطريز).
عندما أراها اللورد واربيرتون المنزل بعد الغداء، بدا لها أنه من الطبيعي أن يكون صورةً رفيعة. فقد تم تحديث داخله كثيراً ـ وفقدت بعض أفضل

الأمكنة بريقها. لكن عندما رأوه من الحديقة ـ بدا كدعامةٍ رمادية ضخمة ذات مظهر هو الأكثر رقة، والأكثر عمقاً، والمنحوت كثيراً بفعل الطقس، ويرتفع من خندقٍ مائي عريض وراكد ـ أثَّرَ في الزائرة الشابة كقلعةٍ في إحدى الأساطير.

كان النهار بارداً ومعتماً بعض الشيء. فأول علامات الخريف قد حلَّتْ، واستقر شعاع الشمس الضعيف على الجدران بومضاتٍ باهتة وعابرة، وهو يغمرها في أماكن مختارةٍ بحنان، حيث كان ألم العتاقة أكثر حدّة.

كان أخو مضيفها، القس، قد حضر إلى الغداء. وحظيت إيزابيل بحديثٍ معه لخمس دقائق ـ وهو وقتٌ كافٍ للبحث عن الكنائسية الغنية والابتعاد عنها كشيء زائف. كانت ميزات قس لوكلي هي جسدٌ ضخم ورياضي، مُحَيّا قاسٍ وجبلي، شهية كبيرة للطعام وميل إلى الضحك العشوائي. علمَتْ إيزابيل بعد ذلك من ابن خالتها أنه قبل أن يأخذ الرهبنة، كان مصارعاً قوياً، وأنه لا يزال، أحياناً ـ ضمن نطاق العائلة ـ قادراً تماماً على هزيمة خصمه. لقد أحبته إيزابيل ـ فقد كانت في مزاجٍ لأن تحب كل شيء، لكن تصوراتها كانت مكلّفة كثيراً بأن تراه كمصدرٍ للمساعدة الروحية.

ذهبت المجموعة كلها عندما فرغت من الغداء للتنزه سيراً في الحدائق، لكن اللورد واربيرتون برع في أخذ ضيفته الأقل خبرة في جولةٍ على القدمين بعيداً عن الآخرين. قال: (أرغب منكِ أن تري المكان كما ينبغي، جديّاً. يمكنكِ فعل ذلك إذا كان اهتمامكِ منصبّاً على الثرثرة العرضية).

لم يكن حديثه متعلقاً بعلم الآثار بشكلٍ صرف (رغم أنه أخبر إيزابيل قدراً لا بأس به عن المنزل الذي له تأريخ مثير للفضول جداً). وانتقلَ بشكلٍ متكرر إلى مواضيع شخصية أكثر ـ مواضيع شخصية بالنسبة للسيدة الشابة وكذلك بالنسبة له. لكن في النهاية، وبعد توقفٍ عن الحديث لبعض الوقت، قال وهو يعود للحظةٍ إلى موضوعهم الظاهري: (آه، حسناً. أنا في الحقيقة مسرورٌ جداً

لأنكِ أحببتِ المنزل العتيق. أتمنى أن تري المزيد منه ـ يمكنكِ البقاء هنا لفترةٍ قصيرة، فقد أُعجِبَتْ أخواتي بكِ كثيراً ـ إذا كان هذا سيشكّل أيّ إغراء).

أجابت إيزابيل: (ليس هناك حاجة إلى أية إغراءات. لكنني أخشى بأنه لا يمكنني عمل ارتباطات. فأنا بين يدي خالتي تماماً).

ـ (آه، اعذريني لو أقول بأنني لا أصدق ذلكَ تماماً. فأنا متأكد جداً بأنه يمكنكِ عمل أي شيء تريدينه).

ـ (أنا أعتذر لو عملتُ هذا الانطباع عليكَ. إذ لا أعتقد بأنه انطباع لطيف لنعمله).

ـ (إن له ميزة إن سمح لي بأن آمل....) وتوقف اللورد واربيرتون عن الكلام للحظة.

ـ (أن تأمل ماذا؟).

ـ (بأن أراكِ في المستقبل مراراً).

قالت إيزابيل: (آه، لكي أتمتع بهذا الشرف، لا أحتاج لأن أكون حرةً طليقة جداً بهذه الطريقة).

ـ (كلا بلا شك. ومع ذلك، لا أعتقد في الوقت نفسه بأن زوج خالتكِ يحبني).

ـ (أنتَ مخطئ جداً، فقد سمعْتُهُ يتحدث عنكَ بشكلٍ راقٍ جداً).

قال اللورد واربيرتون: (أنا مسرور بأنكِ تحدثتِ بشأني. لكني مع ذلك لا أعتقد بأنه سيحب أن أستمر بالمجيء إلى جاردن كورت).

أجابت الفتاة: (لا أستطيع أن أجيب عن رغبات زوج خالتي رغم أنني يجب أن آخذها بعين الاعتبار قدر ما أستطيع. لكن عن نفسي، سأكون سعيدة جداً أن أراكَ).

ـ (هذا ما أحب أن أسمعكِ تقولينه الآن، إذ أكون مفتوناً عندما تقولين ذلك).

قالت إيزابيل: (أنتَ تُفتَن بسهولة يا عزيزي اللورد).

ـ (كلا، أنا لا أُفتَن بسهولة!). ثم توقف عن الكلام للحظة: (لكنكِ فَتَنتِني يا آنسة آرتشر).

نُطِقَتْ هذه الكلمات بنبرةٍ غامضة أجفَلَتِ الفتاة. لقد صعقَتْها كاستهلالٍ لشيءٍ ما جِدِّيٍّ: كانت قد سمعَتْ هذه الرنّة من قبل وميَّزَتْها، ولم يكن لديها رغبة في الوقت الحاضر بأنْ يكون لاستهلالٍ كهذا تتمة، فقالت بقدر ما يمكنها من المرح وبسرعةٍ قدر ما تسمح لها درجةٌ يمكن إدراكها من الحماس: (أخشى أنه لا توجد احتمالية لقدرتي على المجيء إلى هنا ثانيةً).

قال اللورد واربيرتون: (أبداً؟).

ـ (لن أقول «أبداً»، إذ يجب أن أشعر بأنني مثيرة للشجن جداً).

ـ (إذن، هل يمكنني أن آتي وأراكِ في يومٍ من الأسبوع القادم؟).

ـ (بكل تأكيد، وما المانع؟).

ـ (لا لسببٍ ملموس. لكن معكِ لن أشعر بأمانٍ أبداً، إذ لدي إحساسٌ بأنكِ تجمعين الناس حولكِ دائماً).

ـ (ليس بالضرورة أنكَ ستُهزَم بسبب ذلك).

ـ (لطفٌ منكِ أن تقولي ذلك. لكن حتى وإن انتصَرْتُ، فليست العدالة الحازمة هي أكثر شيء أحبه. هل ستأخذكِ السيدة تاتشيت خارج البلاد؟).

ـ (لا آمل ذلك).

ـ (ألا تناسبكِ إنجلترا؟).

ـ (إن ذلك خطاب مكيافيللي جداً، إنه لا يستحق إجابة. أنا أرغب برؤية بلدان كثيرة قدر استطاعتي).

ـ (إذن ستذهبين لتُكَوِّني رأياً عنها على ما أعتقد).

ـ (وأستمتع بها أيضاً على ما آمل).

قال اللورد واربيرتون: (نعم، فذلك هو أقصى ما تتمتعين به. لا يمكنني أن أستنتج ما الذي تنوين عمله، فأنتِ تدهشينني لامتلاككِ رغبات غامضة ـ مخططات واسعة).

ـ (أنتَ بارعٌ للغاية في أن تأخذ عني فكرةً لا أستطيع أن أستقصيها مطلقاً. فهل هناك أي شيء غامض في رغبةٍ يُستَمتَع بها وتُؤدّى كل عام بأكثر الطرق شيوعاً من قبل خمسين ألفاً من أبناء بلدي ـ وهي رغبة تحسين فكر المرء بالسفر إلى بلاد أجنبية؟)

فأعلن مرافقها: (لا يمكنكِ تحسين فكركِ يا آنسة آرتشر، فهو أساساً أداة عظيمة وينظر لنا جميعاً من عَلٍ. إنه يستصغرنا).

قالت إيزابيل بجديّة: (يستصغركم؟. أنت تسخر مني).

ـ (حسناً، أنت ترينا «طريفين» ـ الأمر سِيّان. أولاً، أنا لا أرغب بأن يُعتقد بأنني «طريف»، فأنا لستُ كذلك مطلقاً. أنا أحتج).

أجابت إيزابيل بابتسامة: (إن ذلك الاحتجاج هو واحد من أكثر الأمور طرافةً والذي سمعتُه يوماً).

كان اللورد واربيرتون صامتاً للحظة. ثم قال بسرعة: (أنتِ تحكمين فقط من الظاهر الذي لا تهتمين له. أنت تهتمين فقط بتسلية نفسكِ).

كانت النبرة التي سَمِعَتْها في صوته قبل لحظات قد عادت وممزوجة معها هذه المرة بتوترٍ مسموع من المرارة ـ مرارة مفاجئة وغير منطقية، لدرجة أن الفتاة كانت خائفة لئلا كانت قد جَرَحَتْهُ، فقد كانت قد سمعَتْ مراراً بأن الإنجليز أناسٌ غريبو الأطوار بشكلٍ بالغ، حتى أنها قرأتْ لبعض الكُتّاب البارعين بأنهم في أعماقهم أكثر الأجناس البشرية رومانسية. هل كان اللورد واربيرتون فجأة سينقلب رومانسياً ـ هل كان سينفجر بها غضباً في منزله في المرة الثالثة فقط التي التقيا فيها؟. لقد تأكدَتْ تماماً بسرعة بإحساسها من أخلاقه الطيبة جداً التي لم تكن فاسدة بحقيقةِ أنه لامَسَ الآن أقصى حدود

الذوق السليم بتعبيره عن إعجابه بسيدةٍ شابة وَثِقَتْ بحسن ضيافته. كانت على صواب بالوثوق بأخلاقه الطيبة لأنه استمرَّ فوراً يضحك قليلاً وبدون أي أثر للهجة التي أزْعَجَتْها: (أنا لا أقصد طبعاً بأنكِ تسلّين نفسكِ بتوافه الأمور، فأنتِ تختارين مواضيع هامة؛ نقاط ضعف وآفات الطبيعة البشرية، وميزات الأمم!).

قالت إيزابيل: (فيما يخص ذلك، سوف أجد في أمتي ما يسليني مدى الحياة. لكن أمامنا رحلة طويلة وستتمنى خالتي أن تبدأها قريباً).

فاستدارت عائدةً إلى الآخرين، وسار اللورد واربيرتون بجانبها بصمت. لكن قبل أن يصلا إلى الآخرين قال: (سآتي لرؤيتكِ في الأسبوع القادم). فتلقَّتْ صدمةً يمكن ملاحظتها، لكن حالما خمدَتْ شعرَتْ بأنها لم تتمكن من التظاهر بأن تلك كانت صدمة أليمة تماماً. مع ذلك أجابت على تصريحه ببرودٍ تماماً: (كما تريد). ولم يكن برودها هو حَذَرٌ من حقيقتها ـ وهي لعبةٌ مارَسَتْها بدرجاتٍ أقل بكثير مما كان يبدو محتملاً بالنسبة لكثير من المنتقِدين، بل نتجَتْ من خوفٍ من شيء ما.

***

الفصل 10

تلقَّتْ في اليوم الذي تلا زيارتها إلى لوكلي، رسالةً من صديقتها الآنسة ستاكبول ـ رسالةً حرَّكَ مظروفُها، وهو يُظهِر اقتران طابع ليفربول والخط الأنيق لهنرييتا الخفيفة اليد، مشاعرَها بسرور.

كتبت الآنسة ستاكبول:

(ها أنا هنا يا صديقتي المحبوبة. لقد تدبرتُ أمري أن أخلع أخيراً. فقد قررتُ المجيء فقط في الليلة التي سبقَتْ مغادرتي لنيويورك ـ لأن الإنترفيور تفاهمَتْ مع شخصي بعد جدال. فقمتُ، كصحفي مُحَنَّك، بوضع بضعة أشياء في إحدى الحقائب وتوجهتُ إلى الباخرة بالترام .أين أنت وأين يمكننا أن نلتقي؟. أتخيلكِ الآن وأنتِ تقومين بزيارةٍ لقلعةٍ أو أخرى واكتسَبْتِ الآن اللهجة الصحيحة حتى أنكِ ربما تزوجتِ من لورد. لقد وددتُ قليلاً أن تفعلي ذلك لأنني أرغب بالتعرُّف على أناس الطبقات الراقية وسأعتمد عليكِ في ذلك، فالإنترفيور ترغب بإلقاء بعض الضوء على أبناء الطبقة الراقية. إن انطباعاتي الأولى (عن الناس بوجهٍ عام) ليست وردية، لكنني أود أن أتحدث عنهم معكِ وأنتِ تعلمين بأنني، أيّاً ما أكون، لستُ سطحية على الأقل. لدي أيضاً شيء ما خاص جداً أخبركِ به. حددي موعداً للمقابلة بأسرع ما تستطيعين. تعالي إلى لندن (إذ أود كثيراً جداً أن أزور المعالم معكِ) أو دعيني أنا آتي إليك أينما كنتِ، فسأفعل ذلك بسرور لأنكِ تعرفين كل شيء يثير اهتمامي وأود أن أرى قدر الإمكان الحياة المنزلية).

قررتْ إيزابيل أنه من الأفضل أن لا تُرِيَ هذه الرسالة لزوج خالتها، لكنها

أعلمَتْهُ بمضمونها. وكما توقَّعَتْ، توسل إليها على الفور كي تؤكد للآنسة ستاكبول، وبإسمه، بأنه سيكون مسروراً باستقبالها في جاردن كورت، فقال: (رغم أنها سيدة أديبة، إلا أنني أعتقد، لكونها أميركية، فهي لن تصوّرني كشخص من طبقة أدنى كما فعَل غيرُها. فقد رأت آخرين أمثالي).

أجابت إيزابيل: (هي لم تَرَ آخرين مثيرين للإعجاب هكذا!)، لكنها بشكلٍ عام لم تكن مطمئنة بشأن مواهب هنريتا التصويرية التي تعود إلى ذلك الجانب من شخصية صديقتها الذي أشارت إليه بعدم رضا. رغم ذلك، كتبَتْ للآنسة ستاكبول بأنها ستكون مُرَحَّباً بها جداً تحت سقف السيد تاتشيت.

ولم تُضَيِّعْ هذه الشابة المتأهبة وقتاً في إعلان إقبالها السريع. فذهبَتْ إلى لندن، ومن هذا المكان أخَذَتِ القطار إلى أقرب محطة لجاردن كورت حيث كانا إيزابيل ورالف في انتظار استقبالها. سأل رالف وهما يسيران على طول رصيف المحطة: (هل سأحبها أم سأكرهها؟).

قالت إيزابيل: (أيّاً ما تفعل، فلن يعني لها كثيراً. فهي لا تهتم ولا بشعرة بما يظنه الرجال عنها).

ـ (إذن، كرجل، فأنا ملزم بأن أكرهها. لا بدّ أنها نوع من الوحوش. هل هي قبيحة جداً؟).

ـ (كلا، إنها جميلة تماماً).

اعترفَ رالف: (مراسلة صحفية ـ مخبرة صحفية بتنورة؟ لدي فضول بأن أراها).

ـ (من السهل جداً أن تضحك عليها، لكن ليس من السهل أن تكون شجاعاً مثلها).

ـ (لن أفكر بذلك، فجرائم العنف والهجوم على الأشخاص يتطلب جرأةً بعض الشيء. هل تعتقدين بأنها ستُجري معي لقاءً صحفياً؟).

ـ (إطلاقاً. فهي لن تعتقد بأنكَ مهم جداً).

قال رالف: (سترين بأنها سوف ترسل إلى صحيفتها وصفاً عنا جميعاً ومن ضمنهم بانشي).

أجابت إيزابيل: (سأطلب منها أن لا تفعل ذلك).

ـ (هل أنت إذن قادرة على ذلك؟)

ـ (تماماً).

ـ (ومع ذلك، فإنكِ جَعَلْتِها صديقتكِ الحميمة؟).

ـ (أنا لم أجعلها صديقتي الحميمة، لكني أحبها رغم مساوئها).

قال رالف: (آه، حسناً، أخشى بأنني سأكرهها رغم محاسنها).

ـ (إنكَ على الأرجح ستقع في حبها خلال ثلاثة أيام).

فصاح الشاب: (وتنشر رسائل الحب الخاصة بي في الإنترفيور؟ أبداً!).

وصل القطار الآن، وأظهرت الآنسة ستاكبول بشكلٍ بالغ الرقة وإن ببساطة، وهي تنزل بسرعة، جمالاً مثلما بشَّرَتْ إيزابيل. كانت شخصاً بديناً، أنيقاً، ذا قامة متوسطة ووجه ممتلئ، فم صغير، بشرة رقيقة، عقصةٌ من خصلاتِ شعرٍ بنيٍّ فاتح خلف رأسها وعيون واسعة بشكل مميز ونظرة ذاهلة. كانت النقطة الأكثر دهشة في مظهرها هي الثبات الملفت للنظر لهاتين العينين اللتين استقرتا على كل شيء قابلَتْهُ بدون وقاحة أو تحدٍّ بل باستخدام واعٍ لحق طبيعي. وقد استقرتا بهذه الطريقة على رالف نفسه الذي أُسِرَ قليلاً بالمظهر الأنيق والمريح للآنسة ستاكبول والذي دل على أنه لن يكون من السهل جداً أن يستهجنها كما اعتَقَدَ. فحفحفَتْ وتألقَتْ بملابس جديدة بلون الحمام والمصنوعة من نسيج الجوخ، وفهم رالف من نظرة واحدة بأنها نضرة وجذابة وناضجة كثمرة يانعة قبل أن تتغضّن. لم يكن فيها على الأرجح من رأسها وحتى أخمص قدمها خطأ مطبعي. تحدثَتْ بصوتٍ واضح وقوي ـ

صوتٍ ليس عميقاً بل عالياً. والآن، بعد أن أخذَتْ مكانها مع رفاقها في عربة السيد تاتشيت، هاجمَتْهُ بالخط العريض، خط العناوين الصحفية البغيضة، بأن حضوره كان متوقعاً. أجابت عن التساؤلات الموجهة من قبل إيزابيل والتي تجرأ الشاب بالانضمام إليها بشفافية كبيرة. ولاحقاً، في المكتبة التي في جاردن كورت عندما تعرّفَتْ على السيد تاتشيت (لم تعتقد زوجتُه بأن من الضروري أن تظهر) فعلَتْ ما هو أكثر لتوحي بمقدار ثقتها بقدراتها، فانفجرَتْ: (حسناً، أود أن أعرف فيما إذا كنتم تعتبرون أنفسكم أميركيين أم إنجليز، فلو عرفتُ مقدماً لتمكنتُ من التحدث معكم وفقاً لذلك).

أجاب رالف بشكل متسامح: (تحدثي معنا بأية طريقة وسنكون ممتنين). فثبّتَتْ عينيها عليه، وكان هناك شيء ما في شكلهما ذكّره بالأزرار المصقولة الكبيرة ـ الأزرار التي تثبت الحلقات المرنة لوعاءٍ ممتلئ: إذ بدا أنه يرى انعكاس الأشياء المحيطة على البؤبؤ. إن عبارةَ زر لا تُعتبَر إنسانية عادةً، لكن كان هناك شيء ما في تحديق الآنسة ستاكبول جعله ـ كرجل متواضع جداً ـ يشعر بالحرج بشكل مبهم، وبأنه مكشوف أكثر ومُهان أكثر مما يرغب. يجب أن نضيف أن هذا الإحساس، بعد أن أمضى يوماً أو يومين بصحبتها، قلَّ بشكلٍ محسوس وإن لم ينتهِ أبداً بشكلٍ كامل. قالت: (لا أعتقد بأنكَ ستُقْدِم على إقناعي بأنكَ أميركي).

ـ (لكي أرضيكِ سوف أكون إنجليزياً، سأكون تركياً!).

ردت الآنسة ستاكبول: (حسناً، إذا كنتَ قادراً على التغيير بهذه الطريقة فأنتَ مُرَحَّبٌ بكَ).

فواصل رالف الكلام: (أنا متأكد بأنكِ تفهمين كل شيء وأن الاختلافات في القومية ليس عائقاً بالنسبة لكِ).

حدَّقَتِ الآنسة ستاكبول عليه بثبات: (هل تقصد اللغات الأجنبية؟).

ـ (اللغات هي لا شيء. أقصد الشخصية ـ الصفة المميزة).

قالت مراسلة الإنترفيور: (لستُ متأكدة بأني أفهمكَ، لكني أتوقع أن أفهمكَ قبل أن تغادر).

أشارت إيزابيل: (إنه من الذين يُطلق عليهم بأنهم ينتمون إلى العالم أجمع).

ـ (هذا يعني أنه قليلٌ من كل شيء وليس كثير من كل شيء. يجب أن أقول بأنني أعتقد بأن الوطنية كعمل الخير ـ تبدأ من البيت).

تساءل رالف: (آه، لكن من أين يبدأ الوطن يا آنسة ستاكبول؟)

ـ (لا أعلم من أين يبدأ، لكنني أعلم أين ينتهي. لقد انتهى قبل أن أصل إلى هنا بمدة طويلة).

سأل السيد تاتشيت بصوته العتيق البريء: (ألا تحبين الوضع هنا؟).

ـ (حسناً يا سيدي، أنا لم أقرر تماماً أي أرض سأختار، فأنا أشعر بأنني مقيدة بقدرٍ لا بأس به. لقد شعرتُ بذلك في الرحلة من ليفربول إلى لندن).

لمَّحَ رالف: (ربما لأنكِ كنتِ في عربة مزدحمة).

ـ (نعم، لكنها كانت مزدحمة بأصدقاء ـ مجموعة من الأميركيين الذين تعرفتُ عليهم في الباخرة. مجموعة لطيفة من ليتل روك، آركنساس. ورغم ذلك، شعرتُ بأنني مقيدة، شعرتُ بأن شيئاً ما يضغط عليّ لم أتمكن من معرفته. شعرتُ من البداية تماماً وكأنني لن أتلاءمَ مع الجو، لكنني أعتقد بأنني سأصنع جوّي الخاص بي، فهذه هي الطريقة الصحيحة ـ ومن ثم يمكنكَ أن تتنفس الصعداء. إن البيئة المحيطة بكم تبدو رائعة جداً).

قال رالف: (آه، نحن أيضاً مجموعة رائعة!. انتظري قليلاً وستَرَيْن).

أظهَرَتِ الآنسة ستاكبول كامل الرغبة لتنتظر، إذ كانت مستعدة بشكلٍ واضح لأن تبقى طويلاً في جاردن كورت. انشغَلَتْ في الصباح بالعمل الأدبي. لكن برغم ذلك، أمضت إيزابيل ساعات عديدة مع صديقتها التي، حالما تنتهي مهمتها اليومية، تُدين، أو في الحقيقة تزدري، العزلة.

وجدت إيزابيل بسرعة الفرصة لتطلب منها أن تمتنع عن الإشادة طباعةً بروعة زيارتهما المؤقتة المشتركة، عندما اكتشَفَتْ في اليوم الثاني لزيارة الآنسة ستاكبول بأنها منهمكة في رسالةٍ إلى الإنترفيور كان عنوانها بخط يدها الأنيق الواضح بشكل متقن (والذي يشبه تماماً خط الدفاتر التي تذكَّرَتْها طلتنا في المدرسة) هو «أميركيون ومن آل ثيودور ـ لمحات عن جاردن كورت». عرَضَتِ الآنسة ستاكبول، ذات أفضل ضمير في العالم، أن تقرأ رسالتها على إيزابيل التي أبدَتِ اعتراضها على الفور: (أرى بأنه لا يجب أن تفعلي ذلك. لا أعتقد بأن عليكِ أن تصفي المكان). فحملقَتْ هنرييتا نحوها كالمعتاد: (لماذا، فهذا تماماً هو ما يريده الناس، وهو مكانٌ رائع).

ـ (من اللطيف جداً أن يوضع في الصحف، وهو ليس ما يرغب به زوج خالتي).

صاحت هنرييتا: (لا تصدقي ذلك، فهم يُسعَدون دائماً بعد ذلك).

ـ (إن زوج خالتي لن يكون مسروراً ـ ولا ابن خالتي أيضاً، فسيعتبرونها خرقاً لآداب الضيافة).

لم تُظهِر الآنسة ستاكبول شعوراً بالارتباك، بل قامت ببساطة بضرب قلمها بعناية جداً فوق إناءٍ صغير أنيق احتفظَتْ به لهذا الغرض وأبعَدَتْ نسختها المكتوبة: (إن كنتِ لا توافقين، فلن أفعلها طبعاً. لكنني أُضحّي بموضوعٍ جميل).

ـ (هناك الكثير من المواضيع الأخرى. هناك مواضيع أينما تذهبين. سنقوم ببعض الجولات وسأُريكِ منظراً رائعاً).

أجابت الآنسة ستاكبول: (إن المناظر ليست تخصصي، أنا أحتاج دائماً إلى شأنٍ إنساني، فأنتِ تعلمين بأنني إنسانية بعمق يا إيزابيل ولطالما كنتُ كذلك. كنتُ سأدرجُ ابن خالتكِ ـ الأميركي المغترب، فهناك طلبٌ كبير في الوقت الحالي على الأميركيين المغتربين، وإن ابن خالتكِ هو نموذجٌ رائع. كان يجب أن أتصرف معه بقسوة).

صاحت إيزابيل: (لكان سيموت من جراء ذلك!، ليس من القسوة، بل من الشهرة).

ـ (حسناً، كنتُ سأحب أن أقمعه قليلاً، وأُسَرُّ بالاهتمام بزوج خالتكِ الذي يبدو بالنسبة لي من النوع الأكثر نبلاً ـ الهدوء الأميركي الجدير بالثقة. إنه رجل عجوز محترم ولا أفهم كيف يمكنه أن يعارض أن أُظهِرَ له الاحترام).

نظَرَتْ إيزابيل لرفيقتها بدهشةٍ كبيرة، فقد أدهشها بشكلٍ غريب أن تتحطم من حين إلى حين طبيعةٌ وجدَتْ فيها الكثير مما يستحق الاحترام، فقالت: (يا هنرييتا المسكينة، ليس لديكِ الإحساس بالخصوصية).

تغير لون وجه هنرييتا بعمق، وفي لحظةٍ تغير لون عينيها الراقتين عندما وَجَدَتْها إيزابيل غير منطقية أكثر من ذي قبل. فقالت الآنسة ستاكبول بوقار: (أنتِ تظلمينني كثيراً، فأنا لم أكتب كلمة واحدة عن نفسي أبداً!).

ـ (أنا متأكدة من ذلك. لكن يبدو لي أن على المرء أن يكون متواضعاً للآخرين أيضاً!).

هتفت هنرييتا وهي تسحب قلمها ثانيةً: (آه، ذلك أمر جيد جداً!. دعيني فقط أُدوِّن ذلك وسأضعه في مكانٍ ما).

كانت امرأةً طلقة المحيّا بكل معنى الكلمة. فبعد نصف ساعة، كانت في مزاجٍ مرح وكأنها صاحبة صحيفة تبحث عن موضوع للنشر. قالت لإيزابيل: (لقد وعدتُ أن أُنجز الجانب الاجتماعي، فكيف أنجزه ما لم أحصل على أفكار؟. إن كان لا يمكنني أن أصف هذا المكان، ألا تعرفين مكاناً معيناً يمكنني أن أصفه؟). فوعدَتْ إيزابيل بأنها ستفكر.

في اليوم التالي، وفي حديثٍ مع صديقتها، صادف أن ذكرَتْ زيارتها للمنزل العتيق للورد واربيرتون، فالتمست الآنسة ستاكبول: (آه، يجب عليكِ أن تأخذيني إلى هناك ـ فذلك هو المكان المناسب لي تماماً!. يجب أن آخذ لمحة عن النبلاء).

قالت إيزابيل: (لا يمكنني أن آخذكِ. لكن اللورد واربيرتون قادم إلى هنا وستحظين بفرصة لرؤيته ومراقبته. لكن إذا كنتِ تنوين إفشاء حديثه، فسأحذره بالتأكيد).

فتوسلت رفيقتُها: (لا تفعلي ذلك، فأنا أريده أن يكون على طبيعته!).

أعلنت إيزابيل: (لا يكون الرجل الإنجليزي على طبيعته أبداً مثلما وهو يمسك لسانه).

لم يكن واضحاً في نهاية الثلاثة أيام أن ابن خالتها، وفقاً لتكهنها، قد فقد قلبه نحو ضيفتهم رغم أنه أمضى قدراً لا بأس به من الوقت برفقتها. تنزها مشياً حول الحديقة معاً وجلسا تحت الأشجار. وفي المساء، عندما كان العوم على طول نهر التايمز باعثاً على البهجة، احتلت الآنسة ستاكبول مكاناً في القارب الذي لم يحظَ فيه رالف لحد الآن سوى برفيقٍ واحد. لقد اتضح بطريقةٍ ما أن وجودها لا يمكن اختزاله بشكلٍ أقل مما كان رالف قد توقع من شعوره بالذوبان التام في الاضطراب الطبيعي من وجود ابنة خالته، لأن مراسلة الإنترفيور قد أيقظت المرح داخله، وكان قد مرّ وقت طويل منذ أن قرر أن تصاعد المرح سيكون زهرة أيامه الآفلة. وفشلت قليلاً هنريتا من جانبها في تبرير إظهار إيزابيل للامبالاتها بوجهة النظر الذكورية، لأن رالف المسكين بدا أنه تجلّى لها كمشكلة مزعجة والتي سيكون من غير الأخلاقي قليلاً أن لا نحلّها، فسألت إيزابيل مساء وصولها: (من أين يكسب عيشه؟. هل يتسكع طوال اليوم ويديه في جيوبه؟)

ابتسمت إيزابيل: (إنه لا يعمل شيئاً، فهو رجل ذو رفاهية عالية).

أجابت الآنسة ستاكبول: (حسناً، أنا أسمي ذلك شيئاً مخجلاً ـ فعندما أضطر أن أعمل كجابٍ للسيارات، فسوف أودّ أن أريه ذلك).

نبهت إيزابيل: (إنه مريض جداً. إنه غير ملائم تماماً للعمل).

صاحت صديقتها: (تباً! لا تصدقي ذلك، فأنا أعمل عندما أكون مريضة).

لاحقاً، عندما صعدت القارب للانضمام إلى الحفلة المقامة وسط النهر، نبهَتْ رالف إلى أنها اعتقَدَتْ بأنه كرهها وأنه يودّ أن يُغرقها. فقال رالف: (آه، كلا، فأنا أُبقي ضحاياي تحت التعذيب البطيء، وستكونين ضحية مثيرة للاهتمام لأقصى حد!)

ـ (حسناً، يمكنني أن أقول بأنكَ تعذبني، لكنني أسبب صدمة لكل إجحافكَ، وذلك عزائي الوحيد).

ـ (إجحافي؟. ليس لدي إجحاف لأهنئ نفسي به. هناك قلة ثقافة من جانبكِ).

ـ (عليكَ أن تشعر بالخجل، فلدي ثقافة طيبة. أنا طبعاً أفسد مغازلتكَ، أو أياً ما تسميها، مع ابنة خالتكَ. لكنني لا أهتم لذلك لأنني أسدي لها معروفاً باستمالتكَ. سترى هي كم أنت ضعيف).

صاح رالف: (آه، استميليني إذن!، فالقليل جداً من الناس سيتجشمون عناء ذلك).

بدت الآنسة ستاكبول بهذا التعهد بأنها أجفلَتْ بسهولة، لاجئةً غالباً كلما سنحت الفرصة إلى الوسيلة المألوفة وهي الاستجواب.

كان الطقس في اليوم التالي سيئاً. وفي المساء، عرض الشاب من قبيل تقديم وسيلة تسلية داخل المنزل، أن يريها اللوحات. سارت هنرييتا عبر الرواق الطويل برفقته وهو يشير إلى زخارفه الأساسية ويذكر الرسامين والمواضيع. تفرجت الآنسة ستاكبول على اللوحات بصمتٍ تام وهي لا تبدي أي رأي، وكان رالف مسروراً لأنها لم تطلق هتافات السرور المبتذلة التافهة التي يجود بها عادةً الزائرون لجاردن كورت. في الواقع، لكي ننصف هذه السيدة الشابة نقول بأنها لم تكن سوى مدمنة قليلاً على استخدام العبارات المبتذلة. فهناك شيء جدّي ومبتدَع في أسلوبها الذي يدل أحياناً عند المناقشة المتوترة على شخصٍ ذي ثقافة عالية يتحدث بلغة

أجنبية. علم رالف تاتشيت لاحقاً بأنها في إحدى المرات قامت بوظيفة ناقدة فنية لصحيفةٍ للعالم الآخر[1].

لكن رغم هذه الحقيقة، إلا أنها بدت بأنها لا تحمل في جيبها فلساً من الاستحسان. لكن فجأةً، بعد أن قام مباشرةً بلفت انتباهها إلى شرطي وسيم، التفتت ونظرتْ إليه وكأنه هو نفسه لوحة فنية.

سألَتْ: (هل تمضي وقتكَ بهذه الطريقة دائماً؟).

ـ (نادراً ما أمضيه بشكلٍ مُرضي جداً).

ـ (حسناً، أنت تعرف ما أعني ـ أي بدون أية وظيفة منتظمة).

قال رالف: (آه، أنا أكثر الرجال بطالةً على قيد الحياة).

وجّهَتِ الآنسة ستاكبول نظرتها إلى الشرطي مرة أخرى، ووجَّهَ رالف انتباهها إلى لوحة صغيرة للفنان لونكخيه معلقة بقربه والتي مثّلَتْ رجلاً يرتدي سترة وردية ضيقة وبنطلوناً ضيقاً وطوق رقبة مكشكش وهو ينحني على قاعدة تمثال لإحدى الآلهات في حديقةٍ ويعزف الغيتار لسيدتين تجلسان على المرج، فقال: (هذا هو مَثَلي الأعلى في الوظيفة المنتظمة).

استدارت الآنسة ستاكبول نحوه ثانيةً، ورغم أن عينيها قد استقرتا على اللوحة، إلا أنه رأى بأنها لم تفهم القصد. لقد كانت تفكر في شيء أكثر أهمية بكثير: (أنا لا أفهم كيف يمكنكَ أن ترضي ضميركَ؟).

ـ (يا سيدتي العزيزة، أنا ليس لدي ضمير!).

ـ (حسناً، أنصحكَ بأن تزرعَ واحداً، فسوف تحتاجه في المرة القادمة التي تذهب فيها إلى أميركا).

ـ (على الأرجح أنني لن أذهب ثانيةً).

---

(1) العالم الآخر: يقصد به أميركا. (المترجمة)

ـ (هل أنت خجل من أن تُظهر نفسكَ؟).

تأمل رالف بابتسامةٍ خفيفة: (أعتقد بأن المرء الذي لا يمتلك ضميراً لن يشعر بالخجل).

أعلنت هنرييتا: (حسناً، لديكَ الكثير من الثقة. هل تعتقد بأنه من الصائب أن تنقطع عن بلدك؟).

ـ (آه، إن المرء لا ينقطع عن بلده أكثر مما ينقطع المرء عن جدته لأمه، فكلاهما من المحال أن تختارهما ـ أي إنها مكوِّنات بِنْيَة المرء التي لا يمكن التخلص منها).

ـ (أعتقد بأن ذلك يعني بأنكَ حاولتَ وفشلْتَ. كيف يرونكَ هنا؟)

ـ (إنهم مسرورون بي).

ـ (ذلك لأنكَ تخضع لهم).

تنهد رالف: (آه، انزلي قليلاً إلى سحري الطبيعي!).

ـ (أنا لا أعلم أي شيء عن سحركَ الطبيعي. ولو كنتَ تمتلك سحراً، فهو غير طبيعي تماماً. إنه مكتسب كلياً ـ أو على الأقل حاولتَ جاهداً لتكتسبه وأنت تعيش هنا. أنا لا أدّعي بأنكَ نجحْتَ. وعلى أية حال، إن مما يبعث على السحر هو أنني لا أقدِّر الأمر. اجعلْ نفسكَ نافعاً بطريقةٍ ما ومن ثم سنتحدث بشأنه).

قال رالف: (حسناً، أخبريني الآن ماذا سأفعل).

ـ (اذهبْ حالاً إلى البيت كي تبدأ بالأمر).

ـ (نعم، أنا أفهم. وبعد ذلك؟).

ـ (استأثِرْ بسرعة بشيءٍ ما).

ـ (حسناً. والآن، أي نوع من الأشياء؟).

ـ (أي شيء يسعدكَ. بشرط أن تتمسك به. فكرة جديدة، عمل مهم).

تساءل رالف: (من الصعب جداً التمسك به).

ـ (ليس صعباً لو وضعْتَ قلبكَ فيه).

قال رالف: (آه، قلبي. لو كان الأمر يعتمد على قلبي...!)

(أليس لديكَ قلب؟).

ـ (كان لدي واحد قبل بضعة أيام لكنني أضعْتُه من وقتها).

قالت الآنسة ستاكبول: (أنتَ لستَ جادّاً مِن أنَّ ذلك هو ما أصابكَ).

لكن، بعد يوم أو اثنين، سمحَتْ له ثانيةً بأن يلفت انتباهها لكل ذلك. وفي المرة الأخيرة حدَّدَتْ سبباً مختلفاً لتشاكسه. قالت: (أنا أعرف ماذا دهاك يا سيد تاتشيت. أنت تعتقد بأنكَ مؤهل جداً للزواج).

أجاب رالف: (كنتُ أعتقد ذلك حتى عرفتُكِ يا آنسة ستاكبول ومن ثم غيرتُ رأيي فجأة).

تذمرت هنرييتا: (أوه، تباً).

قال رالف: (ثم بعد ذلك بدا لي بأنني لم أكن مؤهلاً بما يكفي).

ـ (كان سيحسّن من حالتكَ. إلى جانب ذلك، فهو واجبكَ).

صاح الشاب: (آه، إن للمرء العديد جداً من الواجبات!. فهل هذا أيضاً واجب؟).

ـ (طبعاً إنه كذلك ـ ألم تعلم ذلك من قبل؟ فمن واجب كل شخص أن يتزوج).

تأمل رالف لحظةً، لقد كان خائب الأمل. لقد كان هناك شيء ما في الآنسة ستاكبول بدأ يحبه، فقد تراءى له بأنها لو لم تكن امرأة ساحرة لكانت على الأقل «صنفاً» جيداً جداً. كان ينقصها الوضوح. لكنها، كما قالت إيزابيل، كانت شُجاعة: ذهبَتْ إلى الأقفاص، لوّحَتْ بالسوط، كمروّض أسودٍ لامع. لم يكن يتخيلها بارعة بالأساليب المبتذلة، لكن تلك الكلمات الأخيرة

صعقته كإنذار خاطئ. فعندما تقوم شابة بإغراء شابٍ بالزواج، لن يكون التفسير الأكثر وضوحاً لسلوكها هو محبتها للغير.

أجاب رالف: (آه، حسناً، الآن هناك الكثير يجب أن يقال عن هذا الأمر).

ـ (قد يكون كذلك. لكنه الشيء الأساسي. يجب أن أقول بأنني أعتقد بأنه يبدو من الغريب أن تتسكع بمفردكَ وكأنكَ تعتقد بأنه لا توجد امرأة مناسِبة لكَ بما يكفي. هل تعتقد بأنكَ أفضل من أي أحد آخر في العالم؟. ففي أميركا من المألوف بالنسبة للناس أن تتزوج).

تساءل رالف: (إذا كان ذلك واجبي، فهو واجبكِ أيضاً بنفس القدر، أليس كذلك؟).

لمحت عينا الآنسة ستاكبول الشمس بدون أن تطرفا: (هل لديكَ الأمنية الغالية باكتشاف خطأ في تفكيري؟ فأنا طبعاً لدي حق بالزواج كأي أحدٍ آخر).

قال رالف: (حسناً، إذن، لن أقول بأنه يغيظني أن أراكِ غير متزوجة. بل بالأحرى يسعدني ذلك).

ـ (أنتَ لستَ جاداً الآن، ولن تكون كذلك).

ـ (ألن تصدقيني عندما سأخبركِ بأنني أرغب بترك عادة التسكع بمفردي؟).

نظرت الآنسة ستاكبول إليه للحظة بطريقةٍ بدت أنها تفصح عن إجابةٍ يمكن أن تسمى فنياً مشجعة. لكن لدهشته الكبيرة تحولتْ هذه العبارة نفسها فجأة إلى مظهرٍ من الرعب وحتى من الاستياء. فأجابت بجفاء: (كلا. حتى ذلك الحين). ثم غادرَتْ بعد ذلك.

قال رالف لإيزابيل ذلك المساء: (لم أستشعر عاطفةً تجاه صديقتكِ رغم أننا تحدثنا لبعض الوقت هذا الصباح عن ذلك).

أجابت الفتاة: (وأنتَ قلتَ شيئاً لم تحبه هي).

فحدّق رالف: (هل اشتكَتْ مني؟).

ـ (لقد أخبرَتْني بأنها تعتقد بأن هناك شيئاً ما وضيعاً جداً في أسلوب الأوربيين تجاه النساء).

ـ (هل هي تسميني أوربياً؟).

ـ (أسوأ الأوربيين. لقد أخبرَتْني بأنكَ قلتَ لها شيئاً لم يكن ليقوله أميركي أبداً. لكنها لن تكرره).

ضحك رالف كثيراً: (إنها تركيبٌ فريدٌ من نوعه. هل تصورَتْ بأنني كنتُ أغازلها؟)

ـ (كلا. فأنا مؤمنة بأنه حتى الأميركين يفعلون ذلك. لكنها اعتقَدَتْ بوضوح بأنكَ أخطأتَ في فهم شيء كانت قد قالته وأبديْتَ تفسيراً غير لطيف بشأنه).

ـ (لقد اعتقدتُ بأنها كانت تطلب مني الزواج وأنا قبلْتُ بها. فهل كان ذلك شيئاً غير لطيف؟).

ابتسمت إيزابيل: (كان غير لطيف بالنسبة لي. فأنا لا أريد منكَ أن تتزوج).

تساءل رالف: (يا ابنة خالتي العزيزة، ماذا على المرء أن يفعل بينكن جميعاً؟. تخبرني الآنسة ستاكبول بأنه واجبي المحتوم، وأن من واجبها عموماً أن تراني أؤدي واجبي!).

قالت إيزابيل برزانة: (لديها حس كبير بالواجب. لديها ذلك فعلاً، وهو الدافع لكل شيء قالته، ولأجل ذلك أنا أحبها. إنها تعتقد أنه من غير الجدير بكَ أن تمضي كل وقتكَ بمفردكَ. هذا ما أرادت التعبير عنه. فإذا تخيلْتَ بأنها كانت تحاول أن تستميلكَ فأنتَ مخطئٌ جداً).

ـ (صحيح أنها كانت طريقة غريبة، لكنني تصورتُ فعلاً بأنها كانت تحاول أن تستميلني. اغفري لي حقارتي).

ـ (أنتَ مغرورٌ جداً، فهي لم يكن لديها غرض ذو شأن ولم تتخيل أبداً بأنكَ كنتَ ستتصور بأن لديها غرضاً ما).

قال رالف بتواضع: (إذن، على المرء أن يكون متواضعاً جداً ليتحدث مع نساءٍ كتلك. لكنها ذات نمط غريب جداً. إنها ذات خصوصية للغاية ـ مع العلم بأنها تنتظر من الآخرين أن لا يكونوا كذلك. إنها تتجول في المنزل بدون أن تطرق على الأبواب).

اعترفت إيزابيل: (نعم، إنها لا تميّز تماماً وجود مطرقة الباب. وفي الواقع، لستُ متأكدة بأنها لا تعتقدها سوى زينة رنانة. فهي تعتقد أن باب المرء يجب أن يبقى مفتوحاً جزئياً. لكنني مستمرة بالإعجاب بها) أجاب رالف وهو متضايق طبعاً نوعاً ما لشعوره بأنه خُدِعَ بشكلٍ مضاعف بشأن الآنسة ستاكبول: (وأنا مستمر بالاعتقاد بأنها سوقية جداً).

قالت إيزابيل مبتسمةً: (حسناً، أخشى بأنني أحبها لأنها سوقية نوعاً ما).

ـ (ستكون مغرورة بهذا السبب!).

ـ (لو كنتُ سأقول لها ذلك، ما كنتُ لأعبّر عنه بهذه الطريقة، بل سأقول إن السبب هو أن هناك شيئاً «شعبياً» فيها).

ـ (ماذا تعرفين عن الشعب؟ وماذا تعرف هي عن هذا الموضوع؟).

ـ (إنها تعرف قدراً لا بأس به، وأنا أعرف بما يكفي لأشعر بأنها نوعٌ من ثمرة الديموقراطية العظيمة ـ للقارة، للدولة، للأمة. أنا لا أدّعي بأنها تجمع كل ذلك، فذلك سيكون كثيراً جداً على أن أطلبه منها. لكنها توحي بذلك، إنها تمثله بحيوية).

ـ (إذن أنت تحبينها لأسباب وطنية. أخشى أنني لهذه الأسباب بالذات أتعارض معها).

قالت إيزابيل بتنهيدةٍ مرحة: (آه، أنا أحب الكثير جداً من الأشياء!. فإذا

سحرني شيء ما بشدة فسأتقبله. لا أريد أن أتباهى، لكنني أعتقد بأنني متفوقة بعض الشيء. أحب أن يكون الناس مختلفين تماماً عن هنرييتا ـ على نمط أخوات اللورد واربيرتون على سبيل المثال. فكلما أنظر إلى الآنستَيْن مولينو طويلاً، تبدوان بالنسبة لي تطابقان نمطاً من النموذج المثالي. ثم إن هنرييتا تمثل نفسها، وأنا مقتنعة بها بدون تردد، ليس لأسباب تخصّها هي نفسها بل لعدد المتجمهرين خلفها).

أشار رالف: (آه، تقصدين المنظر الخلفي لها).

أجابت ابنة خالته: (إن ما تقوله هي صحيح. ذلك أنكَ لن تكون جادّاً أبداً. أحب الدولة العظيمة التي تمتد إلى ما وراء الأنهار وعبر المروج وهي تزدهر وتبتسم وتتوسع حتى تتوقف عند المحيط الهادئ الأخضر الذي يبدو أن رائحةً منعشةً قويةً طيبةً تنبعث منه!. ولهنرييتا ـ عذراً لتبسُّمي ـ قليلٌ من هذه الرائحة في ثيابها).

احمرّتْ إيزابيل قليلاً وهي تختتم خطابها، وكان الاحمرار، مع الحماس العابر الذي أقْحَمَتْهُ فيه لائقين جداً بها بحيث وقف رالف وهو يبتسم لها للحظة بعد أن توقفَتْ عن الكلام.

قال: (أنا لستُ متأكداً من أن المحيط الهادئ أخضر جداً بهذا الشكل، لكنكِ شابة خيالية. على أية حال فإن هنرييتا تنبعث منها رائحة المستقبل ـ رائحةٌ توشك أن تطرح المرء أرضاً!).





الفصل 11

فقرّر بعد ذلك أن لا يسيء تفسير كلماتها حتى وإن بدت الآنسة ستاكبول تهاجم الشأن الشخصي بشكلٍ أكثر قسوة، فقد ذكَّر نفسه بأن الأشخاص من وجهة نظرها هم كائنات حية بسيطة ومتشابهة، وهو من جانبه كان شريراً جداً ومثالاً لطبيعة الإنسان لأنه تعامَلَ معها فوراً بالمثل بشكلٍ صارم، وقد نفّذ قراره بقدر كبير من التهذيب، فلم تجد السيدة الشابة في التواصل المتجدد معه أية عقبة لتمارس عبقريتها في الاستفهام الجريء، وهو التطبيق العام لثقتها بنفسها. لهذا السبب كان مقامها في جاردن كورت مستحباً من قبل إيزابيل، كما رأيناها تفعل ذلك، واستحبابها التام هي نفسها للعبة الذكاء الفارغة تلك والتي، بالنسبة لمفهومها، جعلت شخصية إيزابيل أختاً روحية؛ واستحبابها للوقار الهادئ للسيد تاتشيت الذي لاقى أسلوبه النبيل استحسانها، على حد قولها ـ أن مقامها في جاردن كورت كان سيصبح مريحاً بشكلٍ تام لو لم تشعر بعدم ثقة مهتاجة من قبل السيدة الضئيلة الحجم التي ظنت الآنسة ستاكبول في البداية بأنها مضطرة لِأنْ «تعترف» بأنها سيدة المنزل. فاكتشفَتْ على الفور في واقع الأمر أن هذا الاضطرار كان الأكثر تفاهة، وأن السيدة تاتشيت لم تهتم كثيراً بتصرفات الآنسة ستاكبول.

كانت السيدة تاتشيت قد أوضحَتْ لإيزابيل بأن ستاكبول امرأة مستهترة ومملة ـ المستهترات عادةً يمنحن المرء المزيد من الإثارة، وكانت قد تفاجأتْ بأن تختار ابنة أختها صديقةً كهذه، مع ذلك، فقد أضافت فوراً بأنها

عرفَتْ أن صديقات إيزابيل كن شغلها الشاغل، وبأنها لم تكن ملزمة أبداً بأن تحبهن جميعهن أو أن تحدد الفتاةَ بأولئك الذين تحبهم.

اعترفَتِ السيدة تاتشيت بصراحة: (إن لم تري سوى الناس الذين أحبهم يا عزيزتي، فستحظين برفقةٍ صغيرة جداً، ولا أعتقد بأنني أحب أي رجلٍ أو امرأة بما يكفي لأزكّيهم لكِ، فعندما تصل المسألة للتزكية تصبح مسألة هامة. أنا لا أحب الآنسة ستاكبول ـ فكل شيء فيها يثير استيائي. إنها تتحدث كثيراً جداً وبصوت عالٍ جداً وتنظر إلى المرء وكأن المرء أراد أن ينظر إليها ـ وهو لم يفعل ذلك. أنا متيقنة بأنها عاشت طوال حياتها في فندق، وأنا أشمئز من أخلاق وتحرُّر أماكن كهذه. لو تسأليني فيما إذا كنتُ أحبذ أخلاقي التي تعتقدين بلا شك بأنها سيئة جداً، فسأخبركِ بأنني أحبذها بشكلٍ هائل.

إن الآنسة ستاكبول تعلم بأنني أشمئز من طريقة حياة الفنادق، وهي تكرهني لاشمئزازي من ذلك لأنها تعتقدها الأرقى في العالم، وكانت ستحب جاردن كورت كثيراً لو كان فندقاً. بالنسبة لي، أجده قليلاً أكثر من فندق! نحن لن نتفاهم أبداً لهذا السبب، ولا جدوى من المحاولة).

كانت السيدة تاتشيت محقة بالتخمين أن هنرييتا استهجَنَتْها، لكنها لم تضع يدها تماماً على السبب. بعد وصول الآنسة ستاكبول بيوم أو يومين، أبدت بعض الملاحظات المتحيزة عن الفنادق الأميركية التي أثارت مزاج الجدال المضاد من جانب مراسلة الإنترفيور التي نتيجة لممارستها لمهنتها، كانت ملمة بكل شكل من أشكال الفنادق في العالم الغربي. عبَّرَتْ هنرييتا عن رأيها بأن الفنادق الأميركية كانت الأفضل في العالم، وأن السيدة تاتشيت لكونها حديثة العهد بالخلاف المتجدد مع هذه الفنادق، فقد سجلت اقتناعاً بأنها كانت الأسوأ.

أشار رالف بعبقريته التجريبية، من قبيل إصلاح الخرق، إلى أن الحقيقة تكمن بين أقصى الطرفين، وأن المؤسسات موضوع النقاش يجب أن توصف

باعتدال. رفضت الآنسة ستاكبول هذه المساهمة في النقاش بازدراء. باعتدال فعلاً!. إذا لم تكن الأفضل في العالم، فهي الأسوأ. لكن لا يوجد شيء باعتدال بشأن فندق أميركي.

قالت السيدة تاتشيت: (من الواضح أننا نحكم من خلال آراء مختلفة. أنا أحب أن أُعامَلَ كشخصٍ متفرد، وأنتِ تحبين أن تُعامَلي «كمجموعة أشخاص»).

أجابت هنرييتا: (لا أعلم ماذا تقصدين. فأنا أحب أن أُعامَل كسيدة أميركية).

هتفت السيدة تاتشيت ضاحكةً: (يا للسيدات الأميركيات المسكينات!. إنهن عبيد للعبيد).

أجابت هنرييتا بانتقام: (إنهن شريكات لرجالٍ أحرار).

ـ (إنهن شريكات لخدمهن ـ الوصيفة الأيرلندية والنادل الزنجي. إنهن يشاركن أعمالهم).

تساءلت الآنسة ستاكبول: (هل تسمين الخدم في عائلة أميركية بـ«عبيد»؟. إذا كانت هذه هي الطريقة التي ترغبين أن تعامليهم بها، فلا عجب بأنكِ لا تحبين أميركا).

قالت السيدة تاتشيت بهدوء: (إن لم يكن لديكِ خدم جيدين، فستصبحين تعيسة. إنهم سيئون جداً في أميركا. لكن أنا لدي خمسة خدم مثاليين في فلورنسا).

لم تتمالك هنرييتا سوى أن تقول: (أنا لا أفهم ما حاجتكِ لخمسة. فأنا لا أعتقد بأنني أحب أن أرى خمسة أشخاص يحيطون بي بهذه الحالة التافهة).

جاهرت السيدة تاتشيت بمغزىً كبير: (أنا أحبهم في تلك الحالة أفضل من حالةٍ أخرى).

فتساءل زوجها: (هل كنتِ ستحبينني أكثر يا عزيزتي لو كنتُ رئيس خدمكِ؟).

ـ (لا أعتقد بأنني سأفعل: فلن يكون لديكَ مطلقاً بدلة رئيس الخدم).

قال رالف: (شريكات لرجالٍ أحرار ـ يعجبني ذلك يا آنسة ستاكبول، إنه تعبيرٌ رائع).

ـ (عندما قلتُ رجالاً أحراراً لم أكن أقصدكَ أنت يا سيد!).

كانت هذه هي المكافأة الوحيدة التي تلقاها رالف مقابل مجاملته. فارتبكت الآنسة ستاكبول، إذ إن من الواضح أنها تصورَتْ بأنه كان هناك شيء منطوٍ على الخيانة في تقييم السيدة تاتشيت لطبقةٍ اعتبَرَتْها شخصياً استمراراً مبطناً للنظام الاقطاعي، ذلك ربما لأن عقلها كان مثقلاً بهذه الصورة التي عانت منها يوماً ما لتنتهي، قبل أن تجد فرصةً لتقول لإيزابيل: (يا صديقتي العزيزة، إنني أتساءل فيما إذا كنتِ تزدادين ضعفاً في الإيمان).

ـ (ضعفاً في الإيمان؟. ضعفاً في الإيمان بكِ هنرييتا؟).

ـ (كلا. فسيكون ذلك وجعاً كبيراً).

ـ (ضعف إيمان ببلدي إذن؟)

ـ آه، هذا ما آمل أن لا يحدث أبداً. عندما كتبتُ لكِ من ليفربول، ذكرتُ بأن لدي شيئاً ما خاصاً أخبركِ به. لم تسأليني أبداً ما هو. هل السبب بأنكِ مرتابة؟)

قالت إيزابيل: (مرتابة بماذا؟. كقاعدة، لا أعتقد بأنني أرتاب. أتذكر الآن تلك العبارة في رسالتكِ. لكنني أعترفُ بأنني كنتُ قد نسيتُها. ماذا لديكِ لتقولي لي؟).

بدت هنرييتا خائبة الأمل، وخانتها نظرتها الثابتة: (أنتِ لم تسألي عن ذلك بشكلٍ مباشر ـ وكأنكِ اعتقدْتِهِ مهماً. لقد تغيرتِ ـ أنت تفكرين بأشياء أخرى).

ـ (أخبريني ماذا تقصدين، وسأفكر فيه).

ـ (هل ستفكرين فيه حقاً؟. فذلك هو ما أتمنى أن أكون متأكدة منه).

قالت إيزابيل: (ليس لدي سيطرة كبيرة على أفكاري، لكنني سأعمل ما بوسعي).

فحدقَتْ هنرييتا تجاهها بصمت لوهلةٍ اختبَرَتْ فيها صبر إيزابيل بحيث إن بطلتنا أضافت في النهاية: (هل تقصدين بأنكِ سوف تتزوجين؟)

قالت الآنسة ستاكبول: (ليس حتى أرى أوروبا!)، ثم واصلت الكلام: (علامَ تضحكين؟. ما أقصده هو أن السيد غودوود أتى معي على الباخرة).

أجابت إيزابيل: (آه!).

ـ (أنتِ تتفوهين بذلك بشكلٍ ملائم. لقد تحدثتُ معه كثيراً. لقد تبعكِ).

ـ (هل أخبركِ بذلك؟).

قالت هنرييتا بدهاء: (كلا. لم يخبرني شيئاً. إن ذلك هو ما أحسستُ به. لقد تحدَّثَ عنكِ قليلاً جداً، لكنني تحدثتُ عنكِ كثيراً).

تريّثَتْ إيزابيل، فعند ذِكْر اسم السيد غودوود، استحالت شاحبةً قليلاً. فقالت في النهاية: (أنا حزينة جداً لأنكِ فعلتِ ذلك).

ـ (لقد كان أمراً ساراً بالنسبة لي، وأحببتُ الطريقة التي أصغى بها. كان بإمكاني التحدث طويلاً إلى مستمعٍ كهذا، فقد كان هادئاً جداً، عاطفياً جداً. لقد استمع للحديث كله بابتهاج).

تساءلت إيزابيل: (ماذا قلتِ عني؟).

ـ (لقد قلتُ عموماً بأنكِ كنتِ أرقّ مخلوقة أعرفها).

ـ (آسفة جداً لذلك. فهو مسبقاً يفكر فيَّ كثيراً جداً. ما كان يجب تشجيعه).

ـ (إنه يتوق لأقل تشجيع. أنني أرى وجهه الآن ونظرته الجدية الشاردة عندما تحدثتُ معه. لم أرَ أبداً رجلاً قبيحاً يبدو وسيماً جداً).

قالت إيزابيل: (إنه ساذج التفكير جداً، وهو ليس قبيحاً جداً).

ـ (لا يوجد شيء أكثر وضوحاً من الغرام الكبير).

ـ (إن الأمر ليس غَراماً كبيراً. أنا متأكدة تماماً بأنه ليس كذلك).

ـ (أنتِ لا تقولين ذلك وكأنكِ متأكدة).

فابتسمت إيزابيل ابتسامة لا مبالية قليلاً: (من الأفضل أن أذكر ذلك للسيد غودوود نفسه).

قالت هنرييتا: (سيقوم حالاً بمنحكِ فرصة).

لم تقدم إيزابيل جواباً لهذا التأكيد الذي أبدته رفيقتها بمظهرٍ من الثقة الكبيرة. فتابَعَتِ الأخيرة: (سيجدكِ قد تغيرتِ. لقد تأثرْتِ ببيئتكِ الجديدة).

ـ (من المحتمل جداً، فأنا أتأثر بأي شيء).

صاحت الآنسة ستاكبول بمرحٍ صاخب، ومزعج قليلاً: (بأي شيء عدا السيد غودوود!).

عجزت إيزابيل حتى عن أن ترد الابتسامة، وقالت بسرعة: (هل طلب منكِ أن تتحدثي إليّ؟).

ـ (ليس بالكلام، وإنما عيناه من طلبتا ذلك ـ ومصافحته عندما ودّعني).

ـ (شكراً لأنكِ فعلْتِ ذلك). ثم ابتعدَتْ إيزابيل. فواصلَتْ صديقتها الكلام: (نعم، لقد تغيرتِ. لقد اكتسبْتِ أفكاراً جديدةً هنا).

قالت إيزابيل: (آمل هذا. فعلى المرء أن يكتسب أكبر عدد من الأفكار قدر الإمكان).

ـ (نعم، لكن لا يجب أن تتعارض مع الأفكار القديمة عندما تكون الأفكار القديمة هي الأفكار الصحيحة).

فاستدارت إيزابيل ثانيةً: (إن كنتِ تقصدين بأن لدي أية فكرة عن السيد غودوود...!)، لكن إيزابيل اضطربَتْ في كلامها أمام التألق العنيد لصديقتها.

ـ (يا صغيرتي العزيزة، أنت بالتأكيد قد شجعتِه).

أنكرَتْ إيزابيل بسرعة هذه التهمة وأجابت بدلاً من ذلك فوراً: (هذا صحيح جداً، لقد شجّعْتُهُ فعلاً). ثم تساءَلَتْ فيما إذا كانت رفيقتها قد علمَتْ من السيد غودوود ما نوى أن يفعله. لقد كان اعترافاً بفضولها، لأنها كرهَتْ مناقشة الموضوع ووجدَتْ أن هنريتا تنقصها الكياسة.

أجابت الآنسة ستاكبول: (لقد سألْتُهُ وقال بأنه لم يكن ينوي فعل شيء. لكنني لا أصدق ذلك، فهو ليس من النوع الذي لا يفعل شيئاً. إنه رجل يفعل ما يقول. مهما كان ما يحدث له فإنه سيفعل شيئاً دائماً، وأي شيء يفعله سيكون صائباً دائماً).

ـ (أنا أؤمن بذلك تماماً).

قد تكون هنريتا تعوزها الكياسة، لكن سماع هذا التصريح قد أثّرَ في الفتاة رغم ذلك.

قالت زائرتها بصوت عالٍ: (آه، أنت تهتمين لأمره فعلاً!).

فكّرَتْ إيزابيل: (أيّاً كان ما يفعله، فسيكون صائباً دائماً. رجل لا يخطئ بهذا الشكل، ماذا سيهمه بما يشعر المرء؟).

ـ (قد لا يهمه هو، لكن يهم نفسيته).

قالت إيزابيل بابتسامةٍ لامبالية: (آه، ما يهمني ـ أن ذلك ليس هو ما نناقشه).

كانت رفيقتها هذه المرة جادة: (حسناً، أنا لا أهتم. لقد تغيرتِ. فأنتِ لستِ الفتاة نفسها التي كنتِ عليها قبل عدة أسابيع، وسيرى السيد غودوود ذلك. فأنا أتوقع قدومه إلى هنا في أي يوم).

قالت إيزابيل: (إذن، أتمنى أن يكرهني).

ـ (أنا مؤمنة بأنكِ تتمنين ذلك قليلاً بقدر إيماني بقدرته على ذلك).

لم تجب بطلتنا على تلك الملاحظة، فقد كانت مستغرقةً بالإنذار المُتَضَمَّن

في تلميح هنرييتا من أن كاسبار غودوود سيحظر بنفسه إلى جاردن كورت. رغم ذلك، فقد تظاهَرَتْ بأنها ظنت أن الحدث مستحيل. لاحقاً، أفشت لصديقتها بأنها لا تصدق ذلك. مع ذلك، في الثماني وأربعين ساعة القادمة، وقفَتْ متأهبة لسماع اسم الشاب وهو يعلن عنه. كبس عليها هذا الشعور، فقد جعل الهواء حاراً وكأن هناك تغيراً في الطقس، وكان الطقس، لو تحدثنا بشكل اجتماعي، جميلاً جداً أثناء مكوث إيزابيل في جاردن كورت بحيث إن أي تغيير سيكون نحو الأسوأ. كان انزعاجها قد تبدد في اليوم الثاني، إذ كانت تسير في الحديقة برفقة بانشي الأليف، وبعد السير لبعض الوقت بكسلٍ وبضجرٍ معاً، جلسَتْ على مسطبة الحديقة على مرأى من المنزل تحت شجرة الزان الممتدة، حيث كوّنَتْ بالثوب الأبيض المزين بأشرطة سوداء بين الظلال المتراقصة، شكلاً بهياً ومنسجماً. رفهَتْ عن نفسها لبضع لحظات بالتحدث مع كلب التِّرْيَر الصغير لأن مقترح ملكيته التي تقاسَمَتْها مع ابن خالتها يُطبق بنزاهة قدر الإمكان ـ بنزاهةٍ بقدر ما تسمح به أحاسيس بانشي المتقلبة بعض الشيء والمتبدلة. لكنها تنبّهَتْ لأول مرة، في هذه الحالة، بمحدودية ذكاء بانشي؛ فدُهشَتْ جداً لحدّ هذه اللحظة بلامحدوديته. فبدا لها في النهاية بأنه سيكون من الأفضل لها أن تأخذ كتاباً سابقاً، عندما يكون قلبها مثقلاً بالهموم، تكون متمكنة بمساعدة كتاب مختار بعناية، على أن تنقل مركز الإدراك إلى العضو المسؤول عن الفهم التام. منذ عهدٍ قريب، لم يكن يُنكَر أن الأدب قد ظهر كضوءٍ باهت، حتى بعد أن ذكَّرَتْ نفسها بأن مكتبة زوج خالتها كانت مزودة بمجموعة كاملة لأولئك الكُتّاب والتي لا تخلو مجموعة أي رجل محترم منها. جلسَتْ بلا حراك فارغة اليدين وعينيها منكبّتين على العشب الأخضر الرطب للمرج. قُطعَتْ تأملاتها على الفور بوصول خادمٍ سلمها رسالة. حملت الرسالة ختم بريد لندن ومعنونة بخطٍّ عرفَتْهُ والذي لفت انتباهها بإشراقة صوت الكاتب أو وجهه. دلّوزت هذه الرسالة على قِصَرِها ويمكن تقديمها كاملة:

عزيزتي الآنسة آرتشر:

لا أعلم فيما إذا كنتِ قد سمعتِ بوصولي إلى إنجلترا، لكن حتى وإن لم تسمعي، فبالكاد ستكون مفاجأةً لكِ. تتذكرين عندما تركتِني في ألباني قبل ثلاثة أشهر بأنني لم أستسغ ذلك. لقد اعترضتُ على ذلك وتظاهَرْت في الحقيقة بقبول اعتراضي وبالاعتراف بأن الحق كان إلى جانبي. لقد أتيتُ لأراكِ على أمل بأنكِ ستسمحين لي بأن أستميلكِ إلى قناعتي. إن أسبابي بالتمتع بهذا الأمل كانت من أفضل الأسباب، لكنكِ أحبطتِها. لقد اكتشفتُ بأنكِ تغيرتِ وبأنكِ قادرة على أن لا تمنحيني سبباً للتغيير. لقد اعترَفْتِ بأنكِ غير منطقية وبأن هذا كان الاعتراف الوحيد الذي كنتِ ستقومين به، لكنه كان اعترافاً رخيصاً جداً لأن ليست تلك هي شخصيتكِ. كلا، فأنتِ لستِ، ولن تكوني أبداً، عشوائية أو متقلبة. لذلك، فإنني أعتقد بأنكِ ستسمحين بأن أراكِ ثانيةً. لقد أخبرتِني بأنني لستُ مزعجاً بالنسبة لكِ، وأنا أؤمن بذلك لأنني لا أفهم لماذا يجب أن يحصل ذلك.

سأبقى دائماً أفكر بكِ ولن أفكر أبداً بأي أحدٍ آخر غيركِ. ببساطة، لقد أتيتُ إلى إنجلترا لأنكِ هنا، لم أتمكن من البقاء في الوطن بعد رحيلكِ. لقد كرهتُ البلد لأنكِ لستِ فيها. لو كنتُ أحب هذا البلد الآن، فذلك فقط لأنه يحتويكِ. لقد كنتُ في إنجلترا من قبل، لكنني لم أستمتع بها كثيراً أبداً. ألا يمكنني أن آتي وأراكِ لنصف ساعة؟ فهذه هي أعز أمنية في الوقت الحاضر.

المخلص

كاسبار غودوود

قرأتْ إيزابيل هذه الرسالة باهتمام عميق لدرجة أنها لم تشعر بخطواتٍ مقتربةٍ على العشب الطري. رغم ذلك، رأت وهي ترفع نظرها وتطوي الرسالة آلياً، اللورد واربيرتون وهو يقف أمامها.

***

الفصل 12

وَضَعَتِ الرسالة في جيبها وابتسَمَتْ لزائرها ابتسامة ترحيب، غير مُظهرةٍ لأي أثر من الارتباك ومندهشةً قليلاً لهدوئها. قال اللورد واربيرتون: (أخبروني بأنكِ هنا في الخارج. وبما أنه لم يوجد أحدٌ في غرفة الاستقبال، وأنتِ في الواقع هو من أود رؤيته، خرجتُ بدون ضجّة).

نهضَتْ إيزابيل، فقد شعرَتْ لوهلةٍ بأنه لا يجب أن يجلس إلى جانبها: (كنتُ على وشك الدخول للمنزل)

ـ (أرجوكِ لا تفعلي ذلك، فالجو رائعٌ كثيراً. لقد أتيتُ من لوكلي ركوباً، إنه نهارٌ جميل). كانت ابتسامته ودودةً وباعثةً للبهجة بشكلٍ خاص، وبدا أن شخصه كله يبعث ذلك الإشعاع من المشاعر الطيبة والخير الذي كوَّنَ سحر الانطباع الأول للفتاة عنه. فقد أحاطه كنطاقِ طقس حزيران الجميل.

قالت إيزابيل التي لم تستطع أن تتخلص من فهم نيّة زائرها، والتي ودت أن تتملص من هذه النيّة وأن تُشبع تشوقها لها في الوقت نفسه: (سنتجوّل قليلاً إذن). لقد ومضَتْ هذه النيّة في مخيلتها سابقاً في إحدى المرات، وفي هذه المرة سبّبَتْ لها خوفاً معيناً كما نعلم. كان هذا الخوف متكوناً من آثار عديدة، ليست كلها مزعجة. فأمضَتْ في الحقيقة بضعة أيام في تحليلها، ونجَحَتْ بفصل الجزء الجميل لفكرة تملق اللورد واربيرتون لها، عن الجزء المزعج.

قد يبدو لبعض القُرّاء أن السيدة الشابة كانت مندفعة ومُتأنّية بإفراط في الوقت نفسه، لكن الأخيرة من هاتين الصفتين، إن كانت التهمة حقيقية، قد تساعدها من التحرر من ذلِّ الأولى. لم تكن توّاقةً لأن تُقنع نفسها بأن زعيماً

مقاطعةٍ، كما سمعَتْ يُطلَق على اللورد واربيرتون، كان متيّماً بسحرها. فحقيقة تصريحٍ من مصدرٍ كهذا، يحمل في داخله في الواقع أسئلةً أكثر مما يحمل إجابةً. لقد تلقّتْ انطباعاً قوياً بأنه كان «شخصية بارزة»، وقد شغلَتْ نفسها بتفحُّص الصورة المنقولة بهذه الطريقة. عندما نجازف ونضيف غرورَها إلى حجتها، لا بدّ من القول بأنه كانت هناك لحظات مثَّلَتْ لها إمكانية إعجاب الشخصية البارزة هذه تعدياً لدرجة الإهانة قليلاً، ولدرجة الإزعاج كثيراً. لم تكن تعرف لحد تلك اللحظة شخصيةً بارزةً، إذ لم تكن هناك شخصيات بارزة، بهذا المعنى، في حياتها. لم يكن هناك على الأرجح مثل هذا الشيء في وطنها إطلاقاً. فعندما كانت قد فكّرَتْ بالتفوق الشخصي، اعتقَدَتْ أنه قائم على أساس الشخصية والذكاء ـ وهي أمورٌ يحبها المرء في عقل الرجل النبيل وفي كلامه. كانت هي نفسها غريبة الأطوار ـ لم تكن تحتمل أن تكون مدركةً لذلك. ولحدِّ الآن ارتبطَتْ تصوراتُها بشكلٍ كبير عن الوعي المكتمل، بمفاهيم الفضيلة ـ وهي أشياء يكون التساؤل بشأنها هو فيما إذا كانت قد أسعَدَتْ روحَها السامية. بدا اللورد واربيرتون أمامها بشكلٍ كبير وواضحٍ جداً كمجموعةٍ من الصفات والمدارك التي لا تُقاس بهذه القاعدة البسيطة، بل تطلَّبَتْ نوعاً آخر من التقييم شعَرَتِ الفتاةُ، مع عادتها بالحكم بسرعة وبدون قيد، بأنها يعوزها الصبر لكي تمنحه. بدا أنه يطلب منها شيئاً ليس من المفروض أن يفعله شخص آخر أيّاً كان. إن ما شعرَتْ به هو أن زعيم مقاطعةٍ سياسي، اجتماعي، أعدَّ خطّةً لاستمالتها إلى نظام عاش وتحرك به بشكلٍ يُحسد عليه للغاية. أخبرها حدسٌ معين، ليس آمراً بلْ مقنعاً، أن تقاوم ـ حدسٌ همهم لها بأنها واقعياً تمتلك نظامها وفَلَكَها الخاص بها. إلى جانب ذلك أخبرها بأشياء أخرى، أشياء يعارِض ويؤيّد أحدها الآخر في الوقت نفسه؛ وهي أن الفتاة قد تؤذي نفسها بشكلٍ أسوأ بكثير من أن تثق برجلٍ كهذا؛ وبأنه سيكون من المثير للاهتمام للغاية أن ترى شيئاً من نظامه من وجهة نظره هو؛ وأنه من ناحية أخرى كان يوجد بوضوح الكثير منه والذي يجب أن تعتبره

فقط كأزمةٍ كلّ ساعة؛ وأنه حتى على العموم كان هناك شيء قاسٍ وغبي سيجعله عبثاً. فوق ذلك، كان هناك شاب وصل مؤخراً من أميركا لم يكن لديه نظام مطلقاً، لكن لديه شخصية من غير المجدي أن تحاول أن تُقنع نفسها بأن انطباعها عنها على عقلها كان سطحياً. لقد ذكَّرَتْها الرسالة التي حملَتْها في جيبها بالنقيض بشكلٍ كافٍ تماماً. على أية حال، لا تبتسمي. أجازف وأقول ذلك لهذه الشابة البريئة التي من ألباني، التي فكّرَتْ فيما إذا كان سيجب عليها أن تقبل بنبيلٍ إنجليزي قبل أن يقدّم نفسه، والتي كانت ميّالة للاعتقاد بأنها ستفعل ما هو أفضل على العموم. لقد كانت شخصاً مؤمناً بعمق، وإذا كان هناك قدرٌ كبير من الحماقة في حكمتها، فسيفرح أولئك الذين يحكمون عليها بصرامة عندما يكتشفون، لاحقاً، بأنها أصبحَتْ حكيمة بشكلٍ مماثل فقط على حساب مقدار الحماقة التي ستشكل دعوة صريحة قليلاً للمواساة.

بدا اللورد واربيرتون مستعداً تماماً لأن يسير، يجلس، أو يفعل أي شيء ستقترحه إيزابيل، وهو قد أكَّدَ لها ذلك بمظهره المعتاد بكونه مسروراً بشكلٍ خاص بإظهاره لفضيلةٍ اجتماعية. لكنه مع ذلك، لم يكن مسيطراً على عواطفه، وكلما سار إلى جانبها لوهلةٍ بصمت وهو ينظر إليها بدون أن يدعها تعرف ذلك، كان هناك شيءٌ خجولٌ في نظرته وضحكته المُضَلِّلَة. نعم بالتأكيد ـ فكلما تطرقنا لهذه النقطة سنعود إليها ثانيةً بسرعة ـ فالإنجليز أكثر شعوب الأرض رومانسيةً في العالم وكان اللورد واربيرتون على وشك أن يكون مثالاً على ذلك. إذ كان على وشك أن يتخذ خطوةً كانت ستدهش كل أصدقائه وتزعج عدداً كبيراً منهم، والتي ظاهرياً لا تملك الميزات ليُنصَح بها. كانت السيدة الشابة التي خطت على المرج إلى جانبه قد أتت من بلدٍ غريب عبر البحر والتي عَرَفَ عنها قدراً لا بأس به، وماضيها وعلاقاتها مبهمة جداً بالنسبة له لدرجة أنها كانت معلومات عامة، وبهذا المعنى بدت شكلية وغير مهمة. لم تمتلك الآنسة آرتشر لا ثروة ولا نوع الجمال الذي يبرره رجلٌ

للناس، وقد حسب بأنه أمضى حوالي ستاً وعشرين ساعة برفقتها. فكوَّنَ رأياً بسرعة ـ حماقة الاندفاع التي رفضت أن تنتهز أكثر الفرص السانحة لتتراجع؛ والحكم على الجنس البشري كما هو مُمَثَّلٌ بشكلٍ خاص بجزئه الذي يحكم بتسرُّع: لقد واجه كل ذلك بجرأة كبيرة ثم قام بطردها من تفكيره، فهو لم يهتم بها أكثر من الزهرة التي في عروة سترته. إن من حسن حظ الرجل الذي يتحاشى بسهولة ولشطرٍ كبير من حياته أن يجعل نفسه مزعجاً لأصدقائه، أنه عندما تستدعي الضرورة سبيلاً كهذا فلن يُستَهجَن من قبل رفقة مزعجة.

قالت إيزابيل التي لاحظَتْ تردد رفيقها: (آمل أنكَ حظيتَ بنزهةٍ رائعة).

ـ (كانت ستصبح رائعة لو لم يكن يوجد شيء غير ذلك هو ما جلبني إلى هنا).

سألت الفتاة وهي متأكدة أكثر وأكثر بأنه نوى أن يستميلها ومتمنيةً أن لا تقاومه لو تردد، وأيضاً أن تحتفظ بكل هدوء عقلها لو واصَلَ الأمر: (هل أنت مولع بجاردن كورت؟). وفجأةً خطر في ذهنها أن موقفها كان موقفاً ستعتبره قبل بضعة أسابيع رومانسياً بعمق: حديقة المنزل الريفي الإنجليزي العتيق ذي الواجهة المزينة من قبل رجلٍ نبيل «عظيم» (مثلما هو مفترض) وهو يغازل سيدةً شابة، سيُلاحَظ بالمعاينة الدقيقة أنها تمنح مقارنات ملفتة للنظر مع نفسها. لكنها إن كانت الآن بطلة الموقف، فبالكاد نجحَتْ بالنظر إليه من الخارج.

قال لرفيقته: (لا أهتم البتة بجاردن كورت، أنا أهتم بكِ فقط).

ـ (لقد عرفْتَني لفترةٍ قصيرةٍ جداً ليكون لديكَ الحق بأن تقول ذلك، ولا يمكنني أن أصدق بأنكَ جاد).

لم تكن كلمات إيزابيل هذه صادقةً تماماً لأنها لم يكن لديها شك بتاتاً بأنه كان صادقاً. فقد كانت ببساطة تنويهاً للحقيقة التي تدركها تماماً من أن تلك الكلمات التي تفوه بها للتو كانت ستثير دهشة أناسٍ عاديين. وعلاوة على

ذلك، إلى جانب الإحساس الذي أدركَتْهُ من أن اللورد واربيرتون لم يكن مفكراً حراً، فأي شيء تطلَّب ليقنعها، ستكون النبرة التي أجاب بها قد أدت الغرض تماماً.

ـ (إن حق المرء في موضوعٍ كهذا لا يُقاس بالوقت يا آنسة آرتشر، إنه يُقاس بالإحساس نفسه. فإذا كان يجب علي أن أنتظر ثلاثة أشهر، فلن يشكل فرقاً، إذ لن أكون متأكداً في ما أعنيه أكثر مما أنا اليوم. صحيح إنني رأيتكِ قليلاً، لكن تأثُري تَحَدَّدَ منذ أول ساعةِ التقينا فيها بالذات، فأنا لم أُضيّع وقتاً، فقد وقعتُ في حبكِ عندئذٍ. كانت في البدء نظرة، كما تقول الروايات، وأعلم الآن بأن تلك ليست عبارة مزخرفة، وسأُحسن الظن بالروايات في المستقبل. إن هذين اليومين اللذين قضيتُهما هنا حَسَما ذلك، لا أعلم فيما إذا شككتِ بأنني كنتُ أفعل ذلك، لكنني أوليتكِ أقصى اهتمامٍ ممكن ـ أقصد فكرياً. لا شيء مما قلتِه، لا شيء مما فعلْتِه قد غاب عني. فعندما أتيتِ إلى لوكلي في اليوم السابق ـ أو بالأحرى عندما ابتعدتِ ـ أصبحتُ متأكداً تماماً. مع ذلك، فقد قررتُ أن أفكّرُ في الأمر وأنْ أسأل نفسي بشكلٍ دقيق. لقد فعَلْتُ ذلك، كل تلك الأيام ولم أفعل شيئاً آخر. لم أرتكب أخطاء في أمور كهذه، فأنا حيوان حكيم. أنا لا أندفع بسهولة، لكن عندما أكون متأثراً عاطفياً، فالتأثير يكون مدى الحياة. مدى الحياة يا آنسة آرتشر، مدى الحياة). كرر اللورد واربيرتون العبارة الأخيرة بألطف وأرق وأعذب صوت سمعَتْه إيزابيل يوماً وهو ينظر إليها بعينين مشحونتين بتأجج شغفٍ غربل نفسه متخلصاً من أحط جوانب العاطفة ـ الغضب، العنف، اللاعقلانية ـ شغف احترق باستمرار كقنديلٍ في مكانٍ خالٍ من الريح. وبتجاوبٍ صامت، كانا كلما تكلما يمشيان ببطء أكثر فأكثر. وفي النهاية، توقفا وأخذ يدها.

أجابت إيزابيل برقة بالغة: (آه، كم هو قليلٌ ما تعرفه عني يا لورد واربيرتون!)، وبرقةٍ أيضاً سحَبَتْ يدها بعيداً.

ـ (لا تسخري مني بذلك. فكَوْني لا أعرفكِ بشكلٍ أفضل، يجعلني تعيساً جداً الآن. فذلك هلاكي تماماً. لكن ذلك هو ما أريده، ويبدو لي بأنني أسلك أفضل السبل. فلو تصبحي زوجتي، فسأعرفكِ عندها، وعندما أخبركِ كل الخير الذي أعتقدهُ عنكِ، لن تكوني قادرة على القول أن ذلك آتٍ من جهل).

قالت إيزابيل: (إن كنتَ تعرفني قليلاً، فأنا أعرفكَ بشكلٍ أقلّ أيضاً).

ـ (هل تقصدين بأنني، خلافاً لنفسكِ، لا يمكنني أن أستفيد من المعرفة الشخصية؟. آه، إن ذلك طبعاً ممكن جداً. لكن فكّري، فلكي أتحدث معكِ كما أفعل الآن، كم يجب عليّ أن أكون مُصرّاً لكي أحاول وأمنح الاستحسان!. أنت مِثْلي إلى حدٍّ ما. ألستِ كذلك؟)

أجابت: (أنا أحبكَ كثيراً جداً يا لورد واربيرتون)، وفي هذه اللحظة أحَبَّتْهُ بشكلٍ هائل.

ـ (أنا أشكركِ على قولكِ ذلك، فذلك يُظهِر بأنكِ لا تعتبرينني غريباً. أنا في الواقع قد أشبعتُ كل العلاقات السابقة للحياة بشكلٍ صادق، ولا أرى لِمَ لا يجب عليّ إشباع هذه ـ التي أقدم لكِ فيها نفسي ـ نظراً بأنني أهتم بها كثيراً جداً. اسألي الناس الذين يعرفونني جيداً، فلدي أصدقاء سيتحدثون عني).

قالت إيزابيل: (أنا لا أحتاج إلى تزكية أصدقائكَ).

ـ (آه، ذلك أمرٌ مفرح منكِ الآن. إنكِ تؤمنين بي).

أعلنت إيزابيل: (تماماً). وهنا خجلَتْ تماماً، في دواخلها، وسُرَّت بالشعور بذلك. فتحول الألق الذي في عيني رفيقها إلى ابتسامة، وأصدر زفيراً طويلاً من الابتهاج: (إن أنت على خطإٍ يا آنسة آرتشر، فاسمحي لي بأن أخسر كل ما أملكه!).

فتساءلَتْ فيما إذا أشار إلى ذلك للتذكير بأنه كان غنياً وشعر بسرعة بأنه متأكد بأنه ليس كذلك. كان ينسى ذلك، كما كان يقول، وفي الحقيقة قد يتركه

بسلام لذاكرة أي متحدث، خاصةً لذاكرة شخصٍ كان يقدم له المساعدة. لقد صلّت إيزابيل أن لا تكون مضطربة، وكان عقلها هادئاً تماماً حتى عندما أصغت، وسألَتْ نفسها ما هو أفضل شيء يجب أن تقوله لتسترسل في هذا التعقيب العابر. لقد سألَتْ نفسها ماذا ينبغي أن تقول؟. كانت أمنيتها الأساسية أن تقول شيئاً إن أمكن ليس أقل لطفاً مما قاله لها. كانت كلماته قد حملَتْ معها قناعة تامة، وقد شعرَتْ بشكلٍ مُضمَر تماماً بأنها مهمة فعلاً بالنسبة له. فأجابت في النهاية: (أنا أشكركَ على عرضكَ أكثر مما يمكنني القول، فهو يشرفني كثيراً).

فاندفع يقول: (آه، لا تقولي ذلك!. لقد كنتُ خائفاً من أنكِ ستقولين شيئاً كهذا. أنا لا أفهم ماذا عليكِ أن تفعلي في هذه الحالة. أنا لا أفهم لماذا يجب أن تشكريني ـ فأنا من يجب عليه أن يشكركِ لإصغائكِ لي: رجلٌ تعرفينه قليلاً جداً يهبط عليكِ كالمطرقة!. إنه سؤالٌ مهم طبعاً. يجب عليّ أن أخبركِ بأنني كنتُ سأسأل بدلاً من أن أُسأَل لأُجيب. لكن الطريقة التي أصغيتِ بها ـ أو على الأقل إصغاءكِ بكل الأحوال ـ يمنحني بعض الأمل).

قالت إيزابيل: (لا تأمل كثيراً).

فغمغم مرافقها وهو يبتسم ثانيةً بجديّتِهِ وكأن تنبيهاً كهذا لا يُتخذ سوى كتظاهُر بالفرح الغامر، وكازدياد في الإعجاب: (أوه، يا آنسة آرتشر!).

سألت إيزابيل: (هل ستصبح مندهشاً بشدة لو كنتُ توسلتُ إليك أن لا تأمل مطلقاً؟).

ـ (مندهش؟. لا أعلم ماذا تقصدين بالاندهاش. لن يكون الأمر كذلك، بل سيكون شعوراً أسوأ بكثير).

سارت إيزابيل ثانيةً. كانت صامتة لبضع دقائق، ثم قالت: (بما أنني أحترمكَ مسبقاً، فأنا متأكدة تماماً بأن فكرتي عنكَ ستزداد احتراماً في النهاية لو كنتُ سأعرفكَ أكثر. لكنني لستُ متأكدة من أنكَ لن تكون خائب الأمل. وأنا لا أقول ذلك خارجاً عن التواضع المألوف مطلقاً، بل إنه صادق تماماً).

أجاب مرافقها: (أنا راغبٌ بالمخاطرة يا آنسة آرتشر).

ـ (إنه سؤال مهم كما تقول. إنه سؤال صعب جداً).

ـ (أنا لا أنتظر منكِ طبعاً أن تجيبي عنه حالاً، بل أن تُفَكِّري فيه بقدر ما يكون ضرورياً. وإذا تمكنتُ من الفوز من خلال الانتظار، فسأنتظر لوقتٍ طويل بسرور. لكن تذكّري فقط أن أغلى سعادتي تعتمد على إجابتكِ).

قالت إيزابيل: (سأكون حزينةً جداً أن أتركَكَ معلقاً).

ـ (أوه، لا تكترثي. فأنا في الواقع كنتُ سأرغب كثيراً بأن أحظى بردٍّ جيد من الآن ولغاية ستة أشهر على أن أحظى بردٍّ سيّئ اليوم).

ـ (لكن من المرجح جداً أنه حتى بعد ستة أشهر من الآن فإنني لن أكون قادرة على منحكَ رداً ستعتبره ملائماً).

ـ (لِمَ لا، بما أنك تحبينني؟).

قالت إيزابيل: (آه، لا يجب عليكَ أبداً أن تشكَّ بذلك).

ـ (حسناً إذن، أنا لا أفهم ماذا تطلبين أكثر من ذلك!).

ـ (ليس الموضوع ما أطلبه، بل ما يمكنني أن أمنحه. أنا لا أعتقد بأنني سأكون مناسِبةً لكَ. أنا فعلاً لا أعتقد بأنني سأكون كذلك).

ـ (أنتِ لستِ بحاجة لأن تقلقي بشأن ذلك فذلك شأني، فلستِ بحاجة لأن تكوني مؤيِّدة للحكم الملكي أفضل من الملك).

قالت إيزابيل: (ليس ذلك فقط، بل إنني غير متأكدة بأنني أرغب بالزواج من أي شخص).

قال سيادة اللورد مؤيداً، والذي لم يصدق إطلاقاً بالبديهية التي أخفى بها قلقه: (ممكن جداً بأنكِ لا ترغبين بذلك. إذ ليس لدي شك بأن عدداً كبيراً من النساء يقعن في هذه الحالة، لكنهن يقتنعن دائماً).

ـ (آه، ذلك لأنهن يرغبن بأن يكُنَّ كذلك!)، وضحكتْ إيزابيل قليلاً.

بدت مظاهر الخيبة على مُحيّا خاطبها ونظر إليها لبرهةٍ بصمت. فقال على الفور: (أخشى أن كَوْني رجلاً إنجليزياً هو ما يجعلكِ تترددين. فأنا أعلم أن زوج خالتكِ يرى بأنه يجب عليكِ أن تتزوجي في بلدكِ).

أصغت إيزابيل إلى هذا الجزم بقليلٍ من الاهتمام، إذ لم يخطر لها أن السيد تاتشيت كان ميالاً لمناقشة إمكانيات زواجها من اللورد واربيرتون: (هل هو من قال لكَ ذلك؟).

ـ (أتذكر إبداءه بهذه الملاحظة. لقد تحدَّثَ ربما عن الأميركيين عموماً).

ـ (يبدو أنه وجد أن من المريح جداً العيش في إنجلترا)، تحدثَتْ إيزابيل بطريقةٍ بدت حمقاء قليلاً لكنها عبرّتْ عن إحساسها الراسخ بالسرور الظاهري لزوج خالتها وميلها الغالب للتملص من أن تلتزم بتبنّي وجهة نظر ضيقة. لقد منح ذلك لمرافقها أملاً، فصاح على الفور بحماس: (آه يا آنسة آرتشر العزيزة، إن إنجلترا العتيقة هي نوع جيد من البلدان كما تعلمين!، وستصبح أفضل عندما نلمعها قليلاً).

ـ (أوه، لا تلمعها يا لورد واربيرتون. اترُكْها وشأنها، فأنا أحبها وهي بهذا الشكل).

ـ (حسناً إذن. إن كنتِ تحبينها، فهذا يزيد من حيرتي على اعتراضكِ لما اقترَحْتُه).

ـ (أخشى بأنني لا أستطيع أن أفهمكَ).

ـ (عليكِ على الأقل أن تحاولي. فلدي ذكاء واسع. هل أنت خائفة ـ خائفة من الطقس؟. يمكننا بسهولة أن نعيش في مكانٍ آخر، تعلمين ذلك. يمكنكِ أن تختاري مناخكِ عبر العالم بأسره). تم التفوه بهذه الكلمات بصدقٍ كبير ـ يشبه عناق أذرعٍ قوية ـ يشبه أريجاً مباشراً على وجهها ومن شفتيه الجذابتين وهما تتنفسان، أريجاً لم تجده لا في الحدائق الغريبة ولا في الهواء البارد. كانت سترفع إصبعها الصغير في تلك اللحظة لتشعر بقوةٍ وبوضوحٍ بالدافع

لتجيب: (يا لورد واربيرتون، من المستحيل بالنسبة لي أن أفعل في هذه الحياة الرائعة، حسب اعتقادي، ما هو أفضل من أن أُلزِمَ نفسي بامتنانٍ جداً لإخلاصكَ). لكنها رغم أنها كانت مستغرقةً بالإعجاب بفرصتها، إلا أنها تمكنت من التراجع إلى أعمق عتمةٍ منها، تماماً كمخلوقٍ متوحشٍ مقبوضٍ عليه في قفصٍ واسع. فالعهد «الرائع» المقدم بهذه الطريقة، لم يكن أعظم ما أمكنها تخيله. وما قامت بتذكير نفسها به في النهاية لتقوله كان شيئاً مختلفاً ـ شيئاً أجَّلَ ضرورة مواجهة أزمتها فعلاً: (لا تعتقد بأنني قاسية لو طلبتُ منكَ أن لا تقول المزيد عن هذا الأمر اليوم).

صاح مرافقها: (بالتأكيد، بالتأكيد!، فما كنتُ لأجعلكِ تسأمين من الحياة).

ـ (لقد مَنَحْتَني الكثير لأفكر فيه، وأنا أعدكَ بأن أقدّر ذلك).

ـ (ذلك هو كل ما أطلبه منكِ طبعاً ـ وسوف تتذكرين كيف أن سعادتي هي بين يديكِ تماماً).

أصغت إيزابيل باحترامٍ بالغ لهذا التذكير، لكنها قالت بعد دقيقة: (يجب أن أقول لكَ بأن ما سأفكر فيه هو طريقة ما تجعلكَ تعرف أن ما تطلبه شيء مستحيل طريقة تجعلكَ تعرف ذلك بدون أن تجعلكَ تعيساً).

ـ (لا توجد طريقة لفعل ذلك يا آنسة آرتشر. لن أقول بأنكِ إن رفضتِني فستقتلينني. فلن أموت بسبب ذلك، لكني سأفعل ما هو أسوأ، سأعيش بلا هدف).

ـ (سوف تعيش لتتزوج امرأةً أفضل مني).

قال اللورد واربيرتون بحزنٍ شديد: (لا تقولي ذلك، فذلك ليس عدلاً لأي أحدٍ منا).

ـ (إذن لتتزوجْ واحدةً أسوأ).

ـ (لو كانت هناك نساء أفضل منكِ، فسأفضّل السيئات. هذا كل ما أستطيع قوله).

فواصَلَ كلامه بنفس الصراحة: (لا يوجد هناك تفسيرٌ للأذواق).

جعلَتْها جديته تشعر بأنها جديّة بنفس القدر وقد أظهَرَتْ ذلك بأنْ طلبَتْ منه ثانيةً أن يستبعد الموضوع في الوقت الحالي: (سوف أكلمكَ بنفسي ـ قريباً جداً. ربما سأكتب لكَ).

فأجاب: (نعم، على راحتكِ. إن أي وقت تستغرقينه سيبدو لي طويلاً، وأعتقدُ بأنه يجب عليّ أن أستفيد أكبر قدرٍ ممكن من ذلك).

ـ (لن أُبقيكَ معلّقاً، فأنا أريد فقط أن أستجمع فكري قليلاً).

فتنهد بكآبةٍ ووقف ينظر إليها برهةً ويداه خلفه تهتزان اهتزازات عصبية سريعة على حصيلة صيده: (هل تعرفين بأنني خائفٌ جداً منه ـ من عقلكِ غير العادي؟).

بالكاد يستطيع كاتب سيرة بطلتنا أن يقول السبب. لكن السؤال جعلها تجفل وسبّب احمرار وجنتيها بشكلٍ يمكن الشعور به. فاستجابت لنظراته برهةً ومن ثم هتفت بشكلٍ غريب بنبرةٍ في صوتها راقت لإحساسه: (أنا كذلك يا لوردا!). رغم ذلك، لم يضطرب عطفه، وكان كل ما يملكه من طاقة العطف ضروريةً في النهاية، فغمغم: (آه، كوني رحيمة، كوني رحيمة).

قالت إيزابيل: (أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب، فسوف أكتب إليكَ).

ـ (جيد جداً، لكن أيّاً كان ما تكتبينه فسوف آتي وأراكِ، تعلمين). ثم نهض وعيناه مثبتتان على المحيّا اليقظ لبانشي الذي كان له مظهر مَن فَهِمَ كل ما قيل والتظاهر بتأدية حركات متهورة بدورٍ مصطنع بالاهتمام بجذور شجرة بلوط عتيقة.

فواصَلَ الكلام: (هناك أمرٌ آخر. أتعلمين، إن كنتِ لا تحبين لوكلي ـ إن كنتِ تظنين بأنه رطب أو أي شيء من هذا القبيل ـ فلن تحتاجي لأن تتوغلي خمسين ميلاً منه. بالمناسبة، إنه ليس رطباً. فقد قمتُ بفحص المنزل بشكلٍ

شامل، إنه آمنٌ تماماً ومناسب. لكن إن لم يكن سيعجبكِ فلن تحتاجي إلى أن تحلمي بالعيش فيه، إذ ليست هناك صعوبة أيّاً كانت بشأن ذلك، فهناك الكثير من المنازل. أعتقد بأنني ذكرتُ ذلك تواً، فبعض الناس كما تعلمين لا يحبون الخندق المائي. وداعاً).

قالت إيزابيل: (أنا أعشق الخندق المائي. وداعاً).

فمدَّ يده، ومنحَتْهُ يدها للحظة ـ لحظةً طويلةً تكفي بالنسبة له ليُحني رأسه الحاسر الجميل ويقبِّلها. ومن ثم غادر مسرعاً وهو لا يزال متأثراً بعاطفته المستولية عليه وبإتمامه للمطاردة. كان مستاءً كثيراً بشكلٍ واضح.

كانت إيزابيل نفسها مستاءة، لكنها لم تكن متأثرة بقدر ما تخيّلَتْ. فما شعرَتْ به لم يكن مسؤوليةً جسيمة، عقبة جسيمة في الاختيار، بل بدا لها أنه لا يوجد اختيار في الموضوع. لن تتمكن من الزواج من اللورد واربيرتون. لقد أخفقَتِ الفكرة في دعم أي انحياز لصالح الاستكشاف الحر للحياة التي تمتعَتْ بها لحدّ الآن أو كانت قادرة الآن على التمتع بها. يجب عليها أن تكتب له ذلك، يجب أن تقنعه، وتلك كانت مَهَمّة بسيطة نسبياً. لكن ما استبد بها، بمعنى أصابها بدهشة، كان تلك الحقيقة بالذات التي كلفَتْها قليلاً جداً لترفض «فرصةً» رائعة. فقد عرض عليها اللورد واربيرتون فرصة رائعة بأية شروط يرغب بها المرء. قد يكون للموقف إزعاجات، قد يتضمن ظلماً، قد يشتمل على آثار تبعث على الضيق، قد لا يَظهَر حقيقةً سوى مُخدّرٍ يبعث على الذهول. لكنها ظلمَتْ بنات جنسها بالاعتقاد أن تسع عشرة امرأة من عشرين كن سيُكَيِّفْنَ أنفسهن لهذا الأمر بلا ألم. فلماذا إذن لا تقوم هي أيضاً بإخضاع نفسها للأمر بلا مقاومة؟. فمن هي، ماذا تكون، تلك التي تعتبر نفسها الأفضل؟، ما النظرة التي لديها عن الحياة، ما الصورة التي لديها عن القدر، ما المبدأ الذي لديها عن السعادة بحيث زعمَتْ بأنها أكبر من تلك الدواعي الكبيرة والرائعة؟.

إن كانت لن تفعل شيئاً كهذا فعليها إذن أن تفعل أشياء عظيمة، عليها أن تفعل شيئاً أكبر.

وجدت المسكينة إيزابيل سبباً لتُذكِّر نفسها من حينٍ لآخر بأنه لا يجب عليها أن تكون تائهة جداً، ولا يوجد شيء يمكن أن يكون أكثر صدقاً من صلواتها لتكون متحررة من خطرٍ كهذا: فلعزلةِ ووحدةِ الكبرياء على تفكيرها رعبَ مكانٍ مهجور. إن كان الكبرياء هو الذي تدخَّلَ في قبولها للورد واربيرتون، فإن حماقةً كهذه كانت في غير مكانها الصحيح بشكلٍ كبير، وكانت مدركةً جداً بإعجابها به بحيث جازَفَتْ لتؤكد لنفسها بأنه كان الرقّة بعينها، والإدراك الرائع، للعطف. لقد أحبتْهُ كثيراً جداً لتتزوجه. كانت هذه هي الحقيقة. فقد أكّد لها شيء ما بأن هناك مغالطة في موضعٍ ما في المنطق البرّاق لعرض الزواج ـ حتى وإن لم تتمكن من وضع طرف أرفع أصابعها عليه مثلما رآه هو. وأنْ تُعَرِّض رجلاً، قدّم الكثير لتصبح زوجته، للانتقاد، سيكون تصرفاً مخجلاً بشكلٍ خاص. لقد وَعَدَتْهُ بأنها ستفكر بطلبه.

وبعد أن تركها، وعندما سارت عائدةً إلى المسطبة حيث وجدها، واستغرَقَتْ في التأمل، بدا أنها كانت تحافظ على وعدها. لكن لم يكن الأمر كذلك؛ فقد كانت تتساءل فيما إذا لم تكن شخصاً بارداً، قاسياً، متزمتاً. أخيراً، عند نهوضها والعودة بسرعة قليلاً إلى المنزل، شعرَتْ بأنها خائفة حقاً على نفسها، مثلما قالت لصديقتها.

***

الفصل 13

لقد كان هذا الشعور وليس الرغبة في طلب النصيحة ـ إذ لم يكن لديها الرغبة لها البتة ـ هو ما قادها للتحدث مع زوج خالتها عن ما حدث. فقد رغبَتْ بالتحدث لأحدٍ ما، إذ ستشعر بأنها طبيعية أكثر، إنسان أكثر، فبرز زوج خالتها لهذا الغرض بطيفٍ أكثر جاذبية من عمتها أو صديقتها هنرييتا. كان ابن خالتها مؤتمناً على السرِّ طبعاً، لكنها كانت ستسبب الأذى لنفسها بإذاعة هذا السر الخاص لرالف، لذا استغلَّتْ في اليوم التالي فرصتها بعد الإفطار. لن يغادر زوج خالتها حجرته أبداً حتى المساء، لكنه التقى بزملائه، كما يقال، في حجرة الملابس. اتخذَتْ إيزابيل مكانها تماماً في الصفّ المصمم بهذه الطريقة، والذي تضمن بالنسبة للبقية، ابن الرجل العجوز، طبيبه، خادمه الشخصي، وحتى الآنسة ستاكبول. لم تُحسَب السيدة تاتشيت في القائمة، وكان ذلك عقبة بالنسبة لإيزابيل أن تجد مضيّفها بمفرده.

جلس في كرسي ميكانيكي معقد التركيب عند النافذة المفتوحة لغرفته وهو ينظر ناحية الغرب على الحديقة والنهر، وصحفه ورسائله مُكدَّسة إلى جانبه. كانت زينته معمولة حديثاً وبشكلٍ دقيق، وعبّر وجهه الهادئ التأملي عن ترقُّبٍ خيِّر، فدخلَتْ في موضوعها مباشرةً: (أعتقدُ بأنه يجب عليّ أن أُعْلِمَكَ بأن اللورد واربيرتون قد طلبني للزواج. أعتقد بأنه يجب عليّ أن أخبر خالتي، لكن يبدو أنه من الأفضل أن أخبركَ أولاً).

لم يُعبِّر الرجل العجوز عن دهشته، لكنه شكرها للثقة التي أظهَرَتْها تجاهه، ثم سأل: (هل تمانعين في إخباري فيما إذا قَبِلْتِ به؟).

ـ (لم أُجبه بشكلٍ قاطع. لقد مُنحتُ وقتاً قصيراً للتفكير في الموضوع لأن ذلك يبدو محترماً أكثر. لكنني لن أقبل به).

لم يعلق السيد تاتشيت على ذلك. كان له مظهر من يفكر بأن أياً كان الاهتمام الذي يبديه للموضوع من ناحية الألفة، إلا أنه لن يكون لديه خيار فعّال فيه: (حسناً. لقد أخبرتُكِ بأنكِ ستكونين شخصاً ناجحاً هنا، فالأميركيون مقَدَّرون بشكلٍ بالغ).

قالت إيزابيل: (بشكلٍ بالغ فعلاً. لكن على حساب أن نبدو بلا ذوق وجاحدين أيضاً. لا أعتقد بأنه يمكنني الزواج من اللورد واربيرتون).

فواصَلَ زوج خالتها الكلام: (حسناً، لا يستطيع طبعاً رجلٌ عجوز أن يقرر لسيدةٍ شابة. أنا مسرورٌ بأنكِ لم تسأليني قبل أن تقرري. أعتقد بأنه يجب أن أقول لكِ...)، ثم أضاف على مهلٍ لكن ليس بأهمية كبيرة: (بأنني عرفتُ كل شيء في الثلاثة أيام هذه).

ـ (عن رغبة اللورد واربيرتون؟).

ـ (عن نواياه، كما يقولون هنا. لقد كتب لي رسالة جميلة جداً يخبرني كل شيء عن نواياه)، فسأل الرجل العجوز بلطف: (هل ترغبين برؤية رسالته؟)

ـ (أشكركَ. لا أعتقد بأنني أهتم لذلك، لكنني مسرورة بأنه كتب لكَ، فمن الصائب أنه فعل ذلك وسيكون واثقاً بعمله ما هو صائب).

أعلن السيد تاتشيت: (آه، حسناً، أعتقد بأنكِ تحبينه فعلاً! لستِ بحاجة لأن تتظاهري بأنكِ لا تحبينه).

ـ (أنا أحبه للغاية. أنا صريحة بالاعتراف بذلك، لكنني لا أرغب بالزواج من أي أحدٍ الآن).

قال السيد تاتشيت الذي بدا بأنه يرغب بأن يُظهِر عطفه نحو الفتاة بالتهدئة من حدة قرارها وإيجاد أسباب مرحة له: (أنتِ تفكرين بأنه قد يأتي أحدٌ ما تحبينه أكثر. حسناً، هذا محتمل جداً).

ـ (لستُ أهتم أن لم أقابل أحداً آخر، فأنا أحب اللورد واربيرتون كثيراً جداً).

لقد وقعَتْ فريسة مظهر التغير المفاجئ لوجهة النظر التي أرعَبَتْ بها أحياناً، وحتى أزعجَتْ، مُحَدّثيها. رغم ذلك، بدا زوج خالتها منيعاً ضد كل من هذين الانطباعين. فتابَعَ الكلام بنبرةٍ إنطوَتْ على تشجيع: (إنه رجل رقيق جداً، فرسالته كانت واحدة من أجمل الرسائل التي تلقيتُها منذ بضعة أسابيع. أعتقد أن أحد الأسباب التي جعلَتْني أحبها هي لأنها كانت كلها عنكِ. هذا كل ما هناك، عدا الجزء الذي كان يتحدث فيها نفسه. أعتقد بأنه أخبركِ بكل ذلك).

قالت إيزابيل: (كان سيخبرني بكل شيء أرغبُ بأن أسأله عنه).

ـ (لكن ألم تشعري بالفضول؟).

ـ (إن فضولي سيكون لا قيمة له ـ عندما قررتُ رفض طلبه بالزواج مني).

تساءل السيد تاتشيت: (ألم تجديه جذاباً بما يكفي؟).

صمتت قليلاً ثم أقرَّتْ بسرعة: (أعتقد بأن الأمر كان كذلك. لكني لا أعرف لماذا).

قال زوج خالتها: (لحسن الحظ، أن السيدات غير مجبرات على إعطاء أسباب. هناك روعة كبيرة في فكرةٍ كهذه، لكني لا أفهم لماذا يرغب الإنجليز بأن نبتعد عن بلدنا الأصلي. ما أعرفه هو أننا نحاول أن نجذبهم إلى هناك، لكن ذلك لأن سكاننا قليلون، وهنا، كما تعلمين، مزدحمون بعض الشيء. على أية حال، أظن بأن هناك مجالاً لسيداتٍ شابات فاتنات في كل مكان.

قالت إيزابيل التي كانت عيناها تطوفان فوق الحديقة: (يبدو أنه كان يوجد هنا مجالاً لكَ).

أبتسمَ السيد تاتشيت ابتسامةً فَطِنة وواعية: (هناك مجال في كل مكان يا

عزيزتي، إن كنتِ ستدفعين مقابل ذلك. أفكر أحياناً بأنني دفعْتُ كثيراً جداً لقاء هذا. ربما أنت أيضاً يجب عليكِ أن تدفعي الكثير جداً). أجابت الفتاة: (ربما قد أدفع).

لقد منحها هذا المقترح شيئاً محدداً تستند إليه، أكثر تحديداً من الشيء الذي فكَّرَتْ به. ودلَّ اختلاط الفطنة اللطيفة لزوج خالتها مع مشكلتها، بأنها كانت قلقة من الانفعالات الطبيعية والعقلانية للحياة وأنها ليست تماماً ضحية التقيّد الفكري والتطلعات المبهمة التي تتجاوز الالتماس الجميل للورد واربيرتون وتمتد إلى شيء غامض وعلى الأرجح شيئاً ليس محموداً. طالما أن هذا الشيء الغامض كان له تأثير على سلوك إيزابيل في هذه المرحلة، فهو لم يكن فكرة الزواج من كاسبار غودوود غير الواضحة حتى، لأنها مهما قاومَتِ الإخضاع عند الأيادي اللطيفة الكبيرة لخاطبها الإنجليزي، فهي كانت على الأقل بعيدةً جداً عن أن تميل للسماح للشاب من بوسطن بأن يستولي عليها قطعاً. إن الرأي الذي لجأَتْ إليه بعد قراءتها لرسالته كان رأياً انتقادياً، وهو وصوله من خارج البلاد، لأن جزءاً من تأثيره عليها هو أنه بدأ يحرمها من الإحساس بالحرية. كان هناك ضغط قوي بشكل مزعج، نوعاً من الحضور الصارم، في طريقته في الوقوف أمامها. كانت قلقةً للحظاتٍ من المشهد، من خطر، عدمِ موافقته، وتساءلَتْ فيما إذا كان سيوافق على ما فعلَتْهُ ـ وهو اعتبارٌ لم تولِه أبداً لأي أحدٍ آخر بنفس القدر. إن المشكلة هي أن كاسبار غودوود كان أكثر الرجال الذين عرفَتْهُم يوماً من عبّر لها عن عزيمةٍ هي من ضمن طبيعته بالذات ـ والتي شعرَتْ بها سابقاً كقوة ـ حتى أكثر من اللورد واربيرتون المسكين نفسه (لقد بدأَتِ الآن تمنح سيادة اللورد حق لقبه). لم تكن المسألة بتاتاً مسألة «مزايا»، بل كانت مسألة الشجاعة التي استقرت في عينيه اللتين تحترقان بوضوح كعيني حارسٍ لا يكلّ عند نافذة. سواء أحبَّتْ ذلك أم لا، فقد كابَرَ دائماً بنفوذه التام وقوته: حتى في التواصل

الاعتيادي للمرء معه فسيشعر المرء بذلك. كانت فكرة الحرية المتلاشية مزعجةً بشكلٍ خاص لها في الوقت الحالي لأنها كانت قد منحَتْ للتو نوعاً من التأكيد الشخصي على استقلاليتها من خلال النظر مباشرةً إلى رشوة اللورد واربيرتون الكبيرة ونبذها مع ذلك.

يبدو كاسبار غودوود أحياناً بأنه يُلصِق نفسه بمصيرها لتصبح هذه الحقيقة هي أكثر الحقائق التي عرَفَتْها استبداداً. كانت تقول لنفسها في لحظاتٍ كهذه بأنه يمكنها أن تتجنبه لبعض الوقت، لكنها يجب أن تشترط معه في النهاية شروطاً ستكون من المؤكد مناسِبة بالنسبة له. كان دافعها هو أن تستفيد من الحوادث التي ساعدَتْها بمقاومة التزامٍ كهذا، وكان لهذا الدافع علاقة كبيرة بموافقتها المتلهفة لدعوة خالتها والتي أتتها في ساعةٍ كانت تترقب فيها من يومٍ لآخر رؤية السيد غودوود، ساعةٍ كانت مسرورة لتحظى فيها على إجابة سريعة لشيءٍ كانت متأكدة بأنه كان سيقوله لها. عندما أخبرَتْهُ في ألباني مساء زيارة السيدة تاتشيت لها بأنها لا يمكنها عندئذٍ مناقشة مسائل صعبة لأنها كانت منبهرة بالمفاتحة السريعة الرائعة لعرض خالتها عن «أوروبا»، أعلن بأن هذه ليست إجابة مطلقاً، والآن كان يتبعها عبر البحر ليحصل على إجابة أفضل. كان يكفي تماماً بالنسبة لشابةٍ خيالية قادرة على أن تستهين به كثيراً أن تقول لنفسها بأنه كان نوعاً من القَدَر النحس. لكن للقارئ الحق بأخذ نظرةٍ أقرب وأوضح عن الموضوع.

كان ابناً لمالك مصانع قطن معروفة في ماساتشوستس ـ رجل نبيل جمع ثروة كبيرة بممارسة هذه الصناعة. أدارَ كاسبار المصانع في الوقت الحالي. وبحسن تقدير وخلق، حافَظَ على ازدهارها من الاضمحلال رغم المنافسة العارمة والسنين المرهِقة. كان قد تلقّى أفضل جانب من تعليمه في كلية هارفارد حيث حصل على شهرة كرياضي ومُجَدِّف بدلاً من ملتقط للمعرفة المتنوعة. لاحقاً، علِمَ بأن الذكاء الرفيع أيضاً الذي تمكن من القفز والسحب

والشد ـ يمكنه تحقيق الرقم القياسي وأن يضيف له أعمالاً فذّة نادرة. وبهذا، اكتشف في نفسه نظرة ثاقبة في ألغاز علم الميكانيك واخترعَ تحسيناً في عملية غزل القطن والتي تُستعمل الآن على نحوٍ واسع ومعروفة باسمِهِ. يمكنكَ رؤيته في الصحف فيما يختص بهذا الاختراع المثمر. ولكي يؤكد ذلك لإيزابيل، أراها في أعمدة صحيفة نيويورك الإنترفيور مقالة موسّعة عن براءة اختراع غودوود ـ مقالةً غير مُعَدّة من قبل الآنسة ستاكبول مثلما تفعل دائماً بِودٍّ بالنسبة لاهتماماته العاطفية.

كانت هناك أشياء معقدة ومزعجة تسعده؛ فقد أحبَّ التنظيم، المبارزة، والإدارة. استطاعَ أن يجعل الناس تنفذ رغبته وتؤمن به وتمشي أمامه وتؤيده. كان ذلك هو فن إدارة الناس على حد قولهم ـ والذي استندَ فيه من ناحية أخرى على طموحٍ جريء ورغم ذلك كئيب. إن ما أدهَشَ أولئك الذين عرفوه جيداً هو قدرته على عمل أشياء أعظم من تولّي مسؤولية مصنعٍ للقطن. لم يكن هناك شيء سهل حول كاسبار غودوود، وسلّم أصدقاؤه جدلاً بأنه كان سيكتب اسمه بطريقةٍ ما وفي مكانٍ ما بحروفٍ كبيرة. لكن كأنَّ هناك شيئاً ما جسيماً ومبهماً، شيئاً شريراً وقبيحاً، كان سيحلّ به: فهو في النهاية لم يكن على وفاق مع السلام الزائف والجشع والربح، وهو طراز الأشياء التي كانت الروح الحية إعلاناً لها. لقد كان يحلو لإيزابيل أن تتخيل بأنه ينطلق على ظهر جوادٍ مندفع في زوبعة الحرب الكبيرة ـ حرباً تشبه المعركة الأهلية التي زادت من كآبة طفولتها المرتبكة وشبابه اليانع. لقد أحبت بأية حال فكرة كونه خلّاقاً ومحرّضاً للناس في الواقع ـ أحبتها أكثر بكثير من بعض الأمور الأخرى في طبيعته ومظهره. هي لم تهتم لمصنع القطن الخاص به ـ ولم تهتم مطلقاً ببراءة اختراع غودوود. لم تتمنَّ أقل من رجولته، لكنها تفكر أحياناً بأنه سيكون أجمل بعض الشيء لو بدا شكله مثلاً مختلفاً قليلاً. كان فكّه مربع الشكل تماماً وجامداً، وشكله نحيفاً جداً وصارماً: أوحت هذه الأمور بالافتقار إلى

الانسجام السلس مع أعمق إيقاعات الحياة. ثم إنها لاحظَتْ عليه عادة ارتداء نفس النمط دائماً. لم يكن واضحاً بأنه كان يرتدي نفس الملابس دائماً، بل على العكس، كان لملابسه طريقتها في الظهور بأنها جديدة جداً بعض الشيء، لكنها جميعاً بدت من نفس النمط، فالشكل ونوع النسيج كانا مألوفين جداً بشكلٍ كئيب. لقد ذكَّرَتْ نفسها لأكثر من مرة بأن هذا كان اعتراضاً عابثاً على شخصٍ بأهميته، ثم أصلَحَتْ هذا الانتقاد بالقول بأنه سيكون اعتراضاً عابثاً فقط لو كانت تحبه. لكنها لم تكن تحبه، لذلك يمكنها أن تنتقد عيوبه الصغيرة مثلما تنتقد عيوبه الكبيرة ـ التي اشتملَتْ لاحقاً الانتقاد العام بكونه جاداً جداً، أو بالأحرى عدم كونه جاداً، لأنه لا يمكن للمرء بالتأكيد أن يكون سوى ما يبدو عليه. كان يُظهِر ميوله ورغباته ببساطة جداً وبسذاجة. وعندما يكون المرء لوحده معه يتحدث كثيراً جداً عن نفس الموضوع، وبحضور أناسٍ آخرين يتحدث قليلاً جداً عن أي شيء. وكان أيضاً ذا هيئة مُحِبّة للنظافة وقوية بشكلٍ بالغ: رأت الجوانب اللائقة المختلفة منه بنفس الطريقة التي كانت ترى بها في المتاحف واللوحات الجوانب اللائقة المختلفة للمحاربين المسلحين ـ ببدلات معدنية مُطعّمة بشكلٍ رائع بالذهب.

كان أمراً غريباً جداً: هل يوجد هناك دائماً أية علاقة ملموسة بين انطباعها وتصرفها؟ لم ينطبق كاسبار غودوود أبداً مع فكرتها عن الشخص المحبوب واعتقدَتْ بأن هذا هو السبب الذي جعلها انتقادية بشكلٍ قاس. رغم ذلك، عندما راق لها اللورد واربيرتون الذي لم ينطبق فقط مع فكرتها بل منح توسيعاً للمصطلح، وجدَتْ نفسها لا تزال غير مقتنعة. كان أمراً غريباً بالتأكيد.

إن شعورها بعدم التماسك لم يكن عوناً لها لتجيب على رسالة السيد غودوود، فقررت إيزابيل أن تهملها لبعض الوقت. إن كان عازماً على مضايقتها، فعليه أن يتحمل النتائج التي من بينها أولاً هي أن تجعله يفهم كَمْ هو قليلٌ تأثير مجيئه إلى جاردن كورت عليها. لقد كانت مُعَرَّضةً سابقاً

لهجمات أحد الخُطّاب في هذا المكان، ورغم أنه من الجميل أن تكون مقدَّراً في بلدين مختلفين، إلا أنه يوجد نوع من الفظاظة في التسلّي بخاطبَيْن متحمسَيْن كهذين في الوقت نفسه، حتى عندما تشمل التسلية رفضهما.

لم تجب على السيد غودوود، لكن في نهاية الثلاثة أيام كتبَتْ إلى اللورد واربيرتون، وتتعلق الرسالة بقصتنا:

عزيزي اللورد واربيرتون:

لم يقدني الكثير من التفكير الجادّ إلى تغيير رأيي بشأن عرض الزواج الذي تكرَّمْتَ وعرَضْتَهُ عليّ في اليوم السابق. فأنا لا أستطيع، لا أستطيع حقاً وصدقاً، أن أنظر إليك كرفيقٍ لمدى الحياة أو أن أفكر في منزلكَ ـ أو منازلك الكثيرة ـ كمكانٍ ثابت لبقائي. فهذه الأمور لا يمكنني أن أمنح سبباً لها، وأنا أناشدكَ بصدق أن لا تعود إلى الموضوع الذي ناقشناه بشكلٍ مستفيضٍ جداً. نحن ننظر إلى حياتنا من وجهة نظرنا نحن، وهذه ميزةُ أكثرنا ضعفاً وتواضعاً، ولن أكون قادرة أبداً على أن أرى حياتي بالطريقة التي اقْتَرَحْتَها. فتكَرَّمْ واسمَحْ لهذا أن يكون وافياً بالغرض، وأنصِفْني بأن تصدق بأنني منحتُ عرضكَ بالزواج الاعتبار الموقر بعمق والذي يستحقه. أنا بهذا الاهتمام الكبير جداً سأظل المخلصة

إيزابيل آرتشر

بينما كانت كاتبة الرسالة تقرر إرسالها، كانت هنرييتا ستاكبول قد توصّلَتْ إلى قرارٍ لم يصاحبه تردد؛ فقد دعت رالف تاتشيت لكي يتجول معها في الحديقة. وعندما استجاب بتلك اللهفة التي تشهد دائماً على آماله الكبيرة، أخبرَتْهُ بأنها تطلب منه معروفاً. يمكننا الاعتراف بأن عند هذا الخبر جفَلَ الشاب، لأننا نرى بأن الآنسة ستاكبول قد باغَتَتْهُ بطلبها معروفاً. رغم ذلك، لم يكن هناك مبرر للإجفال لأنه كان على بيِّنةٍ بمدى طيشها أقل مما كان مُطَّلِعاً على مدى عمقه. فأعلن بكل تهذيب عن رغبته بمساعدتها. لقد كان خائفاً

منها وأخبرَها بذلك الآن: (عندما تنظرين إليّ بطريقةٍ معينة، تصطكُّ ركبتاي وتخذلني قدراتي. أنا ممتلئٌ رعباً، وألتمس القوة لأنفّذ أوامركِ فقط. لديكِ لباقة لم أصادفها في أية امرأة).

أجابت هنريتا بظرافة: (حسناً، لو لم أكن أعرف قبل هذا بأنكَ كنتَ تحاول بطريقةٍ ما أن تحرجني، فسوف أعرف ذلك الآن. أنا شخصٌ يسهل انتقاده طبعاً ـ فقد نشأتُ على أعرافٍ وأفكارٍ مختلفة لدرجة عالية. لستُ معتادة على معاييركم الاعتباطية، وفي أميركا لا يتحدث معي أحدٌ بهذه الطريقة التي تتحدث بها أنت معي. فلو قام هناك رجلٌ مهذّب مختلفٌ معي بالتحدث معي بهذه الطريقة فلن أعرف ماذا سأستنتج من ذلك. فنحن هناك نأخذ كل شيء بشكلٍ طبيعي أكثر، بالنتيجة نحن بسطاء كثيراً. أنا بسيطةٌ جداً، أنا أعترفُ بذلك. طبعاً إن كنتَ ترغب أن تضحكَ عليّ بسبب ذلك فعلى الرحب والسعة، لكنني على العموم أعتقد بأنني أودُّ أن أكون نفسي بدلاً منكَ. فأنا مقتنعة تماماً بأن أكون نفسي ولا أريد أن أتغير. هناك الكثير من الناس يقدّرونني كما أنا تماماً. فذلك حقيقة، إنهم أميركيون مولودون أحراراً وأنقياء ولطفاء!).

استعملَتْ هنريتا أخيراً نبرة البراءة العاجزة والتسليم الكثير: (أريدكَ أن تساعدني قليلاً). فواصَلَتِ الكلام: (أنا لا أهتم بتاتاً فيما إذا كنتُ أُضحِكُكَ بينما تفعل ذلك. أو بالأحرى، أنا راغبة تماماً بأن يكون إضحاكي لكَ هي مكافأتَكَ. أريدكَ أن تساعدني بشأن إيزابيل).

فسأل رالف: (هل آذَتْكِ؟)

ـ (لو كانت آذَتْني ما كنتُ لأهتم وما كنتُ لأخبركَ. لكن ما أخشاه هو أنها ستؤذي نفسها).

قال رالف: (أعتقدُ بأن ذلك محتملٌ جداً).

وقفَتْ مرافقته في ممشى الحديقة وهي تثبّت عليه ربما نفس النظرة التي

أثارت أعصابه: (سيُضحِكُكَ ذلك أيضاً على ما أعتقد؛ لم أسمع أبداً عن أحدٍ متهاوناً جداً بالطريقة التي تُنجِز بها الأشياء).

ـ (بإيزابيل؟ آه ليس كذلك!)

ـ (حسناً، أنت لم تقع في حبها على ما آمل).

ـ (كيف يمكن ذلك وأنا واقعٌ في حب أخرى؟).

قالت الآنسة ستاكبول معلنةً: (أنتَ واقعٌ في حب نفسكَ. تلك هي الأخرى! يمكنكَ أن تفعل ذلك بشكلٍ جيد! لكن إن كنتَ ترغب في أن تكون جاداً مرةً في حياتكَ، فهناك فرصة. وإن كنتَ تهتم فعلاً بابنة خالتكَ فهناك فرصة لتثبت ذلك. أنا لا أنتظر منكَ أن تفهم ذلك، فطلبُ ذلك كثير جداً. لكن لستَ بحاجة لفعل ذلك لتعترف بفضلي، فسأمدّكَ بالذكاء الضروري).

هتف رالف: (سأستمتع بذلك بشكلٍ هائل!. سأكون أنا كاليبان وستكونين أنت آريل).[1]

ـ (أنتَ لستَ مثل كاليبان إطلاقاً، لأنكَ سفسطائي، وكاليبان لم يكن كذلك. لكنني لا أتحدث عن شخصياتٍ خيالية، أنا أتحدث عن إيزابيل. إيزابيل حقيقية تماماً. إن ما أريد أن أقوله لكَ هو أنني أجدها قد تغيّرتْ بشكلٍ مخيف).

ـ (تقصدين منذ مجيئكِ؟).

ـ (منذ مجيئي وقبل مجيئي. فهي ليست مذهلةً كما كانت يوماً).

ـ (كما كانت في أميركا؟).

ـ (نعم في أميركا. أعتقد بأنكَ تعرف بأنها أتت من هناك. إنها لا تستطيع أن تقاوم، أنها تتغير).

---

(1) كاليبان وآريل: شخصيتان خياليتان ظهرتا في مسرحية العاصفة لوليم شكسبير. كاليبان مسخ دميم الخلقة يمثل الشر، وآريل جنيّة تمثل الخير. (المترجمة)

ـ (هل تريدين أن تعيديها ثانيةً؟)

ـ (بالطبع أريد ذلك، وأريد منكَ أن تساعدني).

قال رالف: (أنا كاليبان فقط، أنا لستُ بروسبيرو).[1]

ـ (لقد كنتَ بروسبيرو بما يكفي لتجعلها ترغب بما أصبحَتْ عليه. لقد أثّرتَ على إيزابيل آرتشر منذ أن أتت إلى هنا يا سيد تاتشيت).

ـ (أنا يا عزيزتي الآنسة ستاكبول؟. مستحيل، فإيزابيل قد أثَّرتْ عليّ أنا ـ نعم، إنها تؤثر على أي أحد. لكنني كنتُ سلبياً تماماً).

ـ (أنتَ سلبي جداً إذن. من الأفضل أن تتحرك وتصبح منتبهاً، فإيزابيل تتغير كل يوم. إنها تنجرف ـ ناحية البحر تماماً، لقد راقَبْتُها ويمكنني رؤية ذلك. إنها ليست تلك الفتاة الأميركية السعيدة التي كانت عليه. إنها تكتسب آراءً مختلفة، لوناً مختلفاً، وتبتعد عن مبادئِها المثالية القديمة. أنا أريد أن أنقذ تلك المثاليات يا سيد تاتشيت، وذلك بتدخُّلِكَ).

ـ (ليست مثاليات بالتأكيد).

أجابت هنرييتا بسرعة: (حسناً، لا آمل ذلك، فلدي تخوّف في داخلي بأنها ستتزوج شخصاً من أولئك الأوربيين الفظيعين، وأنا أريد أن أمنع ذلك).

صاح رالف: (آه، فهمت. ولكي تمنعي ذلك تريدين مني أن أتدخّل وأتزوجها؟).

ـ (ليس بالضبط. فتلك الوصفة ستكون سيئة مثل المرض لأنكَ الأوربي الفظيع النموذجي الذي أريد أن أنقذها منه. كلا، أريد منكَ أن تهتم بشخصٍ آخر ـ شاب شجَّعَتْهُ كثيراً في إحدى المرات والذي لا تبدو الآن بأنها تفكر فيه تماماً. إنه رجل راقٍ بكل معنى الكلمة وصديق عزيز عليّ وأود كثيراً جداً أن تدعوه للزيارة هنا).

---

(1) بروسبيرو: شخصية خيالية ظهرت في مسرحية العاصفة لوليم شكسبير، تعلَّم السحر من الكتب واستخدمه للتحكم في الآخرين. (المترجمة)

كان رالف متحيراً من هذا الطلب، ولم يكن ربما سبب إخفاقه في النظر إليه في البداية بأبسط صورة هو نقاء تفكيره، لأن الموضوع ارتدى في نظره مظهراً مخادعاً، وكان خطؤه هو أنه لم يكن متأكداً تماماً من أنه يوجد هناك شيء في العالم يمكنه حقاً أن يكون واضحاً كوضوح طلب الآنسة ستاكبول هذا. وهو أن تَطلب شابةٌ أن يُمنَحَ رجلٌ محترم وصَفَتْهُ بأنه صديقها العزيز، فرصةً ليصبح مقبولاً بالنسبة لشابةٍ أخرى، شابةٍ كان اهتمامها متخبطاً وسحرها عظيماً ـ كان ذلك شيئاً خارجاً عن المألوف والذي لوهلةٍ تحدّى تماماً براعته في التفسير. إن قراءةَ ما بين السطور كان أسهل من فهم النص، وبافتراض أن الآنسة ستاكبول رغبَتْ بأن يُستَضاف الرجل المحترم إلى جاردن كورت بناءً على قصتها، فذلك لم يكن علامة على تفكيرٍ سوقي بقدر ما هو علامة على تفكيرٍ مرتبك. رغم ذلك، كان رالف مُبعَداً حتى من هذا التصرف السوقي الممكن اغتفاره، مُبعَداً بقوةٍ لا يمكنني أن أطلق عليها سوى إنها إلهام. وهكذا، وبدون ضوء خارجي أكثر عن الموضوع من الذي امتلَكَهُ مسبقاً، اقتنعَ فجأةً بأن من الظلم المطلق بحق مراسلة الإنترفيور أن يَنسبَ دافعاً شائناً لأي تصرفٍ يبدر منها. إن هذه القناعة قد مرّت في خاطره بسرعة بالغة، لقد تأججت ربما بالتألق البريء للنظرة الهادئة للسيدة الشابة. لقد ردَّ هذا التحدي لوهلةٍ بارتباك وهو يقاوم ميلاً للعبوس كما يعبس المرء في حضرة الشخصيات اللامعة: (من هو الرجل المحترم الذي تتحدثين عنه؟).

ـ (إنه السيد كاسبار غودوود ـ من بوسطن. إنه مهتم للغاية بإيزابيل ـ مثلما هو متمسك بها جداً طالما يمكنه العيش. لقد تبعها إلى هنا، وهو حالياً في لندن. لا أعرف عنوانه، لكنني أعتقد بأنني أستطيع أن أحصل عليه).

قال رالف: (لم أسمع عنه أبداً).

ـ (حسناً، أعتقد بأنكَ لا تسمع عن كل شخص، ولا أعتقد بأنه قد سمع عنكَ يوماً. لكن ذلك ليس سبباً في أن لا تتزوجه إيزابيل).

ضحك رالف ضحكةً مبهمة: (يا للحماس الذي تمتلكينه لتزويج الناس!. هل تذكرين كيف أردتِ أن تتزوجينني في اليوم السابق؟).

ـ (لقد تجاوزتُ عن ذلك. فأنتَ لا تعرف كيف تستوعب آراءً كهذه. رغم ذلك، فالسيد غودوود يستوعب ذلك، وهذا ما أحبه فيه. إنه رجل رائع ورجل مثالي محترم وإيزابيل تعلم ذلك).

ـ (هل هي مولعةٌ به؟).

ـ (إن لم تكن كذلك فيجب عليها أن تكون كذلك. فهو ببساطة هائمٌ بها).

فسأل رالف متأملاً: (وأنتِ ترغبين مني بأن أستضيفه هنا).

ـ (سيكون ذلك من حسن الضيافة الحقيقية).

فواصَلَ رالف كلامه: (كاسبار غودوود ـ إنه اسم مدهش بعض الشيء).

ـ (لا يهمني أي شيء عن اسمه، حتى وإن كان حزقيال جنكيز، فسأقوله كما هو. إنه الرجل الوحيد الذي أراه يستحق إيزابيل).

قال رالف: (أنتِ صديقة مخلصة للغاية).

ـ (بالطبع أنا كذلك. وإن كنتَ تقول ذلك لتسخر مني فأنا لا أهتم).

ـ (أنا لا أقول ذلك لكي أسخر منكِ، بل أنا مندهش منكِ).

ـ (أنتَ تسخر أكثر من قبل، لكنني أنصحكَ بأن لا تسخر من السيد غودوود).

قال رالف: (أنا أؤكد لكِ بأنني جاد جداً. يجب أن تفهمي ذلك).

وبسرعةٍ فهمَتْ مرافقته ذلك: (أصدقُ بأنكَ كذلك. أنت جاد جداً الآن).

ـ (من الصعب إرضاؤكِ).

ـ (أوه، أنت جاد جداً حقاً. أنت لن تستضيف السيد غودوود).

ـ (لا أدري. أنا كفيلٌ بالأمور الغريبة. أخبريني قليلاً عن السيد غودوود، كيف يبدو؟).

ـ (إنه على العكس منكَ تماماً. إنه رئيس مصنع للقطن. مصنع راقٍ جداً).

سأل رالف: (هل لديه أخلاق طيبة؟).

ـ (أخلاق رائعة ـ على الطراز الأميركي).

ـ (هل سيكون عضواً محبوباً لمجموعتنا الصغيرة؟).

ـ (لا أعتقد بأنه سيهتم كثيراً بشأن مجموعتنا الصغيرة، فهو سيركز على إيزابيل).

ـ (وكيف ستحب ابنة خالتي ذلك؟).

ـ (على الأرجح بأنها لن تحبه إطلاقاً، لكن ذلك سيكون لمصلحتها. إذ سيجعلها تعيد التفكير).

ـ (يعيدها من أين؟)

ـ (من أجزاء غريبة وأماكن أخرى غير طبيعية. فقبل ثلاثة أشهر مَنَحَتِ السيدَ غودوود كل سبب ليعتقد بأنه جديرٌ بها، وأنه ليس حريّاً بإيزابيل أن تتخلى عن صديقٍ حقيقي لمجرد أنها غيّرَتْ مسرح الأحداث. فأنا أيضاً غيّرتُ مسرح الأحداث، وكان تأثير ذلك أن جعلَني أهتم بعلاقاتي القديمة أكثر من ذي قبل. إن في تصوّري أن إيزابيل كلما تغيرَتْ بسرعة فستعود ثانيةً أفضل. أنا أعرفها جيداً لأعلم بأنها لن تكون سعيدة أبداً بحق وهي هنا، وأطلب أن تكوِّن رابطة أميركية قوية تمثِّل ما يشبه الواقي).

تساءل رالف: (ألستِ مستعجلة قليلاً ربما؟. ألا تعتقدين بأنه يجب منحها فرصة أكبر في إنجلترا العتيقة المسكينة؟).

ـ (فرصة لتدمر حياتها الشابة اللامعة؟. لا يُعتبر المرء مستعجلاً عندما ينقذ مخلوقاً بشرياً عزيزاً من الغرق).

قال رالف: (حسب ما أفهم إذن، أنت ترغبين مني أن أزجَّ بالسيد غودوود عليها). ثم أضاف: (هل تعلمين بأنني لم أسمعها أبداً تذكر اسمه؟).

فابتسمت هنرييتا ابتسامة رائعة: (أنا مسرورة لسماع ذلك، فذلك يثبت كم تفكر فيه كثيراً).

بدا على رالف بأنه يعتقد بأن هناك قدراً لا بأس به في ذلك، واستسلَمَ للفكرة بينما راقَبَتْهُ مرافقتُه شزراً، فقال في النهاية: (إن كنتُ سأستضيف السيد غودوود فسأتشاجر معه).

ـ (لا تفعل ذلك، فهو سيثبت بأنه الرجل الأفضل).

ـ (أنتِ بالتأكيد تفعلين ما بوسعكِ لتجعليني أكرهه!. أنا لا أفكر حقاً بأن أستضيفه، إذ أخشى من أن أكون قاسياً معه).

ردت هنرييتا: (كما يحلو لكَ. لم يكن لدي فكرة بأنكَ واقع في حبها).

فسأل الشاب باندهاش: (هل تعتقدين ذلك حقاً؟).

قالت الآنسة ستاكبول بحذق: (إن ذلك أكثر قول معتوه سمعتكَ تتفوه به!. طبعاً أعتقد ذلك).

اختتم رالف: (حسناً. لكي أثبتَ لكِ بأنكِ مخطئة فسأستضيفه. لكن كصديق لكِ طبعاً).

ـ (لن يحدث ولن يأتي لأنه صديق لي. ولن يحدث بأنكَ ستدعوه لتثبت لي أنا بأنني مخطئة ـ بل لتثبت ذلك لنفسكَ انت!).

تضمنت هذه الكلمات الأخيرة للآنسة ستاكبول (التي افترَقَ الاثنان عليها في الحال) قدراً من الحقيقة التي كان رالف تاتشيت مُجبراً على معرفتها. لكن ما خفّف من حدّة هذه المعرفة العنيفة جداً هو أنه ـ رغم ظنه بأنه سيكون من الحماقة الإيفاء بوعده بدلاً من نَكْثِهِ ـ كتب للسيد غودوود رسالة من ستة أسطر يعبر فيها عن السرور الذي سيمنحه للسيد تاتشيت الأب إنْ انضمَّ إلى حفلة صغيرة في جاردن كورت، والتي تكون الآنسة ستاكبول فيها عضواً موقراً. فأرسل رسالته (في عهدة مصرفي اقترَحَتْهُ هنرييتا) وانتَظَرَ بترقب.

كان قد سمع اسم هذه الشخصية المحترمة الجديدة لأول مرة، لأن عندما ذكَرَتْ والدته عند وصولها بأن هناك قصة عن امتلاك الفتاة لـ «معجب» في وطنها، كانت الفكرة تعوزها المصداقية في الحقيقة ولم يتجشم عناء أن يسأل أسئلة كانت إجاباتها ستتضمن فقط كل ما هو مبهم أو غير مناسب. أما الآن، فقد أصبح الإعجاب الوطني الذي كان موضوعه ابنة خالته، مؤكداً أكثر. لقد اتخذ هذا الإعجاب شكل شابٍّ تبعها إلى لندن والذي كان مهتماً بمصنع للقطن وامتلَكَ أروع أخلاق على الطراز الأميركي.

كانت لدى رالف نظريتان عن هذا الدخيل؛ إما أن شغفه كان خيالاً عاطفياً من خيالات الآنسة ستاكبول (كان هناك دائماً نوع من التفاهم الضمني بين النساء اللواتي نشأن على مشاركة الجنسين، بأن عليهن أن يكتشفن أو يخترعن عشاقاً لإحداهن الأخرى)، وفي تلك الحالة لم يكن عليه أن يصبح خائفاً وأنه على الأرجح لن يقبل الدعوة؛ أو أنه سيوافق على الدعوة، وفي هذه الحالة سيثبت بأنه مخلوق غير منطقي يتطلب تفكيراً أكثر.

قد يبدو البند الأخير من نظرية رالف غير متماسك، لكنه جسّد اقتناعه بأنه إن كان السيد غودوود مهتماً بإيزابيل بالطريقة الجادة الموصوفة من قبل الآنسة ستاكبول، فلن يهتم بالحضور إلى جاردن كورت بناءً على دعوةٍ من السيدة الأخيرة.

قال رالف: (بناءً على هذا الافتراض، يجب أن يعتبرها كشوكة على ساق زهرته، لأنها كوسيطة، لا بدّ بأنه سيجدها وسيطة ضعيفة في الواقع).

بعد يومين من إرساله دعوته، تلقّى رسالةً قصيرة جداً من كاسبار غودوود يشكره على الدعوة ومتأسفاً بأن ارتباطات أخرى جعلَتْ زيارته لجاردن كورت مستحيلة، ويهدي تحيات جزيلة للآنسة ستاكبول.

سلّم رالف الرسالة لهنرييتا التي عندما قرأتْها صاحت: (حسناً، لم أسمع أبداً عن شيء بهذه القسوة!).

أبدى رالف ملاحظةً: (أخشى بأنه لا يهتم كثيراً جداً بشأن ابنة خالتي كما تخيلتِ).

ـ (كلا، ليس الأمر كذلك. إن السبب غير واضح قليلاً، فطبعه معقد جداً. لكنني مصممة على فهمه وسوف أكتب له لأعرف ماذا يقصد).

كان رفضه لعرض رالف محيراً بشكلٍ غامض. فمنذ اللحظة التي امتنعَ فيها عن المجيء إلى جاردن كورت، بدأ صديقنا يعتقد بأن غوؤود ذو أهمية. فسأل نفسه ما الذي يهمه سواء كان معجبو إيزابيل يائسين أو متلكئين، فهم ليسوا منافسين له، وهم مُرَحَّبٌ بهم تماماً ليطلقوا مواهبهم. مع ذلك، فقد شعر بفضولٍ كبير بشأن نتيجة الاستعلام الموعود للآنسة ستاكبول عن أسباب قسوة السيد غودوود ـ وهو فضولٌ غير مُشبَع حالياً، لأنه عندما سألها بعد ثلاثة أيام فيما إذا كانت قد كتبَتْ إلى لندن، كانت مجبرةً على الاعتراف بأنها كتبَتْ لكن بلا فائدة. فالسيد غودوود لم يجب.

قالت: (أعتقدُ بأنه يعتقد بأن الموضوع قد انتهى. يعتقد بأن كل شيء قد انتهى. إنه ليس متهوراً على الإطلاق في الواقع، لكنني معتادة على أن تُجاب رسائلي في نفس اليوم).

بكل الأحوال اقترحَتْ على الفور على إيزابيل بأن عليهما عمل جولة معاً إلى لندن، فقالت: (إن كان لا بدّ أن أقول الحقيقة، فأنا لا أرى الكثير في هذا المكان، ولا أعتقد بأنكِ كذلك أيضاً. أنا لم أرَ حتى ذلك الأرستقراطي ـ ما اسمه؟ ـ اللورد واربيرتون. يبدو بأنه يتركك لوحدكِ بقسوة).

أجابت صديقتها التي تلقّتْ رسالةً من مالك لوكلي كردٍّ على رسالتها: (اللورد واربيرتون قادم غداً. ستحظين بكل فرصة لقلبه رأساً على عقب).

ـ (حسناً، قد ينقلب رأساً على عقب من رسالة واحدة، لكن ما قيمة رسالة واحدة عندما تريدين أن تكتبي خمسين؟ لقد وصفتُ كل مشهد في هذه المنطقة وأفرطتُ في مديح كل العجائز والحمير. يمكنكِ قول ما يحلو

لكِ، فالمَشاهد لا تصنع رسالة حية. يجب أن أعود إلى لندن وآخذ بعض الانطباعات عن الحياة الحقيقية. لقد كنتُ هناك ثلاثة أيام فقط قبل أن أغادرها، وذلك وقتٌ بالكاد أطّلعُ فيه على أي شيء).

بدا ذلك اقتراحاً ساراً من هنرييتا بأن تذهب الاثنتان في زيارةٍ للترفيه لأن إيزابيل أثناء رحلتها من نيويورك إلى جاردن كورت رأت من العاصمة البريطانية حتى أقل من ذلك. فقد وقَعَتِ الفكرة على إيزابيل كالسحر. كانت فضوليةً بشأن التفاصيل التامة للندن التي بدت لها دائماً كبيرة وفخمة.

قلّبتا مخططاتهما معاً وانهمكتا في تخيلاتٍ من الساعات الرومانسية: فكانتا ستمكثان عند حانةٍ عتيقة رائعة ـ واحدة من تلك الحانات الموصوفة من قبل ديكنز ـ وتتجولان في المدينة بعربات الهانسوم[1] الجميلة تلك. كانت هنرييتا امرأةً واسعة الاطلاع، وكانت الفائدة الكبيرة في أن تكوني امرأةً واسعة الاطلاع هي أنه يمكنكِ أن تذهبي إلى أي مكان وتفعلي أي شيء. كانتا ستتعشيان في مقهى وتذهبان بعدها إلى المسرح. كانتا ستترددان على الكنيسة والمتحف البريطاني وتستكشفان حيث عاش الدكتور جونسون وغولدسمث وإديسون.

ازدادت إيزابيل حماساً وكشفَتْ على الفور عن التخيلات المفرحة لرالف الذي انفجر في نوبة ضحك بالكاد عبّرَتْ عن التعاطف الذي استحقّتْهُ، فقال: (إنه مخطط باعث على الفرح. أنصحكِ بأن تذهبي إلى ديوك هيد في كوفنت غاردن، فهو مكان مريح وعام وقديم الطراز، وسأقوم بضمّكِ إلى النادي الخاص بي).

سألت إيزابيل: (هل تقصد بأنه بذيء؟. ويحي، ألا يوجد شيء لائق هنا؟.

---

(1)الهانسوم: هي نوع من العربات التي تجرها الخيل، اخترعها المهندس المعماري البريطاني جوزيف هانسوم عام 1834 ليجمع فيها السرعة مع الأمان. امتازت بأنها سريعة وخفيفة وذات عجلتين ويكفي لجرها حصان واحد مما يجعل الرحلة أرخص سعراً. (المترجمة)

مع هنرييتا قد أذهب إلى أي مكان بالتأكيد، فهي لا يعيقها أحد بهذه الطريقة، لقد سافَرَتْ عبر القارة الأميركية كلها ويمكنها أن تجد طريقها على الأقل في هذه الجزيرة الصغيرة).

قال رالف: (آه، إذن دعيني أستفيد من رعايتها لأذهب إلى المدينة أيضاً، فربما لن أجد الفرصة أبداً بالسفر بهذه الطريقة الآمنة!).

***

الفصل 14

كانت الآنسة ستاكبول قد تهيأتْ لتنطلق بسرعة، لكن إيزابيل، كما رأينا، أفادت بأن اللورد واربيرتون كان سيأتي ثانيةً إلى جاردن كورت وظنت أنه من واجبها أن تبقى وتراه. لم يكن قد ردَّ على رسالتها لأربعة أو خمسة أيام، ومن ثم كتب بشكلٍ مختصرٍ جداً ليقول بأنه كان سيحضُر للغداء بعد يومين. كان هناك خطبٌ ما في هذا التأخير والتأجيل أثَّرَ في الفتاة وجدَّدَ شعورها برغبته بأن يكون مراعياً لمشاعرها وصبوراً وأن لا يظهَر بأنه يستعجلها كثيراً، وهي مراعاةٌ كلما فكرَتْ فيها أكثر تصبح متأكدة أكثر بأنه «أحبَّها حقاً».

أخبرَتْ إيزابيل زوج خالتها بأنها قامت بالكتابة له، ذاكرةً أيضاً عزمه على المجيء. وبالنتيجة ترك الرجل العجوز غرفته بشكل مبكر أكثر من المعتاد وظهر عند وجبة الساعة الثانية. لم يكن بالتأكيد هذا التصرف النبيه من جانبه سوى نتيجةٍ للتصور الطيب بأن وجوده معهما قد يساعد على احتواء أية شطحات مصاحِبة في حال منَحَتْ إيزابيل لضيفهم النبيل جلسة استماع أخرى.

توجَّهَ ذلك الشخص البارز بالعربة من لوكلي وجلب معه أخته الكبرى، وهو على ما يبدو إجراء يفرضه تفكير العائلات التي من نفس طبقة عائلة السيد تاتشيت. قُدِّمَ الزائران إلى الآنسة ستاكبول التي شغلَتْ عند الغداء مقعداً ملاصقاً لمقعد اللورد واربيرتون. لم تقاوم إيزابيل، التي كانت متوترة ولم يكن لديها ميل لأن تناقش ثانيةً الموضوع الذي كان قد فتحه ثانيةً في غير أوانه، الإعجاب برزانته الرائقة التي أخفت تماماً علامات الانشغال بوجودها

الذي كان من الطبيعي أن تنتظر منه أن يشعر به. فهو لم ينظر لها أبداً ولم يتحدث معها، وكانت الإشارة الوحيدة لعاطفته هي أنه تفادى لقاء عينيها. رغم ذلك، خاض حديثاً كثيراً مع الآخرين، وبدا بأنه يتناول غداءه بتعصب وشهية.

كانت الآنسة مولينو، التي امتلكَتْ جبهةً ناعمةً شبيهة بجبهة الراهبات وارتدَتْ صليباً فضيّاً كبيراً معلقاً من رقبتها، منشغلةَ البال بوضوح بهنرييتا ستاكبول التي عليها استقرَّ نظرُها بثبات، استقرَّ بشكلٍ يوحي بتناقضٍ بين النفور العميق والإعجاب المتلهف. هي إحدى سيدتَيْ لوكلي التي أحبَّتْها إيزابيل أكثر، فقد كان هناك عالماً موروثاً من الهدوء داخلها. كانت إيزابيل علاوة على ذلك متأكدةً بأن جبهتها الناعمة وصليبها الفضي قد أشارا إلى غموضٍ أنجليكاني ساحر ـ إعادة إحياء جميلة ربما لشعيرة رهبنة النساء الأصلية. لقد تساءلَتْ ماذا كانت الآنسة مولينو ستفكر بشأنها لو عرفَتْ أن الآنسة آرتشر قد رفضَتْ أخاها، ثم شعرَتْ بأنها متأكدة من أن الآنسة مولينو لن تعرف ذلك أبداً، فاللورد واربيرتون لم يخبرها أشياء كهذه أبداً، صحيح أنه كان مُحِبّاً لها ولطيفاً معها، إلا أنه على العموم لم يخبرها الكثير. كانت تلك على الأقل نظرية إيزابيل؛ فعلى المائدة، عندما تكون غير منشغلة بالحديث، تنشغل عادةً بتكوين نظريات عن الذين يجلسون بجوارها. فبالنسبة لإيزابيل، في حال عرَفَتِ الآنسة مولينو يوماً ما دار بين الآنسة آرتشر واللورد واربيرتون، فستندهش على الأرجح لإخفاق فتاةٍ كهذه على الارتقاء، أو بدلاً من ذلك ستتهم الأميركيةَ الشابة بالشعور الكافي بعدم التكافؤ (كان هذا الافتراض الأخير لبطلتنا).

على أية حال، مهما كان ما تفعله إيزابيل، كانت هنرييتا ستاكبول ميّالة بالتأكيد إلى الاستخفاف بأولئك الذين وجدَتْ نفسها الآن بينهم. فقالت بسرعة جداً إلى من يجلس بجوارها: (هل تعلم بأنكَ أول لورد أراه يوماً؟. أعتقد بأنكَ تراني مُظَلَّلَةً بشكلٍ رهيب).

أجاب اللورد واربيرتون وهو ينظر بذهولٍ قليلاً حول المائدة: (أنتِ لم تَرَيْ بعض الناس المزعجين جداً).

ـ (هل هم مزعجون جداً؟. إنهم يحاولون أن يجعلوننا نعتقد في أميركا بأنهم كلهم وسيمون ورائعون وبأنهم يرتدون جلابيب وتيجاناً رائعة).

قال اللورد واربيرتون: (آه، إن الجلابيب والتيجان أصبحت طرازاً قديماً مثل فؤوس الهنود الحمر والطبنجات عندكم).

صرحت هنريتا: (أنا آسفة لذلك، فأنا أعتقد بأن الأرستقراطي يجب أن يكون مترفاً، وإن لم يكن كذلك فماذا يكون؟).

اعترَفَ من يجلس بجوارها: (أوه، تعلمين، أنه لا يعني الكثير في أحسن الأحوال. ألن تتناولي حبة بطاطا؟).

ـ (أنا لا أبالي كثيراً بتلك البطاطا الأوربية. ما كنتُ لأُميِّزَ بينكَ وبين أي رجل أميركي عادي).

قال اللورد واربيرتون: (تحدثي معي وكأنني واحدٌ منهم. أنا لا أفهم كيف تدبرين أمركِ بالاستمرار بلا بطاطا، لا بدّ أنكِ لا تجدين الكثير من الأشياء لتأكليها هنا).

كانت هنريتا صامتةً للحظة، فقد كانت هناك احتمالية بأنه لم يكن محقاً، وأخيراً أكملتْ حديثها: (بالكاد لدي شهية منذ أن تواجدتُ هنا، لذا فالأمر غير مهم كثيراً. هل تعلم، أنا لا أستسيغكَ. أشعر بأنه يجب أن أقول لكَ ذلك).

ـ (لا تستسيغينني؟)

ـ (نعم. ولا أعتقد بأن أي أحدٍ قد قال لكَ شيئاً كهذا من قبل، أليس كذلك؟. أنا لا أستسيغ اللوردات كعُرْف، إذ أعتقد بأنه من الصعب على العالم أن يتعامل معهم ـ من الصعب جداً).

ـ (أوه، أنا كذلك، لا أستسيغ نفسي مطلقاً. أحياناً يخطر لي ذلك ـ كيف

يجب علي أن أعترض على نفسي وأنا لستُ نفسي، ألا تعلمين أنت؟ لكن على فكرة، إن ذلك جيد نوعاً ما ـ لا أقصد أن أكون متباهياً).

تساءلت الآنسة ستاكبول: (لماذا لا تتخلى عنها إذن؟).

سأل اللورد واربيرتون وهو يقابل نبرة صوتها القاسية بنبرة صوت رقيقة جداً: (أتخلى ـ آ...).

ـ (تتخلى عن أن تكون لورداً).

ـ (أوه، أنا أقل جداً من لورد!. يود المرء فعلاً أن ينسى كل شيء عنها لو لم تقوموا أنتم الأميركيون الأشرار باستمرار بتذكير المرء بذلك. على أية حال فأنا أفكر بالتخلي عنها ـ أو القليل الذي تبقّى منها ـ هذه الأيام).

هتفت هنرييتا بتجهمٍ بعض الشيء: (أفضّلُ أن أراكَ تفعلها!).

ـ (سأدعوكِ إلى الحفلة، سنتناول عشاءً ونرقص).

قالت الآنسة ستاكبول: (حسناً، أحب أن أرى كل النواحي. أنا لا أحب الطبقة الثرية، لكني أحب أن أسمع ماذا يقولون لأنفسهم).

ـ (القليل جداً، كما ترين!).

ـ (يجب عليّ أن أُثيرَكَ أكثر قليلاً). واصلَتْ هنرييتا الكلام: (لكنكَ دائماً تشيح بوجهكَ بعيداً. أنت خائف من أن تضع عينكَ بعيني. أرى بأنكَ تريد أن تتفاداني).

ـ (كلا، فأنا فقط أبحث عن تلك البطاطا البغيضة).

ـ (إذن أرجو أن توضّح لنا عن تلك السيدة الشابة ـ أختكَ، فأنا لا أعرف عنها شيئاً. هل هي سيدة راقية؟)

ـ (إنها فتاة طيبة ممتازة).

ـ (لا أحب الطريقة التي تقول بها ذلك ـ وكأنكَ تريد أن تغير الموضوع. هل مركزها أدنى من مركزكَ؟).

ـ (ليس لكلينا أي مركز لنتحدث عنه، لكنها أفضل مني حالاً، ولا تنزعج من الأمر).

ـ (نعم، فهي لا تبدو وكأنها منزعجة كثيراً. أود أن أنزعج قليلاً مثلها. أنتم تَبدون فعلاً أناساً هادئين هنا أيّاً كان ما تفعلونه).

قال اللورد واربيرتون: (آه، أنت عموماً ترين شخصاً يأخذ الحياة بسهولة، ثم إنكِ تعرفين بأننا هادئون جداً. آه، يمكننا أن نصبح هادئين عندما نجرّب ذلك!).

ـ (يجب أن أنصحكَ بأن تجرّب شيئاً آخر. لا يجب عليّ أن أعلم ما الذي أتحدث عنه مع أختكَ، فهي تبدو مختلفة جداً. هل ذلك الصليب الفضي شعار؟).

ـ (شعار؟)

ـ (علامة انتماء إلى رتبة معينة).

كانت نظرة اللورد واربيرتون قد شردَتْ قليلاً، لكن وهي كذلك، التقت بتحديقةِ مَن كانت بجواره، فأجاب بسرعة: (أوه، نعم، فالنساء مولعات بهذه الأشياء. إن الصليب الفضي يُرتدى من قبل الابنة الكبرى للفيكونت).

بعد الغداء، اقترَحَ على إيزابيل بأن تأتي للرواق وتتفرّج على اللوحات. على الرغم من أنها تعلم بأنه رأى اللوحات عشرين مرة، إلا أنها استجابَتْ بدون أن تعلّق على هذه الذريعة.

كان شعورها الآن مرتاحاً جداً، فمنذ أن أرسلَتْ له رسالتها شعرَتْ بخفة الروح بشكلٍ خاص. سار على مهلٍ حتى نهاية الرواق وهو يحدّق لمحتوياته بدون أن يقول شيئاً، ومن ثم انفجر فجأة: (لم أتمنَّ أن تكتبي لي بهذه الطريقة).

قالت الفتاة: (لقد كانت الطريقة الوحيدة يا لورد واربيرتون. حاول أن تصدق ذلك).

ـ (لو استطعتُ تصديق ذلك لكنتُ قد تركتُكِ طبعاً، لكننا لا نصدق لمجرد الرغبة في ذلك، وأنا أعترف بأنني لم أفهم. لقد تمكنتُ من فهم كرهكِ لي، هذا ما تمكنتُ من فهمه جيداً، لكن عليكِ أن تعترفي بأنكِ....).

فقاطعته إيزابيل وهي تستحيل شاحبةً قليلاً: (بماذا أعترفُ؟).

ـ (بأنكِ تعتقدينني شخصاً مناسباً. أليس الأمر كذلك؟).

فلم تقل شيئاً.

واستمرَّ في الكلام: (لا يبدو بأن لديكِ أي سبب، وذلك يمنحني إحساساً بالظلم).

فقالت بنبرةٍ جعلَتْ قلبه ينقبض: (لدي سبب يا لورد واربيرتون).

ـ (أود كثيراً جداً أن أعرفه).

ـ (سأخبركَ يوماً ما عندما يوجد المزيد لإثباته).

ـ (اعذريني عندما أقول الآن بأنني أشك في ذلك).

قالت إيزابيل: (أنتَ تجعلني حزينة).

ـ (لستُ آسفاً على ذلك، فقد يساعدكِ ذلك كي تفهمي كيف أشعر. هلّا أجبتِني على سؤالٍ لطفاً؟).

لم تجب إيزابيل إجابة مسموعة، لكنه رأى في عينيها بوضوح شيئاً شجّعه على الاستمرار: (هل تُؤْثِرين شخصاً آخر؟).

ـ (ذلك سؤال لم أكن لأجيب عنه في الواقع).

فغمغم وخاطبها بمرارة: (آه، إذن تُؤْثِرين أحداً!)

فأثّرَتِ المرارة فيها وصاحت: (أنتَ مخطئ، أنا لا أؤثِرُ أحداً).

فجلس على دكّةٍ بضيق وبدون تكلُّف كرجلٍ في مأزق وهو يحني مرفقيه على ركبتيه محدّقاً على الأرض. فقال أخيراً وهو يُلقي بنفسه إلى الخلف على الحائط: (لا أستطيع حتى أن أكون مسروراً من ذلك لأن ذلك سيصبح عذراً).

فرفعَتْ حاجبيها دهشةً: (عذر؟ هل يجب أن أعذر نفسي؟).

رغم ذلك، لم يمنح أية إجابة على السؤال، فقد خطرَتْ فكرة أخرى في ذهنه: (هل السبب هو آرائي السياسية؟ هل تعتقدين بأنني مُتمادٍ في ذلك؟).

ـ (لا أستطيع أن أعارض آراءكَ السياسية لأنني لا أفهمها).

فصاح وهو ينهض: (أنتِ لا تكترثين بما أعتقد، فالأمر سيّان بالنسبة لكِ).

سارت إيزابيل إلى الجانب الآخر من الرواق ووقفَتْ هناك، وبدا له ظهرها الساحر، وقدّها الرشيق الخفيف، وعنقها الطويل وهي تحني رأسها، وكثافة جدائلها الداكنة. وقفَتْ أمام لوحة صغيرة وكأنها تتفحصها، وكان هناك شيء ما شبابيّاً جداً وعفوياً في حركاتها بحيث بدا قوامها اللدن جداً يسخر منه. رغم ذلك، لم ترَ عيناها شيئاً، فقد انغمرَتْ فجأةً بالدموع. فتبعها بسرعة، وأثناء ذلك قامت بمسح عينيها. لكنها عندما استدارت كان وجهها شاحباً وتعابير عينيها غريبة: (إن السبب الذي ما كنتُ لأخبركَ به ـ سأخبركَ به رغم ذلك، وهو أنني لا أستطيع أن أهرب من قدري).

ـ (قدركِ).

ـ (إن كنتُ سأتزوجكَ فتلكَ محاولة للهروب من قدري).

ـ (أنا لا أفهم لِمَ لا يكون ذلك قدركِ كأي شيء آخر؟).

قالت إيزابيل برقّة: (لأنه ليس كذلك. فليس قدري هو أن أستسلم ـ أعرفُ بأنه لا يمكن أن يحدث ذلك). فحدّق اللورد واربيرتون المسكين وعلامة استفهام في كل عين من عينيه: (هل تسمّين الزواج مني استسلاماً؟)

ـ (ليس بالمعنى المألوف. إنه يحمل... يحمل... يحمل معنىً كبيراً، لكنه تَخَلٍّ عن فرصٍ أخرى).

ـ (فرص أخرى لأي شيء؟).

قالت إيزابيل وقد عاد إليها لونها بسرعة: (لا أقصد فرص الزواج). ثم

توقفت عن الكلام وهي تنظر للأسفل بتجهّمٍ عميق وكأنه لا أمل من المحاولة في توضيح مقصدها. فأبدى مرافقها ملاحظةً: (لا أعتقد أنه من الوقاحة مني أن أُلَمّح إلى أنكِ سَتربحين أكثر مما ستخسرين).

قالت إيزابيل: (لا يمكنني الهرب من الحزن. وعند الزواج منكَ سأحاول ذلك).

فهتف بضحكةٍ مضطربة: (لا أعلم فيما إذا كنتِ ستحاولين ذلك، لكنكِ بالتأكيد ستحاولين: عليّ أن أعترف ذلك بدون تحيز!).

صاحت الفتاة: (لا يجب ذلك ـ لا أستطيع!).

ـ (حسناً، إن كنتِ مصمِّمة على أن تكوني بائسة فلا أرى سبباً لتجعلينني كذلك. فأيّاً كانت الإغراءات التي تمتلكها حياة البؤس، فهي لا تمتلك إغراءً بالنسبة لي).

قالت إيزابيل: (أنا لستُ مصممةً على حياة البؤس، بل أنا عازمة دوماً وبشدة على أن أكون سعيدة، وقد آمنتُ دائماً بأنه يجب أن أكون كذلك. لقد قلتُ ذلك للناس، يمكنكَ أن تسألهم. لكن يخطر في ذهني من حينٍ لآخر بأنه لا يمكنني أن أصبح سعيدة بطريقةٍ خارقة، ليس بالابتعاد، بفصل نفسي).

ـ (بفصل نفسكِ عن ماذا؟).

ـ (عن الحياة، عن الفرص والمخاطر المألوفة، وعن معظم ما يعرفه الناس ويعانون منه).

انفجر اللورد واربيرتون بابتسامةٍ دَلَّتْ قليلاً على الأمل، فبدأ يشرح بأقصى حماسة متفهمة: (عجباً يا عزيزتي آنسة آرتشر، أنا لا أعرض عليكِ أي انفصال عن الحياة أو عن أية فرص أو مخاطر بتاتاً، وليتني أستطيع، ثِقي بأنني سأفعل ذلك!. ماذا تعتقدينني، أرجوكِ؟ فلتكن السماء في عوني، أنا لستُ إمبراطور الصين!. إن كل ما أعرضه هو فرصة لتفهمي القدر المشترك بطريقة

مريحة للذهن. القدر المشترك؟. عجباً، أنا متمسك بالقدر المشترك!. أبرمي معي اتفاقاً وسأعدكِ بأنكِ لن تخسري، لن تنفصلي عن أي شيء بتاتاً ـ ولا حتى عن صديقتكِ الآنسة ستاكبول).

قالت إيزابيل وهي تحاول أن تبتسم وتستغل هذا الموضوع الجانبي، مُزْدَرِيَةً نفسها أيضاً ليس قليلاً لِفِعْلِها ذلك: (إنها لن تستسيغ ذلك أبداً).

سأل اللورد واربيرتون بنفاد صبر: (هل نحن نتحدث عن الآنسة ستاكبول؟. أنا لم أرَ شخصاً يحكم على الأشياء على أسس نظرية كهذه).

قالت إيزابيل بتواضع: (أرى الآن بأنكَ تتحدث عني). وابتعدَتْ ثانيةً لأنها رأت الآنسة مولينو تدخل الرواق برفقة هنرييتا ورالف.

خاطبَتْهُ أخته بتردد بعض الشيء وذكَّرَتْهُ بأنها يجب أن تعود للبيت في الوقت المناسب من أجل تناول الشاي لأنها كانت تنتظر رفاقاً لتتشاركه معهم. فلم يُجب ـ من الواضح بأنه لم يسمعها فقد كان منشغلاً وبمبررٍ مناسب. وقفت الآنسة مولينو كوصيفة، وهو كأنه ملك.

قالت هنرييتا ستاكبول: (حسناً، أنا لستُ مستعجلة يا آنسة مولينو!. فلو أردتُ الذهاب فسيذهب. لو أردتُ من أخي أن يفعل شيئاً فسوف يفعله).

أجابت الآنسة مولينو بضحكةٍ سريعة خجولة: (أوه، إن واربيرتون يفعل كل شيء يريده الشخص). فاستمرت بالكلام وهي تلتفت إلى رالف: (كم هي كثيرة جداً اللوحات لديكم!).

قال رالف: (إنها تبدو كثيرة جداً لأن جميعها موضوعة معاً. لكنها طريقة سيئة حقاً).

استمرت الآنسة مولينو بالكلام إلى رالف بشكلٍ متواصل وكأنها تخشى من أن تخاطبها الآنسة ستاكبول ثانيةً، فقد بدا على الفور بأن هنرييتا تشلّها وتخيفها: (أوه، أعتقد بأنها لطيفة جداً. أتمنى أن يكون لدينا رواق في لوكلي، فأنا مولعةٌ جداً باللوحات).

قال رالف الذي بدا بأنه يعرف نمط الملاحظات المقبولة بالنسبة لها: (آه، نعم، فاللوحات شيء مريح جداً).

واصلت السيدة الشابة الكلام: (إنها مريحة جداً عندما تمطر. لقد أمطرت كثيراً منذ وقتٍ قريب).

قالت هنرييتا: (أنا حزينة لأنكَ ستنصرف يا لورد واربيرتون، فقد أردتُ أن أخرج معكَ كثيراً).

أجاب اللورد واربيرتون: (لن أذهب بعيداً).

ـ (تقول أختكَ بأنه عليكَ أن تذهب. في أميركا، يطيع الرجال النبلاء السيدات).

قالت الآنسة مولينو وهي تنظر إلى أخيها: (أخشى أننا دعونا أناساً لتناول الشاي).

ـ (حسناً يا عزيزتي. سنذهب)

هتفت هنرييتا: (لقد تمنيتُ بأن تُعارِض! فقد أردتُ أن أرى ماذا كانت ستفعل الآنسة مولينو).

قالت هذه السيدة الشابة: (لن أفعل أي شيء).

ردّت الآنسة ستاكبول: (أعتقدُ بأن بموقفكِ هذا من المُرضي أن تبقَى!. أود كثيراً جداً أن أراكِ في البيت).

قالت الآنسة مولينو لإيزابيل بلطفٍ جداً متجاهلةً هذا التلميح من صديقة إيزابيل: (يجب أن تأتي إلى لوكلي ثانيةً).

نظرت إيزابيل لوهلةٍ إلى عينيها الهادئتين، وفي تلك الوهلة رأت في عمقَيْها الرماديين انعكاس كل شيء كانت قد رَفَضَتْهُ برفضها للورد واربيرتون ـ الهدوء، اللطف، الرفعة، ضبط النفس، الأمان العميق والحرمان الكبير. فقبَّلت الآنسة مولينو ثم قالت: (أخشى أنه لا يمكنني أن آتي ثانيةً).

ـ (أبداً؟)

ـ (أخشى بأنني مغادِرة).

قالت الآنسة مولينو: (أوه، أنا آسفة جداً. أعتقد بأن هذا خطأ منكِ).

راقب اللورد واربيرتون هذه الفقرة الصغيرة ثم استدارَ مبتعداً وحدّق في إحدى اللوحات. كان رالف يراقبه لوهلةٍ وهو ينحني على الدرابزين أمام اللوحة ويديه في جيوبه.

قالت هنرييتا التي وُجد اللورد واربيرتون إلى جانبها: (أود أن أراكَ في البيت، أحب أن أحظى بساعةٍ للحديث معكَ، فهناك الكثير جداً من الأسئلة التي أرغب بأن أسألها لكَ).

أجابَ مالك لوكلي: (سأكون مسروراً برؤيتكِ، لكني متأكد بأنني لن أكون قادراً على أن أجيب على الكثير من أسئلتكِ. متى ستأتين؟).

ـ (عندما تأخذني الآنسة آرتشر، فنحنُ نفكر بالذهاب إلى لندن، لكننا سنذهب ونراكَ أولاً، فأنا مصممةٌ على الحصول على رضاكَ).

ـ (لو كان يعتمد على الآنسة آرتشر فأخشى بأنكِ لن تستفيدي كثيراً، فهي لن تأتي إلى لوكلي. إنها لا تحب المكان).

قالت هنرييتا: (لقد أخبرَتْني بأنه كان جميلاً!)

فاحتار اللورد واربيرتون: (لا فرق، فهي لن تأتي). ثم أضاف: (من الأفضل أن تأتي وحدكِ).

عدَّلَتْ هنرييتا نفسها وتوسعَتْ عيناها الكبيرتان، فتساءلت بحدةٍ لطيفة: (هل كنتَ ستقول ذلك لسيدةٍ إنجليزية؟).

فحدّق اللورد واربيرتون: (نعم، إذا أحببتُها جداً).

ـ (يجب أن تكون حريصاً على أن لا تحبها جداً. فإذا كانت الآنسة آرتشر لن تزور بيتكَ ثانيةً فذلك لأنها لا تريد أن تأخذني، فأنا أعلم ماذا تفكر هي

بشأني، وأعتقدُ بأنكَ تفكر بنفس الطريقة ـ وهي أنه لا يجب أن أستنطق الأشخاص).

كان اللورد واربيرتون متحيّراً، إذ لم يكن قد تعرَّفَ على طبيعة مهنة الآنسة ستاكبول وفَشِلَ في فهم تلميحها. وعليه واصَلَتْ حديثها: (كانت الآنسة آرتشر تحذركَ!).

ـ (تحذرني؟).

ـ (ألم يكن هذا هو السبب الذي لأجله انفَرَدَتْ بكَ لوحدها هنا ـ لتحذركَ؟).

قال اللورد واربيرتون بتبجّح: (أوه، يا إلهي، كلا، فحديثنا لم يمتلك سمة جادة لدرجة عاليةٍ كهذه).

ـ (حسناً، أنت حذرٌ ـ بشدة. أعتقد بأنه أمر طبيعي بالنسبة لكَ هذا ما أردتُ فقط أن أقوله. وكذلك أيضاً الآنسة مولينو ـ فهي لن تورط نفسها. لقد تم تحذيركم على أية حال).

استمرت هنرييتا بالكلام مُخاطِبَةً هذه السيدة الشابة: (لكن بالنسبة لكِ، لم يكن ضرورياً).

قالت الآنسة مولينو بغموض: (لا آمل ذلك).

شرح رالف مُهَدِّئاً: (إن الآنسة ستاكبول تجمع التعليقات، إنها كاتبة ساخرة، وتستشِف ما بداخلنا تماماً وتحمِّسنا).

أعلنت هنرييتا وهي تحوِّل نظرها من إيزابيل إلى اللورد واربيرتون، ومن هذا الرجل النبيل إلى أخته ثم إلى رالف: (حسناً، علي أن أقول بأنني لم أحظَ أبداً بمجموعة سيئة كهذه!. هناك خطأ ما فيكم كلكم. أنتم مكتئبون وكأنكم تسلمتم برقية سيئة).

قال رالف بنبرة منخفضة وهو يومئ لها إيماءة ذكية قليلاً عندما قاد

المجموعة خارج الرواق: (أنتِ فعلاً تستشِفّين ما بداخلنا يا آنسة ستاكبول، فهناك خطأ ما بنا جميعاً).

جاءت إيزابيل خلف هذين الاثنين. أخذت الآنسةُ مولينو، التي أحبّتْها قطعاً بشكلٍ هائل، ذراعَها وسارت بجانبها على الأرض الصقيلة. سار اللورد واربيرتون على الجانب المقابل ويداه خلفه وعيناه منخفضتان. لم يقل شيئاً للحظات، ثم سأل: (هل صحيح بأنكِ ستذهبين إلى لندن؟).

ـ (أعتقدُ بأنه قد تم ترتيب الأمر).

ـ (ومتى ستعودين؟)

ـ (خلال أيامٍ قلائل. لكن على الأرجح لوقتٍ قصيرٍ جداً، فأنا ذاهبةٌ إلى باريس مع خالتي).

ـ (إذن متى سأراكِ ثانيةً؟).

قالت إيزابيل: (ليس لوقتٍ طويل. لكن في يومٍ ما على ما آمل).

ـ (هل فعلاً تأملين ذلك؟).

ـ (كثيراً جداً).

سارَ عدة خطوات وهو صامت، ثم توقف وأخرج يده: (إلى اللقاء).

قالت إيزابيل: (إلى اللقاء).

قبلَتْها الآنسة مولينو ثانيةً وتركت الاثنين يغادران، ثم انسحبَتْ إلى غرفتها بدون أن تنضم ثانيةً إلى هنرييتا ورالف.

في تلك الحجرة، وجدَتْها السيدة تاتشيت التي توقفَتْ وهي في طريقها إلى الصالون قبل العشاء، فقالت تلك السيدة: (يمكنني أن أقول لكِ إن زوج خالتكِ قد أخبرني عن علاقتكِ باللورد واربيرتون).

تصدَّتْ إيزابيل: (علاقة؟ إنها بالكاد علاقة. ذلك هو الجانب الغريب فيها: فقد رآني ثلاث أو أربع مرات فقط).

سألت السيدةُ تاتشيت بهدوء: (لماذا أخبرتِ زوج خالتكِ بدلاً مني؟).

فترددت الفتاة ثانيةً: (لأنه يعرف اللورد واربيرتون أفضل).

ـ (صحيح، لكنني أعرفكِ أنت أكثر).

قالت إيزابيل وهي تبتسم: (لستُ متأكدة من ذلك).

ـ (ولا أنا، برغم ذلك. خاصةً عندما تنظرين إليَّ بتلك النظرة المتعجرفة بعض الشيء. إذ سيعتقد المرء بأنكِ معجبة بنفسكِ بشكلٍ مروّع وبأنكِ اختطَفْتِ جائزةً ما!. أعتقد بأنكِ عندما ترفضين عرضاً كاللورد واربيرتون، فذلك لأنكِ تطمحين لشيءٍ أفضل).

صاحت إيزابيل وهي لا تزال تبتسم: (آه، لم يقل زوج خالتي ذلك!).

***

الفصل 15

تم الاتفاق على أن تتجه السيدتان الشابّتان إلى لندن بصحبة رالف. رغم ذلك، لم تنظر السيدة تاتشيت للخطّة باستحسانٍ كبير، فقد قالت بأنها كانت تماماً نفس نوع الخطّة التي كانت ستقترحها الآنسة ستاكبول بالتأكيد. وتساءلَتْ إن كانت مراسِلة الإنترفيور ستأخذ المجموعة لتمكث في فندقٍ ما.

قالت إيزابيل: (لا يهمني إلى أين تأخذنا لنمكث، ما دام هناك طابع محلي، فذلك هو ما نحن ذاهبين إلى لندن من أجله).

أجابتها خالتها: (أعتقدُ بأنه بعد أن رفَضَتْ فتاةٌ ما لورداً إنجليزياً فإن بإمكانها فعل أي شيء. فبعد هذا، لا يحتاج المرء لأن يقف على التوافه).

تساءلت إيزابيل: (هل كنتِ تحبين أن أتزوج اللورد واربيرتون؟).

- (بالطبع سأحب).

- (لقد اعتقدتُ بأنكِ تكرهين الإنجليز كثيراً جداً).

- (نعم أكرههم. لكن ذلك هو تماماً أكبر سببٍ لكي نستغلهم).

- (هل هذه هي فكرتكِ عن الزواج؟)

وتجرأتْ إيزابيل بأن تضيف بأن خالتها بدت بالنسبة لها بأنها لم تستغل السيد تاتشيت كثيراً.

قالت السيدة تاتشيت: (إن زوج خالتكِ ليس نبيلاً إنجليزياً. حتى وإن كان كذلك، فسأبقى على أكثر الاحتمالات أسكنُ في فلورنسا).

سألت الفتاةُ بارتياح: (هل تعتقدين بأن اللورد واربيرتون يمكنه جعلي

أفضل مما أنا عليه؟. أنا لا أعني بأنني بارعة جداً في استغلاله، أنا أعني ـ أعني بأنني لا أحب اللورد واربيرتون بما يكفي لأتزوجه).

قالت السيدة تاتشيت بصوتها الخفيض الضئيل: (إذن، فعلتِ الصواب برفضه. آملُ فقط في عرض الزواج الكبير التالي الذي تحصلين عليه أن يبلغ مقاييسكِ).

ـ (من الأفضل أن ننتظر حتى يأتي العرض قبل أن نتحدث عنه. إذ آمل كثيراً أن لا أحظى بالمزيد من العروض في الوقت الحالي، فهي تضايقني تماماً).

ـ (لن تنزعجي منها على الأرجح لو تبنَّيْتِ بشكلٍ دائم الأسلوب البوهيمي في الحياة. على أية حال فقد وعدتُ رالف أن لا أنتقد ذلك).

ردت إيزابيل: (سأفعل كل ما يقول عنه رالف بأنه صائب، فلدي ثقة لا حدود لها برالف).

ضحكت هذه السيدة بشكلٍ جاف: (إن أمّه ممنونةٌ منكِ كثيراً!).

أجابت إيزابيل بشكلٍ متعذر كبحه: (إذ بدا لي فعلاً بأنها يجب أن تشعر بذلك!).

أكَّدَ لها رالف بأنه لن يكون هناك انتهاك للآداب بقيامهم ـ المجموعة الصغيرة المكوّنة من ثلاثة ـ بزيارة معالم العاصمة. لكن السيدة تاتشيت تبنَّتْ رأياً مخالفاً. وكالعديد من السيدات في بلدها اللواتي عشن مدة طويلة في أوروبا، كانت قد فقدَتْ تماماً ذوقها الطبيعي في مواضيع كهذه. وكانت في ردة فعلها ـ غير المؤسفة بحد ذاتها ـ ضد الحرية المسموح بها لشباب ما وراء البحار، قد وقعَتْ في هواجس لا مبرر لها ومبالغٍ فيها.

رافق رالف ضيفتيه إلى المدينة وقرر أن يقيموا في فندقٍ هادئ في شارعٍ يقع بزاوية قائمة لشارع بيكاديلي. كانت خطته الأولى هي أن يأخذهم إلى

منزل أبيه في ميدان وينتشستر. وهو قصر كبير وكئيب، وكان في ذلك الوقت من العام مغلقاً بالصمت والقماش الهولندي[1]، لكنه تذكَّرَ بأنه لا يوجد أحد في المنزل ليؤمِّن لهم وجبات طعامهم لكون الطاهية موجودة في جاردن كورت. وعليه، أصبح فندق برات مقر إقامتهم. أما رالف، من جانبه، فقد ابتدَعَ سكناً في ميدان وينتشستر يحتوي على «مُختلى» هناك كان مولعاً به، لأنه كان معتاداً على مخاوف أعمق من مخاوف مطبخ بارد. لكنه استفاد بشكلٍ كبير في الحقيقة من الالتجاء إلى فندق برات، فابتدأ يومه بزيارةٍ مبكرة لرفيقتيه في الرحلة اللتين قام السيد برات شخصياً، بصدريةٍ كبيرة بيضاء منتفخة، برفع غطاء أطباقهن. بعد الإفطار، شمَّر رالف عن ساعديه، كما قال، وأعدَّت المجموعة الصغيرة مخطط الرحلة الترفيهية لذلك اليوم.

لأن لندن تكتسي في شهر أيلول بمظهرٍ أبيض، فيما عدا مساحاتٍ معينة، كان الشاب بلهجته الاعتذارية بين فينةٍ وأخرى، مضطراً أن يُذَكِّرَ رفيقتيه بعدم وجود مخلوق واحد في المدينة، مما سبَّبَ سخرية هنريتا البالغة.

أجابت هنريتا: (أعتقدُ بأنكَ تقصد عدم وجود الأرستقراطيين. لكنني لا أعتقد بأنه يمكنكَ أن تحصل على دليلٍ أفضل من هذا على أنهم إن كانوا غير موجودين تماماً فلن يفتقدهم أحد. فبالنسبة لي يبدو المكان مكتظاً تقريباً كما يجب. فلا أحد هنا طبعاً سوى ثلاثة أو أربعة ملايين من الناس. ماذا تسميهم ـ الطبقة الوسطى ـ الدنيا؟ إنهم سُكّان لندن فحسب، وليس ذلك بذي أهمية).

أعلن رالف أن بالنسبة له لم يترك الأرستقراطيون فراغاً لم تملأه الآنسة ستاكبول، وأن أكثر الناس قناعةً لم يُخلَق في تلك اللحظة.

لقد قال الحقيقة فيما يخص ذلك، لأن لأيام أيلول الباهتة في هذه المدينة الضخمة الشبه خالية سحراً مغلفةً به كجوهرةٍ ملونة مغطاة بقماشٍ مُتْرِب.

---

(1) القماش الهولندي: هو نسيج خاص يُستورد من هولندا يُستعمل غالباً في تغطية الأثاث وكستائر للنوافذ واستعمالات أخرى. (المترجمة)

عندما ذهب إلى البيت في الليل، إلى البيت الخالي في ميدان وينتشستر، بعد سلسلة من الساعات مع صديقتيه المتحمستين نسبياً، تجوَّلَ في حجرة الطعام الكبيرة المعتمة، حيث شكّلَتِ الشمعة التي أخذها من على مائدة القاعة بعد أن دخل، الإضاءة الوحيدة. كان الميدان هادئاً، كان البيت هادئاً. عندما رفع إحدى نوافذ قاعة الطعام ليسمح للهواء بالدخول، سمع الطقطقة البطيئة لجزمة شرطيٍ وحيد. بدت خطوته في المكان الخالي عالية ورنانة. كان بعض السجاد مرفوعاً، وعندما تحرّكَ أثارَ صدىً كئيباً. جلس على أحد الكراسي، تلألأت مائدة الطعام الكبيرة الداكنة هنا وهناك على ضوء الشمعة الضئيل. بدت اللوحات التي على الحائط والتي كانت جميعها بنيّة جداً، ضبابية ومتنافرة. كان هناك طيفٌ شَبَحِيٌّ لولائم مرّ وقت طويل على التهامها، لأحاديث على المائدة فقدتْ واقعيتها ربما. كان لهذه الإشارة الخيالية علاقة بحقيقة أن خياله شرد وبقي في كرسيه مدة طويلة تجاوزت الساعة التي يجب أن يكون فيها في الفراش وهو لا يفعل شيئاً ولا حتى قراءة صحيفة المساء. أقول بأنه لم يفعل شيئاً، وأُصادِقُ على العبارة على الرغم من حقيقة أنه كان يفكر في تلك اللحظات بإيزابيل. فالتفكير بإيزابيل بالنسبة له ليس سوى مسعى عقيم ولا يقود لأي شيء ولا ينفع أي أحد كثيراً. مع ذلك، فقد بدت له ابنة خالته فاتنةً جداً خلال هذه الأيام التي قضتها بطريقة السائح في سبر غور وسطح مكونات العاصمة. كانت إيزابيل مليئة بالافتراضات والاستنتاجات والانفعالات. وإذا كانت قد أتت لتبحث عن الطابع المحلي، فقد وجدَتْهُ في كل مكان. سألَتْ أسئلةً أكثر مما استطاع أن يجيب، وأطلقَتْ نظرياتٍ جريئة فيما يخص الأسباب التأريخية والمؤثرات الاجتماعية، بحيث كان عاجزاً عن الموافقة أو الرفض في الوقت نفسه.

ذهبت المجموعة أكثر من مرة إلى المتحف البريطاني والى قصر الفن الرائع الذي تطلَّبَ مساحة واسعة جداً لإحدى الضواحي الرتيبة لتنوِّع التحفيات.

أمضَوا نهاراً كاملاً في الكنيسة، وذهبوا على ظهر قاربٍ بخاري ببنس واحد إلى البرج. تفرجوا على اللوحات التي رُتِّبَتْ في مجموعات عامة وخاصة، وجلسوا في مناسبات كثيرة تحت الأشجار الضخمة في حدائق كينسنغتون. أثبتت هنرييتا بأنها سائحةٌ لا تكلّ، وخبيرة أكثر صبراً مما تجرأ رالف أن يأمَل. لقد أصيبت في الحقيقة بخيبات أمل عديدة، وعانت لندن عموماً من تذكُّرها الحي لنقاط القوة لفكرة المدنية الأميركية، لكنها استفادت أقصى استفادة من وقارها[1] الكئيب، وتنهدَتْ فقط تنهيدة عَرَضِيّة وتلفظَتْ بـ «حسناً!» لم تؤدِّ إلى أكثر من ذلك والتي ضاعت في تذكُّر الماضي.

كانت الحقيقة، كما قالت لنفسها، هي أنها لم تكن في مكانها المناسب. قالت لإيزابيل في المعرض الوطني: (ليس لدي ميل للأشياء الجامدة)، واستمرت تشكو قلة اللمحات الممنوحة لها لحد الآن عن الحياة المنزلية. كانت لوحات المناظر الطبيعية للرسام تيرنر، والثيران المجنّحة الآشورية بديلاً ضعيفاً لحفلات العشاء الأدبية التي تمنت أن تلتقي فيها بعباقرة ومشاهير بريطانيا العظمى. فاستعلمَتْ من رالف وهي تقف وسط ساحة الطرف الأغرّ وكأنها تصورَتْ أن هذا مكاناً كانت ستلتقي فيه بشكلٍ طبيعي بعددٍ منهم: (أين رجالكم ونساؤكم المثقفون؟. ستقول بأن هناك واحداً منهم على قمة السارية. ـ اللورد نيلسون؟. هل كان هو أيضاً لورداً؟. ألم يكن شامخاً بما يكفي بحيث اضطروا إلى لصقه مائة قدم في الهواء؟. ذلك هو الماضي ـ وأنا لا أهتم للماضي. أريد أن أرى بعضاً من عقول الوقت الحاضر القيادية. لن أقول من المستقبل لأنني لا أؤمن كثيراً بمستقبلكم).

كان لرالف المسكين القليل من العقول القيادية من بين معارفه، ونادراً ما تمتع بشرف الإمساك بتلابيب شخصية مشهورة، وهي حالةٌ بدت للآنسة ستاكبول بأنها تشير إلى نقصٍ بائس في الجرأة، فقالت: (لو كنتُ على الطرف

---

(1)وقارها: أي وقار لندن. (المترجمة)

الآخر[1] فسأزوره وأخبر الرجل المحترم، أياً من كان، بأنني سمعتُ الكثير عنه وأنني أتيتُ لرؤيته بنفسي. لكنني أفهم مما تقول بأن هذا ليس هو المعتاد هنا. يبدو أن لديكم الكثير من العادات التي لا معنى لها، لكن ولا واحدة منها ستكون مصدر عون لمدة طويلة. نحن في الصدارة بالتأكيد. أعتقد بأنني سأتخلى عن الجانب الاجتماعي برمته). وكان لدى هنرييتا شعور محزن من أن يكون أداؤها لعملها أقل من المستوى المطلوب، رغم أنها تجولَتْ مع دفترها وقلمها وكتبَتْ رسالة إلى الإنترفيور عن البرج (والتي وصفَتْ فيها إعدام السيدة جين غراي).

ترك الحدث الذي سبق مغادرة إيزابيل لجاردن كورت، أثراً مزعجاً في ذهن شابتنا: فعندما شعرَتْ على وجهها ثانيةً بالنَّفَس البارد لدهشة خاطبها الأخير وكأنه قادمٌ من موجة مرتدة، تمكنَتْ فقط من لَفِّ وجهها حتى انجلى الهواء. لم تتمكن من فعل أقل مما فعلَتْ، فقد كان ذلك حقيقياً بالتأكيد. لكن مع ذلك، كان اضطرارها لفعل ذلك، تصرفاً سمجاً كتصرفٍ طبيعي تجاه موقفٍ متوتر، ولم تشعر برغبةٍ بتلَقّي استحسانٍ مقابل تصرفها. مع ذلك، اختلط مع هذا الازدراء المضطرب شعورٌ بالحرية كان بحد ذاته حلواً، والذي نَبَضَ بين الحين والآخر ببراهين غريبة وهي تتجول عبر المدينة العظيمة مع رفيقيها غير المنسجمين.

عندما سارت في حدائق كيسنغتون، أوقَفَتِ الأطفال (الفقراء عموماً) الذين رأتهم يلعبون على المرج، فسألَتْ عن أسمائهم وأعطتهم نصف شلن، وقَبّلَتِ الحلوين منهم. لاحَظَ رالف هذا اللطف غير المألوف، لاحَظَ كل شيء فعَلَتْهُ. قام في إحدى الأمسيات، ليُمضي رفاقُه الوقت، بدعوتهم لشرب الشاي في ميدان وينتشستر، وكان قد أعدَّ المنزل قدر الإمكان لإقامتهم. كان هناك ضيفٌ آخر عليه أن يلتقيهما؛ عازبٌ طيب الخلق، صديق قديم لرالف،

(1) الطرف الآخر: تقصد أميركا. (المترجمة)

صادَفَ أن تواجَدَ في المدينة والذي لم تبدُ بالنسبة له العلاقة السريعة مع الآنسة ستاكبول فيها صعوبة أو رهبة.

إنه السيد بانِلِنْج[1]، وهو رجل ضخم، أنيق، مبتسم، في الأربعين من عمره، أنيق جداً، مثقف بشكلٍ شامل، ومُسلٍ بشكلٍ متساهل، يضحك بشكل مفرط على كل شيء تقوله هنرييتا. قدَّمَ لها عدة أكواب من الشاي، تفحَّصَ برفقتها مجموعة الأشياء الرخيصة التي كانت لدى رالف مجموعة كبيرة منها. وبعدئذٍ، عندما اقترَحَ المُضيِّف بأن يخرجوا إلى الميدان ويتظاهروا بوجود مهرجان، سارَ معها حول السور الضيق عدة مرات، وأحاطَ بشكل متجاوب بانعطافات عديدة جداً في حديثهما ـ مثلاً تأييده بحماسة حقيقية لملاحظاتها عن الحياة المنزلية: (أوه، أفهم ذلك. أنا أتجرأ وأقول بأنكِ وجدتِها هادئة جداً في جاردن كورت. فمن الطبيعي أن لا يوجد الكثير مما يحدث هناك عندما يوجد الكثير من المرض كهذا. فمرض تاتشيت سيّئ جداً، تعلمين ذلك، ومَنَعَ الأطباء تماماً أن يعيش في إنجلترا، وقد عاد فقط ليعتني بوالده. ولدى الرجل العجوز على ما أعتقد مشاكل كثيرة. يسمونها النقرس. لكن وفقاً لمعرفتي المؤكدة، فهو لديه مرضٌ عضوي في مرحلة متقدمة جداً بحيث يمكنكِ أن تتأكدي بأنه سيموت بسرعةٍ جداً في يومٍ قريب. إن هذه الأمور طبعاً تجعل المنزل كئيباً بشكلٍ مفزع. إنني مندهش بأن يكون لديهم أناس لا ينفعونهم كثيراً. ثم إنني أعتقد بأن السيد تاتشيت يتخاصم دائماً مع زوجته وهي تعيش بعيداً عن زوجها، تعلمين ذلك، على طريقتكم الأميركية الغريبة تلك. لو أردتِ منزلاً تحدث فيه دائماً أمورٌ مثيرة، أنصحكِ بأن تذهبي وتمكثي مع أختي السيدة بينسل في بيدفورد شاير. سأكتب لها غداً وأنا متأكد بأنها ستكون مسرورة بدعوتكِ. فأنا أعلم ما تريدين تماماً ـ أنت تريدين منزلاً

(1) في الأصل: بانتلنج، لكن الإنجليز لا يلفظون حرف التاء هنا، فارتأينا أن نكتب لفظ الاسم وهو بانِلِنْج. (المترجمة)

حيث يهتمون بالمسارح والنزهات وما شاكل. فأختي هي من ذلك النوع من النساء تماماً، فهي دائماً تُنَظِّمُ شيئاً أو آخر وتُسعَد دائماً بأن تحظى بأناسٍ يساعدونها. أنا متأكدٌ بأنها ستدعوكِ بالبريد المستعجَل، فهي مهتمة بشكلٍ هائل بالأناس المميزين والكُتّاب. إنها هي نفسها تكتب، لكنني لم أقرأ كل شيء كَتَبَتْهُ. إنها تكتب دائماً الشعر وأنا لا أهتم كثيراً بالشعر ـ ما لم تكن أشعار بايرون. أعتقد بأنكم تُقدِّرون بايرون في أميركا كثيراً جداً).

استمر السيد بانِلِنْج متوسعاً، تحت تأثير المظهر المشجع لإنصات الآنسة ستاكبول، وهو يطرح استنتاجاته بسرعة ويغير موضوعه بحركة بسيطة من يده. كما أنه وضع أمام ناظره بلطفٍ الفكرةَ التي انبهرَتْ بها هنرييتا، وهي أن تذهب للمكوث مع السيدة بينسل في بيدفورد شاير: (أنا أفهم ما تريدين، أنت تريدين رؤية رفيق إنجليزي أصيل. إن آل تاتشيت ليسوا إنجليزاً إطلاقاً، تعلمين ذلك، فهم لديهم عاداتهم الخاصة بهم، لغتهم الخاصة بهم، طعامهم الخاص بهم ـ حتى بعض المعتقدات الغريبة الخاصة بهم على ما أعتقد. فالرجل العجوز يعتقد أن الصيد أمر وحشي، كما قيل لي. يجب أن تنزلي في منزل أختي في الوقت المناسب من أجل المسرحيات، وأنا متأكد بأنها ستُسَرُّ بإعطائكِ دوراً. فأنا متأكد بأنكِ تجيدين التمثيل، وبأنكِ بارعة جداً. إن أختي هي في الأربعين من العمر ولها سبعة أطفال، لكنها ستلعب الدور الرئيسي. إنها تمثل بشكل جيد تماماً كما هي على طبيعتها ـ هذا ما أقوله دائماً عنها. لستِ بحاجة إلى أن تُمَثّلي إن لم ترغبي بذلك).

بهذه الطريقة قدَّمَ السيد بانِلِنْج نفسه عندما سارا على المرج في ميدان وينتشستر الذي على الرغم من أنه مليء بسخام لندن، إلا أنه أغرى الخطى بالتباطؤ. رأت هنرييتا فارسها المتورِّد، الخفيض الصوت، رجلاً محبباً جداً بتأثره السريع بالمزايا الرقيقة ومَداه الرائع من الرأي. واحترمَتِ الفرصة التي عرضَها عليها: (لا أعلم، ولكنني سأذهب، لو كانت أختكَ ستدعوني. أعتقد بأنه سيكون واجبي. ماذا أسميتَها؟)

ـ (بينسل. إنه اسمٌ غريب، لكنه ليس اسماً سيئاً).

ـ (أعتقد بأن اسماً واحداً هو أمرٌ جيد مثل الآخر. لكن ما هي رتبتها؟)

ـ (أوه، إنها زوجة بارون. نوع مريح من الرتب. أنت لطيفة إلى حدٍّ مقبول ولستِ لطيفةً جداً).

ـ (لا أعلم فيما إذا ستكون لطيفةً جداً بالنسبة لي. ماذا تسمي المكان الذي تعيش فيه ـ بيدفورد شاير؟)

ـ (نعم. إنها تعيش بعيداً في الطرف الشمالي منها. إنها بلدة مملة، لكنني أجرؤ وأقول بأنكِ لن تمانعي ذلك. سأحاول أن أنزل بسرعة بينما تتواجدين هناك).

كل ذلك كان مريحاً جداً بالنسبة للآنسة ستاكبول، وكانت آسفةً لأن تكون مضطرة للافتراق عن أخ السيدة بينسل اللطيف. لكن صادَفَ أن التقَتْ في اليوم السابق في بيكاديلي بعض الصديقات اللواتي لم تكن قد رأتهن لعام كامل: الآنسة كلايمر، سيدتان من ويلمنغتون، ديلاوير، اللواتي كُنَّ مسافرات الى أوروبا، والآن كُنَّ يستعدنَ للإبحار. حظيت هنرييتا بمقابلة طويلة معهنَّ على رصيف بيكاديلي. ورغم أن السيدات الثلاث تحدثن جميعهن في وقتٍ واحد، إلا أن ذخيرتهن لم تنفد. لقد تم الاتفاق في النتيجة أن هنرييتا يجب أن تأتي وتتعشّى معهنّ في سكنهنّ في شارع جيرمين في الساعة السادسة غداً. والآن تذكرَتْ هذا الاتفاق.

استعدت للانطلاق إلى شارع جيرمين، مستأذنةً للانصراف أولاً من رالف تاتشيت وإيزابيل اللذين جلسا على كراسي الحديقة على جانبٍ آخر من السور، حيث انهمكا ـ إن جاز التعبير ـ بتبادل مجاملات أقل وضوحاً من الحديث العملي للآنسة ستاكبول والسيد بانِلِنْج. عندما تم حسم الأمر بين إيزابيل وصديقتها بأنْ تلتقيا في ساعة معلومة في فندق برات، قال رالف إن الأخيرة يجب أن تمتلك عربة، فهي لا يمكنها السير كل هذه المسافة إلى شارع جيرمين.

صاحت هنرييتا: (أعتقدُ بأنكَ تقصد بأنه من غير المناسب بالنسبة لي أن أمشي وحدي!. يا اللّه، هل انتهيتُ إلى هذا الحال؟).

تدخَّلَ السيد بانِلِنْج بسرور: (لا يوجد أدنى حاجة لأن تمشي لوحدكِ، سأكون مسروراً بشدة بالذهاب معكِ).

أجاب رالف: (لقد قصدتُ ببساطة بأنكِ كنتِ ستتأخرين على العشاء، وأن تلك السيدات المسكينات قد تعتقدن بسهولة بأننا في النهاية رفضْنا أن نستغني عنكِ).

قالت إيزابيل: (من الأفضل أن تأخذي هانسوم يا هنرييتا).

واصَلَ السيد بانِلِنْج كلامه: (أنا سآخذ لكِ هانسوم إن كنتِ تثقين بي. يمكننا أن نمشي قليلاً حتى نجد واحدة).

استفهمَتْ هنرييتا من إيزابيل: (أنا لا أفهم لِمَ ينبغي عليّ أن أثق به. هل تعلمين أنت؟).

أجابت إيزابيل بلطف: (لا أعلم ماذا يمكن للسيد بانِلِنْج أن يفعل لكِ. لكن إنْ أحببتِ، سنسير معكِ حتى تجدي عربة).

ـ (لا داعي. سنسير لوحدنا. هيا يا سيد بانِلِنْج، واحرِصْ على أن تحصل لي على واحدةٍ جيدة).

وَعَدَ السيد بانِلِنْج أن يفعل ما بوسعه. وغادر الاثنان تاركَيْن الفتاة وابن خالتها معاً في الميدان الذي بدأ يتجمع الآن فوقه الغسق الساطع لشهر أيلول. كان هادئاً تماماً؛ إذ لم تُظهِر التجمعات الكبيرة للمنازل المعتمة ضوءاً في نوافذها، حيث كانت مصارع النوافذ مغلقة والستائر مسدلة؛ وكانت الأرصفة عبارة عن امتدادات خالية، وكان الشيء الأكثر حيوية ضمن نطاق النظر ـ إذا استثنينا طفلين صغيرين من حيٍّ مجاور حشرا وجهيهما بين القضبان الصدئة للسور وقد جذبتهما آثار حركةٍ غير طبيعية داخله ـ هو العمود الأحمر الكبير في الركن الجنوبي الشرقي.

قال رالف: (سوف تطلب منه هنرييتا أن يصعد إلى العربة ويذهب معها إلى شارع جيرمين). إنه يطلق دائماً على الآنسة ستاكبول هنرييتا.

قالت مرافقته: (محتمل جداً).

فواصَلَ كلامه: (أو بالأحرى، لا، لن تفعل ذلك، بل إن بانِلِنْج هو من سيستأذن ليصعد إلى العربة).

ـ (محتمل جداً أيضاً. أنا مسرورة جداً بأنهما صديقان طيبان هكذا).

ـ (لقد أخضَعَتْهُ. فهو يعتقدها امرأة لامعة. قد يمتد الأمر لأبعد من ذلك).

كانت إيزابيل صامتة للحظة: (أنا أُسَمّي هنرييتا امرأة لامعة جداً، لكنني لا أعتقد بأن الأمر سيمتد لأبعد من ذلك، فهما لن يتعرّفا على بعضهما بشكلٍ حقيقي، إذ ليس لديه أدنى فكرة عن من تكون هي حقاً، وهي ليس لها معرفة دقيقة بالسيد بانِلِنْج).

أضاف رالف: (لا يوجد هناك قاعدة للزواج معروفة أكثر من سوء الفهم المتبادل. لكن لن يكون من الصعب جداً أن تفهم بوب بانِلِنْج، فهو مخلوق بسيط جداً)

ـ (نعم، لكن هنرييتا رغم ذلك شخصٌ أكثر بساطة).

ثم سألت إيزابيل وهي تنظر حولها عبر الضوء الذي بدت فيه الحدائق الضيقة للميدان تتخذ مظهراً واسعاً ورائعاً: (أرجوكَ، ماذا عليّ أن أفعل؟. لا أعتقد بأنكَ ستقترح بأن نقوم أنت وأنا لغرض الترفيه عن أنفسنا بأن نتجول حول لندن في هانسوم).

ـ (لا يوجد سبب لعدم بقائنا هنا ـ إن كنتِ لا تكرهين الأمر. فالجو دافئ جداً، وستكون هناك نصف ساعة أيضاً قبل أن يحلَّ الظلام. وإذا سمحتِ، سأشعل سيجارة).

قالت إيزابيل: (يمكنكَ أن تفعل ما يحلو لكَ إن كنتَ سترفّه عني حتى

الساعة السابعة. إذ أنوي أن أعود في تلك الساعة وأتناول وليمة بسيطة ومنفردة ـ بيضتان مسلوقتان وفطيرة رقيقة ـ في فندق برات).

سأل رالف: (ألا يمكنني أن أتعشى معكِ؟)

ـ (كلا. أنت ستتعشى في ناديكَ).

فسارا عائدَيْن إلى كرسيهما ثانيةً وسط الميدان، وأشعل رالف سيجارته. كان سيسعده كثيراً أن يكون حاضراً شخصياً في الوليمة الصغيرة المتواضعة التي خطّطَتْ لها، لكنه فضَّلَ أن يُمنَع حتى وإن لم توجد وليمة. رغم ذلك، فقد أَحَبَّ حالياً وبشدّة تواجده معها لوحدهما في العتمة المتزايدة وسط المدينة المزدحمة؛ فقد جعلَتْها تبدو وكأنها تعتمد عليه وأنها تحت سيطرته. تلك السيطرة التي لم يتمكن من فَرْضِها سوى قليلاً، وكانت أفضل ممارَسة لها هي بالموافقة على قراراتها بإذعان ـ والتي في الحقيقة كانت توجد مسبقاً حماسة في تنفيذها.

سأل بعد توقفٍ قصير عن الكلام: (لماذا لن تدعيني أتعشى معكِ؟).

ـ (لأنني لا أهتم بذلك).

ـ (أعتقدُ بأنكِ ضجرةٌ مني).

ـ (سأكون كذلك خلال ساعة من الآن. ها أنت ترى بأن لدي موهبة التنبؤ).

قال رالف: (أوه، سأكون في تلك الأثناء مسروراً). لكنه لم يقل المزيد.

وحينما لم تُجِبْ، جلسا لبعض الوقت في صمتٍ بدا أنه يتعارض مع وعده بالترفيه عنها. بدا له أنها مشغولة، وتساءل عن ما كانت تفكر فيه. كان هناك موضوعان أو ثلاثة محتملات جداً. في النهاية قال: (هل معارضتكِ لرفقتي هذا المساء سببها انتظاركِ لزائرٍ آخر؟).

فأدارت رأسها بنظرةٍ سريعةٍ من عينيها الصافيتين الجميلتين: (زائرٌ آخر؟ أي زائر؟).

لم يكن لديه أحد آخر يشير إليه مما جعل سؤاله يبدو له سخيفاً وقاسياً: (لديكِ عدد كبير من الأصدقاء الذين لا أعرفهم، ولديكِ ماضٍ برمته كنتُ مُستبعَداً عنه بشكلٍ خاطئ).

ـ (أنا أدخركَ لمستقبلي. وعليكَ أن تتذكر أن ماضيّ يوجد هناك عبر البحر، ولا يوجد شيء منه هنا في لندن).

ـ (جيد جداً. إذن فإن مستقبلكِ يجلس إلى جانبكِ. فأن يكون لديكِ مستقبل قريب فذلك أمر مهم). وأشعل رالف سيجارة أخرى وفكَّرَ أن من المحتمل أن إيزابيل قد قصدَتْ بأنها تلقت أنباءً بأن السيد كاسبار غودوود قد وصل إلى باريس. بعد أن أشعل سيجارته نفث قليلاً ثم استأنف: (لقد وعدتُ للتو بأن أرفّه عنكِ، لكنكِ ترين بأنني لا أبلغ هذه الدرجة، والحقيقة هي أن هناك الكثير من المجازفة في أن يأخذ المرء على عاتقه الترفيه عن شخصٍ مثلكِ. ماذا يهمكِ في محاولاتي الواهنة؟ لديكِ مُثُلٌ عليا ـ لديكِ معيار عالٍ في أمورٍ كهذه. يستحسن على الأقل أن أجلب فرقة موسيقية أو مجموعة من المشعوذين).

ـ (مشعوذ واحد يكفي، وأنتَ تنفع لذلك تماماً. أرجوك استمر وسأبدأ بالضحك خلال عشر دقائق أخرى).

قال رالف: (أؤكد لكِ بأنني جادٌّ جداً. فأنتِ فعلاً تطلبين الكثير).

ـ (لا أفهم ماذا تقصد، فأنا لا أطلب شيئاً!).

قال رالف: (أنتِ لا تقبلين بشيء).

فاحمرَّتْ خجلاً، وفجأةً، بدا لها الآن بأنها خمَّنَتْ مقصده. لكن لماذا يتحدث إليها عن أشياء كهذه؟. تردد قليلاً ثم واصل الكلام: (هناك شيء أودُّ كثيراً جداً أن أقوله لكِ. إنه سؤال أودُّ أن أسأله. يبدو بالنسبة لي أن لي الحق بأن أسأله لأن لدي فضولاً في الإجابة).

أجابت إيزابيل برقة: (اسأل ما تشاء وسأحاول أن أُرضيكَ).

ـ (حسناً إذن. آمل أن لا تمانعي بقولي إن واربيرتون أخبرني عن شيء جرى بينكما).

كبَتَتْ إيزابيل رعدةً، فجلس وهو ينظر إلى اهتياجها الواضح.

ـ (جيد جداً. أعتقد أنه كان من الطبيعي أن يخبركَ).

قال رالف: (لقد سمح لي بأن أُعلمَكِ بأنه فعل ذلك. فهو لا يزال لديه أمل).

ـ (لا يزال؟)

ـ (كان لديه أمل قبل بضعة أيام).

قالت الفتاة: (لا أعتقد بأن لديه أي أمل الآن).

ـ (أنا حزين جداً لأجله إذن. فهو رجل صادق جداً).

ـ (أرجوك، هل هو من طلب منكَ أن تتحدث معي؟)

ـ (كلا، ليس ذلك. لقد أخبرني لأنه لم يستطع تحمل الأمر، فنحن أصدقاء قدامى. لقد كان خائب الأمل كثيراً فأرسل لي رسالة قصيرة يطلب مني أن أراه، فذهبتُ إلى لوكلي قبل يومٍ من تناوله هو وأخته الغداء معنا. كان قلبه مثقلاً بالهمّ، إذ كان قد تسلَّمَ رسالَةً منكِ للتو).

سألت إيزابيل بشمخرة عابرة: (هل أراكَ الرسالة؟)

فكرَّرَ رالف: (مطلقاً. لكنه أخبرني بأنها كانت رفضاً رقيقاً. لقد كنتُ حزيناً لأجله).

لم تقل إيزابيل شيئاً لوهلة، ثم سألَتْ في النهاية: (هل تعلم كم مرة رآني؟ خمس أو ست مرات).

ـ (ذلك يسبب غرورِكِ).

ـ (لا أقول هذا لأجل ذلك).

ـ (لأجل ماذا إذن تقولين هذا؟ ليس لتثبتي أن مزاج واربيرتون المسكين سطحي، لأنني متأكد تماماً بأنكِ لا تعتقدين ذلك).

كانت إيزابيل عاجزة بشكلٍ مؤكَّد عن أن تقول بأنها اعتقَدَتْ ذلك، لكنها فوراً قالت شيئاً آخر: (لو لم يكن اللورد واربيرتون قد طلب منكَ أن تتناقش معي، فستفعل ذلك بلا مبالاة ـ أو حباً بالنقاش).

ـ (ليس لدي رغبة إطلاقاً بأن أتناقش معكِ، أنا أرغب فقط أن أتركَكِ لوحدكِ. أنا ببساطة مهتم كثيراً بمشاعركِ). صاحت إيزابيل بضحكةٍ متوترة قليلاً: (أنا ممتنةٌ لكَ!)

ـ (أنتِ طبعاً تقصدين بأنني أتدخل فيما لا يعنيني. لكن لِمَ لا أتحدث معكِ عن هذا الموضوع بدون أن أزعجكِ أو أحرج نفسي؟ ما فائدة أن أكون ابن خالتكِ إن لم يكن لدي بعض الامتيازات؟ ما فائدة أن أعشقكِ بدون الأمل بالمكافأة إنْ لم تستطع الحصول على القليل من التعويضات؟ ما فائدة أن أكون مريضاً وعاجزاً ومقتصراً فحسب على التفرج على لعبة الحياة إنْ لم أتمكن حقاً من رؤية العرض عندما أكون قد دفعتُ الكثير جداً مقابل تذكرتي؟ أجيبيني عن ذلك).

فاستمر رالف بالكلام بينما أصغت إليه باهتمام نشط: (ماذا كان لديكِ في ذهنكِ عندما رفضتِ اللورد واربيرتون؟)

ـ (ماذا كان لدي في ذهني؟).

ـ (ماذا كان المنطق ـ المشهد من موقفكِ ـ الذي أملى عليكِ تصرفاً غريباً كهذا؟).

ـ (لم أكن أرغب بالزواج منه ـ إن كان هذا هو المنطق).

ـ (كلا، إن ذلك ليس منطقاً ـ وأنا علمتُ ذلك مسبقاً. إنه لا شيء في الحقيقة. ما الذي قلتيه لنفسكِ؟ قلتِ أكثر من ذلك بالتأكيد؟).

فكرت إيزابيل لحظة، ثم أجابت بسؤال: (لماذا تسميه تصرفاً غريباً؟ فذلك ما تعتقده والدتكَ أيضاً).

ـ (إن واربيرتون شخص مناسب ومتمكن إلى درجة عالية. فهو كرجل، أعتبرُ أنه بالكاد لديه شائبة. ثم إنه من الذين يطلقون عليهم هنا لا نهاية لتضخمهم، فهو لديه أملاك هائلة، وسيُعتقد أن زوجته ستكون شخصية مرموقة. وهو يجمع بين الحسنات الباطنية والظاهرية).

نظرَتْ إيزابيل طويلاً إلى ابن خالتها لتفهم إلى أي مدى سيذهب: (أنا رفضتُه لأنه كان مثالياً جداً آنذاك. أنا لستُ مثالية، وهو مناسبٌ جداً لي. إلى جانب ذلك، فإن مثاليته كانت ستوترني).

قال رالف: (ذلك أمرٌ حاذق بدلاً من صريح. فحقيقةً أنت تعتقدين أنه لا يوجد شيء في العالم مثالي جداً بالنسبة لكِ).

ـ (هل تعتقد بأنني مثالية تماماً؟)

ـ (كلا، بل أنت صارمة، والأمر سيّان، بدون الادعاء باعتقاد نفسكِ مثالية. على أية حال فإن تسع عشرة امرأة من أصل عشرين ـ حتى من النوع الأكثر مثالية ـ كُنَّ سينجحن بأن تكون لديهن علاقة مع واربيرتون. ربما لا تعرفين كم هو مطارَد)

قالت إيزابيل: (لا أريد أن أعرف. لكن يبدو لي بأننا عندما تحدثنا عنه يوماً، ذكرتَ عنه أموراً غريبة) فكَّر رالف وهو ينفث الدخان: (أتمنى أن لا يكون لما قلتُه آنذاك أهمية بالنسبة لكِ لأن ما تحدثتُ عنه ليس بجرائم، بل كانت ببساطة غرائب آرائه. لو كنتُ أعرف بأنه أراد الزواج منكِ ما كنتُ لألمح إليها. أعتقد بأنني قلتُ بشأن تلك الآراء بأنه كان ملحداً بعض الشيء. سيكون في مقدوركِ أن تجعليه مؤمناً).

ـ (لا أعتقد ذلك، فأنا لا أفهم الموضوع ولستُ مدركةً لأية مَهمّة من ذلك النوع. أنت خائب الأمل بشكلٍ واضح). ثم أضافت إيزابيل

وهي تنظر إلى ابن خالتها برفقٍ محزن: (أنتَ وددتَ أن أندفع في زواجٍ كهذا).

ـ (أبداً، فليس لدي مصلحة في الموضوع إطلاقاً. أنا لا أتجرأ بأن أنصحكِ، وأنا مُكتفٍ بمراقبتكِ بأعمق اهتمام).

فتنهدَتْ بخجلٍ قليلاً: (أتمنى أن أهتم لأمر نفسي مثلما أنا مهتمة لأمركَ!).

قال رالف: (ها أنتِ لستِ صريحة ثانيةً، فأنتِ يهمكِ أمر نفسكِ بشكلٍ بالغ. رغم ذلك، هل تعلمين بأنكِ لو كنتِ فعلاً منحْتِ واربيرتون ردّه النهائي لأصبحتُ مسروراً قليلاً بهذه الإجابة. لا أقصد بأنني سأُسَرُّ لأجلكِ ومع ذلك بشكلٍ أقل طبعاً لأجله، بل سأُسَرُّ).

ـ (هل تفكر بأن تعرض علي الزواج؟).

ـ (مطلقاً. فمن وجهة النظر التي أتحدث عنها سيكون ذلك مُهلِكاً، إذ كنتُ سأقتل الإوزة التي تزودني بمادة عِجّتي الرائعة. أنا أستخدم ذلك الحيوان كرمز لتصوراتي الجنونية. إن ما أعنيه هو بأنني سأستمتع برؤية ما ستفعله سيدةٌ شابة لن تتزوج اللورد واربيرتون).

قالت إيزابيل: (إن هذا هو ما تضعه والدتكَ في حسبانها أيضاً).

ـ (آه، سيكون هناك الكثير من المتفرجين! سنتشبث بما تبقّى من رحلتكِ. أنا لن أرى كل ذلك، لكنني على الأرجح سأرى السنوات المثيرة للاهتمام أكثر. طبعاً لو كنتِ ستتزوجين صديقنا، كنتِ ستحصلين مع ذلك على رحلة ـ رحلةٍ لطيفة جداً، زاهرة جداً في الحقيقة. لكن لو تحدثنا بشكل نسبي، ستكون مملة قليلاً. ستكون مميزة مسبقاً بوضوح؛ ستفتقر إلى ما هو غير متوقع. أنت تعلمين بأنني مولع للغاية بما هو غير متوقع. والآن، بما أنك أبقيتِ اللعبة بين يديكِ فسأعتمد على منحكِ لنا مثالاً رفيعاً عنها).

قالت إيزابيل: (أنا لا أفهمكَ تماماً، لكنني أفهم بما يكفي لأتمكن من أقول بأنكَ إنْ كنتَ تترقب مني أمثلة رفيعة لأي شيء فسوف أخيبُ أملكَ).

ـ (أنتِ ستفعلين ذلك بتخييب أملكِ فقط ـ وذلك سيكون صعباً عليكِ!).

لم ترد على ذلك بشكلٍ صريح، إذ كان هناك قدر من الحقيقة التي تستدعي التفكير. أخيراً قالت بغتةً: (أنا لا أفهم ما الضرر في عدم رغبتي بتقييد نفسي، فأنا لا أريد أن أبدأ الحياة بالزواج، فهناك أشياء أخرى يمكن للمرأة أن تفعلها).

ـ (لا يوجد هناك شيء يمكنها أن تفعله بشكلٍ جيد. لكنكِ طبعاً بعدّة وجوه).

قالت إيزابيل: (إن كان المرء بوجهين فذلك يكفي).

فاندفع مرافقها في الكلام: (أنتِ مفتونة جداً بالأوجه العديدة!).

وبنظرةٍ من مرافقته أصبحَ جاداً، وليُثْبت ذلك واصَلَ الكلام: (تريدين أن تري الحياة ـ اللعنة عليكِ إن لم تريها، كما يقول الشباب).

ـ (أنا لا أعتقد بأنني أريد أن أراها كما يريد الشباب أن يروها. لكنني أريد في الحقيقة أن أتطلّع إلى ما حولي).

ـ (أنتِ تريدين أن تستهلكي كأس الخبرة).

ـ (كلا، أنا لا أود أن ألمس كأس الخبرة، فهو شراب مسموم! أنا فقط أريد أن أرى الحياة من أجل نفسي).

قال رالف: (أنتِ تريدين أن تري لا أن تشعري).

ـ (لا أعتقد بأنه إن كان المرء شخصاً حساساً فإنه بذلك قد أحرز تفوقاً. أنا أشبه هنرييتا كثيراً، ففي اليوم السابق عندما سألتُها فيما إذا كانت راغبة بالزواج، قالت: «ليس حتى أرى أوروبا!». أنا أيضاً لا أريد أن أتزوج حتى أرى أوروبا).

ـ (من الواضح أنكِ تتوقعين بأن ملكاً سيُفتَن بكِ).

ـ (كلا، فذلك سيكون أسوأ من الزواج من اللورد واربيرتون. لكن، إنها تزداد عتمة).

واصَلَت إيزابيل الكلام: (ويجب أن أعود إلى البيت).

فنهضَتْ من مكانها، لكن رالف جلس ساكناً فقط ونظر إليها. فتوقفَتْ بينما بقي هناك وتبادلا نظرةً كانت من كِلا الجانبين، لكن خاصةً من جانب رالف، مليئةً بكلامٍ عصيٍّ جداً عن أن يوصف بالكلمات. فقال أخيراً: (لقد أجبتِ على سؤاليّ. لقد أخبرتِني ما أردتُه. أنا ممتنٌّ لكِ كثيراً).

ـ (يبدو بالنسبة لي أنني أخبرتُكَ القليل جداً).

ـ (لقد أخبرتِني الشيء المهم: بأن العالم يثير اهتمامكِ وبأنكِ تريدين أن تُلقي بنفسكِ فيه).

لمعَتْ عيناها الفضيتان لوهلةٍ في العتمة.

ـ (أنا لم أقل ذلك).

ـ (أعتقدُ بأنكِ عَنَيْتِهِ، لا تنكري ذلك. إنه شيء جميل جداً!).

ـ (لا أدري ماذا تحاول أن تُلصق بي، لأنني على الأقل لستُ شخصية مغامِرة. فالنساء لسن كالرجال). نهض رالف على مهلٍ من مقعده وسارا سويةً باتجاه بوابة الميدان، قال: (كلا، فالنساء نادراً ما يفتخرن بشجاعتهن. أما الرجال فيفعلون ذلك بكثرة أكيدة).

ـ (إن الرجال يمتلكونها ليفتخروا بها!)

ـ (إن النساء تمتلكها أيضاً. وأنتِ تمتلكين منها ما يكفي).

ـ (ما يكفي لأعود في عربةٍ إلى فندق برات، لكن ليس أكثر من ذلك).

فتح رالف البوابة. وبعد أن خرجا، أغلقه. قال: (سنجد لكِ عربة).

وعندما استدارَ نحو شارعٍ قريب حيث قد يجدان طلبهما، سألها ثانيةً إن

لم يكن بإمكانه أن يشيعها بأمانٍ إلى الفندق، أجابت: (أبداً. أنت مرهَقٌ جداً. يجب عليكَ أن تعود إلى البيت وتذهب إلى الفراش).

كانا قد وجدا العربة، وساعدها على ركوبها وهو يقف لبرهةٍ عند الباب. قال: (عندما ينسى الناس بأنني مخلوق مسكين أتضايق دائماً. لكن الأمر يكون أسوأ عندما يتذكرون ذلك!).

***

الفصل 16

لم يكن لديها دافع خفيٌّ في طلبها منه أن لا يأخذها إلى البيت؛ فببساطة، أدهشَها بأنها في البضعة أيامٍ التي مضت، كانت قد أخذَتْ من وقته قدراً مبالغاً فيه، بينما الشخصية المستقلة للفتاة الأميركية التي يضعها الإفراط في المساعدة في موقفٍ ينتهي بها بأن تكتشف بأنها «متأثرة»، جعلها تقرر بأن عليها في هذه الساعات القلائل أن تعتمد على نفسها. علاوة على ذلك، كان لديها ميل كبير جداً لأوقاتٍ من العزلة والتي لم تجدها منذ وصولها إلى إنجلترا إلا قليلاً. لقد كانت رفاهيةً تمكنَتْ دائماً من أن تطلبها عندما كانت في وطنها، وقد أغفلَتْها عمداً. رغم ذلك، في ذلك المساء، وقع حادثٌ ـ من الأهمية الإشارة إليه ـ كان سيسلب كل إثارةٍ من فكرةٍ أن رغبتها في أن تكون في عزلة تامة هي التي جعلَتْها تستغني عن صحبة ابن خالتها.

كانت جالسةً والساعة في طريقها إلى التاسعة، في الإضاءة الخافتة لفندق برات وهي تحاول بمساعدة شمعتين طويلتين أن تطلق العنان لنفسها في كتابٍ كانت قد جلبَتْهُ معها من جاردن كورت، لكنها نجحت فقط في قراءة كلماتٍ أخرى غير تلك الكلمات المطبوعة على الصفحة ـ كلماتٍ كان رالف قد قالها لها ذلك المساء. فجأةً، أطبقَتْ يد الخادم، الملفوفة جيداً بالقفاز، على الباب الذي أفسحَ على الفور المجال لظهوره ليقدم، كغنيمةٍ عظيمة تماماً، بطاقة زائرٍ ما. عندما لاح لنظرتها الثابتة اسم كاسبار غودوود على البطاقة، تركت الرجل يقف أمامها بدون أن تحدد رغبتها. فسأل بانحناءةٍ مشجعةٍ قليلاً: (هل آتي بالسيد يا آنسة؟).

ترددت إيزابيل مع ذلك، وبينما هي مترددة، نظَرَتْ إلى المرآة، فقالت أخيراً: (يمكنه الدخول).

انتظرَتْهُ ليس طويلاً وهي تعدِّلُ شعرها لتهيئ نفسها. وهكذا، كان كاسبار غودوود في اللحظة التالية يصافحها لكنه لم يقل شيئاً حتى غادر الخادم الغرفة. ثم سأل بنبرةٍ سريعة، جهورية، آمرةٍ قليلاً ـ نبرة رجلٍ أسئلته واضحة بشكلٍ معتاد وقادرٍ على الإلحاح الكثير: (لِمَ لم تُجيبي على رسالتي؟).

فأجابَتْهُ بسؤالٍ جاهز: (كيف علمتَ بأنني هنا؟)

قال كاسبار غودوود: (لقد أعلمَتْني الآنسة ستاكبول. لقد أخبرَتْني بأنكِ على أكثر الاحتمالات ستكونين في البيت لوحدكِ هذا المساء وبأنكِ ستكونين راغبةً برؤيتي).

ـ (أين رأتْكَ ـ كي تخبركَ بذلك؟).

ـ (إنها لم ترني. لقد كتبَتْ لي).

كانت إيزابيل صامتة ولا أحد منهما كان قد جلس. لقد وقفا هناك بمظهر المواجهة، أو على الأقل بمظهر الخصومة. فقالت أخيراً: (لم تخبرني هنرييتا أبداً بأنها كانت تكتب إليكَ. إن ذلك ليس لطيفاً منها).

سأل الشاب: (هل رؤيتي مزعجة لهذه الدرجة بالنسبة لكِ؟)

ـ (أنا لم أتوقع ذلك. أنا لا أحب مفاجآتٍ كهذه).

ـ (لكنكِ علمتِ بأنني كنتُ في المدينة، فكان من الطبيعي أن نلتقي).

ـ (هل تسمي هذا لقاءً؟ لقد تمنيتُ بأن لا أراكَ، لكنه بدا ممكناً جداً في مدينةٍ كبيرةٍ جداً كلندن).

واصَلَ زائرها الكلام: (من الواضح بأنه كان كريهاً بالنسبة لكِ حتى أن تكتبي لي).

لم تُجب إيزابيل، فإحساسها بخيانة هنرييتا ستاكبول، كما وصفَتْهُ مؤقتاً،

كان قوياً داخلها. فصاحت بمرارة: (إن هنرييتا بالتأكيد ليست نموذجاً لكل الطيبة! لقد كان جرأةً كبيرةً منها أن تفعل ذلك).

ـ (أعتقد بأنني لستُ نموذجاً أيضاً ـ لا لتلك الطيبة ولا لغيرها. فالذنب ذنبي مثلما هو ذنبها بنفس القدر).

لقد بدا لإيزابيل وهي تنظر له بأن فكّه لم يكن أكثر تضلُّعاً. قد يكون ذلك أزعجها، لكنها اتخذَتْ منحىً مختلفاً: (كلا، فذنبكَ ليس بقدر ذنبها. فما فعَلتَهُ كان ضرورياً لكَ على ما أعتقد).

صاح كاسبار غودوود بضحكةٍ تنمّ عن الرضا: (كان الأمر كذلك بالفعل! والآن، بما أنني أتيتُ بأية حال، أليس بوسعي البقاء؟)

ـ (يمكنكَ الجلوس بالتأكيد).

عادت إلى كرسيها ثانيةً بينما اتخذ زائرها أول مكانٍ عرضَتْهُ عليه بطريقة رجلٍ اعتادَ أن لا يهتم كثيراً بذلك النوع من التشجيع: (كنتُ آمل كل يوم بإجابةٍ على رسالتي. كان بإمكانكِ أن تكتبي لي بضعة أسطر).

قالت إيزابيل: (لم تكن مسألة الكتابة هي ما منعني، إذ بإمكاني أن أكتب لكَ أربع صفحات بسهولةِ صفحةٍ واحدة، لكن صمتي كان مقصوداً. لقد ظننتُ أن ذلك أفضل).

كان جالساً وعيناه مثبتتين على عينيها بينما هي تتكلم، ثم أنزلهما وعلّقهما على بقعةٍ في السجادة وكأنه يبذل جهداً كبيراً لكي لا يقول شيئاً سوى ما هو واجب. كان رجلاً قوياً عندما يكون الحق عليه، وكان فطناً بما يكفي ليفهم أن الإبداء المستبِد لقوته كان فقط سيجعل خطأ موقفه أكثر وضوحاً. لم تكن إيزابيل عاجزةً عن إدراك ميزة موقفِ شخصٍ بطباعه، ورغم أنها راغبة قليلاً بالتبجح بذلك أمامه إلا أنها تمتعت بالقدرة على القول: (أنتَ تعلم بأنه لم يكن يجب عليكَ أن تكتب لي!) وعلى قول ذلك بمظهر المنتصر.

رفع كاسبار غووود عينيه إلى عينيها ثانيةً، لقد بدتا تشعّان وكأنهما تشعان عبر قناعِ خوذةٍ ما.

كان يمتلك حساً قوياً بالعدل، وكان مستعداً في أي يومٍ من السنة ـ وقبله وبعده ـ لأن يتناقش في مسألة تخص حقوقه: (لقد قلتِ بأنكِ تتمنين أن لا تسمعي عني ثانيةً، أنا أتفهّم ذلك. لكنني لم أستجب أبداً لحكمٍ كهذا. وأبلغتُكِ بأنكِ ستسمعين عني قريباً جداً).

قالت إيزابيل: (أنا لم أقل بأنني تمنيتُ أن لا أسمع عنكَ أبداً.)

ـ (لا تسمعي عني لخمس سنوات إذن، لعشر سنوات، عشرين سنة. الأمر سيّان).

ـ (هل ترى الأمر كذلك؟ بينما بالنسبة لي يوجد فرق كبير. يمكنني أن أتخيل أنه في نهاية العشر سنوات قد ننسجم بشكلٍ مريح جداً. سأكون قد ارتقيتُ بنمط رسائلي).

أشاحت بنظرها وهي تقول تلك الكلمات، مُدرِكَةً بأنها ذات تأثيرٍ أقل صدقاً بكثير من مُحَيَا زائرها. رغم ذلك، عادت عيناها في النهاية إلى عينيه عندما قال مباشرةً بشكلٍ لا علاقة له بالموضوع: (هل أنت مستمتعة بزيارتكِ لزوج خالتكِ؟).

أرخت نبرة صوتها: (كثيراً جداً في الواقع)، لكن بعد ذلك انفجرَتْ: (ما الفائدة التي تتوقع أن تجنيها بالإلحاح؟).

ـ (الفائدة هي أن لا أخسركِ).

ـ (ليس لديكَ الحق لتتحدث عن خسارة ما هو ليس لكَ. حتى ولو من وجهة نظركَ)، وأضافت إيزابيل: (يجب أن تعرف متى يجب أن تترك شخصاً وشأنه).

قال كاسبار غودوود بكآبة: (أنا أثير اشمئزازكِ كثيراً جداً)، لم يقلها وكأنه

ليثيرها لتعطف على رجلٍ مدركٍ لهذه الحقيقة المدمرة، وإنما قالها كأنما ليرسخها جيداً أمامه بحيث يتصرف وعيناه عليها.

ـ (نعم، أنت لا تثيرني على الإطلاق. أنت غير مناسب، الآن، بأي شكل من الأشكال. وإن الأسوأ هو أن اختباركَ للأمر بهذه الطريقة غير ضروري تماماً).

إن طبيعته بالتأكيد لم تكن رقيقة لدرجة أن وخز الدبابيس سيُخرج الدماء منه. ومنذ أول معرفتها به، ومن اضطرارها لتدافع عن نفسها ضد توجهٍ معين امتلَكَهُ وهو أنه يعرف ما يناسبها أكثر مما تعرف هي، فهمَتْ أن الصراحة المطلقة كانت أفضل أسلحتها. فمحاولة تفادي حساسيته أو الابتعاد عنه من الجانب كما يبتعد المرء عن شخصٍ سدّ الطريق بشكل أقل إحكاماً، في تعاملها مع كاسبار غودوود الذي كان سيتشبث بكل شيء من كل نوع يمنحه شخصٌ له، كانت حركاتٍ لا فائدة منها. لم يكن السبب هو أنه لم يمتلك أحاسيس، وإنما لأن مظهره المتأثر كمظهره المؤثر، كان متبجحاً وصارماً، ويمكن الوثوق بأن بإمكانه أن يضمد جراحه، بنفسه، بقدر ما يتطلب الأمر ذلك. لقد عادت، حتى لمقاييسها في الأحزان والآلام المحتملة فيه، إلى تصورها القديم عنه بأنه كان مصفّحاً بشكل طبيعي وفولاذياً، ومسلحاً أساساً ضد الاعتداء.

قال ببساطة: (لا أستطيع أن أتقبّل ذلك).

كانت هناك جرأة خطيرة بشأن ذلك، لأنها شعرَتْ كم كان سافراً أن يعبّر عن رأيه بأنه لم يثر اشمئزازها دائماً.

ـ (وأنا أيضاً لا يمكنني أن أتقبّل ذلك، ولا يجب أن تسير الأمور هكذا بيننا. لو تحاول فقط أن تبعدني عن تفكيركَ لبضعة أشهر، فسنكون على علاقة طيبة ثانيةً).

ـ (فهمتُ. إن توقفتُ عن التفكير فيكِ تماماً لمدة محددة، فسأكتشف بأنني تمكنتُ من الاستمرار في التفكير فيكِ لمدة غير محددة).

ـ (لمدة غير محددة هي أكثر مما أطلب. إنها أكثر حتى مما كنتُ سأرغب).

قال الشاب مُعَبِّراً عن وصفه بطريقةٍ وجدَتْها مزعجة: (أنتِ تعلمين أن ما تطلبينه مستحيل).

سألَتْ: (ألستَ قادراً على أن تبذل جهداً مدروساً؟ أنت قوي في أي شيء آخر، فلِمَ لا تكون قوياً في ذلك؟).

ـ (جهداً مدروساً لأجل ماذا؟)، ثم أضاف بعد أن تأخرت في الرد: (لستُ قادراً على شيء يتعلق بكِ سوى أن أحبكِ بشكلٍ جهنمي. إن كان المرء قوياً فسيحب فقط بقوة أكبر).

ـ (إن هذا حب قوي جداً)؛ وقد شعرت سيدتنا الشابة في الحقيقة بقوته ـ شعرت به مُلقىً، في رحابة الواقع والشعر، كطُعْمٍ لخيالها. لكنها هدأتْ بسرعة: (فكِّرْ بي أو لا تفكر، كلما وجدتَ ذلك ممكناً. فقط اتركني وشأني).

ـ (إلى متى؟).

ـ (حسناً، لعامٍ أو عامين).

ـ (ماذا تعنين؟ فما بين العام والاثنين تحدث أمور كثيرة).

قالت إيزابيل بحماسٍ مقصود: (إذن اجعلها عامين).

سأل صديقها بلا أية علامة على الجزع: (وماذا سأجني من ذلك؟)

ـ (ستكون قد أحسَنْتَ إليَّ بشكلٍ كبير).

ـ (وماذا ستكون مكافأتي؟)

ـ (هل تحتاج إلى مكافأة مقابل تصرفٍ كريم؟).

ـ (نعم، عندما يتضمن تضحية كبيرة).

ـ (لا كرم بدون تضحية. لا يفهم الرجال أموراً كهذه. لو قمتَ بالتضحية فستنال كل إعجابي).

ـ (لا أبالي بإعجابكِ ولو بقرش ـ ولا بقشّة، ولن أتباهى به حتى. متى ستتزوجينني؟ ذلك هو السؤال الوحيد).

ـ (لن أتزوجكَ أبداً ـ لو استمرَّيْتَ بجعلي أشعر كما أشعر تماماً في الوقت الحالي).

ـ (ماذا سأجني إذن بعدم محاولتي جعلكِ تشعرين عكس ذلك؟).

ـ (ستجني تماماً بقدر إقلاقي حتى الموت!).

أمالَ كاسبار غودوود نظره ثانيةً وحدّق لبرهةٍ على قمة قبعته. غشيَتْ حمرةٌ شديدة وجهه كله. لقد تمكنَتْ من أن ترى قسوتها وقد نَفَذَتْ أخيراً. لقد اكتسب ذلك على الفور قيمةً بالنسبة لها ـ قيمةً كلاسيكية، رومانسية، تعويضية، فماذا رأتْ؟ «الرجل القوي يتألم». كانت هذه إحدى مقولات النداء الإنساني المؤثرة قليلاً، تشبه ما بذله من إغراءٍ قليل في المثال المذكور. صاحت بصوتٍ مرتعش: (لماذا تجعلني أقول لكَ أشياء كهذه؟ أنا أريد فقط أن أكون متساهلة ـ أن أكون لطيفةً تماماً. فليس من المفرح بالنسبة لي أن أشعر بأن الناس تهتم بي، وأيضاً أحاول أن أجد طريقةً مناسبة للتعامل معهم. أعتقد بأن على الآخرين أيضاً أن يكونوا متفهمين، يجب على كلٍّ منا أن يحتكم إلى نفسه. أنا أعلم بأنكَ متفهّم بقدر ما تستطيع، ولديكَ أسباب وجيهة لما تفعله. لكنني فعلاً لا أريد أن أتزوج أو أن أتحدث عن الموضوع الآن مطلقاً. لن أفعلها على الأرجح ـ كلا، أبداً. لي الحق تماماً بأن أشعر بهذه الطريقة وليس من اللطف أن تضغط على امرأةٍ بشدة بهذه الطريقة أو أن تدفعها ضد إرادتها. لو كنتُ أسبب لكَ الألم، فلا يمكنني سوى أن أقول بأنني آسفة جداً. إنه ليس ذنبي ولا أستطيع أن أتزوجكَ فقط لكي أُرضيكَ. لن أقول بأنني سأبقى دائماً صديقتكَ، لأن النساء عندما يقلن ذلك في هذه المواقف فإنه ـ باعتقادي ـ يمر باعتباره كنوع من السخرية. لكن امنَحْني فرصةً يوماً).

كان كاسبار غودوود أثناء هذه المحادثة قد أبقى عينيه مثبتين على اسم

صانع قبعته، ولم يمر وقتٌ طويل على توقف حديثهما عندما رفعهما. عندما فعل ذلك، ألقى الحماس المتفائل، الجميل، على وجه إيزابيل بعض الإرباك في محاولته تحليل كلماتها، فأفصح في النهاية: (سأعود للوطن ـ سأذهب غداً، سأتركك وشأنكِ)، ثم قال بكآبة: (أنا فقط أكره أن تغيبي عن ناظري!).

ـ (لا تخف، لن أفعل ما يؤذي نفسي).

أعلن كاسبار غودوود: (ستتزوجين من أحدٍ آخر مثلما أنا متأكدٌ بأنني أجلس هنا).

ـ (هل تظن أن تلك تهمة كريمة؟).

ـ (لِمَ لا؟ فالكثير من الرجال سيحاول الوصول إليكِ).

ـ (لقد أخبرتُكَ تواً بأنني لا أود أن أتزوج وبأنني متأكدة تقريباً بأنني لن أفعل ذلك).

ـ (أعلم بأنكِ أخبرتِني، وأحبُّ عبارتكِ «متأكدة تقريباً» تلك! فلن أؤمن بما تقولين).

ـ (أشكركَ كثيراً جداً. هل تتهمني بالكذب كي أتخلص منكَ؟ أنت تقول أشياء حساسة جداً).

ـ (ولِمَ لا أقول ذلك؟ فأنتِ لم تمنحيني عهداً بأي شيء مطلقاً).

ـ (كلا، ذلك هو ما ينقصني!).

فواصَلَ الشاب حديثه وكأنه يهيئ نفسه لما هو أسوأ: (قد تعتقدين حتى بأنكِ محصّنة ـ من تمني ذلك. لكنكِ لستِ محصّنة).

ـ (حسناً إذن، سنقول بأنني لستُ محصّنة. افهمْها مثلما يحلو لكَ).

قال كاسبار غودوود: (رغم ذلك، لا أدري إنْ كان إبقاؤكِ أمام ناظري سيمنع ذلك).

فسألَتْ فجأةً مغيِّرةً نبرة صوتها: (ألم تكن تدري فعلاً؟ أنا في النهاية خائفة منكَ كثيراً جداً. هل تعتقد بأنني مسرورة جداً بذلك؟).

ـ (كلا ـ لا أعتقد. سأحاول أن أعزّي نفسي بذلك. لكن هناك بلا شك عدد محدد من الرجال اللامعين في العالم، وإن كان يوجد واحد فقط فسيكون ذلك كافياً. إذ سيتوجه نحوكِ مباشرةً من هم أكثر لمعاناً، وستحرصين على أن ترفضي أحداً ليس لامعاً).

قالت إيزابيل: (إن كنتَ تقصد بلامع، ذكياً بشكلٍ بهي ـ ولا يمكنني تخيُّل ماذا تقصد أيضاً ـ فأنا لا أحتاج إلى مساعدة رجلٍ ذكي ليعلمني كيف أعيش. إذ يمكنني اكتشاف ذلك بنفسي).

ـ (تكتشفين كيف تعيشين وحيدة؟ أود عندما تكتشفين ذلك أن تعلّميني!).

فنظرَتْ إليه برهة ومن ثم قالت بابتسامةٍ خاطفة: (أوه، عليكَ أن تتزوج!).

قد يكون معذوراً إنْ بدا له هذا التصريح لوهلةٍ يرنّ بنغمةٍ شيطانية، إذ ليس من المعروف عنها أن يكون دافعها لإفراغ جزءٍ كهذا بهذا الوضوح. مع ذلك، ما كان عليه أن يسير في أرجاء الغرفة وهو منحنٍ وتوّاق ـ فهي بالتأكيد قد لاحظَتْ ذلك عليه. فهمهم وهو يصرّ على أسنانه ويستدير مبتعداً: (سامحكِ الله!).

كانت نبرتها قد جعلَتْها مخطئة قليلاً، وبعد لحظةٍ شعرَتْ بالحاجة إلى أن تصحح الأمر، وكانت أسهل طريقة لتنفيذ ذلك هي أن تجعله هو المخطئ، فانفجرت في الكلام: (أنتَ تقول ما لا تعلم! أنا لن أصبح ضحيةً سهلة ـ ولقد أثبتُّ ذلك).

ـ (أوه، لقد أثبَتِّهِ لي تماماً).

ـ (لقد أثبَتُّهُ لآخرين كذلك)، فتوقفت عن الكلام للحظةٍ ثم قالت: (لقد رفضتُ عرضاً بالزواج الأسبوع الماضي. مِنَ الذي يطلقون عليه ـ عرض زواجٍ مغرٍ بلا شك).

قال الشاب بشكلٍ عابس: (مسرورٌ لسماعي ذلك).

ـ (لقد كان عرضاً ستقبل به الكثير من الفتيات. إذ إن فيه كل شيء محبّذ).

لم تكن إيزابيل تعتزم أن تذكر هذه القصة، لكن الآن، وقد ابتدَأتْها، استحوذ عليها استحسان المجاهرة بها وإنصاف نفسها: (لقد عُرض علي مركز كبير وثروة كبيرة ـ من شخصٍ أحبُّه بشدة).

راقبها كاسبار باهتمامٍ شديد: (هل هو رجل إنجليزي؟)

قالت إيزابيل: (إنه نبيل إنجليزي).

تلقّى ضيفها هذا التصريح بادئ الأمر بالصمت، لكن في النهاية قال: (مسرورٌ لأنه خاب أمله).

ـ (حسناً إذن بما أن لديكَ رفاقاً في المحنة، فاستَفِدْ من ذلك).

قال كاسبار بتجهم: (أنا لا أسميه رفيقاً).

ـ (لِمَ لا ـ طالما أنني رفضتُ عرضه بشكل نهائي؟).

ـ (ذلك لا يجعله رفيقي. إضافةً إلى ذلك فهو إنجليزي).

ـ (أوه، أرجوكَ، أليس الإنجليزي إنساناً؟).

ـ (أوه، هؤلاء الناس؟ إنهم ليسوا من أبناء بلدي ولا يهمني ماذا يحل بهم).

قالت الفتاة: (أنتَ غاضبٌ جداً. لقد ناقشنا هذا الموضوع بما يكفي).

ـ (أوه نعم، أنا غاضبٌ جداً. أنا أعترف بأنني مذنب في ذلك!).

فاستدارت الفتاة مبتعدةً عنه، وسارت باتجاه النافذة المفتوحة ووقفَتْ للحظةٍ وهي تنظر إلى الفراغ المظلم للشارع، حيث مثّلَ ضوءٌ مضطرب لمصباحٍ غازيّ فقط الحياة المؤنسة.

لم يتكلم أي من هذين الشابين لبعض الوقت. لبث كاسبار بالقرب من رفّ المدفأة بعينين متولعتين بشكلٍ كئيب. طلبَتْ منه فعلياً أن يذهب ـ لقد عرف ذلك، لكنه لازم مكانه مخاطراً بجعل نفسه مقيتاً. لقد كانت تراعي جداً

غرضاً، وهو أن يتركها بيسر، بينما هو عَبَرَ البحر بكل معنى الكلمة لينتزع منها أدنى عهد. تركت النافذة على الفور ووقفَتْ أمامه ثانيةً: (أنتَ تظلمني قليلاً ـ بعد قولي لكَ ما أخبرتُكَ به تواً. أنا آسفة لأنني أخبرتُكَ ـ لأنه لا يهمكَ كثيراً).

فصاح الشاب: (آه، على أية حال، كنتِ تفكرين بي عندما أخبَرْتِني)، ثم توقف عن الكلام مخافة أن تنكر فكرةً سعيدةً كهذه.

قالت إيزابيل: (كنتُ أفكر فيكَ قليلاً).

ـ (قليلاً؟ أنا لا أفهم. لو كانت معرفتكِ بإحساسي تجاهكِ لها أية أهمية إطلاقاً فسيكون تسميتكِ لها «قليلاً» هو تقدير سيّئ لها).

هزت إيزابيل رأسها وكأنها تتفادى خطأً فاحشاً: (لقد رفضتُ أكثر النبلاء الإنجليز لطفاً. فاستنتِجْ من ذلك).

قال كاسبار غودوود بجدية: (أشكركِ إذن. أشكركِ للغاية).

ـ (والآن، من الأفضل لكَ أن تعود للوطن).

فسأل: (ألا يمكنني أن أراكِ ثانيةً؟).

ـ (أعتقدُ أن من الأفضل أن لا تراني. ستحرص على أن تتحدث عن الموضوع، وكما ترى، بأنه لا يقود إلى أي شيء).

ـ (أعدكِ بأن لا أقول كلمةً واحدة ستزعجكِ).

فكرتْ إيزابيل ثم أجابت: (سأعود في غضون يومٍ أو اثنين إلى بيت زوج خالتي، ولا أستطيع أن أطلب منكَ أن تأتي إلى هناك. فسيكون ذلك متناقضاً).

فكَّرَ كاسبار غودوود من ناحيته: (عليكِ أنت أن تنصفينني أيضاً، فقد تلقيتُ دعوةً لزيارة زوج خالتكِ قبل أكثر من أسبوع ورفَضْتُها).

فأبدَتْ دهشةً: (مِنْ مَنْ كانت دعوتكَ؟)

ـ (من رالف تاتشيت الذي أعتقد بأنه ابن خالتكِ. لقد رفضتُها لأنه لم يكن لدي موافقتكِ لأقبلها. لقد بدا أن اقتراح دعوتي من قبل السيد تاتشيت قد صدر من الآنسة ستاكبول).

أضافت إيزابيل: (إنها لم تصدر مني بالتأكيد. لقد تجاوَزَتْ فعلاً هنرييتا كثيراً).

ـ (لا تكوني قاسية جداً عليها ـ فذلك يحزنني).

ـ (كلا، ما دمتَ رفضتَ الدعوة فقد عملتَ صالحاً وأنا أشكركَ على ذلك). وارتعَدَتْ خوفاً قليلاً لفكرة أن يكون اللورد واربيرتون والسيد غودوود قد التقيا في جاردن كورت، فسيكون ذلك محرجاً جداً للورد واربيرتون.

سأل رفيقها: (أين ستذهبين عندما تتركين زوج خالتكِ؟).

ـ (سأذهب خارج البلاد مع خالتي ـ إلى فلورنسا وأماكن أخرى).

إن رزانة هذا التصريح أوقعَتْ رعشةً في قلب الشاب. لقد بدا له بأنها تدور بعيداً في دوائر كان مُبْعَداً عنها بقسوة. مع ذلك، واصَلَ أسئلته: (ومتى ستعودين إلى أميركا؟).

ـ (ربما ليس لمدةٍ طويلة. فأنا سعيدةٌ جداً هنا).

ـ (هل تعنين بأنكِ تهجرين بلدكِ؟).

ـ (لا تكن طفلاً!).

قال كاسبار غودوود: (حسناً، ستكونين بعيدة عن ناظري في الحقيقة!).

أجابت بغرورٍ بعض الشيء: (لا أدري. فالعالم ـ بكل هذه الأماكن المتناسقة جداً والمثيرة جداً مع بعضها البعض ـ يأتي ليصعق المرء وكأنه صغير نوعاً ما).

صاح كاسبار ببراءةٍ كانت ستجدها سيدتنا الشابة مؤثرة لو لم تكن كرامتها ترفض التنازلات: (إنه بالنسبة لي مشهدٌ كبير جداً!).

كان هذا الموقف جزءاً من نظام، نظريةٍ، اعتنقَتْها مؤخراً. ولكي تكون دقيقة، قالت بعد لحظة: (لا تعتقدْ بأنني قاسية إن قلتُ بأن هذا فقط ـ أي كَوْني بعيدة عن ناظركَ ـ هو ما أريده. فلو كنتَ في نفس المكان فسأشعر بأنكَ

تراقبني، وأنا لا أحب ذلك ـ فأنا أحب حريتي كثيراً جداً، وإن كان هناك شيء في العالم أنا مولعةٌ به.....).

فواصلت الكلام بتجددٍ يسيرٍ للكبرياء: (فهو استقلالي الشخصي).

لكن مهما كان التشامخ الموجود في هذا الحوار، والذي أثار إعجاب كاسبار غودوود، إلا أنه بصيغته العامة لا يوجد فيه شيء يثير نفوره. وهو لم يعتقد أبداً بأنها لم تمتلك أجنحة والحاجة إلى حياة حرة جميلة ـ فهو، بذراعيه الطويلتين وخطواته الواسعة، لم يكن خائفاً من أية قوةٍ فيها. إن كان القصد من كلمات إيزابيل هو أن تثير نفوره، فقد أخفقَتْ من أن تؤثر عليه وجعلَتْه فقط يبتسم مع شعوره بوجود نقطة التقاء لوجهات النظر: (من الذي سيرغب بكبح حريتكِ أقل مني؟ ما الذي يمكنه أن يمنحني سروراً أعظم من رؤيتكِ مستقلة تماماً ـ وتفعلين ما تحبين؟ أنا أريد أن أتزوجكِ كي أجعلكِ مستقلة).

قالت الفتاة بابتسامةٍ لا تزال الأجمل: (تلك مغالطة جميلة).

ـ (إن فتاةً بعمركِ ـ امرأة غير متزوجة ـ هي ليست مستقلة. فهناك الكثير من الأمور التي لا تستطيع أن تفعلها. إنها تتعثر عند كل خطوة).

أجابت إيزابيل بخيالٍ كبير: (ذلك يعتمد على نظرتها للموضوع. فأنا منذ باكورة شبابي أنتمي تماماً إلى الطبقة المستقلة ـ يمكنني أن أفعل ما أريده. ليس لدي أب ولا أم، وأنا فقيرة وذات نزعة جادة ولستُ جميلة. لذلك لستُ مجبرة بأن أكون خجولة وتقليدية. في الواقع، لا أستطيع أن أقدم رفاهياتٍ كهذه. إضافةً إلى ذلك، أنا أحاول أن أحكم على الأمور بنفسي، وأن تحكم خطأً، باعتقادي، لهو أمر مشرّفٌ أكثر من أن لا تحكم مطلقاً. أنا لا أرغب بأن أكون مجرد خروفٍ في القطيع. أنا أرغب أن أختار مصيري وأعرف شيئاً عن شؤون الإنسان غير تلك التي يعتقدها الناس بأنها متوافقة مع آداب المجتمع ليخبروني بها).

توقفَتْ عن الكلام لحظة، لكن ليس لمدةٍ طويلة تكفي لأن يجيب مرافقها.

إذ من الواضح بأنه كان على وشك أن يفعل ذلك عندما واصلت هي الكلام: (دعني أقول لكَ ذلك يا سيد غودوود. أنت لطيفٌ جداً عندما تتحدث عن كونكَ خائفاً من أن أتزوج. إن سمعتَ إشاعةً بأنني على وشك أن أفعل ذلك ـ فالفتيات مُعرّضات لأن يُقال هذا عنهن ـ فتذكّر ما قلتُه لكَ عن حبي للحرية وتجرأ بأن تشكَّ في ذلك).

كان هناك شيء ما مؤكَّداً بحماس في النبرة التي نصحَتْهُ بها، وقد رأى صراحة جليّة في عينيها ساعدتْهُ على أن يصدقها. عموماً، فقد شعر بالاطمئنان، ويمكنكَ أن تدركَ ذلك من خلال الطريقة التي قال بها بحماسٍ تام: (هل تريدين فقط أن ترتحلي لسنتين؟ أنا مستعدٌّ تماماً للانتظار سنتين، ويمكنكِ عمل ما تحبين في فترة الاستراحة هذه. إن كان هذا هو كل ما تريدينه فقولي ذلك أرجوكِ. أنا لا أريدكِ أن تكوني متمسكة بالعُرْف. هل أنا أخيفكِ لكوني متمسكاً بالعرف؟ هل ترغبين بشحذ ذهنكِ؟ إن ذهنكِ ممتاز تماماً بما يكفي بالنسبة لي. لكن إن كان يهمكِ أن تتجولي لفترة وتري بلداناً مختلفة فسأكون مسروراً بمساعدتكِ بأية طريقة ضمن نطاق قدرتي).

ـ (أنتَ كريم جداً، وهذا ليس جديداً بالنسبة لي. إن أفضل طريقة تساعدني بها ستكون بوضع عدة مئات من الأميال من البحر بيننا قدر الإمكان).

قال كاسبار غودوود: (سيعتقد المرء بأنكِ سترتكبين عملاً شريراً!).

ـ (قد أكون كذلك. فأنا أود أن أبقى حرة حتى في قيامي بذلك لو استحوذَتْ عليَّ الرغبة).

فقال متمهلاً: (حسناً إذن، سأعود للوطن).

ثم أخرج يده محاولاً أن يبدو قانعاً وراضياً.

كانت ثقة إيزابيل به أكبر من أية ثقة أمكنه أن يُشعرها بها. ليس السبب هو أنه ظنها قادرة على ارتكاب عملٍ شرير، وإنما ـ كما فكَّر ملياً ـ كان هناك شيء ما ينذر بسوءٍ في الطريقة التي تكَتَّمَتْ بها على خيارها.

شعرَتْ باحترامٍ كبير تجاهه عندما أمسكَتْ بيده. كانت تعلم كم هو مهتمٌ بها، ورأته شهماً. وقفا هكذا للحظة وهما ينظران لبعضهما البعض مُتَّحِدَيْن بمصافحة اليد التي من جانبها لم تكن مؤثرةً قط. فقالت بلطف شديد وبإحساسٍ تقريباً: (هذا أمرٌ صائب، فلن تخسر شيئاً عندما تكون رجلاً متعقلاً).

فردَّ بتجهمٍ واضح: (لكنني سأعود، أينما تكونين، بعد سنتين من الآن).

نحن نرى سيدتنا الشابة غير منطقية، فعند ذلك غيرتْ نبرة صوتها فجأة: (آه، تذكَّرْ بأنني لم أعِدْ بشيء، لا شيء مطلقاً!). ثم قالت بنبرةٍ رقيقة أكثر، كأنما لتساعده على أن يتركها: (وتذكَّرْ أيضاً بأنني لن أكون ضحيةً سهلة!).

ـ (ستصابين بالغثيان بسبب استقلاليتكِ).

ـ (ربما. بل حتى أنه متوقَّع. وعندما يأتي ذلك اليوم، سأكون مسرورة جداً برؤيتكَ).

وضعَتْ يدها على مقبض الباب الذي قاد إلى غرفتها وانتظرَتْ برهة لترى فيما كان ضيفها سيغادر، لكن بدا أنه عاجز عن الحركة. فلا زالت هناك مقاومة هائلة في وقفته، واحتجاج مؤلم في عينيه.

قالت إيزابيل: (يجب أن أترككَ الآن).

وفتحت الباب ومضت إلى الغرفة الأخرى.

كانت هذه الحجرة معتمة، لكن العتمة قد خفَّتْ بشعاعٍ باهت أُرسل عبر النافذة من فناء الفندق، وتمكنت إيزابيل من تَبَيُّنِ كومة الأثاث، اللمعان الباهت للمرآة، الشكل الباهت للسرير الكبير ذي الأربعة أعمدة. وقفت ساكنةً للحظة بلا حراك وهي تصغي. في النهاية، سمعت كاسبار غودوود وهو يخرج من غرفة الجلوس ويغلق الباب وراءه. بقيت واقفة لفترة أطول قليلاً، ومن ثم، وبدافعٍ لا يُقاوَم، سقطت على ركبتيها أمام سريرها وأخفت وجهها بين ذراعيها.

***

الفصل 17

لم تكن تصلّي، بل كانت ترتجف ـ ترتجف بكل كيانها. كان الارتجاف هيّناً عليها، في الحقيقة كان متأصّلاً فيها، ووجدَتْ نفسها الآن تدندن كقيثارة متضررة. رغم ذلك، احتاجت فحسب لأن ترتدي الغطاء لتحيط نفسها ثانيةً بالقماش الهولندي، لكنها رغبَتْ بأنْ تقاوم اضطرابها، وبدا أن التصرف الجدّي الذي ثبتت عليه لبعض الوقت ساعدها لتهدأ. لقد ابتهجت بشدة لأن كاسبار غودوود قد رحل، إذ كان هناك شيء ما في تخلصها منه بهذه الطريقة يشبه إيفاء دَيْنٍ طويل الأمد كان في ذاكرتها لإيصالٍ مدموغ.

حينما شعرَتْ بالارتياح الهانئ أحنت رأسها قليلاً نحو الأسفل؛ كان الشعور موجوداً، يخفق في قلبها، كان جزءاً من غضبها، لكنه كان شيئاً يجب الخجل منه ـ كان مدنساً وفي غير محله.

لم تمضِ عشر دقائق حتى نهضَتْ من على ركبتيها، وحتى عندما عادت إلى غرفة الجلوس لم يهدأ ارتجافها تماماً. كان لذلك سبب بالتأكيد؛ يُعزى جانبٌ منه إلى نقاشها الطويل مع السيد غودوود، لكن الباقي يُخشى بأنه كان يُعزى ببساطة إلى المتعة التي وجدَتْها في ممارسة استبدادها. فجلسَتْ على نفس الكرسي ثانيةً والتقطت كتابها لكن بدون أن تحاول فتحه، واسترخت بتلك الدندنة الخافتة الشجيّة التوّاقة التي تعبر بها عن تجاوبها مع الأحداث التي لم يكن الجانب الأكثر سروراً منها واضحاً في الواقع، واستسلمت للارتياح الناتج من رفضها لخاطبَيْن متلهفَيْن خلال أسبوعين.

كان ذلك الحب للحرية الذي وصفَتْهُ بوضوح جداً لكاسبار غودوود،

نظرياً تقريباً بشكل استثنائي، إذ كانت عاجزة عن إشباعه على نطاقٍ واسع. لكن بدا لها بأنها أنجزت شيئاً، بأنها ذاقت نشوة النصر، إن لم تكن نشوة المعركة. لقد أنجزَتْ ما كان الأكثر واقعية لمخططها.

في خضم هذا الشعور، تجلَّتْ بقوةٍ مؤنِّبة أكيدة صورة السيد غودوود وهو يمشي مشيته الحزينة باتجاه العودة إلى البيت عبر المدينة المعتمة بحيث عندما فُتح باب الغرفة في نفس اللحظة، نهضَتْ خشية أن يكون قد عاد. لكن لم تكن سوى هنريتا ستاكبول وهي عائدةٌ من عشائها.

رأت الآنسة ستاكبول على الفور بأن سيدتنا الشابة كانت قد «انتهت» من شيء ما، وفي الحقيقة لم يتطلب اكتشاف ذلك ذكاءً كبيراً. فتوجهتْ مباشرةً نحو صديقتها التي استقبلَتْها بلا تحية. إن ابتهاج إيزابيل بإرجاعها لكاسبار غودوود إلى أميركا يفترض مقدماً أن تكون في مزاجٍ منشرح لو كان قد أتى لرؤيتها، لكنها في الوقت نفسه تذكَّرتْ جيداً بأنه لَيس من حق هنريتا أن تنصب فخاً لها. سألت الأخيرة بلهفة: (هل كان هنا يا عزيزتي؟).

استدارت إيزابيل بعيداً ولم تجب بشيءٍ للحظات، وفي النهاية صرحت: (لقد تصرفتِ بشكلٍ خاطئٍ جداً)

ـ (لقد تصرفتُ أفضل تصرف، وآمل فقط بأنكِ تصرفتِ بالمثل).

قالت إيزابيل: (أنتِ لستِ الحَكَم. لا يمكنني أن أثق بكِ).

لم يكن هذا التصريح مشجعاً، لكن هنريتا لم تكن أنانية كثيراً لتهتم بالتهجّم الذي نقله هذا التصريح، بل اهتمت فقط بما أشار فقط إلى ما يخص صديقتها. فأبدت ملاحظةً بفظاظة مماثلة وبرزانة: (إن كنتِ ستتزوجين واحداً من هذا الشعب فلن أتكلم معكِ ثانيةً!).

فأجابت إيزابيل: (قبل أن تقومي بهذا التهديد الفظيع جداً، كان من الأفضل لكِ أن تنتظري حتى يُطلَب مني الزواج).

لم تقل كلمةً واحدة للآنسة ستاكبول عن عرض اللورد واربيرتون بالزواج، إذ لم تمتلك الآن بتاتاً سبباً لتبرئ نفسها أمام هنرييتا بإخبارها بأنها رفضت ذلك النبيل.

ـ (أوه، سيُطلَب منكِ ذلك بسرعةٍ جداً حالما تخرجين إلى أوروبا. كانت آني كلايمر قد طُلبَت للزواج ثلاث مرات وهي في إيطاليا ـ آني الصغيرة العادية المسكينة).

ـ (حسناً، إنْ لم تكن آني كلايمر مغرية، فلِمَ يجب أن أكون كذلك؟).

ـ (أنا لا أعتقد بأن آني كانت مضطرة، لكن أنت ستكونين كذلك).

قالت إيزابيل بدون خوف: (ذلك اعتقادٌ مغرٍ).

صاحت صديقتها: (أنا لا أغريكِ يا إيزابيل، أنا أقول الحقيقة!. آمل أنكِ لا تقصدين بأن تقولي بأنكِ لم تعطِ السيد غودوود بعض الأمل).

ـ (أنا لا أفهم لِمَ يجب علي أن أخبركِ كل شيء، فأنا لا يمكنني الوثوق بكِ كما قلتِ لكِ تواً. لكن بما أنك مهتمة كثيراً جداً بالسيد غودوود، فأنا لن أُخفي عليكِ بأنه عائدٌ الآن إلى أميركا).

فزعقت هنرييتا قليلاً: (أنتِ لا تقصدين بأنكِ طردتِهِ؟).

ـ (لقد طلبتُ منه أن يتركني وشأني، وأنا أطلب منكِ ذلك يا هنرييتا).

انبهرت الآنسة ستاكبول فزعاً لوهلةٍ، ومن ثم مضت نحو المرآة الموضوعة فوق رف المدفأة وخلعَتْ قلنسوتها.

واصلت إيزابيل الكلام: (آمل بأنكِ استمتعتِ بعشائكِ). لكن مرافِقتها لم تكن لتنحرف عن الموضوع بعبارات تافهة: (هل تعلمين إلى أين أنت ماضية يا إيزابيل آرتشر؟).

قالت إيزابيل بتفاهةٍ مستمرة: (ماضيةٌ إلى الفراش حالاً).

تابعت هنرييتا الكلام وهي تمسك قلنسوتها بضعف: (هل تعلمين إلى أين تنزلقين؟)

ـ (كلا، ليس لدي أدنى فكرة، وأعتقدُ أن من المريح جداً أن لا أعرف. إن فكرتي عن السعادة هي ـ عربةٌ سريعة في ليلةٍ ظلماء تجلجل بأربعة خيول في طرقاتٍ لا يستطيع امرؤٌ رؤيتها).

قالت الآنسة ستاكبول: (إن السيد غودوود لم يعلّمكِ بالتأكيد أن تقولي أشياء كهذه، كالبطل في روايةٍ لا أخلاقية. أنت تنزلقين إلى غلطةٍ كبيرة).

كانت إيزابيل متبرمة من تدخّل صديقتها. مع ذلك، ظلت تحاول أن تفكر ما هي تلك الحقيقة التي يمكن أن يرمز إليها هذا التصريح. لم تتمكن من التفكير في شيء يحيدها عن القول: (لا بدّ أنكِ حنونة عليّ جداً يا هنرييتا لتكوني مستعدة لأن تكوني عدائية جداً).

قالت الآنسة ستاكبول بحنان: (أنا أحبكِ بشدة يا إيزابيل).

ـ (حسناً، إن كنتِ تحبينني بشدة، فاتركيني وشأني بنفس الشدة. لقد طلبتُ ذلك من السيد غودوود، ويجب أن أطلب ذلك منكِ أيضاً).

ـ (احذري. فلن تُترَكي وشأنكِ طويلاً).

ـ (هذا ما قاله لي السيد غودوود، فأخبرتُهُ بأنه يجب علي أن أخاطر).

صرخت هنرييتا: (أنتِ مخلوقةُ مخاطِر، أنت تجعلينني أرتعد! متى يعود السيد غودوود إلى أميركا؟)

ـ (لا أعلم. لم يخبرني).

سألت هنرييتا والنبرة نبرة سخريةٍ صادقة: (ربما لم تسألي).

ـ (لم أُرضِهِ كثيراً ليكون لدي الحق بأن أسأل أسئلةً تخصه).

بدا هذا الادّعاء بالنسبة للآنسة ستاكبول لوهلةٍ بأنه يَعرِضُ تحدّياً لتُعقِّب عليه، لكن في النهاية هتفت: (حسناً يا إيزابيل، لو لم أكن أعرفكِ لظننتُ أنكِ بلا قلب!)

قالت إيزابيل: (احذري، فأنتِ تفسدينني).

ـ (أخشى بأنني فعلتُ ذلك مسبقاً)، ثم أضافت الآنسة ستاكبول: (آمل على الأقل أن يلتقي بآني كلايمر!).

في اليوم التالي، علمت إيزابيل منها بأنها كانت قد قررت أن لا تعود إلى جاردن كورت (حيث وعدها السيد تاتشيت الأب بترحيبٍ متجدد) وإنما ستنتظر في لندن وصول الدعوة التي وعد بها السيد بانِلِنْج من أخته السيدة بينسل.

روت الآنسة ستاكبول بطلاقة تامة حديثها مع الصديق الودود لرالف تاتشيت، وصرحت لإيزابيل بأنها آمنت حقاً بأنها فهمت الآن شيئاً سيقود إلى شيء ما. فعند تَسَلُّم رسالة السيدة بينسل ـ كان السيد بانِلِنْج قد ضمن وصول هذه الرسالة في الواقع ـ ستغادر على الفور إلى بيدفورد شاير، وإن حرصَتْ إيزابيل على أن تبحث عن انطباعاتها في الإنترفيور، فبالتأكيد كانت ستجدها، إذ من الواضح أن هنرييتا كانت سترى شيئاً ما عن الحياة المنزلية هذه المرة.

سألت إيزابيل وهي تقلّد النبرة التي تحدثَتْ بها صديقتها في الليلة السابقة: (هل تعلمين إلى أين تنزلقين يا هنرييتا ستاكبول؟)

ـ (أنا أنزلق إلى منصبٍ كبير ـ منصب ملكة الصحافة الأميركية. إن لم تكن رسالتي القادمة ستُطبَع في عموم الغرب فسأبتلع ممسحة قلم الحبر[1] الخاصة بي!).

كانت قد تدبّرَتْ مع صديقتها الآنسة آني كلايمر، السيدة الشابة صاحبة عروض الزواج القارّيّة، بأن تذهبا معاً لعمل تلك المشتريات التي كانت

(1) ممسحة قلم الحبر: هي غالباً قطعة من القماش، اللبّاد غالباً، شاع استعمالها في القرن التاسع عشر لمسح نهاية قلم الحبر أو ريشة الكتابة من الحبر السائل الزائد قبل اختراع قلم الحبر الجاف. (المترجمة)

ستؤلف حفلة وداع الآنسة كلايمبر إلى نصف الكرة الأرضية[1] الذي على الأقل يقدّرها. فتوجهت على الفور إلى شارع جيرمين لتنتشل رفيقتها. بعد مغادرتها بوقتٍ قصير كان قد أُعلن عن وصول رالف تاتشيت. وحالما دخل، رأت إيزابيل بأن لديه شيئاً ما في ذهنه، فأخبرَ على الفور ابنة خالته بسرٍّ؛ كان قد تسلَّمَ برقية من والدته مفادها أن والده أُصيب بنوبةٍ حادة من مرضه القديم بحيث إنها كانت خائفة كثيراً، وإنها توسَّلَتْ إليه أن يعود على الفور إلى جاردن كورت.

لم يكن تَمَسُّك السيدة تاتشيت بالبرقيات عُرضةً للانتقاد في هذه المناسبة على الأقل

قال رالف: (لقد قررتُ أنه من الأفضل أن أرى الطبيب العظيم، السيد ماثيو هوب، أولاً. ولحسن الحظ الشديد أنه موجود في المدينة وسيراني في الساعة الثانية عشرة والنصف وسوف أتأكد من نزوله إلى جاردن كورت ـ والذي سيفعل ما هو طارئ أكثر لأنه كان قد رأى والدي مسبقاً عدة مرات هناك وفي لندن. هناك قطار سريع في الساعة الثانية والخمس وأربعين دقيقة، والذي سآخذه وسوف تعودين معي أو تبقين هنا أطول لبضعة أيام، حسب ما تفضّلين تماماً).

ردت إيزابيل: (بالتأكيد سوف أعود معكَ. أنا لا أفترض بأنه من الممكن أن يكون لي أية فائدة لزوج خالتي، لكن إن كان مريضاً فسأرغب أن أكون إلى جانبه).

قال رالف وعلى وجهه سرور خجول مؤكَّد: (أعتقد بأنكِ حنونة عليه. أنت تقدّرينه وهو ما لم يفعله كل الناس. الأرستقراطيون قليلون جداً).

قالت إيزابيل بعد لحظة: (أنا أُجِلُّهُ تماماً).

---

(1) تقصد أميركا. (المترجمة)

ـ (ذلك جيد تماماً. فهو أكبر المعجبين بكِ، بعد ابنه).

لقد رحَّبَتْ بهذا بالتأكيد، لكنها تنهدت قليلاً خِفية تنهيدة ارتياح لفكرة أن السيد تاتشيت كان واحداً من أولئك المعجبين الذين لا يستطيعون التقدم للزواج منها. مع ذلك، لم يكن هذا هو ما نطقَتْ به، فقد استمرَّتْ تخبر رالف بأن هناك أسباباً أخرى لعدم بقائها في لندن. فقد كانت مُتعَبةً منها ورغبَتْ بأن تتركها. ثم إن هنرييتا كانت ذاهبة ـ ذاهبة للبقاء في بيدفورد شاير.

ـ (في بيدفورد شاير؟).

ـ (مع السيدة بينسل، أخت السيد بانِلِنْج المسؤولة عن دعوتها).

كان رالف يشعر بالقلق، لكنه عند ذلك انفجر ضاحكاً. فجأةً، عادت له جاذبيته رغم ذلك: (إن بانِلِنْج رجل شجاع. لكن على أية حال ستضيع الدعوة في الطريق).

ـ (لقد تصورتُ أن دائرة البريد البريطانية كانت معصومة من الخطأ).

قال رالف: (حتى هوميروس البارع يومئ أحياناً).[1]

واصَلَ الكلام بشكلٍ أكثر مرحاً: (مع ذلك، فبانِلِنْج البارع لا يفعل ذلك أبداً، وإن حدثَ، فسوف يعتني بهنرييتا).

ذهب رالف ليحافظ على موعده مع السيد ماثيو هوب، وتدبّرَتْ إيزابيل أمرها لتترك فندق برات. إن الخطر المعرّض له زوج خالتها قد أثَّر بها قليلاً، فعندما وقفَتْ أمام حقيبتها المفتوحة وهي تبحث حولها عمَّ يجب أن تضعه فيها، برزت الدموع في عينيها فجأة. ربما كان لهذا السبب عندما عاد رالف في الساعة الثانية ليأخذها إلى المحطة، لم تكن مستعدة بعد. مع ذلك، وجد الآنسة ستاكبول في غرفة الجلوس حيث كانت قد نهضت للتو من غدائها،

---

(1) مثل إنجليزي يصف كيف لهوميروس، وهو أعظم الشعراء الإغريق، أن يغفو أحياناً. وهو إشارة إلى أنه حتى أعظم العلماء يخطئون أحياناً. (المترجمة)

وعبَّرَتْ هذه السيدة على الفور عن أسفها لمرض والده، فقالت: (إنه رجل عجوز موقّر. إنه مخلص حتى النهاية. إن كانت هذه هي النهاية ـ عذراً لقولي ذلك، فلا بدّ أنكَ فكرتَ دائماً باحتمالية ذلك ـ فأنا آسفة لأنني لن أكون في جاردن كورت).

ـ (ستستمتعين أكثر بكثير في بيدفورد شاير).

قالت هنرييتا بلباقة كبيرة: (سأكون آسفة لأن أستمتع في مثل هذا الوقت)، لكنها أضافت على الفور: (سأحب ذلك لأخلّد ذكرى المشهد الختامي).

قال رالف ببساطة: (قد يعيش والدي طويلاً).

ومن ثم، بانتقاله إلى مواضيع بهيجةٍ أكثر، استفسر من الآنسة ستاكبول عن مستقبلها. ولأن الآن رالف في محنة، خاطبَتْهُ بنبرةٍ متسامحة أكثر وأخبرَتْهُ بأنها كانت شاكرةً له كثيراً لأنه عرَّفها بالسيد بانِلْنج، فقالت: (لقد أخبرني عن الأشياء التي أود معرفتها تماماً: كل المواضيع الاجتماعية، وكل شيء عن العائلة المالكة. أنا لا أستطيع أن أستخلص بأن ما يخبرني به عن العائلة المالكة يُعتمد عليه كثيراً، لكنه يقول بأن تلك هي طريقتي الخاصة في النظر لهذه الأمور. حسناً، إنَّ كل ما أريده هو أن يزودني بالحقائق: وأستطيع أن أجمعها بسرعة كافية حالما أحصل عليها).

ثم أضافت بأن السيد بانِلْنج كان طيباً جداً لأنه وعد بأن يأتي ويأخذها للخروج ذلك المساء.

تجرأ رالف بالسؤال: (يأخذكِ إلى أين؟)

ـ (إلى قصر باكنغهام. إذ سيقوم بإطلاعي عليه لأتمكن من الحصول على فكرةٍ عن كيفية معيشتهم).

قال رالف: (آه، نحن نتركُكِ في أيدٍ أمينة. وأول شيء سوف نسمعه هو بأنكِ دُعيتِ إلى قلعة وندسور).

ـ (لو طلبوا مني ذلك فسأذهب بالتأكيد. فحالما أنطلقُ لن أكون خائفة).

ثم أضافت هنريتا بسرعة: (لكنني لستُ مقتنعةً بكل ذلك. فأنا لستُ مرتاحةً بشأن إيزابيل).

ـ (ما هي آخر أعمالها الشريرة؟).

ـ (حسناً، لقد أخبرتُكَ من قبل، وأعتقد بأنه لا ضرر من استمراري بقول ذلك، فأنا أُنهي دائماً موضوعاً أباشرُ به. كان السيد غودوود هنا في الليلة الماضية).

فتح رالف عينيه حتى أنه احمرَّ قليلاً ـ كان احمراره علامة على غضبٍ حاد قليلاً. فقد تذكَّرَ بأن إيزابيل عند افتراقها عنه عند ميدان وينتشستر قد أنكرَتْ تلميحه بأن دافعها للذهاب بمفردها كان انتظار زائرٍ في فندق برات، وكان ذلك ألماً جديداً عليه أن يظن بأنها مخادعة. من ناحية أخرى، قال لنفسه بسرعة وما شأنه في أنها تقابل عشيقاً؟ ألم يُعتقد في كل عصر أن من الكياسة أن تقوم السيدات الشابات بجعل مواعيد كهذه سراً؟

فردَّ رالف على الآنسة ستاكبول رداً دبلوماسياً: (كان يجب أن أفكر من خلال الصورة التي رسمتِها لي في اليوم السابق أن هذا الأمر كان سيرضيكِ تماماً).

ـ (بأن يأتي ويراها؟ يرضيني تماماً لو سار على ما يرام. كان ذلك خطةً صغيرةً مني بأن أجعله يعرف بأننا في لندن، وعندما رتَّبْتُ الأمر بأن أقضي المساء خارجاً أرسلتُ له رسالة ـ الرسالة التي أرسلناها إلى «الحكيم». لقد تمنيتُ أن يجدها وهي بمفردها. لن أتظاهر بأنني لم أكن آمل بأن تكون بعيداً عن طريقها. لقد جاء لرؤيتها، لكنه قد يكون ابتعَدَ هو أيضاً).

ـ (هل كانت إيزابيل قاسية معه؟) ـ أشرق وجه رالف بالارتياح لكون ابنة خالته لم تُظهِر الخداع.

ـ (لا أعلم على وجه التحديد ما دار بينهما. وأعادَتْه إلى أميركا).

تنهد رالف: (مسكين سيد غودوود!).

واصلت هنرييتا الكلام: (يبدو أن خطتها الوحيدة هي أن تتخلص منه).

كرّر رالف كلامه: (مسكين سيد غودوود!).

يجب الاعتراف بأن هذا التصريح كان تلقائياً، وقد فشل تماماً في أن يعبّر عن أفكاره التي كانت تتخذ منحىً آخر.

ـ (لا تقل ذلك وكأنكَ تشعر به. فأنا لا أصدق بأنكَ مهتم).

قال رالف: (آه، يجب أن تتذكري بأنني لا أعرف هذا الشاب المثير للاهتمام ـ ذلك لأنني لم أره أبداً).

أضافت الآنسة ستاكبول: (حسناً، أنا سأراه، وسأخبره أن لا ييأس. لو لم أصدق بأنّ إيزابيل سوف تغير موقفها، حسناً، أنا من سييأس. أقصد سأيأس منها!).

***

الفصل 18

خطر لرالف أن ابتعاد إيزابيل عن صديقتها في هذه الظروف قد يكون محرجاً قليلاً. ونزل إلى باب الفندق متقدماً ابنة خالته التي تبعَتْهُ بعد تأخيرٍ يسير وآثارٌ من احتجاجٍ غير مقبول في عينيها كما لاحظ هو ذلك. سافر الاثنان إلى جاردن كورت بصمتٍ غير مختَرَق، ولم يكن لدى الخادم الذي استقبلهما في المحطة أخبارٌ أفضل ليقدمها لهما عن السيد تاتشيت ـ وهو حَدَثٌ جعل رالف يهنئ نفسه ثانيةً لإيفاء السيد ماثيو هوب بوعده بالنزول في قطار الساعة الخامسة وقضاء الليلة هنا.

علم أن السيدة تاتشيت عند وصولها إلى البيت بقيت باستمرار مع الرجل العجوز، وكانت معه في تلك اللحظة. جعل هذا الحدث رالف يقول لنفسه إن في النهاية ما كانت والدته بحاجة إليه هو فقط فرصة يسيرة. فالطبيعة الحقيقة تظهر عند الشدائد.

ذهبت إيزابيل إلى غرفتها، وقد لاحظت في أرجاء المنزل الهدوء الذي يسبق العاصفة. رغم ذلك، بعد مرور ساعة واحدة، نزلَتْ إلى الطابق السفلي بحثاً عن خالتها التي أرادت إيزابيل منها أن تستعلم عن السيد تاتشيت. فذهبت إلى المكتبة، لكن السيدة تاتشيت لم تكن هناك. وبما أن الطقس الذي كان رطباً وبارداً قد تكدَّر الآن كلياً، فليس من المحتمل أن تكون قد ذهبت لجولتها المعتادة في الحديقة.

كانت إيزابيل على وشك أن ترن الجرس لترسل سائلاً إلى غرفتها عندما أثمر هذا الهدف بسرعة عن صوتٍ غير متوقع ـ صوت موسيقى خافتة تصدر

بوضوح من الصالون. كانت تعرف أن خالتها لم تكن قد لمست البيانو أبداً، وبالتالي ربما كان العازف هو رالف الذي كان يعزف للترفيه عن نفسه. إن لجوءه إلى هذا الترفيه في هذا الوقت يشير بوضوح إلى أن قلقه على والده قد هدأ. لذا توجهت الفتاة بمرحٍ متجدد قليلاً إلى مصدر النغمات.

كانت غرفة الاستقبال في جاردن كورت حجرةً ذات أبعاد كبيرة، فلم يُلاحَظ وصولها من قبل الشخص الجالس أمام آلة البيانو، لأن البيانو الذي كان موضوعاً في نهايتها قد نُقل بعيداً عن الباب الذي دخلَتْ منه. لم يكن ذلك الشخص لا رالف ولا والدته، بل كانت سيدة لم تعرفها إيزابيل رغم أن ظهرها كان بمواجهة الباب. نظرت إيزابيل إلى ذلك الظهر ـ الواسع والأنيق الملبس ـ لبعض الوقت بدهشة. كانت هذه السيدة ضيفةً طبعاً ووصلَتْ أثناء غيابها والتي لم يذكرها أي من الخدم ـ من بينهم خادمة خالتها ـ الذين تبادلَتْ معهم الكلام منذ عودتها. رغم ذلك، كانت إيزابيل تعلم مسبقاً ما يمكن أن يرافق وظيفة تلقي الأوامر من كنز التكتم، وكانت مدركةً على وجه الخصوص بأنها عوملَتْ بتحفظ من قبل خادمة خالتها، التي أفلتت إيزابيل من إشرافها بشكل ربما مرتاب قليلاً.

كان قدوم ضيفٍ بحد ذاته بعيداً عن أن يكون مزعجاً. فهي لم تتجرد بعد من مبدأ صغير، وهو أن كل معرفة جديدة ستُدخل تأثيراً مهماً على حياتها. أثناء تفكيرها بذلك أدركَتْ بأن السيدة التي عند البيانو قد عزفَتْ جيداً وبشكلٍ ملفت للنظر. كانت تعزف عملاً لشوبرت ـ لم تعرف إيزابيل ما هو، لكنها عرفَتْ بأنه لشوبرت ـ وقد ضربَتْ على البيانو برويّةٍ. لقد أظهر مهارةً، أظهر إحساساً.

جلسَتْ إيزابيل بدون جلبة على أقرب كرسي وانتظَرَتْ حتى نهاية المقطوعة. عندما انتهت، شعرَتْ برغبة قوية لشكر العازفة، ونهضت من مكانها لتفعل ذلك، بينما استدارت الغريبة في الوقت نفسه بسرعة وكأنها أدركَتْ وجودَها للتو.

قالت إيزابيل بكل التألق الغرّ الذي تعبّر به عادةً عن سعادةٍ قصوى صادقة: (ذلك رائع جداً، ومع ذلك عزفكِ يجعله أروع).

أجابت العازفة بعذوبةٍ تُماثِلُ عذوبة هذا الإطراء المستَحَق: (أنتِ لا تظنين إذن بأنني أزعجتُ السيد تاتشيت؟ إن المنزل واسع جداً وغرفته بعيدة جداً، لدرجة أنني ظننتُ بأنه يمكنني المغامرة، خاصة عندما عزفتُ فقط..... bout des doigts du[1]).

قالت إيزابيل لنفسها: (إنها فرنسية. إنها تقول ذلك وكأنها فرنسية).

جعل هذا الافتراضُ الزائرةَ مهتمة أكثر ببطلتنا المتأملة.

أضافت إيزابيل: (آمل أن يكون زوج خالتي بصحة جيدة. إذ أعتقد بأنه عندما يسمع موسيقى رائعة للغاية كهذه فسيجعله يشعر بتحسن حقاً).

ابتسمت السيدة وأحست بالتميز: (أخشى أن هناك لحظات في الحياة عندما لا يكون حتى لدى شوبرت شيء يقوله لنا. مع ذلك يجب أن نعترف بأنها أسوأ لحظات حياتنا).

قالت إيزابيل: (أنا لستُ بهذه الحالة الآن، بل على العكس، سأكون مسرورة جداً لو كنتِ عزفتِ أكثر).

ـ (إن كان ذلك سيسعدكِ ـ فبكل سرور).

وأخذت هذه الشخصية اللبقة مكانها ثانيةً، وضربت على بعض الأوتار، بينما جلست إيزابيل إلى الآلة بشكلٍ أقرب. فجأةً، توقفت الضيفة الجديدة ويديها على المفاتيح، شبه متلفّتة، تنظر من فوق كتفها. كانت في الأربعين من العمر وليست جميلة، رغم أن تعابير وجهها فاتنة، فقالت: (عذراً، لكن هل أنت ابنة الخالة ـ الأميركية الشابة؟).

---

(1)أي بأطراف الأصابع. (المترجمة)

أجابت إيزابيل ببساطة: (أنا ابنة أخت خالتي).

جلست السيدة التي عند البيانو ساكنةً لوهلةٍ أطول، وهي تدير مظهرها المثيرة للاهتمام فوق كتفها: (ذلك جيد جداً. نحن أبناء بلدٍ واحد).

ثم بدأت تعزف.

دمدمت إيزابيل: (آه، إنها ليست فرنسية إذن).

بما أن الاعتقاد بأنها فرنسية قد جعلها حالمة، إلا أن هذا الإفصاح بكونها أميركية قد أشار إلى تميزٍ. لكن ذلك ليس هو الواقع، فأنْ تكونَ أميركياً بشروطٍ مثيرة للاهتمام كهذه، بدا أنه حتى أكثر تميزاً من أن تكون فرنسياً.

عزفت السيدة بنفس الطريقة التي عزفت بها مسبقاً؛ برقّة وبجديّة. وبينما هي تعزف، ازدادت العتمة في الغرفة؛ فقد احتشد غسق الخريف، وتمكنت إيزابيل من مكانها رؤية المطر الذي كان قد بدأ بغسل المرج البارد المظهر باجتهاد، والرياح التي تهزّ الأشجار الضخمة. في النهاية، عندما توقفت الموسيقى، نهضَتْ مرافقتها واقتربت مبتسمة قبل أن يتسنى لإيزابيل الوقت لتشكرها ثانيةً.

قالت: (أنا سعيدة جداً بعودتكِ. لقد سمعتُ عنكِ الكثير).

رأتها إيزابيل شخصاً جذاباً جداً. لكن مع ذلك، نطقت بسرعة كإجابةٍ على هذا الكلام: (مِنْ مَنْ سمعتِ عني؟).

ترددت الغريبة للحظةٍ ومن ثم أجابت: (من زوج خالتكِ. لقد كنتُ هنا لثلاثة أيام. دعاني في اليوم الأول للقدوم وزيارته في غرفته. وتحدّث عنكِ باستمرار).

ـ (بما أنكِ لم تعرفينني فلا بدّ أن ذلك قد أضجركِ).

ـ (بل جعلني ذلك أرغب بالتعرف عليكِ أكثر، لأن عندئذٍ كنتُ لوحدي تماماً وتعبتُ من مرافقة نفسي ـ فخالتكِ لازمت السيد تاتشيت كثيراً جداً. لم يتم اختيار وقت مناسب لزيارتي).

دخلت إحدى الخادمات بالمصابيح وتبعَتْها أخرى فوراً تحمل صينية الشاي. عند ظهور هذه الوجبة، وصلت السيدة تاتشيت وانكبَّتْ على إبريق الشاي، إذ من الواضح أنها قد أُبلغت بها.

لم تختلف تحيتها لابنة أختها عن طريقتها برفع غطاء هذا الإبريق لتنظر إلى محتوياته: فلا أي تصرف منها كان يليق بإظهار الاهتمام. عندما سُئلَتْ عن زوجها كانت عاجزة عن أن تقول بأنه أفضل، سوى أن الطبيب الخاص كان معه وهو يؤمَل توضيحاً أكثر عند استشارة هذا الرجل للسيد ماثيو هوب.

واصلت الحديث: (أعتقد بأنكما أيتها السيدتان قد تعرفتما على بعضكما. وإن لم تتعرفا فأنصحكما بأن تفعلا ذلك لأننا ـ رالف وأنا ـ سنستمر بالتجمع حول سرير السيد تاتشيت لمدة طويلة جداً ولن يكون لكما رفقة على الأرجح سوى بعضكما البعض).

قالت إيزابيل للضيفة: (أنا لا أعرف شيئاً عنكِ سوى أنكِ عازفة رائعة).

أكدت السيدة تاتشيت بنبرتها الجافة قليلاً: (يوجد ما هو أكثر من ذلك لتعرفينه).

صاحت السيدة بضحكةً خفيفة: (أنا متأكدة بأن القليل منه سيُشبع الآنسة آرتشر! أنا صديقة قديمة لخالتكِ. عشتُ طويلاً في فلورنسا. أنا مدام ميرليه).

قالت هذا التصريح الأخير وكأنها تشير إلى شخصٍ ذي هوية شهيرة إلى حدٍّ ما. بالنسبة لإيزابيل، رغم أن ذلك قد عنى لها القليل، إلا أنها تمكنت فقط من أن تستمر بالشعور بأن لمدام ميرليه أسلوباً ساحراً لم تصادفه في أي أحدٍ أبداً.

قالت السيدة تاتشيت: (إنها ليست أجنبية رغم اسمها. لقد وُلدتْ..... أنا أنسى دائماً أين وُلدتِ).

ـ (ذلك ليس مهماً كثيراً. سأخبركِ فيما بعد).

قالت السيدة تاتشيت التي نادراً ما تفوِّتُ موضوعاً منطقياً: (على العكس، فلو تذكرتُ، لكان إخباركِ لي غير ضروري بالمرة).

نظرت مدام ميرليه لإيزابيل مع ابتسامة واسعة وسع الحياة، ابتسامةٍ تجاوزَتِ الحدود: (وُلدتُ تحت ظلال الراية الوطنية).

قالت السيدة تاتشيت: (إنها مولعة بالألغاز، وذلك هو عيبها الكبير).

صاحت مدام ميرليه: (آه، لدي عيوب كثيرة، لكن لا أظن بأن هذا هو أحدها. إنه بالتأكيد ليس الأكبر. لقد أتيتُ إلى هذا العالم في قاعدة بروكلين البحرية. كان والدي موظفاً رفيعاً في البحرية الأميركية، وكان لديه منصب ـ منصب مسؤولية ـ في تلك المؤسسة في ذلك الوقت. من المفروض أن أحب البحر، لكنني أكرهه. لهذا السبب أنا لا أعود إلى أميركا. أحب البر. إنه لأمرٌ عظيم أن تحب شيئاً ما).

لم تكن إيزابيل، كشاهدٍ محايد، مندهشةً بقوة وصف السيدة تاتشيت لضيفتها التي كانت تمتلك وجهاً معبّراً وصادقاً ومتجاوباً، ولم يوحِ مطلقاً لذهن إيزابيل بأنه ذو نزعة كتومة. كان وجهاً نمَّ عن سعة البديهة، وعن إيماءاتٍ سريعة وتلقائية. ورغم أنه لم يمتلك جمالاً مألوفاً، إلا أنه كان أخّاذاً وآسراً لأقصى الدرجات.

كانت مدام ميرليه امرأة طويلة القامة، شقراء، ناعمة. كان كل شيء في شخصيتها مستديراً وممتلئاً، لكن بدون تلك التكتلات التي توحي بزيادة الوزن. كانت هيئتها مكتنزة لكن بنسبٍ بالغة الكمال والتناسق، ولبشرتها صفاءٌ نضرٌ. كانت عيناها الرماديتان صغيرتين لكن مفعمتين بالمرح وغير جديرتين بالملل ـ غير جديرتين، بالنسبة لبعض الناس، حتى بالبكاء. كان لها فم كبير حدوده واضحة والذي عندما تبتسم يرتفع إلى جهة اليسار بطريقةٍ يعتقدها معظم الناس غريبةً جداً، وبعضهم مؤثرةً جداً، والقليل جداً منهم جميلة. تميل إيزابيل أن تصنف نفسها من النوع الأخير. كان لمدام ميرليه شعر

كثيف وأشقر، مصفف بطريقةٍ ما «بشكل كلاسيكي» وكأنها تمثال، حسمتْ إيزابيل رأيها بأنه تمثال جونو[1] أو نيوب،[2] ويدان بيضاوان كبيرتان ذاتا شكلٍ مثالي، شكل مثالي للغاية بحيث لم ترتدِ صاحبتهما خواتم مزينة بالجواهر، مُفَضِّلَةً أن تتركهما غير مزينتين. كانت إيزابيل قد اعتقدتها في البداية امرأة فرنسية كما رأينا، لكن بالملاحظة الموسعة صنَّفَتْها بأنها ألمانية ـ ألمانية ذات منزلة رفيعة، ربما نمساوية، بارونة، كونتيسة، أميرة. ما كان ليتخيل أحدٌ بأنها أتت إلى هذا العالم في بروكلين ـ رغم ذلك، لم يكن المرء بالتأكيد ليتمكن من أن يثبت من خلال أي دليل أن مظهر الرفعة ذاك الذي تتميز به لهذه الدرجة الكبيرة كان مغايراً لولادةٍ كهذه. في الحقيقة كانت الراية الوطنية قد رفرفت مباشرةً على مهدها، وربما ألقت الاستقلالية المرحة للعلم الأمريكي تأثيراً على الموقف الذي اتخذَتْهُ تجاه الحياة. ومع ذلك، لم تمتلك بشكلٍ واضح أدنى قدر من صفة الارتعاش والتذبذب من أقل تناطح مع الريح؛ بل إن سلوكها عبّر عن الثبات والثقة اللتين جاءتا من خبرةٍ كبيرة، خبرةٍ لم تطفئ شبابها، بل ببساطة جعلَتْها متعاطفة ومرنة. باختصار، كانت امرأةً ذات نزوات منسقة بترتيبٍ رائع، وقد راق ذلك لإيزابيل كمزيجٍ فريدٍ من نوعه. فكرت إيزابيل بكل ذلك بينما جلست السيدات الثلاث عند وجبة الشاي الخاصة بهن، لكن هذه المراسم كانت قد قوطعت سريعاً بوصول الطبيب العظيم من لندن، والذي أُرشد فوراً إلى غرفة الاستقبال. ذهبت به السيدة تاتشيت إلى المكتبة من أجل حديثٍ خاص، وبعد ذلك افترقت مدام ميرليه وإيزابيل لتلتقيا ثانيةً عند العشاء. إن فكرة الإكثار من مرافقة هذه المرأة المثيرة للاهتمام قد فعل الكثير ليهدئ من شعور إيزابيل بالحزن الذي حلَّ في جاردن كورت.

عندما دخلَتْ إلى غرفة الاستقبال قبل العشاء وجدَتِ المكان فارغاً. لكن

---

(1)جونو: هي زوجة الإله جوبيتر في الأساطير الرومانية وملكة الآلهة. (المترجمة)
(2)نيوب: هي ابنة تانتالوس (ابن الإله زيوس وبلوتو) في الأساطير الإغريقية. (المترجمة)

بعد مرور برهةٍ، وصل رالف. كان قلقه على والده قد هدأ، فقد كان من رأي السيد ماثيو هوب عن حالته مثبطاً بشكلٍ أقل مما كانت عليه حالته. أوصى الطبيب بأن الممرضة فقط هي من ستبقى مع الرجل العجوز للثلاث أو أربع ساعات القادمة. لذا كان رالف، ووالدته، والطبيب العظيم نفسه، متفرغين للعشاء على مائدة الطعام.

ظهرت السيدة تاتشيت والسيد ماثيو، كانت مدام ميرليه هي الأخيرة.

قبل حضورها، تحدثت إيزابيل عنها مع رالف الذي كان يقف أمام المدفأة: (أرجوكَ من هي مدام ميرليه هذه؟)

قال رالف: (أذكى امرأةٍ أعرفها. هذا لا يستثنيكِ أنت).

ـ (أرى بأنها بدت مريحةً جداً).

ـ (كنتُ متأكداً من أنكِ سترينها مريحةً جداً).

ـ (ألهذا السبب دَعَوْتَها؟).

ـ (أنا لم أدعُها. وعندما عدنا من لندن لم أعلم بأنها كانت هنا. لم يَدْعُها أحد. إنها صديقة أمي، وقد تسلَّمَتْ إخطاراً منها بعد أن ذهبنا مباشرةً أنت وأنا إلى المدينة. كانت قد وصلَتْ إلى إنجلترا (إنها تعيش عادةً خارج البلاد رغم أنها أولاً وأخيراً تقضي قدراً لا بأس به من الوقت هنا)، وطلَبَتْ إذناً بالنزول بضعة أيام. إنها امرأةٌ يمكنها إبداء مقترحاتٍ بثقةٍ تامة. إنها مُرَحَّبٌ بها جداً أينما تذهب. وبالنسبة لوالدتي، لا يمكن أن يكون هناك سبيل للتردد. فهي الشخص الوحيد في العالم المعجبة به والدتي كثيراً جداً. ولو لم تكن نفسها «التي في النهاية ما تفضّلها كثيراً» لَوَدَّتْ أن تصبح مدام ميرليه. سيكون ذلك تغيراً كبيراً).

قالت إيزابيل: (حسناً، إنها فاتنةٌ جداً. وهي تعزف بشكلٍ رائع جداً).

ـ (إنها تفعل كل شيء بشكلٍ رائع. إنها مثالية).

نظرت إيزابيل إلى ابن خالتها لحظةً: (أنتَ لا تحبها).

ـ (على العكس، لقد وقعتُ في حبها يوماً).

ـ (وهي لم تهتم لأمركَ. ولهذا السبب أنت لا تحبها).

ـ (كيف يمكننا أن نناقش أموراً كهذه؟ كان السيد ميرليه عندئذٍ على قيد الحياة).

ـ (هل هو ميت الآن؟)

ـ (هذا ما تقوله).

ـ (ألا تصدقها؟)

ـ (بلا، لأن التصريح يتفق مع الاحتمالات. فزوج مدام ميرليه سيكون على الأرجح متوفياً).

حدّقَتْ إيزابيل على ابن خالتها ثانيةً: (لا أدري ماذا تقصد. أنت تشير إلى شيء ما ـ لا تقصده. ماذا كان السيد ميرليه؟)

ـ (زوج المدام).

ـ (أنتَ خبيثٌ جداً. هل لديها أطفال؟).

ـ (بلا أطفال مطلقاً ـ لحسن الحظ).

ـ (لحسن الحظ؟)

ـ (أقصد من حسن حظ الطفل. وإلّا لحرَصَتْ على إفساده).

من الواضح أن إيزابيل كانت على وشك أن تؤكد لابن خالتها وللمرة الثالثة بأنه كان خبيثاً، لكن النقاش قد قُطع بوصول السيدة التي كانت موضوعه.

دخلَتْ بسرعة وهي تخشخش بثوبها وتعتذر عن تأخرها، وتربط سواراً. كانت مرتديةً ثوباً من الساتان الأزرق الغامق الذي كشف عن صدرٍ أبيض مغطى بشكلٍ غير مجدٍ بعقدٍ فضيٍّ نادر.

قدَّم رالف ذراعه لها باحترازٍ مبالغٍ فيه، احتراز رجلٍ لم يعد عاشقاً. رغم ذلك، حتى وإن كانت هذه حالته فلدى رالف أمورٌ أخرى يفكر بها.

قضى الطبيب العظيم الليلة في جاردن كورت، وقد اتفق مع رالف بأنه سيقوم وهو عائدٌ إلى لندن صباحاً برؤية المريض ثانيةً في اليوم التالي بعد استشارةٍ أخرى مع المستشار الطبي الخاص للسيد تاتشيت.

في اليوم التالي، عاد وظهر السيد ماثيو هوب في جاردن كورت وقد اتخذَتْ هيئتُه مظهراً مشجعاً أقل عن الرجل العجوز الذي ساءت حالته في الأربع وعشرين ساعة. كان ضعفه بالغاً، وبدا مراراً لابنه الذي جلس بجوار سريره بانتظام، أن نهايته لا بدّ قريبة. كان الطبيب الخاص، الذي كان رجلاً ألمعيّاً جداً والذي امتلك رالف تجاهه في دواخل نفسه ثقةً أكثر مما لديه تجاه زميله البارز، حاضراً بشكلٍ متواصل. وعاد السيد ماثيو هوب عدة مرات.

كان السيد تاتشيت أغلب الوقت فاقداً للوعي، وينام كثيراً جداً، ونادراً ما يتكلم. كانت لإيزابيل رغبة كبيرة بأن تكون ذات فائدة بالنسبة له. وسُمح لها بأن تسهر معه في الساعات التي يستريح فيها مرافقوه الآخرون (الذين لم تكن السيدة تاتشيت أقل التزاماً منهم).

لم يبدُ أبداً بأنه يعرفها، وقالت لنفسها دائماً: (أتخيل بأنه سيموت وأنا جالسةٌ هنا)، وهي فكرةٌ حفّزتها وأبقَتْها مستيقظة.

في إحدى المرات فتح عينيه لبرهةٍ وثبَّتهما عليها بشكلٍ فاهم، لكنها عندما ذهبَتْ إليه على أمل أن يعرفها أغلقهما ثانيةً وانتكس في غيبوبة. مع ذلك، في اليوم التالي استعاد نشاطه لمدة أطول. لكن في هذه المرة رالف فقط كان معه.

بدأ الرجل العجوز بالتحدث، مما سبَّب ارتياحاً لابنه الذي أكّد له بأنهم سيقومون على الفور بجعله يستوي جالساً في الفراش.

قال السيد تاتشيت: (كلا يا بني، ما لم تدفنني بوضع الجلوس كما اعتاد بعض القدماء فعل ذلك ـ هل هم القدماء؟)

فدمدم رالف: (آه يا أبي، لا تتحدث عن ذلك. لا يجب أن تنكر بأنكَ تتحسن).

أجاب الرجل العجوز: (لن تكون هناك حاجة لإنكاري ذلك لو لم تقل أنت ذلك. لماذا سنراوغ عندما نكون قريبين جداً من النهاية؟ نحن قبل ذلك لا نراوغ. فأنا سأموت يوماً ما، ومن الأفضل أن يموت المرء عندما يكون مريضاً من أن يكون سليماً. أنا مريضٌ جداً الآن مثلما سأبقى مريضاً دوماً. آمل بأنكَ لا ترغب بأن تثبت بأنني سأصبح يوماً أسوأ مما أنا عليه الآن؟ سيكون ذلك سيئاً جداً، أليس كذلك؟ حسناً إذن).

فهدأ بعد إبدائه هذا التلميح المتميز. لكن في المرة الثانية التي كان فيها رالف معه، دخل معه ثانيةً في محادثة. كانت الممرضة قد ذهبت لتناول عشائها، وكان رالف يتولاه لوحده بعد أن أراح السيدة تاتشيت التي كانت تتولاه منذ العشاء.

كانت الغرفة مضاءةً بالنار المترجرجة فقط والتي أصبحت ضرورية مؤخراً، وكان الظل الطويل لرالف بارزاً على الحائط والسقف بهيئةٍ تتبدل بشكلٍ ثابت لكن بشكلٍ باهر دائماً.

سأل الرجلُ العجوز: (من هذا الذي معي ـ هل هو ابني؟)

ـ (نعم، إنه ابنكَ يا أبي)

ـ (ألا يوجد أحدٌ آخر؟)

ـ (لا أحد آخر).

لم يقل السيد تاتشيت شيئاً لبرهةٍ. ومن ثم واصل الكلام: (أريد أن أتحدث قليلاً).

اعترض رالف: (ألن يرهقكَ ذلك؟)

ـ (لن يهمني إنْ أرهقَني، فسأحظى براحةٍ طويلة. أريد أن أتحدث عنكَ).

كان رالف قد اقترب أكثر نحو السرير، فجلس منحنياً نحو الأمام ويده على يد والده: (من الأفضل أن تختار موضوعاً مرحاً أكثر).

ـ (أنتَ كنتَ دائماً مرحاً. لقد اعتدتُ على أن أفتخر بمرحكَ. أود كثيراً جداً أن أفكر في أن تفعل شيئاً).

قال رالف: (لو تركتنا فلن أفعل شيئاً سوى أن أفتقدكَ).

ـ (إن ذلك بالضبط هو ما لا أريده. وهو ما أريد أن أتحدث عنه. يجب أن تكتسب همّاً جديداً).

ـ (أنا لا أريد همّاً جديداً يا أبي، فلدي هموم قديمة أكثر مما أعرف ماذا سأفعل بها).

رقد الرجل العجوز هناك وهو ينظر إلى ابنه. كان وجهه يحاكي وجوه الموتى، لكن عينيه كانتا عيني دانييل تاتشيت. كان يبدو عليه بأنه يحصي هموم رالف، فقال في النهاية: (بالطبع، فلديك أمك. سوف تهتم بها).

ردّ رالف: (أمي ستهتم بنفسها دائماً).

قال والده: (حسناً، بما أنها تكبر في السن فربما ستحتاج إلى مساعدةٍ بسيطة).

ـ (لا أرى ذلك، فهي ستعمّر أكثر مني).

ـ (من المحتمل جداً بأنها ستعمّر، لكن ذلك ليس سبباً.....!).

سمح السيد تاتشيت لعبارته أن تتلاشى بآهةٍ ضعيفةٍ لكن ليست شكّاءةً كثيراً، وبقي صامتاً ثانيةً.

قال ابنه: (لا تزعج نفسك بنا، فأمي وأنا سننسجم معاً بشكلٍ جيد تماماً، تعلم ذلك).

ـ (أنتما تنسجمان دائماً عندما تكونان منفصلين، وذلك ليس طبيعياً).

ـ (إن تركتنا فعلى الأرجح سنرى بعضنا البعض أكثر).

فتابع الرجل العجوز كلامه بشرودٍ عرضي: (حسناً، يمكن القول بأن موتي سيشكل فرقاً كبيراً في حياة أمكَ).

ـ (سيشكل على الأرجح فرقاً أكثر مما تتصور).

قال السيد تاتشيت: (حسناً، ستحصل على الكثير من المال. فقد تركتُ لها حصة الزوجة الطيبة وكأنها كانت زوجة طيبة بالضبط).

ـ (لقد كانت طيبةً يا أبي وفقاً لنظريتها الخاصة بها. فهي لم تسبب لكَ المتاعب أبداً).

فدمدم السيد تاتشيت: (آه، بعض المتاعب مريحة. تلك التي ذَكَرْتَها على سبيل المثال. لكن أمكَ كانت أقل.... أقل... ماذا سأسميه؟ أقل بُعداً منذُ أن كنتُ مريضاً. أعتقد بأنها تعرف بأنني لاحظتُ ذلك).

ـ (سأخبرها بذلك بالتأكيد. أنا مسرورٌ بأنكَ تقول ذلك).

ـ (لن يشكل ذلك أي فرق بالنسبة لها، فهي لا تفعل ذلك لتسعدني. إنها تفعله لتسعد.... لتسعد....).

ورقد قليلاً محاولاً أن يفكر لماذا فعلَتْ ذلك. ثم أضاف: (إنها تفعل ذلك لأنه يناسبها. لكن ليس ذلك هو ما أريد أن أتحدث عنه. إنه عنكَ أنت. أنت سوف تصبح ثرياً جداً).

قال رالف: (نعم. أعرف ذلك. لكنني أتمنى أن لا تكون قد نسيتَ الحديث الذي خضناه قبل سنة ـ عندما أخبرتُكَ بمقدار الأموال التي أحتاجُها وتوسلتُ إليك أن تستفيد من الباقي).

ـ (نعم، نعم، أتذكر. لقد عملتُ وصيةً جديدة ـ في أيام قلائل. أعتقد بأنها كانت أول مرة حصل فيها شيء كهذا ـ شابٌ يحاول أن تُكتَب وصية ليست لصالحه).

قال رالف: (إنها ليست ضد مصلحتي، بل لن يكون من صالحي أن أحصل

على أموالٍ كثيرة لأهتم بها. فمن المستحيل على رجلٍ بحالتي الصحية هذه أن ينفق الكثير من المال، وما يكفيه هو القليل).

ـ (حسناً، ستحظى بما يكفيك ـ ويزيد عليه قليلاً. سيكون هناك أكثر مما يكفي شخصاً واحداً ـ سيكون هناك ما يكفي لشخصين).

قال رالف: (ذلك كثير جداً).

ـ (آه، لا تقل ذلك. سيكون أفضل شيء يمكنكَ فعله عندما أموت هو أن تتزوج).

فتكهّن رالف بما كان يَخْلُص إليه والده، ولم يكن هذا المقترح جديداً إطلاقاً، فقد كانت هذه، ولمدةٍ طويلة، هي الطريقة الأكثر عبقرية للسيد تاتشيت في معرفته حدوث هذا الأمر البهيج لابنه.

كان رالف يتعامل عادةً مع هذا الأمر بمزاح. لكن الظروف الحالية تُحَرِّم المزاح. وقام ببساطة بالارتداد إلى الوراء على كرسيه وصدَّ نظرة والده المتوسلة.

قال الرجل العجوز معبّراً عن المزيد من عبقريته: (إن كنتُ أنا قد حظيتُ بحياةٍ سعيدةٍ جداً مع زوجةٍ لا تحبني كثيراً، فما هي الحياة التي قد لا تحظى بها أنت لو تزوجتَ إنسانةً تختلف عن السيدة تاتشيت. إن اللواتي يختلفن عنها أكثر من اللواتي يشبهنها).

لم يقل رالف شيئاً برغم ذلك، وبعد وقفةٍ قصيرةٍ في الكلام، استأنف والده الكلام برفق: (ما رأيكَ بابنة خالتكَ؟).

عندئذٍ جفل رالف وهو يستقبل السؤال بابتسامةٍ متصنعة: (هل أفهم من ذلك أنكَ تقترح أن أتزوج إيزابيل؟)

ـ (حسناً، فذلك هو ما يحدث في النهاية. ألا تحب إيزابيل؟)

ـ (نعم، كثيراً جداً).

ونهض رالف من على كرسيه وسار نحو النار ووقف أمامها لبرهةٍ ومن ثم انحنى وحرَّكها بشكل تلقائي. فكرر كلامه: (أنا أحب إيزابيل كثيراً جداً).

فقال والده: (حسناً. أنا أعلم بأنها تحبكَ. لقد أخبرَتْني كم تحبكَ كثيراً).

ـ (هل لمَّحَتْ بأنها تود الزواج مني؟).

ـ (كلا، لكن ليس لديها شيء ضدكَ، وهي أكثر السيدات الشابات التي رأيتُها سحراً، وستكون طيبةً معكَ. لقد فكرتُ كثيراً في الموضوع).

قال رالف وهو يعود إلى جوار السرير ثانيةً: (أنا كذلك. لا أمانع في أن أقول لكَ ذلك).

ـ (إذن أنت واقعٌ في حبها؟ كان عليّ أن أعتقد بأنكَ ستقع في حبها. وكأنها أتت لغرضٍ ما).

ـ (كلا، لستُ واقعاً في حبها، لكنني سأحبها لو.... لو كانت بعض الأمور مختلفة).

قال الرجل العجوز: (آه، إن الأمور دائماً مختلفة عما يمكن أن تكون. إن انتظَرْتَها لتتغير فلن تفعل شيئاً. لا أدري فيما إذا كنتَ تعلم ذلك).

فواصَلَ الكلام: (لكنني لا أعتقد بأن هناك ضرراً في تلميحي لذلك في مثل ساعةٍ كهذه؛ فقد كان هناك شخص أراد أن يتزوج إيزابيل في اليوم السابق وهي لم ترضَ به).

ـ (أعلم بأنها رفضتْ واربيرتون؛ فقد أخبرني ذلك بنفسه).

ـ (حسناً، ذلك يثبت بأن هناك فرصةً لشخصٍ آخر).

ـ (الشخص الآخر أخذ فرصته في اليوم السابق في لندن ـ ولم يحظَ بشيء).

فسأل السيدُ تاتشيت بلهفة: (هل كان أنت؟).

ـ (كلا، كان صديقاً قديماً، رجلاً محترماً مسكيناً سافر من أميركا ليفهم الموضوع).

ـ (حسناً، أنا آسف لأجله أيّاً من كان. لكن ذلك فقط يثبت ما أقول ـ وهو أن الطريق مفتوح لكَ).

ـ (لو كان كذلك يا أبي العزيز فمن المؤسف تماماً بأنني عاجز عن السير فيه، فلا أملك الكثير من المبادئ. لكن لدي ثلاثة أو أربعة أتمسك بها بقوة؛ أحدها هو أن الناس بالمجمل من الأفضل أن لا يتزوجوا من قريباتهم؛ والآخر هو أن الناس الذين في المرحلة الأخيرة من مرضهم الرئوي، من الأفضل أن لا يتزوجوا مطلقاً).

رفع الرجل العجوز يده الواهنة وحرَّكها ذهاباً وإيّاباً أمام وجهه: (ماذا تقصد بذلك؟ أنت تنظر إلى الأمور بطريقةٍ تجعل كل شيء مغلوطاً. أي قريبةٍ تلك التي لم ترها أبداً لأكثر من عشرين عاماً من حياتها؟ نحن كلنا أقارب بعضنا البعض. وإن توقفنا عند ذلك فستنقرض السلالة البشرية. والأمر هو نفسه تماماً بالنسبة لرئتيكَ العليلتين. أنت أفضل بكثير مما اعتدتَ أن تكون، وكل ما تحتاجه هو أن تعيش حياةً طبيعية. فالطبيعي هو أن تتزوج سيدة شابة جميلة تحبها أفضل بكثير من أن تبقى عازباً بسبب مبادئ خاطئة).

قال رالف: (أنا لستُ واقعاً في حب إيزابيل).

ـ (لقد قلتَ للتو بأنكَ ستحبها لو لم تعتقد أن الأمر خاطئ).

قال رالف الذي تعجَّبَ من إصرار والده ومن إيجاده القوة لهذا الإصرار: (سيرهقكَ ذلك فحسب يا أبي العزيز. ثم أين سنذهب جميعنا؟).

ـ (أين ستذهب أنت إنْ لم أتكفَّل بكَ؟ لن يكون لديكَ علاقة مع البنك، ولن يكون عليكَ أن تهتم بشؤوني. أنت تقول بأن لديكَ الكثير جداً من الاهتمامات. لكنني لا أستطيع أن أفهمها).

ارتد رالف إلى الخلف على كرسيه وذراعاه مطويتان، وعيناه شاخصتان طويلاً بتأمل. في النهاية، قال بمظهر رجلٍ يستجمع شجاعته بشكلٍ واضح: (أنا أُكِنُّ اهتماماً كبيراً لابنة خالتي، لكن ليس من نوع الاهتمام الذي تريده.

فأنا لن أعيش سنوات طويلة، لكنني آمل أن أعيش بما يكفي لأرى ما هي فاعلةٌ بنفسها. فهي مستقلةٌ تماماً عني. يمكنني أن أمارس تأثيراً قليلاً جداً في حياتها. لكنني أود أن أفعل شيئاً لأجلها).

ـ (ماذا تود أن تفعل؟)

ـ (أود أن أنفخ الرياح في أشرعتها).

ـ (ماذا تعني بذلك؟)

ـ (أود أن أجعل بمقدورها أن تحقق بعض الأشياء التي ترغب بها. فهي تحب أن ترى العالم على سبيل المثال. أود أن أضع بعض المال في محفظتها).

قال الرجل العجوز: (آه، أنا مسرور لأنكَ فكرتَ في ذلك. لكنني فكرتُ في ذلك أيضاً. لقد تركتُ لها إرثاً ـ خمسة آلاف باوند).

ـ (إن ذلك كثير، ذلك لطفٌ منكَ. لكنني أود أن أفعل أكثر قليلاً).

لا يزال يلوح، في الوجه الذي لم يمحُ فيه المرض آثار البشاشة، شيء من تلك الفطنة الخفية التي، من جانب دانييل تاتشيت، كانت جزءاً من عادته طوال حياته بالإصغاء إلى أي رأيٍ مالي.

قال برقة: (سأكون مسروراً في التفكير بذلك).

ـ (ثم إن إيزابيل فقيرة. فقد قالت لي أمي بأن ليس لديها سوى بضع مئات من الدولارات في السنة. أود أن أجعلها غنية).

ـ (ماذا تقصد بغنية؟)

ـ (أنا أطلق على الناس أغنياء عندما يكونوا قادرين على إشباع متطلبات خيالهم. وإيزابيل لديها القدر الكبير من الخيال).

قال السيد تاتشيت وهو يصغي بحرصٍ شديد لكن بتشوشٍ قليلاً: (كذلك أنت يا بني).

ـ (أنتَ قلتَ لي بأنني سأحظى بمالٍ يكفي لاثنين. فما أريده هو أن تحررني من مالي الفائض وتحوله إلى إيزابيل. قسِّمْ إرثي إلى قسمين متساويين وامنحها القسم الثاني).

ـ (لتفعل به ما يحلو لها؟).

ـ (ما يحلو لها تماماً).

ـ (وبدون مقابل؟)

ـ (أي مقابل يمكن أن يوجد؟).

ـ (الذي ذكرتُهُ مسبقاً).

ـ (تزويجها ـ لشخصٍ أو لآخر؟ إن ذلك هو تماماً ما يقضي على كل شيء أقترحُهُ من هذا القبيل. فلو أصبح لديها موردٌ ميسورٌ فلن تضطر أبداً إلى الزواج من أجل العون. إن هذا هو ما أحاول أن أمنعه بتعقُّل. فهي ترغب بأن تكون حرة، وميراثكَ هو ما سيجعلها حرة).

قال السيد تاتشيت: (حسناً يبدو أنك أعدَدْتَ كل شيء. لكني لا أفهم لِمَ تلجأ إليّ، فالأموال ستصبح أموالك ويمكنكَ بسهولة أن تمنحها لها بنفسكَ).

حدَّق رالف بشكلٍ واضح: (آه، يا أبي العزيز، لا يمكنني أن أمنح المال لإيزابيل!).

فتذمر الرجل العجوز: (لا تقل لي بأنكَ لستَ واقعاً في حبها! هل تريد مني أن أحظى أنا بهذا الشرف؟)

ـ (تماماً. إذ أود ببساطة أن يكون ذلك بنداً في وصيتكَ بدون أدنى إشارة لي).

ـ (هل تريد مني أن أعمل وصية جديدة؟).

ـ (بضع كلمات ستكفي. ويمكنكَ أن تهتم بالأمر في المرة القادمة التي تشعر فيها بالنشاط).

ـ (عليكَ إذن أن ترسل برقية إلى السيد هيلاري. فلن أفعل شيئاً بدون محاميي).

ـ (سوف ترى السيد هيلاري يوم غد).

قال الرجل العجوز: (سوف يظن بأننا تشاجرنا، أنت وأنا).

قال رالف مبتسماً: (محتمل جداً. سوف أفضّل أن يعتقد ذلك. ولتنفيذ الفكرة، أعْلِمُكَ بأنني سوف أكون حاداً جداً، بغيضاً وغريباً جداً معكَ).

بدت طرافة ذلك قد أثرت في والده الذي اضطجع قليلاً وهو يستوعب ذلك.

قال السيد تاتشيت أخيراً: (سأفعل أي شيء تريده. لكنني غير متأكد بأنه صائب. فأنتَ تقول بأنكَ تريد أن تنفخ الرياح في أشرعتها، لكن ألستَ خائفاً من أن تنفخ كثيراً جداً؟).

أجاب رالف: (أود أن أراها وهي تسابق النسمات!).

ـ (أنتَ تتحدث وكأنكَ تفعل ذلك فقط للتسلية).

ـ (إنه كذلك، وبقدرٍ كبير).

قال السيد تاتشيت بتنهيدة: (حسناً. لا أعتقد بأنني أفهم. فالشباب مختلفون جداً عما كنتُ أنا. فعندما اهتمَمْتُ بفتاةٍ ـ عندما كنتُ شاباً ـ أردتُ أن أفعل أكثر من النظر إليها. فلديكم هواجس لم تكن لدي، ولديكم أفكار لم تكن لدي أيضاً. أنت تقول بأن إيزابيل تريد أن تكون حرة، وأن كونها ستصبح غنية سيحميها من أن تتزوج لأجل المال. فهل تعتقد بأنها الفتاة التي تفعل ذلك؟).

ـ (مطلقاً. لكن لديها مال أقل مما امتلَكَتْهُ يوماً. فوالدها منحها آنذاك كل شيء لأنه اعتاد أن ينفق أمواله. وليس لديها سوى فُتات تلك المأدبة لتعيش عليه، وهي لا تعرف حقاً كم هي قليلة جداً ـ عليها أن تعلم ذلك الآن. لقد قالت لي أمي كل شيء عن ذلك. سوف تعلم إيزابيل ذلك عندما تكون فعلاً

ضائعة في الحياة، وسيكون من المؤلم جداً بالنسبة لي أن أتخيلها وهي تدرك أن الكثير من الاحتياجات ستكون عاجزة عن تحقيقها).

ـ (لقد تركتُ لها خمسة آلاف باوند. يمكنها بها أن تحقق الشيء الكثير من احتياجاتها).

ـ (يمكنها ذلك حقاً. لكنها على الأرجح كانت ستنفقها خلال سنتين أو ثلاث).

ـ (إذن أنت تعتقد بأنها ستكون مبذرة؟).

قال رالف وهو يبتسم بصفاء: (مؤكد جداً).

كانت فطنة السيد تاتشيت المسكين تتبدل بسرعة إلى الارتباك التام: (إذن سيكون إنفاقها لهذا المبلغ الكبير من المال مسألة وقت فقط؟).

ـ (كلا، فباعتقادي، رغم أنها في البداية ستنغمس في ذلك بحرية إلى حدٍّ ما، إلا أنها على الأرجح ستحوِّل جزءاً منه إلى كل أخت من أخواتها. لكن بعد ذلك ستثوب إلى رشدها وتتذكر بأن الحياة لا تزال أمامها وستعيش وفق إمكانياتها المالية).

قال الرجل العجوز بشكل المغلوب على أمره: (حسناً، لقد هيّأتَ كل شيء. أنت مهتمٌّ بها بالتأكيد).

ـ (لا تستطيع أن تقول دائماً بأنني أتمادى، فأنتَ تمنيتَ أن أتمادى أكثر).

أجاب السيد تاتشيت: (حسناً، لا أعلم. فأنا لا أفكر أن أتغلغل في نفسكَ، فهو يبدو لي لا أخلاقياً).

ـ (لا أخلاقياً يا أبي العزيز؟).

ـ (حسناً، لا أعلم أن من الصائب أن تُسَهِّلَ كل شيء على شخصٍ ما).

ـ (ذلك بالتأكيد يعتمد على الشخص. فعندما يكون الشخص طيباً، يصبح تسهيلك للأمور محسوباً على الفضيلة. فماذا يمكن أن يكون أكثر نبلاً من تسهيل تحقيق دوافع خيِّرة؟).

كان من الصعب قليلاً فهم ذلك، وفكَّرَ فيه السيد تاتشيت لوهلة. في النهاية قال: (إن إيزابيل شابة حلوة. لكن هل تعتقد بأنها طيبة لدرجة أنها تستحق ذلك؟).

ردّ رالف: (إنها جديرة مثلما هي جديرة بأفضل فرصها).

أعلن السيد تاتشيت: (حسناً، يُستحسن أن تحصل على الكثير جداً من الفرص مقابل ستين ألف باوند).

ـ (ليس لدي شك بأنها ستحصل على ذلك).

قال الرجل العجوز: (سأفعل ما تريده بالطبع. لكنني أريد فقط أن أفهم الأمر قليلاً).

فسأل ابنُه بملاطفة: (حسناً يا أبي العزيز، ألم تفهمه الآن؟ إن لم تفهمه فلن نزعج أنفسنا بشأنه. سنتركه وشأنه).

رقد السيد تاتشيت طويلاً بهدوء، فتصوّر رالف بأنه تخلّى عن محاولة فهم الأمر. لكن في النهاية، وبصراحة تامة، انطلق ثانيةً: (أخبِرْني أولاً، ألا يخطر لكَ أن سيدةً شابة مع ستين ألف باوند قد تسقط ضحية لصائدي الثروات؟).

ـ (إنها بالكاد ستسقط ضحية لأكثر من واحد).

ـ (حسناً، إن واحداً كثيرٌ جداً).

ـ (إن تلك مخاطرة قطعاً وقد دخلَتْ في حساباتي. أعتقد بأن الأمر ممكن تقديره، لكنني أعتقد بأنه بسيط، وأنا مستعد لتوليه).

كانت فطنة السيد تاتشيت قد تحولت إلى ارتباك، وتغيَّرَ ارتباكه الآن إلى إعجاب. فكرَّر كلامه: (حسناً، لقد أقحمْتَ نفسكَ في الأمر! لكنني لا أفهم ما الفائدة التي ستجنيها أنت من ذلك؟).

انحنى رالف فوق وسائد والده وسوّاها بلطف، فقد كان مدركاً بأن حديثهما قد طال بشكلٍ لا داعي له: (سأجني فقط الفائدة التي ذكرتُها قبل

بضع لحظات، وهي أن أجعل في مقدور إيزابيل أن تحقق تصوراتي. لكن المخجل هو الطريقة التي استغللكَ بها!).

***

الفصل 19

وكما تكهنت السيدة تاتشيت، فقد تآلفت إيزابيل ومدام ميرليه كثيراً أثناء مرض مضيّفهما، بحيث لو لم تكونا قد تآلفتا، لكان ذلك خرقاً للأخلاق الحميدة. كانت أخلاقهما أطيب الأخلاق، لكن إضافةً إلى ذلك، صادف أن أُعجبَتْ إحداهما بالأخرى. ربما من المبالغة أن نقول بأنهما أقسمتا على صداقةٍ أبدية، لكن ضمنياً على الأقل استدعتا المستقبل ليشهد على ذلك. فعلَتْ إيزابيل ذلك بوعيٍ تام، رغم أنها كانت ستتردد بالاعتراف في دواخلها بأنها كانت متآلفة مع صديقتها الجديدة بالمعنى الأسمى الذي تعطيه لهذا المصطلح. فقد تساءلَتْ في الواقع مراراً فيما إذا كانت، أو يمكن أن تكون، متآلفة مع أي أحد. إذ كان لديها فكرة مثالية عن الصداقة مثلما لديها أفكار مثالية عن معانٍ أخرى كثيرة، والتي فشلَتْ في أن تبدو لها في هذه الحالة ـ لم يبدُ ذلك لها في حالات أخرى ـ عن أن تعبّر عن الصداقة الحقيقة تماماً. لكنها تُذَكِّرُ نفسها دائماً بأنه توجد أسبابٌ وجيهة لعدم تَحَقُّق الأفكار المثالية للمرء. وهو شيء يجب أن يؤمن به لا أن يراه ـ قضية إيمان، وليست تجربة. مع ذلك، قد تزودنا التجربة بأفكار مقلدة موثوقة جداً، وإن دور الحكمة هو أن تستفيد أقصى استفادة منها.

عموماً، فإن إيزابيل بالتأكيد لم تلتقِ أبداً بشخصية مقبولة ومثيرة للاهتمام أكثر من مدام ميرليه. فهي لم تلتقِ أبداً بشخصٍ يمتلك أدنى درجة من ذلك العيب الذي يمثل العقبة الرئيسية للصداقة ـ وهو طابع استخراج الجوانب الأكثر مللاً، والتافهة، والشيطانية جداً لشخصية المرء. لقد فُتِحَتْ بوابات ثقة

الفتاة على وسعها أكثر مما حدث يوماً، وقالت أموراً لهذه المستمعة المحبوبة لم تكن قد قالتها لحدّ الآن لأي أحد. أحياناً، يصيبها الذعر لصراحتها وكأنها أعطت مفتاح خزانة جواهرها لغريبٍ منافس، الجواهر الروحية العظيمة الوحيدة التي امتلَكَتْها إيزابيل، لكن كان هناك كل الأسباب التي احتفظَت بها بحرص. مع ذلك، فقد تذكرت دائماً بأنه لا ينبغي على المرء أن يندم على خطأ كبير، وأنه إذا كانت مدام ميرليه لا تمتلك الفضائل التي نسبَتْها لها، فالخطأ هو خطأ مدام ميرليه. لم يكن يوجد شكّ في أن لديها فضائل أكبر ـ فقد كانت فاتنة، عطوفة، ذكية، ومثقفة. وأكثر من ذلك، كانت استثنائية، رفيعة المقام، ومتفوقة (لأنه لم يكن سوء حظ إيزابيل هو من جعلها تعيش الحياة بدون أن تجد من بين بنات جنسها أشخاصاً عديدات من لا يُمكن أن تُذكَر بخير).

يوجد الكثير من الناس الودودين في العالم، وكانت مدام ميرليه بعيدة عن أن تكون ودودة بشكلٍ مبتذل، أو فكاهية بشكلٍ مزعج. كانت تعرف كيف تفكر ـ وهو إنجازٌ نادرٌ في النساء؛ وتفكر لغرضٍ وجيه جداً. بالطبع كانت تعرف كيف تشعر أيضاً، إذ لم تتمكن إيزابيل من أن تُمْضي أسبوعاً معها بدون أن تتأكد من ذلك. كانت تلك في الواقع هي الموهبة العظيمة لمدام ميرليه، بل أكثر مواهبها مثاليةً.

كان للحياة تأثير ملحوظ عليها، وقد شعرَتْ بذلك بقوة، وكان من المريح أن تؤخَذ، برفقتها بحيث عندما تحدثَت الفتاة عن ما أعجبها أن تسميه قضايا جديّة، فهمَتْها تلك السيدة بسهولة وبسرعة.

كانت المشاعر قد أصبحت هامّة بالنسبة لها، وهذه حقيقة، فهي لم تُخْفِ أن ينبوع المشاعر لم يجرِ بحرية تماماً كما في الأيام الخوالي، والفضل يعود إلى كونه سُدَّ بعنف قليلاً في إحدى الفترات. كانت قد نَوَتْ، كما هو متوقع، على أن تتوقف عن الشعور. فقد اعترفت بطلاقة بأنها أصبحت مجنونة قليلاً بسبب كبر السن، والآن تتظاهر بأنها عاقلة تماماً.

قالت لإيزابيل: (أنا أكثر حكمة مما اعتدتُ أن أكون. لكن يبدو لي أن المرء قد اكتسبَ ما هو ملائم. فالمرء لا يستطيع أن يصبح حكيماً حتى يصبح في الأربعين. وقبل ذلك نحن مندفعون جداً، متشددون جداً، قساة جداً، وبالإضافة إلى ذلك جهلاء كثيراً جداً. أنا حزينة لأجلكِ، فأمامكِ وقت طويل لتبلغي الأربعين. لكن كل مكسب هو خسارةٌ من نوعٍ ما، فأنا أعتقد مراراً أن بعد سن الأربعين لا يستطيع المرء أن يشعر فعلاً، فالحيوية والتسرّع تتلاشيان بالتأكيد. أنت ستحتفظين بهما لفترة أطول من معظم الناس. سيكون من المريح بالنسبة لي أن أراكِ بعد بضع سنوات من الآن. أريد أن أرى ماذا ستصنع الحياة منكِ. شيء واحد مؤكد ـ وهو أنها لا تستطيع أن تفسدكِ. قد تقسو عليكِ بشكلٍ مزعج، لكن أتحداها أن تكسركِ).

استقبلَت إيزابيل هذا التأكيد كما يستقبل جندي شاب (لا يزال ينبهر بأقل اشتباك ينتصر فيه بشرف) تربيتةً من قائده. فاعتراف كهذا بالتميز بدا وكأنه قد صدر من جهةٍ عليا. وكيف لا يؤثر كلامٌ كهذا على شخصٍ كان مستعداً لأن يقول ـ من بين تقريباً كل ما قالته إيزابيل لمدام ميرليه: (أوه، لقد مررتُ بذلك يا عزيزتي. وقد مرَّ كأي شيء آخر).

كانت مدام ميرليه تُحْدِثُ تأثيراً ساخطاً في الكثير ممن يحاورونها، وكان من الصعب مباغتتها بشكلٍ محرج. لكن إيزابيل في الوقت الحالي لم تمتلك هذا الدافع، رغم أنها لم تكن عاجزة مطلقاً عن الرغبة في أن تصبح مؤثرة. كانت مخلصة جداً ومهتمةً جداً برفيقتها الحكيمة. ثم إن مدام ميرليه علاوة على ذلك لم تقل أبداً أشياء كهذه بنبرة الانتصار أو التباهي، بل صدرت منها كاعترافاتٍ لامبالية.

حلّت على الجاردن كورت فترةٌ من الطقس السيئ؛ فقد ازداد النهار قصراً، وانتهت حفلات الشاي الجميلة على المرج. لكن شابتنا خاضت محادثات طويلة داخل المنزل مع زميلتها الزائرة. ورغم المطر، انطلقتا للسير

وقد تزودنا بالوسائل الدفاعية التي جمعت بين المناخ الإنجليزي والعبقرية الإنجليزية لحد الكمال.

أحبت مدام ميرليه كل شيء تقريباً، من ضمنها المطر الإنجليزي.

قالت: (يوجد دائماً القليل منه وليس الكثير جداً في آنٍ معاً ولا يبللكِ أبداً ورائحته طيبة دائماً).

لقد أعلنت بأن أطايب الروائح في إنجلترا كثيرة ـ لأن في هذه الجزيرة الرائعة يوجد مزيج معين من الضباب والجعّة والسخام، والذي رغم غرابته كان هو العبير الوطني، وكان أكثر قبولاً بالنسبة للأنف. واعتادت على رفع أكمام معطفها البريطاني ودس أنفها فيها مستنشقةً الرائحة الطيبة الخالصة للصوف.

حالما بدأ الخريف بالتعريف عن نفسه، أصبح رالف تاتشيت المسكين سجيناً تقريباً. ففي الطقس السيئ لا يكون قادراً على أن يخطو خطوةً واحدة خارج المنزل، واعتاد أحياناً أن يقف عند إحدى النوافذ ويداه في جيوبه يراقب بمُحَيّا شبه حزين وشبه انتقادي، إيزابيل ومدام ميرليه وهما تسيران في الطريق تحت زوجٍ من المظلات.

كانت الطرقات حول جاردن كورت متماسكة للغاية حتى في أسوأ طقس، بحيث إن السيدتين تعودان دائماً وعلى وجنتيهما لمعانٌ صافٍ وهما تنظران إلى نعال أحذيتهما البرّاقة وتعلنان أن جولتهما قد انتهت على خير بشكلٍ تعجزان عن التعبير عنه.

قبل الغداء دائماً تكون مدام ميرليه مشغولة. وقد أُعجبت إيزابيل بإشغالها النمطي ليومها وحسَدَتْها عليه. بدت بطلتنا دائماً وكأنها شخص ذو دهاء، وافتخرت في كونها داهية. لكنها دارت مثلما تدور حول الجانب الخاطئ لسور حديقةٍ خاصة، أي حول المواهب الخفية والإنجازات وقدرات مدام ميرليه. فوجدت نفسها راغبةً بالاقتداء بها. وبعشرين طريقة كهذه، مثّلَتْ هذه

السيدة نموذجاً. فكانت إيزابيل تهتف في سرّها لأكثر من مرة، كلما يومض رأيٌ تلو الآخر من الآراء الرفيعة لصديقتها، وقبل أن تعرف بمدة طويلة من أنها تعلمت درساً من سلطة عليا: (أودُّ بشدّة أن أكون كذلك!).

في الواقع، لم يتطلب وقتٌ طويل بالنسبة لها لتشعر بأنها، إن صح التعبير، تحت التأثير. فتتساءل: (وما الضرر؟ طالما إنه رأي جيد؟ فكلما كان المرء تحت تأثيرٍ جيد كلما كان أفضل. الأمر الوحيد هو أن نرى خطواتنا عندما نخطوها ـ وأن نفهمها عندما نسير، وذلك هو ما سأفعله دائماً بلا شك. فلا حاجة لأن أكون خائفة من أن أصبح خاضعة جداً. أليس خطئي هو أنني لستُ خاضعة تماماً؟).

لقد قيل بأن التقليد هو أصدق إطراء. فإذا كانت إيزابيل في بعض الأحيان مندفعة بالانبهار بصديقتها بتَوَقٍ وبيأسٍ، فليس السبب أساساً هو رغبتها بالتألق بقدر ما هو رغبتها بأن تحمل المصباح لمدام ميرليه. لقد أحبّتْها بشكلٍ بالغ، لكنها أيضاً كانت مخدوعة أكثر منها منجذبة. كانت تتساءل في بعض الأحيان ماذا كانت ستقول هنريتا ستاكبول لتقديرها الكبير جداً لهذا الثمر المختلف لتربتهما المشتركة[1]. كان لديها اعتقاد بأن هذا الثمر سوف يُحكَم عليه بقسوة، فما كانت هنريتا ستخضع مطلقاً لمدام ميرليه لأسبابٍ لم تتمكن من تحديدها؛ وقد أثّرَتْ هذه الحقيقة في الفتاة. من ناحية أخرى، كانت متأكدة بنفس القدر بأن صديقتها الجديدة، في حال سنحت الفرصة، ستقوم بوصف مشهد مرح عن تقدمها في السن؛ فقد كانت مدام ميرليه خفيفة الدم جداً وسريعة الملاحظة جداً ولن تنصف هنريتا. وعندما ستتعرف إليها كانت على الأرجح ستكشف عن الذوق الذي لن تتمكن الآنسة ستاكبول من أن تأمل بمضاهاته. إذ بدا أنها تملك من خلال خبرتها المعيار لكل شيء،

(1) تقصد بالثمر المختلف مدام ميرليه، والتربة المشتركة هي أميركا، لكونها مختلفة عنها بالآراء رغم أنها من نفس البلد. (المترجمة)

وكانت ستجد في مكانٍ ما من الجيب الواسع لذاكرتها اللطيفة، المفتاحَ لتقدير هنرييتا.

فكرت إيزابيل بشكلٍ متزن: (إن ذلك هو الحدث العظيم، ذلك هو حسن الطالع الأعظم: وهو أن تكون في موقعٍ تقدّر فيه الناس أفضل من موقعهم ليقدروك). ثم أضافت بأن مثل هذا الأمر، عندما يفكر المرء به، هو ببساطة جوهر الأرستقراطية.

لا يمكنني أن أحصي كل الحلقات في السلسلة التي قادت إيزابيل إلى أن تعتبر حالة مدام ميرليه أرستقراطية ـ وهي صورةٌ لم تَظهر أبداً في أية إشارة صادرة من هذه السيدة نفسها. كانت قد عَهِدَتْ أحداثاً عظيمة، وأناساً عظماء، لكنها لم تقم أبداً بدورٍ كبير. كانت واحدةً من المتواضعين على الأرض؛ فهي لم تولد مع لقب شرف؛ وفهمت الحياة كما يجب من أن تدعم أوهاماً سخيفة عن مكانتها فيها. لقد قابلَتْ الكثير من ذوي الحظ القليل، وكانت واعيةً تماماً بتلك النواحي التي تتفاوت فيها حظوظهم عن حظوظها. لكن إن كانت هي من خلال مقاييسها المعلومة ليست ذات مكانة رفيعة، إلا أنها رغم ذلك امتلكَتْ بالنسبة لمخيلة إيزابيل نوعاً من العظمة. فإن تكن مثقفةً ومتحضرةً جداً، حكيمةً جداً وهادئة جداً، ومع ذلك تستخف بذلك بهذه الطريقة، فذلك حقاً يجعلها سيدة عظيمة، خصوصاً عندما تصرّفَتْ وأظهرت نفسها بهذه الطريقة. إن الأمر يشبه وكأنَّ المجتمع الراقي كله قد اجتمعَ فيها بطريقةٍ ما، وكل المهارات والامتيازات التي زاوَلَها ـ أم بالأحرى هل كان تأثير هذه المزاولة الساحرة التي وُجِدَتْ من أجلها عبارة عن خدمة هادئة مقدمة من قبلها، حتى ولو من بعيد، الى عالمٍ صاخب أينما وُجِدَتْ؟

بعد الإفطار، كتبَتْ سلسلة من الرسائل، لأن الرسائل التي تصل إليها بدت لا تُحصى؛ كانت مراسَلاتها مصدراً للدهشة بالنسبة لإيزابيل عندما كانتا أحياناً تسيران معاً إلى دائرة بريد القرية لإيداع بريد مدام ميرليه. كانت

قد عرفَتْ أناساً أكثر مما تعرف ماذا تفعل بهم، كما أخبرت إيزابيل. وإن هناك دائماً شيئاً ما يحدث على غير توقع يجب الكتابة بشأنه. عن الرسم، كانت مولعة به بصدق، ولم ترسم صوراً أكثر من قيامها بخلع قفازيها. كانت في جاردن كورت تستغل دائماً ساعة الشروق وتخرج مع كرسي قابل للطي وعلبة الألوان المائية.

لاحظنا سابقاً بأنها كانت عازفة بارعة، والدليل على ذلك كانت عندما تجلس عند البيانو كما تفعل دائماً في المساء، يستسلم مستمعوها بلا همهمة ليستغرقوا في جمال حديثها. شعرت إيزابيل منذ أن عرفَتْها بالخجل من مهاراتها هي نفسها والتي تنظر إليها الآن على أنها متدنية أساساً. في الحقيقة، رغم أنها كان يُنظَر لها وهي في وطنها على أنها أعجوبة نوعاً ما، إلا أنها عندما احتلت مكانها على التختة الموسيقية وأدارت ظهرها إلى الغرفة، اعتبر الرفاقُ الخسارة أهم عادةً من الفوز.

عندما لا تكتب مدام ميرليه رسائل ولا ترسم ولا تلمس البيانو، تنشغل بأعمال التطريز الفاخر للوسائد والستائر وتزيين رف الموقد، وهي براعةٌ كان فيها ابتكارها الجريء والتلقائي ملفتاً للنظر كخفة حركة إبر تطريزها. لم تكن عاطلة أبداً، فعندما لا تكون مشغولة بأي من الوسائل التي ذكرتُها، كانت إما تقرأ (بدا لإيزابيل بأنها تقرأ «كل شيء مهم»)، أو تتجول خارج المنزل، أو تلعب لعبة السوليتير، أو تتحدث مع رفيقتها النزيلة. وفي كل ذلك، كانت تَضْمُنُ دائماً أن لا يكون الطابع الرسمي غائباً جداً وأيضاً مترسخاً جداً. كانت تتخلى عن هواياتها بنفس السهولة التي تندفع بها؛ كانت تعمل وتتحدث في الوقت نفسه، ويبدو أنها تولي أهمية قليلة لأي شيء تفعله. كانت تتبرع برسوماتها وسجادها؛ تنهض من على البيانو أو تبقى هناك، وفقاً لما يرتاح له مستمعوها، وهو أمرٌ تقدسه دائماً بشكل بديهي.

باختصار، كانت أكثر الأشخاص هدوءاً ونفعاً وانقياداً عاشت معه. إن

أخطأتْ، فالسبب بالنسبة لإيزابيل هو أنها لم تكن على طبيعتها؛ لا تقصد الفتاة بذلك بأنها متصنعة أو مدّعية، لأنه لا يمكن لامرأةٍ أن تكون خالية من هذه العيوب المألوفة، بل لأن طبيعتها قد غُطيت كثيراً جداً بالعُرْف وإن حدّتها قد شُذّبت كثيراً، فأصبحَتْ مدام ميرليه منقادة جداً، ونافعة جداً، بعد إن كانت حادة جداً وقاطعة. باختصار، كانت الحيوان الاجتماعي المثالي جداً الذي من المفترض أن يكون عليه الرجل والمرأة؛ وكانت قد تخلصت من كل ما تبقّى من تلك البربرية الأولية التي نظن بأنها تعود حتى إلى أكثر الأشخاص لطفاً في العصور التي سبقت سيادة حياة الريف.

وجدت إيزابيل أن من الصعب أن تتصورها منعزلةً أو وحيدةً، فقد عاشت فقط في علاقاتها المباشرة وغير المباشرة مع أقرانها من البشر الفانين. قد يتساءل المرء عن العلاقة التي من الممكن أن تتمسك بها في داخلها. رغم ذلك، سينتهي المرء بأن يشعر بأن المظهر الرائع لا يثبت بالضرورة أن الإنسان سطحي، فتلك فكرةٌ وهمية توقَّفَ المرء عن دعمها في شبابه. لم تكن مدام ميرليه سطحية، كلا ليست هي. بل كانت عميقة، وتحدثتْ طبيعتها رغم ذلك عن سلوكها، لأنها تحدثت بلغة مألوفة.

قالت إيزابيل: (ما اللغة في النهاية سوى اصطلاح؟ فهي تمتلك الحس السليم بعدم التظاهر بالتعبير عن نفسها بحركات مبتدعة مثل بعض الناس الذين إلتقيتُ بهم).

في إحدى المرات وجدَتْ فرصةً لتقول لصديقتها، كردٍّ على أحد التلميحات التي بدت متمادية كثيراً: (أخشى بأنكِ عانيتِ كثيراً).

فسألت مدام ميرليه وهي تبتسم بابتهاج كشخصٍ متواجدٍ في لعبة التخمين: (ما الذي جعلكِ تعتقدين ذلك؟ أرجو أن لا يكون لدي انحناءة الرأس التي يتسم بها الأشخاص المُساء فهمهم).

(كلا، ولكنكِ أحياناً تقولين أشياء تجعلني أعتقد بأن الناس السعداء دوماً لن يُخلَقوا)..

قالت مدام ميرليه وهي لا تزال مبتسمة لكن بجاذبيةٍ ساخرة كما لو أنها تخبر طفلاً سراً: (أنا لم أكن سعيدة دوماً. وهذا أمرٌ رائع).

لكن إيزابيل ترفَّعَتْ عن السخرية: (هناك الكثير من الناس يعطونني انطباعاً بأنهم لم يشعروا بأي شيء ولو للحظة).

ـ (هذا صحيح جداً، فهناك قدورٌ حديدية أكثر بكثير من الخزفية بالتأكيد. لكن يمكنكِ أن تثقي بأن كل واحد يحمل علامةً ما، حتى أقوى القدور الحديدية بها خدش صغير أو ثقب في مكانٍ ما. أنا أهنئ نفسي بأنني قوية قليلاً، لكن إن كان يجب أن أقول لكِ الحقيقة، فأنا متشظية ومتصدعة بشكلٍ صاعق. مع ذلك أعمل جيداً لأنه تم ترميمي ببراعة وأحاول أن أبقى في الخزانة ـ الخزانة الهادئة والمظلمة حيث رائحة التوابل العفنة ـ قدر استطاعتي. لكن عندما يجب أن أخرج إلى النور الساطع ـ عندئذٍ يا عزيزتي، سأرتعد!).

لا أدري أفي هذه الفرصة أم في فرصةٍ أخرى عندما اتخذتْ هذه المحادثة الانعطافة التي أشرتُ إليها للتو أخبرَتْ إيزابيل بأنها ستقوم يوماً ما بالكشف عن حكايةٍ ما. وأكّدَتْ لها إيزابيل بأنها ستُسر بسماع الحكاية وذكَّرَتْها لأكثر من مرة بهذا الوعد. مع ذلك، توسلت مدام ميرليه بشكلٍ متكرر لتأجيل الأمر. وفي النهاية أخبرَتْ مرافقتَها الشابة بصراحة بأن عليهما أن تنتظرا حتى تتعرفا على بعضهما البعض بشكلٍ أفضل. سوف يحدث ذلك بالتأكيد، إذ تمتد أمامهما صداقةٌ طويلة الأمد بوضوح. وافقت إيزابيل، لكن في الوقت نفسه تساءلَتْ فيما إذا لم يكن موثوقاً بها ـ أو فيما إذا بدت قادرة على خيانة الثقة.

أجابت زميلتها الزائرة: (لستُ خائفةً من إفشائكِ لما أقول. بل على العكس، أنا خائفة من استئثاركِ به كثيراً جداً. إذ ستحكمين عليّ بقسوةٍ جداً، فأنتِ في مرحلة العمر القاسي).

ففضَّلَتْ في الوقت الحالي أن تتحدث مع إيزابيل عن إيزابيل وأظهرَتْ أعظم الاهتمام بقصة بطلتنا ومشاعرها وآرائها وتطلعاتها. لقد جعلتْها تثرثر

وأصغت إلى ثرثرتها عن طيب خاطر لانهائي. فاستهوى ذلك الفتاة وزاد من حماستها، وكانت مندهشة من كل أولئك الناس الذين كانت تعرفهم صديقتها، وبمعيشتها، كما قالت السيدة تاتشيت، مع أفضل الرفاق في أوروبا.

اعتدّت إيزابيل بنفسها أكثر لاستحسانها شخصاً لديه نطاق واسع جداً من المقارنة؛ وقامت بالالتجاء عادةً إلى مخزون الذكريات لتُشبع ربما إلى حدٍّ ما إحساس الانتفاع من هذه المقارنة.

كانت مدام ميرليه تقيم في العديد من البلدان الأوربية، ولديها علاقات اجتماعية في دولٍ مختلفة كثيرة جداً. كانت ستقول: (أنا لا أدَّعي بأنني متعلمة، لكنني أعتقد بأنني أعرف قارتي أوروبا).

تحدثَتْ في أحد الأيام عن الذهاب إلى السويد لتقيم مع صديقةٍ قديمة، وفي يومٍ آخر عن الذهاب إلى مالطا لتبحث عن معارف جدد. بالنسبة لإنجلترا، حيث اعتادت أن تقيم، كانت معروفةً بشكلٍ واسع. ولمساعدة إيزابيل، قامت بإلقاء الكثير من الضوء على عادات البلاد وشخصيات الناس الذين «في النهاية» كما تحب أن تقول، كانوا أكثر أناس مريحين في العالم تعيشين معهم.

ـ (لا يجب أن تعتقدي بأن بقاءها هنا في وقتٍ كهذا هو أمرٌ غريب. أي عندما يتوفى السيد تاتشيت) هذا ما قالته زوجة ذلك الرجل لابنة أختها. (إنها عاجزة عن ارتكاب خطأ واحد. إنها أكثر النساء التي أعرفهن تهذيباً. إنه لشرفٌ لي أن تبقى. إنها تؤجل الكثير من الزيارات لبيوتٍ عظيمة) قالت السيدة تاتشيت ذلك وهي التي لم تنسَ أبداً أنها عندما كانت في إنجلترا انحدرت قيمتها الاجتماعية درجتين أو ثلاثاً في المقياس. (إن لها انتقاءها الخاص للأماكن. إنها ليست بحاجةٍ إلى مأوى، لكنني طلبتُ منها أن تتدخل في هذا الوقت لأنني أرغب منكِ بأن تتعرفي عليها. أعتقد بأنه سيكون أمراً مناسباً بالنسبة لكِ. إن سيرينا ميرليه ليس بها مثلب).

ردت إيزابيل: (لو لم أُحْبِبْها كثيراً مسبقاً لأفزعني هذا الوصف).

ـ (إنها «لا تخطئ» مطلقاً مثقال ذرة. لقد أتيتُ بكِ إلى هنا وأرغب بعمل ما هو أفضل لصالحكِ. لقد أخبرَتْني أختكِ ليلي بأنها تأمل أن أمنحكِ الكثير من الفرص. أنا أمنحكِ فرصة بجعلكِ تتعلقين بمدام ميرليه. فهي واحدة من ألمع النساء في أوروبا).

ألحّتْ إيزابيل في القول: (أحببتُها أكثر مما أحببتُ وصفكِ عنها).

ـ (هل تسايرين نفسكِ بأنكِ ستشعرين يوماً بأنها عرضة للانتقاد؟ أتمنى أن تُعْلِميني عندما تفعلين ذلك).

قالت إيزابيل: (سيكون ذلك قاسياً عليكِ).

ـ (لستِ بحاجة لتحذّريني. فلن تكتشفي فيها مثلباً).

ـ (ربما. لكنني أتجرأ وأقول بأنني لن أفشل في ذلك).

قالت السيدة تاتشيت: (إنها تعرف كل شيء تماماً على الأرض يجب معرفته).

بعد ذلك، نبَّهَتْ إيزابيل رفيقتها بأنها أرادت أن تُعْلِمَها بأن السيدة تاتشيت ترى مثاليتها بلا مثلب والذي عليه أجابت مدام ميرليه: (أنا ممتنة لكِ، لكنني أخشى أن خالتكِ تعتقد أو على الأقل تلمّح إلى أن واجهة الساعة لا تشير إلى عدم وجود خلل).

ـ (إذن أنت تقصدين بأن لديكِ جانباً شريراً خفيّاً عنها؟).

ـ (آه، لا، أخشى أن جوانبي الأكثر ظلمة هي الأكثر ضعفاً. بل أقصد أن عدم وجود مثالب بالنسبة لخالتكِ يعني أن لا يتأخر المرء عن موعد العشاء ـ ذلك بالنسبة لعشائها هي. بالمناسبة، أنا لم أكن متأخرة في اليوم السابق عندما عدتُ من لندن، فالساعة كانت الثامنة تماماً عندما دخلتُ إلى غرفة الاستقبال، وفترة استراحتكِ هي التي كانت مبكرة. ويعني أن المرء يجيب على الرسالة

في اليوم الذي يتسلمها. ويعني أن المرء عندما يأتي ليمكث معها يجب أن لا يجلب الكثير جداً من الأمتعة وأن يحرص على أن لا يمرض. فبالنسبة للسيدة تاتشيت تشكّل هذه الأمور فضيلة، ومن الخير أن تكون قادراً على اختصارها إلى أقل ما يمكن).

سيُلاحَظ أن حديث مدام ميرليه كان غنياً بلمسات جريئة وتلقائية والتي حتى وإن امتلكت تأثيراً محدوداً فلم يخطر لإيزابيل أبداً بأنها لمسات ذات طبيعة مشاكسة. إذ لا يمكن أن يخطر للفتاة على سبيل المثال أن الضيفة المثالية للسيدة تاتشيت كانت تسيء إليها، وذلك لأسباب وجيهة جداً. في المقام الأول، شمخَتْ إيزابيل بلهفة بإحساس تميُّزها؛ في المقام الثاني لمَّحتْ مدام ميرليه إلى أن هناك المزيد يجب قوله؛ وكان واضحاً في الثالث أنه عندما يتحدث شخصٌ لامرئٍ بدون رسميات عن أقارب المرء، فهو علامة مقبولة على تآلف المرء معه. وتتضاعف علامات التآلف العميق هذه بمرور الأيام، ولم تكن إيزابيل مدركةً لأي واحدة منها أكثر من إدراكها لرغبة رفيقتها بجعل الآنسة آرتشر نفسها محور الحديث. على الرغم من أنها أشارت وبشكل متكرر إلى أحداث رحلتها، إلا أنها لم تكف عن ذلك؛ إذ كانت متبجحة كثيراً مثلما كانت نمّامة تافهة. كانت تقول أكثر من مرة: (أنا كبيرة في السن وواهنة وذاوية. أنا لا أثير الاهتمام أكثر من صحيفة الأسبوع الفائت. أما أنت فشابة وحيوية وابنة اليوم. أنت تملكين أهم شيء ـ تمتلكين الحقيقة. لقد امتلكتُها يوماً ـ كلنا نمتلكها لساعة واحدة. مع ذلك، فأنتِ ستمتلكينها لمدةٍ أطول. دعينا نتحدث عنكِ إذن، فأنتِ لن تقولي شيئاً لا يهمني سماعه. إنها علامة على أنني أكبر في السن ـ علامة على أنني أودّ أن أتحدث إلى أناسٍ أصغر سناً، أعتقد بأنه تعويضٌ لطيف جداً. فإن كنا لا نمتلك الشباب داخلنا، فيمكننا أن نحصل عليه من الخارج، وأنا أعتقد فعلاً بأننا بهذه الطريقة نفهمه ونشعر به بشكلٍ أفضل. يجب علينا أن ننسجم معه طبعاً، وهذا ما سوف أفعله دائماً.

لا أتصور بأنني سأكون يوماً ما سيئة الطبع مع الكبار في السن ـ لا أرجو ذلك، فهناك بالتأكيد أناس كبار في السن أعشقهم. لكنني مع الشباب لن أكون سوى متواضعة، فهم يؤثرون بي ويروقون لي كثيراً جداً، وهكذا أنا أمنحكِ سلطة مطلقة. يمكنكِ حتى أن تكوني وقحة لو شئتِ، فسأتجاوز عن ذلك وأُفسدكِ بشكلٍ مريع. أنا أتحدث وكأنني بعمر المائة عام، هل ترين؟ حسناً، أنا، من فضلكِ، ولدتُ قبل الثورة الفرنسية. آه يا عزيزتي لقد جئتُ من بعيد، أنا أنتمي إلى هذا العالم، العالم القديم. لكن ليس ذلك هو ما أريد التحدث عنه، أنا أريد أن أتحدث عن العالم الجديد. يجب أن تخبرينني أكثر عن أميركا، فأنتِ لم تخبريني بما يكفي. لقد كنتُ هنا منذ أن جِيء بي إلى هنا كطفلة ضعيفة، وأنه من السخيف، أو بالأحرى من المشين، أنّ ما أعرفه هو القليل عن ذلك البلد الرائع، المهيب، العجيب ـ وبلا شك أعظم وأكثر البلاد كلها ظرافة. يوجد الكثير منا على هذا المنوال في هذه النواحي، ويجب علي أن أقول بأننا مجموعة شريرة من الناس. يجب عليكِ أن تعيشي في بلدكِ الأم. فمهما كانت، فمكانكِ الطبيعي هناك. لو لم نكن أميركيين صالحين فنحن بالتأكيد أوروبيون مستضعفون. فليس لدينا مكان طبيعي هنا. نحن مجرد طفيليات تزحف فوق السطح، فأساسنا غير راسخ. يستطيع المرء أن يشعر بذلك على الأقل ولا يتخيله. ربما يمكن للمرأة أن تتكيف مع ذلك، إذ يبدو لي أن المرأة ليس لديها مكان طبيعي في أي مكان. فأينما توجد، عليها أن تبقى على السطح وأن تزحف بصورةٍ أو بأخرى. هل تعترضين يا عزيزتي؟ هل أنت مرتعبة؟ هل ستصرحين بأنكِ لن تزحفي أبداً؟ الشيء الواقعي هو أنني لا أراكِ تزحفين، بل تقفين واثقة النفس أكثر من العديد من المخلوقات المستضعفة. حسن جداً، أنا على العموم لا أعتقد بأنكِ ستزحفين. لكن دعيني أسألكِ، ما الذي يفعله الرجال الأميركيون هنا؟ أنا لا أحسدهم وهم يحاولون تنظيم أنفسهم. انظري إلى رالف تاتشيت المسكين؛ ماذا تسمين هذا النوع من الشخصية؟ لحسن الحظ أنه مصاب بالسلّ. أقول لحسن الحظ لأنه يمنحه شيئاً يفعله. فمرض

السل هو مهنته. إنه نوع من العمل. يمكنكِ أن تقولي: «أوه إن السيد تاتشيت يعتني برئتيه ويعرف الكثير عن المناخ». لكنه بدون ذلك من سيكون وماذا كان سيمثل؟ «السيد رالف تاتشيت: أميركي يعيش في أوروبا». إن ذلك لا يعني شيئاً مطلقاً ـ فذلك مستحيل، فأي شيء سيعني أقل من ذلك. سيقولون: «إنه مثقف، ولديه مجموعة جميلة جداً من من علب الاستنشاق القديمة». إن هذه المجموعة هي كل ما هو مطلوب ليجعل الأمر باعثاً على الشفقة. أنا ضجرة من صدى الكلمة، أعتقد بأنها غريبة. الأمر بالنسبة للأب العجوز مختلف؛ فهو له هويته، وهي جليلةٌ بعض الشيء. فهو يمثل مؤسسة مالية ضخمة، وهذا الأمر في أيامنا جيد مثل أي شيء آخر. فبالنسبة لأمريكي، سينفع ذلك بأي حال من الأحوال. لكنني أُصرُّ على الاعتقاد بأن ابن خالتكِ محظوظ جداً لإصابته بمرضٍ مزمن منذ مدة طويلة جداً لأنه لا يموت بسببه. إنه أفضل بكثير من علب الاستنشاق. ستقولين بأنه لو لم يكن مريضاً، فهل كان سيفعل شيئاً؟ كان سيحلّ محل والده في المنزل. يا طفلتي المسكينة أنا أشك في ذلك. فأنا لا أعتقد بأنه مولع بالمنزل بأي شكل من الأشكال. مع ذلك، فأنتِ تعرفينه أكثر مني، وإن اعتدتُ أن أعرفه جيداً إلى حدٍّ ما، وقد يكون لديه ميزة الشك. أعتقد بأن أسوأ شيء هو صديقٌ لي، من نفس بلدنا، يعيش في إيطاليا (حيث جيء به هو أيضاً قبل أن يبلغ رشده) وواحدٌ من أكثر الرجال المثيرين للإعجاب الذين أعرفهم. يجب أن تتعرفي عليه يوماً. سأجمع بينكما وعندئذٍ ستفهمين ما أقصده. إنه جيلبرت أوزموند ـ ويعيش في إيطاليا. ذلك هو كل ما يمكن أن يقوله المرء عنه أو يستنتج بشأنه. إنه بارع بإفراط، رجلٌ خُلق ليصبح متميزاً. لكن، مثلما أقول لكِ، ستستنفدين عبارات الوصف عندما تقولين بأنه السيد أوزموند الذي يعيش بشكلٍ طائش في إيطاليا. فهو بلا مهنة، ولا اسم، ولا مرتبة اجتماعية، ولا ثروة، ولا ماضٍ، ولا مستقبل، ولا أي شيء. أوه، نعم، من فضلكِ، إنه يرسم ـ يرسم بالألوان المائية، مثلي، أفضل مني فقط. إن رسمه سيّئ إلى حدٍّ بعيد. بالمجمل، أنا مسرورة نوعاً ما بذلك. لحسن

الحظ أنه كسول جداً، كسول جداً بحيث بلغ مكانة رفيعة في ذلك. يمكنه أن يقول: «أوه، أنا لا أعمل شيئاً. فأنا كسول جداً بشكلٍ مفرط. لا يمكنكَ أن تفعل شيئاً اليوم ما لم تنهض في الساعة الخامسة صباحاً». إنه بهذه الطريقة يكون استثنائياً، وسوف تشعرين بأنه قد يفعل شيئاً ما لو نهض باكراً فقط. إنه لا يتحدث أبداً عن رسوماته ـ إلى الناس بالعموم. إنه بذلك بارع جداً. لكن لديه فتاة صغيرة ـ فتاة صغيرة غالية، إنه يتحدث عنها، إنه مخلص لها. ولو كانت الأبوة مهنة، لأصبح أباً ممتازاً، فهو متميز فيها للغاية. لكنني أخشى بأن ذلك ليس أفضل من علب الاستنشاق، ربما حتى ليست جيدة تماماً. أخبريني ماذا يفعلون في أميركا؟).

تابعت مدام ميرليه التي لم تُدْلِ في الحال بكل هذه الأفكار دفعةً واحدة، والتي قُدِّمَتْ في مجموعة واحدة من أجل راحة القارئ. تحدثتْ عن فلورنسا حيث عاش السيد أوزموند، وحيث شغلت السيدة تاتشيت قصراً يعود للعصور الوسطى. وتحدثتْ عن روما حيث امتلكَتْ منزلاً مؤقتاً صغيراً مزيّناً بالحرير الدمشقي القديم الجيد نوعاً ما. تحدثَتْ عن الأماكن، وعن الناس، وحتى، إنْ صح التعبير، عن «أناسٍ معينين»، وتحدثت من حينٍ لآخر عن مضيّفهما العجوز اللطيف وإمكانية شفائه. كانت تعتقد منذ البداية بأن هذه الإمكانية ضئيلة، وكانت إيزابيل مندهشة للطريقة الأكيدة والمتحاملة والمقتدرة التي قدَّرَتْ ما تبقى من حياته. في أحد المساءات أعلنَتْ بشكلٍ واضح بأنه لن يعيش، إذ قالت: (لقد أخبرني السيد ماثيو هوب ذلك صراحةً قبل العشاء وهو يقف هناك قرب المدفأة. إن هذا الطبيب العظيم مقتنع جداً. أنا لا أقصد بأن قوله له علاقة بذلك، لكنه يقول أشياء كهذه بلباقة كبيرة. لقد أخبَرْتُه بأنني شعَرْتُ بالاضطراب في هدوئي ببقائي هنا في مثل هذا الوقت، وأن الأمر بدا لي غير حكيم بالمرة ـ لقد بدا وكأنني لا أبدي الاهتمام، فأجاب: «يجب أن تبقي، يجب أن تبقي. فمهمتكِ ستحين لاحقاً». ألم تكن تلك طريقة

رقيقة جداً للقول إن السيد تاتشيت المسكين سيرحل وإنني سأصبح ذات فائدة كمُعَزِّية؟ في الواقع لن أكون ذات أدنى فائدة، فخالتكِ ستعزّي نفسها. فهي، وهي فقط، من يعلم تماماً كم ستحتاج من العزاء. بالنسبة لشخصٍ آخر سيكون أمراً حساساً جداً أن يأخذ على عاتقه التحكم بالجرعة. أما بالنسبة لابن خالتكِ فسيكون الأمر مختلفاً، وسيفتقد والده بشدة. لكنني لن أتجرأ وأشفق على السيد رالف، فنحن لسنا متفاهمَيْن).

أشارت مدام ميرليه لأكثر من مرة إلى بعض الخلافات المبهمة في علاقتها برالف تاتشيت، لذا استغلت إيزابيل هذه الفرصة لتسألها فيما إذا لم يكونا صديقين حميمَيْن.

ـ (جداً. لكنه لا يحبني).

ـ (ماذا فعلتِ له؟).

ـ (لا شيء مطلقاً. لكن لن يحتاج المرء إلى سببٍ لذلك).

ـ (سبب لأن يحبكِ؟ أعتقد بأن المرء بحاجة لسببٍ وجيهٍ جداً).

ـ (أنتِ لطيفةٌ جداً. تأكدي بأن يكون لديكِ سبب جاهز لليوم الذي تبدئين فيه).

ـ (أبدأُ فيه بكرهكِ؟ لن أبدأ بذلك أبداً).

ـ (لا أرجو ذلك. لأنكِ إن فعَلْتِ ذلك فلن تنتهي أبداً. إنه كذلك بالنسبة لابن خالتكِ. فهو لم يتجاوز الأمر. إن ذلك هو تنافر الطبائع ـ إن أمكنني تسميته كذلك عندما يكون الحق إلى جانبه. ليس لدي بتاتاً أي شيء ضده ولا أحمل تجاهه أدنى ضغينة ليظلمني. فالإنصاف هو كل ما أطلبه. رغم ذلك، يشعر المرء بأنه رجل نبيل ولن يقول أبداً أي شيء ماكر عني. إنه إنسان واضح جداً).

تابعت مدام ميرليه الكلام بسرعة: (أنا لستُ خائفةً منه)..

قالت إيزابيل التي أضافت شيئاً عن كونه ألطف مخلوق حي: (أرجو ذلك حقاً)..

مع ذلك، فقد تذكرَتْ عندما سألَتْهُ أول مرة عن مدام ميرليه بأنه أجابها بطريقةٍ توحي إلى أن تلك السيدة مؤذية، بدون أن يكون محدداً في الإجابة. فقالت إيزابيل لنفسها بأن هناك شيئاً ما بينهما. لكنها لم تقل أكثر من ذلك. لأنه لو كان شيئاً ذا أهمية، لاستدعى الاحترام. وإن لم يكن كذلك فلن يستحق فضولها.

مع كل حبها للمعرفة، فقد امتلكت نفوراً طبيعياً من رفع الستائر والنظر إلى الأركان المظلمة. فقد ترافَقَ حب المعرفة في ذهنها مع أدنى إمكانية للجهل.

لكن مدام ميرليه قالت أحياناً أشياء أرعَبَتْها وجعلَتْها ترفع حاجبيها الناصعين دهشةً في حينها وتفكر بالكلام بعدئذٍ. ففي إحدى المرات انفجرت بمرارةٍ كانت متخفية بشكلٍ غير جيد، وإن خُفِّفَتْ بغزارة هدوئها المعتاد: (سأمنحُ الكثير لأصبح في عمركِ ثانيةً. عندها فقط سأتمكن من البدء ثانيةً ـ لو كانت لديّ حياة طويلة أمامي!).

أجابت إيزابيل بلطف، لأنها كانت خائفة ومندهشة قليلاً: (لا تزال الحياة أمامكِ).

ـ (كلا. فأفضل جزء قد انقضى. وقد انقضى بلا فائدة).

قالت إيزابيل: (مؤكَّد أنه لم ينقضِ بدون فائدة).

ـ (لماذا ـ ما الذي حصلتُ عليه؟ لا زوج، ولا طفل، ولا ثروة، ولا رتبة اجتماعية، ولا آثار الجمال الذي لم أمتلكه أبداً).

ـ (لديكِ العديد من الأصدقاء يا سيدتي العزيزة).

فصاحت مدام ميرليه: (لستُ متأكدةً من ذلك!).

ـ (آه، أنت مخطئة. فلديكِ ذكريات، ومحاسن، ومواهب....).

لكن مدام ميرليه قاطعتها: (ماذا جلبَتْ لي مواهبي؟ لا شيء سوى الحاجة إلى استخدامها ثانيةً لأضيّع الساعات، والسنوات، لأخدع نفسي بحجة أن أتحرك، أن أشعُر. أما بالنسبة لمحاسني وذكرياتي، فكلما أتحدثُ عنها أقلّ كلما كان ذلك أفضل. ستكونين صديقتي حتى تجدي فائدة أفضل لصداقتكِ).

قالت إيزابيل: (لن أفعل ذلك عندئذٍ لتري بأنني أفعله لأجلكِ. نعم. كنتُ سأبذل جهداً للاحتفاظ بكِ).

فنظرت رفيقتُها بعبوس: (عندما قلتُ بأنني كنتُ سأودّ أن أكون بعمركِ، قصدتُ بصفاتكِ ـ صريحةً، كريمةً، صادقةً مثلكِ. في هذه الحالة كنتُ سأفعل شيئاً أفضل بحياتي).

ـ (وما الشيء الذي كنتِ ستفعلينه لم تكوني قد فعلتِهِ؟).

أخذت مدام ميرليه مخطوط الموسيقى ـ كانت جالسةً عند البيانو وقد استدارت بسرعة على المقعد حيث تحدثَتْ لأول مرة، وقامت تلقائياً بتقليب الصفحات.

فأجابت أخيراً: (أنا طموحةٌ جداً!)

ـ (ألم تُشبعي طموحاتكِ؟ لا بدّ أنها عظيمة).

ـ (كانت عظيمة. سوف أجعل من نفسي أضحوكة بالتحدث عنها).

فتساءلت إيزابيل ماذا يمكن أن تكون ـ هل كانت مدام ميرليه تتطلع لارتداء التاج؟

ـ (لا أعلم ما هي فكرتكِ عن النجاح. لكنكِ بالنسبة لي تبدين ناجحة. أنت صورة حية للنجاح بالنسبة لي).

ألقت مدام ميرليه مخطوطة الموسيقى بعيداً بابتسامةٍ.

ـ (ما هي فكرتكِ أنت عن النجاح؟).

ـ (ستعتقدين بوضوح بأنها لا بدّ وستكون فكرة غير ممتعة. إنها أن تَرَيْ

حلماً من أحلام شبابكِ يتحقق) صاحت مدام ميرليه: (آه، إن هذا هو ما لم أرَه! لكن أحلامي كانت عظيمةً جداً ـ منافية للعقل تماماً. فلتسامحني السماء، فأنا أحلم الآن!)

وعادت واستدارت نحو البيانو وبدأت بالعزف بشكلٍ رائع.

في اليوم التالي، قالت لإيزابيل بأن فكرتها عن النجاح كانت جميلة جداً. مع ذلك فهي حزينة بشكلٍ يبعث على الخوف. فإن قسناها بهذه الطريقة فمن الذي ينجح؟ إن أحلام المرء وهو شاب، عجباً، ستكون ساحرة، ستكون سماوية! فمن رأى أشياء كهذه تتحقق يوماً؟.

تجرأت إيزابيل بالإجابة: (أنا ـ القليل منها).

ـ (الآن؟ لا بدّ أنها كانت أحلام الأمس).

ابتسمت إيزابيل: (بدأتُ أحلم وأنا طفلة).

ـ (آه، إن كنتِ تقصدين تطلعات طفولتكِ ـ بأن تحصلي على وشاح زهري اللون ودمية يمكنها غلق عينيها).

ـ (كلا، لا أقصد ذلك).

ـ (أو شاب ذي شاربٍ جميل يركع على ركبتيه من أجلكِ).

صرحت إيزابيل بتأكيدٍ أكثر ثباتاً: (كلا، وليس هذا أيضاً).

بدا على مدام ميرليه أنها لاحظت هذه الحماسة.

ـ (أشك في أن هذا هو ما تقصدينه. فكلنا قد حظي بذلك الشاب ذي الشارب. إنه الشاب الحتمي. إن ذلك لا يُحتسب).

صمتت إيزابيل قليلاً، لكن بعد ذلك تحدثت بلا منطقية بالغة ومميزة: (لِمَ لا يُحتسب؟ فهناك أنواع من الشبّان).

فسألت صديقتُها ضاحكةً: (والشاب الذي تقصدينه هو المثالي ـ هل هذا هو ما تعنين؟ لو كنتِ قد حظيتِ بالشاب المثالي الذي حلمتِ به فسيُعتبر

ذلك نجاحاً، وأنا أهنئكِ من كل قلبي. لكن في هذه الحالة، لِمَ لم تطيري معه إلى قلعته في جبال الأبينيني؟).

ـ (ليس لديه قلعة في الأبينيني).

ـ (ماذا لديه؟ بيت قرميدي قبيح في شارع أربعين؟ لا تقولي لي ذلك. فأنا أرفض أن أعتبر ذلك كمثال نموذجي).

قالت إيزابيل: (لا يهمني بيته مطلقاً).

ـ (تلك فظاظة كبيرة منكِ. عندما تعيشين بقدر ما عشتُ أنا فسوف تفهمين بأن لكل كائن بشري قوقعته، وأنه يجب عليكِ أن تأخذي القوقعة بالحسبان. أقصد بالقوقعة هو ما يحيط به من الظروف بشكلٍ عام. فلا يوجد شيء اسمه رجل منعزل أو امرأة منعزلة. فكل واحد منا مكوّنٌ من مجموعة من الانتماءات. ماذا سنسمّي «النفس» التي تعود لنا؟ من أين تبدأ؟ إلى أين تنتهي؟ إنها تملأ كل شيء يعود لنا ـ ومن ثم تندفع عائدةً مرة ثانية. أنا أعرف جانباً كبيراً من نفسي في الملابس التي أختار أن أرتديها. لدي احترام كبير للأشخاص! إن نفس المرء ـ بالنسبة لأناس آخرين هي تعبير المرء عن نفسه؛ منزله، أثاثه، ثيابه، الكتب التي يقرؤها، الأصدقاء الذين يحتفظ بصداقتهم ـ كل هذه الأمور أشياء يمكن التعبير عنها).

كان ذلك نظرياً جداً. مع هذا، فهو ليس أكثر من ملاحظات متعددة أبدتها مدام ميرليه مسبقاً. كانت إيزابيل مولعة بالنظريات، لكنها كانت عاجزة عن مواكبة صديقتها مع هذا التحليل الجريء للشخصية البشرية.

ـ (أنا لا أتفق معكِ. أنا أفكر بطريقة أخرى تماماً. لا أعلم فيما إذا كنتُ ناجحة في التعبير عن نفسي، لكنني أعرف بأنه لا يوجد شيء آخر يعبّر عني. فلا شيء يعود لي هو مقياسٌ لي؛ بل على العكس، فكل شيء يمثل إطاراً، حاجزاً، وحاجزاً اعتباطياً تماماً. فالملابس التي مثلما ذكرتِ، أختارُ أن أرتديها، لا تعبّر عني بالتأكيد، ومعاذ الله إنْ عبَّرَتْ عني!)

قاطعتها مدام ميرليه بلطف: (أنتِ ترتدين بأناقة).

ـ (ربما. لكنني لا أهتم أن يحكم أحدٌ عليّ من خلال ذلك. فملابسي قد تعبّر عن من يصنعها لكنها لا تعبّر عني. فهي أولاً وأخيراً ليست خياري الخاص بأن أرتديها، بل مفروضة عليّ من قبل المجتمع).

تساءلت مدام ميرليه بنبرةٍ أنهت تقريباً النقاش: (هل كنتِ تفضّلين أن تخرجي بدونها؟).

أنا ملزمٌ بأن أعترف بأن إيزابيل لم تقل لها شيئاً بتاتاً عن اللورد واربيرتون، وكانت كتومةً بنفس القدر بشأن موضوع كاسبار غودوود رغم أن ذلك قد يُلقي ببعض التشويه على الوصف الذي منحتُهُ عن صدق الشباب الذي تصرَّفَتْ به بطلتنا مع هذه المرأة البارعة. مع ذلك، فهي لم تُخْفِ حقيقة أنها حظيتْ بفرص زواج، وحتى أنها أعلمَتْ صديقتها كم كانتا مناسِبتين.

كان اللورد واربيرتون قد غادر لوكلي وذهب إلى اسكتلندا آخذاً معه أخواته. وعلى الرغم من أنه كتب لرالف أكثر من مرة يسأله عن صحة السيد تاتشيت، إلا أن الفتاة لم تكن هدفاً لإحراج تساؤلاتٍ كهذه، لأنه لو كان متواجداً في الجوار فسيشعر على الأرجح بأنه ملزم بأن يسأل عنها شخصياً. كانت لديه أساليب رائعة، لكنها شعرت بأنها متأكدة من أنه لو أتى إلى جاردن كورت لرأى مدام ميرليه، وأنه إذا رآها فسيحبها وسيبلغها بأنه كان واقعاً في غرام صديقتها الشابة. صادف أنه أثناء الزيارات السابقة لهذه السيدة إلى جاردن كورت والتي كانت كل زيارة منها أقصر بكثير من الزيارة الحالية ـ أنه يكون إما غير متواجد في لوكلي أو لا يتم استدعاؤه لمنزل السيد تاتشيت. لذلك فلن يكون لديها سبب في أن تشك في أنه خاطِبٌ لابنة أخت السيدة تاتشيت المستوردة حديثاً، على الرغم من أنها عرفَتْهُ بالاسم على أنه الرجل المهم لتلك البلاد.

قالت لإيزابيل كردٍّ على الثقة المبتورة التي أبدتها شابتنا والتي لم تتظاهر بأنها مثالية رغم أننا رأينا بأن الفتاة في لحظاتٍ معينة ندمت لقولها الكثير:

(لديكِ الكثير من الوقت. أنا مسرورة بأنكِ لم تفعلي شيئاً بعد ـ والذي يجب أن تفعليه ثانيةً. من المناسب جداً للفتاة أن ترفض بعض عروض الزواج المناسبة ـ طالما طبعاً ليست هي أفضل ما تحظى به. اعذريني إن بدت نبرتي شريرة بشكلٍ مريع، فعلى المرء أحياناً أن يتبنى وجهة النظر الخبيرة بالحياة. لكن لا تستمري بالرفض من أجل الرفض. إنها ممارَسةٌ لطيفة للقوة، لكن في النهاية تكون الموافقة هي ممارسة للقوة أيضاً. هناك دائماً خطر الرفض معظم الأحيان. لم يكن ذلك هو الخطر الذي وقعتُ فيه ـ أنا لم أرفض مراراً بما يكفي. أنت مخلوقة رائعة وأرغب أن أراكِ متزوجة من رئيس وزراء. لكن إن تحدثنا على نحو دقيق، كما تعلمين، فأنتِ لستِ ما يُسمى اصطلاحياً بالزوجة المناسبة. فأنتِ جميلة للغاية وذكية للغاية؛ أنت في داخلكِ استثنائية جداً. تبدين بأن لديكِ أكثر الأفكار ضبابية عن ممتلكاتكِ الدنيوية. لكن ما يمكنني استنتاجه هو أنكِ لستِ متضايقة مالياً. أتمنى أن تحصلي على قليلٍ من المال.

قالت إيزابيل ببساطة، متناسيةً بوضوح لوهلةٍ أن فقرها كان بالنسبة لرجلين نبيلين عيباً طفيفاً: (أتمنى ذلك).

لم تبقَ مدام ميرليه حتى النهاية رغم النصيحة الكريمة للسيد ماثيو هوب، لأن قضية مرض السيد تاتشيت المسكين أصبحت معلومة الآن بوضوح. كانت تحت وعودٍ لأناسٍ آخرين يجب أن توفي بها في النهاية. وغادرت جاردن كورت على اتفاق بأنها سترى السيدة تاتشيت هناك ثانيةً مهما كانت الظروف، أو في المدينة قبل أن تترك إنجلترا. كان افتراقها عن إيزابيل يشبه تماماً بداية صداقة أكثر مما هو لقاءٌ حصل بينهما.

ـ (أنا ذاهبة إلى ستة أماكن بالتتابع. لكنني لن أرى شخصاً أحبه كثيراً مثلكِ. سيصبحون جميعهم أصدقاء قدامى، فالمرء لا يُكوِّن صداقاتٍ جديدة في سنّي. لقد عملتُ استثناءً كبيراً لأجلكِ، يجب أن تتذكري ذلك. ويجب أيضاً أن تفكري فيَّ قدر الإمكان. يجب أن تكافئيني من خلال الإيمان بي).

فقبَّلَتْها إيزابيل من قبيل الإجابة. على الرغم من أن بعض النساء تُقبِّل بعضها طواعيةً، إلا أن هناك قبلات مختلفة، وكان هذا العناق مُرضياً لمدام ميرليه.

بعد ذلك، كانت سيدتنا الشابة وحيدة كثيراً؛ كانت ترى خالتها وابن خالتها عند وجبات الطعام فقط. واكتشفَتْ أن الساعات التي كانت السيدة تاتشيت غائبة فيها، هناك جزء صغير منها فقط مُكرَّس الآن للعناية بزوجها. وأمضت الباقي في حجراتها الخاصة ـ التي لم يكن الدخول إليها مسموحاً حتى لابنة أختها ـ منشغلةً هناك بوضوح بممارساتٍ غامضة ومبهمة.

عند المائدة، تكون جديّة وصامتة، لكن جديتها لم تكن موقفاً ـ بل تمكنت إيزابيل من أن تلاحظ بأنها عقيدة. فتساءلَتْ فيما إذا كانت خالتها قد ندمت بتبنّيها لطريقتها الخاصة كثيراً، لكن لم يكن يوجد دليل مرئي على ذلك ـ لا دموع، لا تنهدات، لا مبالغة في العصبية كافٍ بالنسبة لإحساسها. بل بدت السيدة تاتشيت فقط تشعر بالحاجة إلى التأمل في الأمور واختصارها؛ فقد امتلكَتْ دفتر كشف حساب للأخلاق ـ بأعمدة مُسطَّرة بدون خطأ وقفل معدني حاد ـ احتفظَتْ به بإتقانٍ أمثل. فقد امتلَكَ التأمل المُصَرَّح به بالنسبة لها وبكل الأحوال طابعاً عملياً.

قالت لإيزابيل بعد أن غادرت مدام ميرليه المنزل: (لو توقعتُ ذلك ما كنتُ سأقترح مجيئكِ من خارج البلاد الآن. لكنتُ قد تريثتُ وأرسلْتُ بطلبكِ في العام القادم).

ـ (بهذه الطريقة ربما ما كنتُ سأتعرّف على زوج خالتي؟ إنه لسرورٌ كبير بالنسبة لي أن آتي الآن).

ـ (ذلك جيد جداً. لكنني لم آتِ بكِ إلى أوروبا لتتعرفي إلى زوج خالتكِ).

كلامٌ صادقٌ تماماً، لكن ليس في الوقت المناسب، مثلما فكرَتْ إيزابيل. كان لديها وقت فراغ لتفكر في ذلك وفي أمور أخرى. كانت تتنزه بمفردها كل

يوم، وتقضي ساعاتٍ قليلة في تقليب الكتب الموجودة في المكتبة. من بين المواضيع التي حازت اهتمامها، كانت مغامرات صديقتها الآنسة ستاكبول التي تراسلها بانتظام. لقد أحبت إيزابيل النمط الخاص لرسائل صديقتها أكثر من نمط رسائلها إلى الصحيفة؛ وشعرَتْ بأن رسائلها إلى الصحيفة ستكون ممتازة ما لم تُطبَع. رغم ذلك، لم تكن مهنة هنرييتا ناجحة جداً كما كان يُتَمَنّى حتى على مستوى سعادتها الشخصية؛ فموضوع الحياة داخل المنزل في بريطانيا العظمى والذي كانت متلهفة جداً لتتولاه، قد بدا يتراقص أمامها كخصلةٍ من الشعر. إذ لم تصل أبداً الدعوة من السيدة بينسل لأسباب غامضة، وكان السيد بانِلِنْج المسكين نفسه بكل براءته اللطيفة، عاجزاً عن تفسير إهمالٍ جسيم كهذا لرسالةٍ كانت قد أُرسلَتْ بشكلٍ واضح. لقد تأثّر بقضية هنرييتا بوضوح واعتَقَدَ بأنه مدينٌ لها بتعويضٍ عن هذه الزيارة الوهمية إلى بيدفورد شاير. كتبَتْ هنرييتا: (إنه يقول بأنه يعتقد بأن عليّ أن أذهب إلى البر الرئيسي؛ ولأنه يفكر بالذهاب إلى هناك، أعتقد بأن نصيحته صادقة. إنه يريد أن يعرف لماذا لا أتخذ موضوع الحياة الفرنسية؛ وفي الحقيقة أرغب بأن أرى الجمهورية الجديدة كثيراً. لا يهتم السيد بانِلِنْج كثيراً بشأن الجمهورية، لكنه يفكر بالذهاب إلى باريس على أية حال. لا بدّ أن أقول بأنه مجاملٌ جداً بقدر ما تمنيتُ، وعلى الأقل رأيتُ رجلاً إنجليزياً مهذباً واحداً. أنا أقول دائماً للسيد بانِلِنْج بأنه يُستحسَن أن يكون أميركياً، يجب أن تَرَيْ كم يسعده ذلك. وكلما أقول له ذلك، يندفع دائماً بنفس الهتاف «حقاً، هيا إذن!»).

بعد بضعة أيام، كتبَتْ بأنها قررت الذهاب إلى باريس في نهاية الأسبوع وأن السيد بانِلِنْج وَعَدَ بأن يوصلها وربما حتى يذهب معها إلى دوفر. وأضافت هنرييتا بأنها ستذهب إلى باريس حتى وصول إيزابيل، وهي تتحدث بالضبط وكأنّ إيزابيل ستبدأ رحلتها عبر أوروبا بمفردها ولم تلمّح إلى السيدة تاتشيت. أوصلت بطلتُنا بعض الفقرات من هذه المراسلات إلى رالف وهي

تعرف اهتمامه برفيقتهما الجديدة، والذي تابَعَ بانفعالٍ شبيه بالغضب مهنة ممثلة صحيفة الإنترفيور، فقال: (يبدو لي بأنها أحسنتْ صنعاً بذهابها إلى باريس مع فارسٍ[1] سابق! فإن أرادت أن تكتب عن شيء ما، فلديها فقط هذا الحدث لتصفه).

أجابت إيزابيل: (إن الأمر ليس مألوفاً بالتأكيد، لكن إن كنتَ تقصد بأن ذلك ليس بريئاً تماماً ـ طالما أنه متعلق بهنرييتا ـ فأنتَ مخطئٌ تماماً. أنت لا تعرف هنرييتا أبداً).

ـ (أرجوكِ، أنا أفهمها تماماً. لم أكن في البداية كذلك مطْلقاً، لكن الآن لدي وجهة نظر. أخشى أن بانِلنْج لن يفهمها. قد يكون لديه بعض المفاجآت. أوه، أنا أفهم هنرييتا وكأنني أنا من صنعها!).

لم تكن إيزابيل متأكدة من ذلك تماماً، لكنها امتنعت عن التعبير عن شكّها أكثر من ذلك لأنها كانت في تلك الأيام ميّالة إلى وهب محبة كبيرة لابن خالتها.

في أحد المساءات، وبعد مغادرة مدام ميرليه بأقل من أسبوع، كانت جالسةً في المكتبة مع كتابٍ لم يكن اهتمامها فيه مُركّزاً. جلست على دكّة النافذة التي من خلالها نظَرَتْ خارجاً إلى الحديقة الكئيبة الرطبة. ولأن المكتبة منتصبة بزاوية قائمة لواجهة مدخل المنزل، تمكنت من رؤية عربة الطبيب التي كانت تنتظر للساعتين الأخيرتين أمام الباب. كانت مندهشة لبقائه طويلاً إلى هذا الحد، لكن أخيراً رأته وهو يظهر في المدخل، يقف لبرهةٍ وهو يخلع على مهل قفازيه وينظر إلى ركبتي حصانه، ومن ثم يصعد العربة ويغادر.

---

(1) فارس: هي مرتبة من مراتب الشرف البريطانية، ويمنحها العاهل البريطاني. ويُعتبر وسام الفارس أقدم نوع من أوسمة الفرسان البريطانية. (المترجمة)

لازمت إيزابيل مكانها لنصف ساعة، كان هناك هدوءٌ شديد في المنزل. كان شديداً جداً لدرجة أنها عندما سمعَتْ أخيراً خطوةً رقيقة خفيضة على السجاد الوثير للغرفة ارتعدَتْ قليلاً من الصوت. فالتفتت بسرعة مبتعدةً عن النافذة، ورأت رالف تاتشيت واقفاً هناك ويداه ما زالتا في جيوبه، لكن بوجهٍ خالٍ تماماً من ابتسامته الباهتة المعتادة. فنهضَتْ وكانت حركتها ونظرتها تتساءلان. فقال رالف: (لقد انتهى الأمر).

ـ (هل تقصد بأن زوج خالتي....؟) وتوقفت إيزابيل عن الكلام.

ـ (مات أبي العزيز منذ ساعة).

ـ (آه، رالفي المسكين!)

فانتحبَتْ برفق وهي تمدّ يديها الاثنتين إليه.

***

الفصل 20

بنحو أسبوعين بعد ذلك سارت مدام ميرليه في عربتها إلى المنزل الواقع في ميدان وينتشستر، فلاحظَتْ وهي تنزل من عربتها لوحاً خشبياً كبيراً أنيقاً مُعلقاً بين نوافذ غرفة الطعام مكتوبٌ على خلفيته السوداء بالطلاء الأبيض الكلمات ـ «هذا القصر الفخم ملكٌ صرف للبيع»، مع اسم السمسار الذي يجب تقديم الطلب إليه.

قالت الزائرة وهي تنتظر أن يُسمح لها بالدخول بعد أن قرعَتْ المقرعة الكبيرة للباب والمصنوعة من البراص[1]: (إنهم لا يضيعون الوقت بتاتاً. إنه بلدٌ عملي!).

وفي داخل المنزل، لاحظَتْ وهي تصعد إلى غرفة الطعام دلالات عديدة على ترك المنزل؛ لوحاتٌ أُزيلت من على الجدران وموضوعةٌ فوق الأرائك، نوافذ بلا ستائر، وأرضٍ عارية.

استقبلَتْها السيدة تاتشيت في الحال وصرَّحَتْ بكلماتٍ قلائل إلى أن التعازي أمرٌ مفروغٌ منه: (أعلم ما ستقولين ـ بأنه كان رجلاً طيباً جداً. لكنني أعرف ذلك أكثر من أي شخص لأنني منحتُهُ أكبر فرصة ليُظهِر ذلك. وفي هذا أعتقد بأنني كنتُ زوجةً طيبة).

ثم أضافت السيدة تاتشيت أنه قد فهم بوضوح هذه الحقيقة في النهاية:

---

(1) البراص: هي سبيكة مصنوعة من النحاس والخارصين وتسمى بالنحاس الأصفر. (المترجمة)

(لقد عاملَني بأقصى حرية. لن أقول أكثر حرية مما انتظرتُ، لأنني لم أنتظر شيئاً. أنت تعلمين بأنني عموماً لا أنتظر شيئاً. لكنه، على ما أعتقد، قرر أن يفهم حقيقةَ أنه رغم أنني عشتُ خارج البلاد كثيراً واندمجتُ ـ يمكنكِ أن تقولي بحرية ـ مع الحياة الأجنبية، إلا أنني لم أُظهِر أبداً أدنى تفضيلٍ لأي أحدٍ آخر).

قالت مدام ميرليه في نفسها: (لأي أحدٍ آخر سوى نفسكِ)؛ لكن هذه الفكرة كانت غير مسموعة تماماً.

واصلت السيدة تاتشيت الكلام بأسلوبها الجاف العنيد: (لم أُضَحِّ أبداً بزوجي لأجلِ شخصٍ آخر).

فكّرت مدام ميرليه: (أوه، لا، أنت لم تفعلي أبداً أي شيء لأجل أي شخصٍ آخر!)

كانت هناك سخرية مؤكَّدة في تلك التعليقات الصامتة والتي تتطلب تفسيراً، وخصوصاً أنها لا تتطابق مع الصورة ـ السطحية قليلاً ربما ـ التي استمتعنا بها لحد الآن عن شخصية مدام ميرليه؛ ولا مع الأحداث الواقعية لتاريخ السيدة تاتشيت؛ وخصوصاً أيضاً لأن مدام ميرليه امتلكت قناعة راسخة بأن تلميح صديقتها الأخير لا يَظهَر بتاتاً كتهجّم مجحفٍ عليها. إن الحقيقة هي أن في اللحظة التي تخطَّتْ فيها العتبة، تلقَّت انطباعاً بأن موت السيد تاتشيت كانت له تبعات ملحوظة، وأن هذه التبعات كانت نافعة لحلقةٍ ضيقة من الأشخاص الذين لم تكن محسوبةً بينهم. إن ذلك بالطبع كان حدثاً سيمتلك بشكل طبيعي تبعات؛ هذا ما استقرت عليه تصوراتُها لأكثر من مرة على هذه الحقيقة خلال إقامتها في جاردن كورت. لكن أن تتكهَّن بأمرٍ كهذا ذهنياً شيء وأن تقف بين وقائعه الهائلة شيء آخر. ففكرة توزيع الأملاك ـ التي كانت ستطلق عليها تقريباً غنائم ـ قد ضغط الآن على مشاعرها وأزعجها بشعور الإقصاء.

أنا بعيد عن رغبتي بتصويرها كأحد الأفواه الجائعة أو القلوب الحاسدة لعصابة كبيرة، لكننا نعرف مسبقاً عن امتلاكها لرغباتٍ لم تُشبَع أبداً. لو سُئِلَتْ لأقرَّتْ بالطبع وبابتسامة رقيقة متكبرة بأن ليس لديها أدنى حق في حصة تركة السيد تاتشيت؛ ولقالت: (لا يوجد بيننا أي شيء مطلقاً، لا يوجد. يا للرجل المسكين!) ـ وهي تنقر الإبهام والوسطى[1].

أُسارعُ وأضيف علاوةً على ذلك بأنها إنْ عجزَتْ في الوقت الحالي عن الامتناع عن الرثاء بشكلٍ أحمق، فإنها كانت حريصة على أن لا تكشف نفسها. في النهاية، تعاطفَتْ كثيراً مع ما حصلَتْ عليه السيدة تاتشيت بقدر ما خَسِرَتْهُ.

قالت المترمِّلة حديثاً: (لقد ترك لي هذا المنزل. لكنني طبعاً لن أعيش فيه، فلدي منزل أفضل منه كثيراً في فلورنسا. لقد فُتحت الوصية منذ ثلاثة أيامٍ فقط، لكنني عرضتُ المنزل للبيع مسبقاً. لدي أيضاً حصّة في البنك، لكنني لا أعلم بعد إن كان يجب أن أتركها هناك؛ وإن لم أتركها فسأسحبها بالتأكيد. يمتلك رالف طبعاً الجاردن كورت، لكنني لستُ متأكدة بأنه سيمتلك الوسيلة للاحتفاظ بالمكان. لقد أصبح غنياً طبعاً، لكن والده ترك مقداراً هائلاً من المال، فهناك تركات لسلسلة من أبناء العم من الجيل الثالث في فيرمونت. إن رالف مولع جداً بجاردن كورت، وسيصبح مؤهلاً تماماً للعيش هناك ـ في الصيف ـ مع خادمة تعمل كل شيء، وصبي بستاني).

أضافت السيدة تاتشيت: (هناك بند واحد ملفت للنظر في وصية زوجي. لقد ترك لابنة أختي ثروة).

كررت مدام ميرليه الكلام بلطف: (ثروة!)

ـ (لقد حصلت إيزابيل بسهولة على ما يعادل تقريباً سبعين ألف باوند).

فاشتبكت يدا مدام ميرليه في حضنها ورفعتهما وهما كذلك، أي لا زالتا

(1) أي تقرع بأصابعها دلالة على الفرح. (المترجمة)

مشتبكتين، لبرهةٍ نحو صدرها، بينما ثَبَّتَتْ عينيها اللتين توسعتا قليلاً على عينيّ صديقتها وصاحت: (آه، المخلوقة الحاذقة!).

نظرت إليها السيدة تاتشيت بسرعة: (ماذا تعنين بذلك؟).

احمرَّتْ مدام ميرليه قليلاً خجلاً وأخفضَتْ عينيها.

ـ (من الحذق قطعاً الظفر بنتائج كهذه ـ بدون جهد!).

ـ (بالتأكيد لم يكن هناك جهد. لكن لا تسميه ظفراً).

كانت مدام ميرليه مذنبة قليلاً بسبب إحراج التراجع عن ما قالَتْهُ؛ وظهرت حكمتها قليلاً في الثبات عليه ووضعه في صورة أفضل.

ـ (يا صديقتي العزيزة، ما كان سيُتْرَكُ لإيزابيل بالتأكيد سبعون ألف باوند لو لم تكن أكثر الفتيات سحراً في العالم. فسحرها يتضمن حذقاً كبيراً).

قالت السيدة تاتشيت: (أنا متأكدة بأنها لم تحلم أبداً بأن يفعل زوجي أي شيء لأجلها. وأنا أيضاً لم أحلم بذلك لأنه لم يتحدث إليّ أبداً عن نيّته. إذ ليس لها حقّ عليه بتاتاً. فكونها ابنة أختي لم يكن استحساناً كبيراً بالنسبة له. وأيّاً كان ما حصلَتْ عليه فقد حصلَتْ عليه بدون قصد).

ردت مدام ميرليه: (آه، تلك هي أعظم الخبطات!).

تحفَّظَت السيدة تاتشيت على رأيها.

ـ (إن الفتاة محظوظة، لا أنكر ذلك؛ لكن في الوقت الحاضر هي مذهولة تماماً).

ـ (هل تعنين بأنها لا تعلم ماذا تفعل بالمال؟)

ـ (أعتقد بأنها بالكاد فكرت الأمر. إنها لا تعلم ماذا تنوي عن الموضوع أساساً؛ وكأنَّ مسدساً كبيراً أُطلق منه النار خلفها وتتحسس نفسها لترى إن كانت قد أُصيبت. إنها فقط ثلاثة أيام منذ أن تلقَّتْ زيارة من المُنَفِّذ المفوَّض الذي أتى شخصياً وبشهامة كبيرة ليبلغها بذلك. أخبرني بعد ذلك بأنه عندما

ألقى خطابه القصير انفجرَتْ فجأة بالبكاء. يجب أن يبقى المال في البنك وعليها أن تسحب الفائدة).

هزت مدام ميرليه رأسها بابتسامة حكيمة، والآن بابتسامة حنونة جداً.

ـ (كم هو لذيذ جداً! بعد أن تفعل ذلك مرتين أو ثلاثاً سوف تعتاد عليه).

ثم بعد برهة صمت سألت بسرعة: (ما هو رأي ابنكِ عن الأمر؟)

ـ (لقد ترك إنجلترا قبل أن تُقرأ الوصية ـ أسرَعَ إلى الجنوب بسبب الإعياء والقلق. إنه في طريقه إلى الريفيرا ولم أسمع عنه لحدّ الآن. لكن ليس من المحتمل أنه سيعترض يوماً على أي شيء فعله والده).

ـ (ألم تقولي بأن حصته قد انخفضت؟)

ـ (بناءً على رغبته فقط. أنا أعلم بأنه حثَّ والده على أن يفعل شيئاً لأهل أميركا. فهو ليس مدمناً على تقديم مصلحته على مصلحة الشخص الآخر).

قالت مدام ميرليه: (ذلك يعتمد على من يعتبره الشخص الآخر!).

وبقيت متأملة لوهلة، وأرخت نظرها نحو الأرض. في النهاية سألت وهي ترفعهما: (ألا يمكنني أن أرى ابنة أختكِ السعيدة؟).

ـ (يمكنكِ أن تريها. لكنكِ لن تكوني مندهشة من سعادتها. فقد بدت كئيبة في هذه الأيام الثلاثة مثل عذراء تشيمابو![1]).

ورنَّت السيدة تاتشيت لاستدعاء الخادم.

دخلت إيزابيل فوراً بعد أن أُرسل الخادم ليستدعيها. عندما ظهرت إيزابيل، فكرت مدام ميرليه بأن تشبيه هذه السيدة له قوته؛ فقد كانت الفتاة شاحبة ورزينة ـ وهو أثرٌ لم يخففه حزنُها العميق. لكن ابتسامةَ لحظاتها الأكثر إشراقاً تخللت محيّاها عندما رأت مدام ميرليه التي تقدمت نحوها ووضعت

(1) عذراء تشيمابو: هي لوحة لمريم العذراء رسمها الفنان الفلورنسي تشيمابو (1302 ـ 1240) وتظهر فيها العذراء وهي حزينة. (المترجمة)

يدها على كتف بطلتنا. بعد أن ظلت تنظر إليها لبرهة قبّلَتْها وكأنها تردُّ القبلة التي كانت قد تلقَّتْها منها في جاردن كورت. كانت هذه هي الإشارة الوحيدة التي أبدتها زائرتنا بذوقها الرفيع في الوقت الحالي لميراث صديقتها الشابة.

لم يكن للسيدة تاتشيت العزم على الانتظار في لندن لبيع منزلها. فبعد أن اختارت من بين أثاثها الأشياء التي رغبت بنقلها إلى مسكنها، تركت باقي محتوياته ليتم التخلص منها من قبل بائع المزاد العلني، وغادرتْ إلى أوروبا. كانت ترافقها في هذه الرحلة طبعاً ابنة أختها التي تمتلك الآن الكثير من وقت الفراغ لتقدِّر وتفكر ملياً ومن ناحية أخرى لتتصرف في الكسب المفاجئ الذي هنأتها عليه مدام ميرليه تلميحاً.

فكرت إيزابيل مراراً بتولّيها لهذه الموارد المالية وهي تنظر إليها بألف صورة مختلفة؛ لكننا لن نحاول الآن أن نتتبع سلسلة أفكارها أو أن نفسّر بالضبط لِمَ كان شعورها الجديد في البداية ثقيل الوطأة. في الحقيقة، لم يكن هذا الإخفاق في الوصول إلى السعادة الفورية سوى إخفاق قصير الأمد؛ فقد قررت الفتاة فوراً أنها أن تكون غنيّة معناه أن تكون قوية، لأن ذلك يعني أنها ستكون قادرة على أن تُنجز، ومعنى أن تنجز لهو أمرٌ رائع. كان ذلك هو النقيض الجميل للجانب الأحمق من الضعف ـ خاصةً الجنس الأنثوي. فبالنسبة لشابةٍ رقيقة، أن تكون ضعيفةً هو من المحاسن نوعاً ما، لكن في النهاية هناك محاسن أكبر من ذلك، كما قالت إيزابيل لنفسها. في الحقيقة، لم يكن يوجد الآن الكثير لعمله ـ فقط مرةً واحدة أرسلتْ شيكاً إلى ليلي وآخر إلى إيديث المسكينة ـ سوى أنها كانت ممتنة للأشهر الهادئة التي أجبرَتْهُما ثياب حدادها والترمُّل الحديث لخالتها على أن يقضياها سويةً.

إن استحواذها على القوة جعلها جادّة؛ إذ تفرَّسَتْ في قوتها بنوعٍ من الضراوة الرقيقة، لكنها لم تكن متلهفة لممارستها. في نهاية الأمر بدأت تفعل

ذلك أثناء فترة مكوثٍ أمدها بضعة أسابيع مع خالتها في باريس، وإن بأساليب بدت تافهة حتماً.

كانت تلك الأساليب هي تلك المفروضة بشكل طبيعي في مدينةٍ فيها المتاجر موضع إعجاب العالم، والتي حُدِّدَتْ بدون تحفُّظ بإرشاد السيدة تاتشيت التي نظرَتْ إلى تحوُّل ابنة أختها من فتاةٍ فقيرة إلى فتاةٍ غنية نظرة عملية بشكلٍ متزمت، فقالت لإيزابيل بشكلٍ حاسم: (الآن أنت شابة غنية، وعليكِ أن تعرفي كيف تلعبين الدور ـ أعني أن تلعبيه جيداً). وأضافت إن أول واجبات الفتاة هو أن تحظى بكل شيء جميل. واصَلَتِ الكلام: (أنتِ لا تعرفين كيف تهتمين بأموركِ. لكن يجب عليكِ أن تتعلمي)، كان هذا هو واجب إيزابيل الثاني. أذعَنَتْ إيزابيل، لكن في الوقت الحالي لم تكن مخيلتها متأججة؛ صحيح أنها تطلَّعَتْ إلى الفرص، لكن لم تكن تلك هي الفرص التي تقصدها.

نادراً ما غيَّرَتِ السيدة تاتشيت مخططاتها؛ ولأنها نَوَتْ قبل وفاة زوجها أن تقضي جزءاً من فصل الشتاء في باريس، فلم تَرَ سبباً من أن تحرم نفسها ـ وأيضاً من أن تحرم رفيقتها ـ من هذه الفائدة. على الرغم من أنهما كانتا ستعيشان في عزلة كبيرة، إلا أنه لا يزال يمكنها أن تقدّم ابنة أختها بشكل غير رسمي إلى الدائرة الضيقة من أبناء بلدها الذين يسكنون ضواحي الشانزليزيه. كانت السيدة تاتشيت متآلفة مع العديد من أولئك ساكني المستعمرات الودودين. لقد شارَكَتْهم غربتهم وقناعاتهم وتسلياتهم ومَلَلهم. رأتهم إيزابيل يأتون بمثابرةٍ كبيرة إلى فندق خالتها، وتتحدث معهم بثقة تُعزى بلا شك للإعلاء المرحلي لإحساسها بالواجب الإنساني. كانت ترى بأن حياتهم رغم أنها مترفة، إلا أنها فارغة، وجلبت لنفسها بعض الازدراء بتعبيرها عن هذا الرأي في أمسيات الأحد الصافية عندما يكون الأميركيون المتغيبون منشغلين بزيارة أحدهم الآخر. رغم أن مستمعيها بدوا أناساً لطفاء بشكلٍ نموذجي من

خلال طهاتهم وخيّاطيهم، إلا أن اثنين أو ثلاثة منهم يعتقدون بأن أداءها الذي كان معترفاً به عموماً هو أدنى من أداء المقطوعات المسرحية الجديدة.

لقد أعجبها أن تسأل: (أنتم كلكم تعيشون هنا على هذا الطريق، لكن إلامَ يؤدي؟ لا يبدو بأنه يؤدي إلى شيء، وأعتقدُ بأنكم ستتعبون جداً منه).

فكّرت السيدة تاتشيت بأن هذا السؤال جديرٌ بهنريتا ستاكبول، فقد وجدت السيدتان هنريتا في باريس، ورأتها إيزابيل باستمرار بحيث كان لدى السيدة تاتشيت سبب لتقول لنفسها بأنه إذا لم تكن ابنة أختها بارعة تماماً لتؤلّف تقريباً أي شيء، لكان من المحتمل أنها استعارت نمط الكلام هذا من صديقتها الصحفية.

كانت أول مناسبةٍ تحدثتْ عنها إيزابيل هي زيارة قامت بها السيدتان للسيدة لوس، وهي صديقة قديمة للسيدة تاتشيت والإنسانة الوحيدة في باريس التي ذهبت الآن لرؤيتها. كانت السيدة لوس تعيش في باريس منذ أيام لويس فيليب[1]. اعتادت أن تقول مزاحاً بأنها كانت واحدة من جيل 1830 ـ وهي مزحة لم يكن المقصود منها مفهوماً دائماً؛ وعندما يُخفَق في فهمها اعتادت أن تفسر «أوه نعم، أنا واحدة من الرومانسيين).[2]

لم تصبح لغتها الفرنسية أبداً مثالية تماماً. كانت تتواجد دائماً في البيت في مساءات الأحد ومحاطة بمواطنين عطوفين مثلها عادةً. في الحقيقة، كانت متواجدة في البيت معظم الأوقات، وتتحدث بصوابٍ مثير للدهشة، وهي في ركنها الصغير الوثير عن المدينة المتألقة، بالنبرة المحلية لمدينتها الأصلية بالتيمور. دفع هذا السيدَ لوك زوجها الفاضل، وهو رجلٌ طويل ونحيل ويسير

(1)لويس فيليب: ملك فرنسي حكم فرنسا 18 عاماً من 1830 وحتى 1848. (المترجمة)

(2)ظهرت في فرنسا في أواخر القرن 18 حركة فنية، أدبية، فكرية اسمها الحركة الرومانسية، وصلت ذروة ازدهارها في ما بين 1840 ـ 1800 والتي تسمى الفترة الرومانسية، من أعضائها جان جاك روسو وفولتير. (المترجمة)

بخفة ويرتدي نظاراتٍ ذهبية ويدفع قبعته قليلاً خلف رأسه، إلى الامتداح الأفلاطوني فقط لـ «تسالي» باريس ـ كانت تلك هي عبارته المهمة ـ لأنكَ ما كنتَ لتظنّ أبداً من خلال ما يهتم به أن يلتجئ إليها.

كانت إحداها هي ذهابه كل يوم إلى منطقة المصرفي الأميركي حيث يتحرّى عن مكتب بريد يكون تقريباً كمؤسسة عامة فيها أناسٌ يخالطهم تشبه بلدة ريفية أميركية. كان يُمضي ساعة واحدة (في الجو اللطيف) على كرسي في الشانزليزيه ويتعشى على نحوٍ رائع على طاولته الموضوعة فوق أرضية مشمعة والتي كان من سعادة السيدة لوس أن تعتقد بأنها أكثر الأرضيات الصقيلة جاذبية من أية واحدة أخرى في العاصمة الفرنسية. في أحيانٍ نادرة جداً يتعشى مع صديقٍ أو اثنين في كافيه أونغليه حيث موهبته في تنسيق العشاء كانت مصدر سعادة لرفاقه وموضع إعجاب حتى بالنسبة لرئيس نُدُل المطعم.

كانت تلك هي تساليه الوحيدة المعروفة، لكنها سلبت وقته لما يزيد على النصف قرن وبررت بلا شك تصريحاته المتكررة بأنه لا يوجد مكان يشبه باريس. استناداً إلى هذه الشروط، تمكَّنَ السيد لوس من أن يجامل نفسه بأنه لم يتمكن من الاستمتاع بالحياة في مكانٍ آخر. وأنه لايوجد شيء يشبه باريس. لكن يجب الاعتراف بأن السيد لوس أصبح أقل احتراماً لهذه الصورة من تساليه مما هو في الأيام المبكرة.

لا يجب إلغاء آرائه السياسية من قائمة مصادر تساليه، لأنها بلا شك كانت المبدأ المحرك لأوقاته العديدة التي بدت ظاهرياً شاغرة. وكالعديد من زملائه ساكني المستعمرات، كان السيد لوس من المحافظين المتزمتين ـ أو بالأحرى المتعمقين، ولم يؤيد الحكومة المتأسسة حديثاً في فرنسا. لم يكن يؤمن باستمراريتها، وكان سيؤكد لكَ سنة بعد أخرى بأن نهايتها وشيكة. كان يقول بشكلٍ متكرر عن الشعب الفرنسي: (إنهم بحاجة إلى أن يُردَعوا يا سيد. لأن يُردَعوا. ولا شيء سينفع معهم سوى السيطرة القوية ـ الكعب الحديدي).

وكان مثاله النموذجي لحُكْم بارع رائع رفيع هو حكم الإمبراطورية المُنحَلّة. كان السيد لوس يقول دائماً للسيّدة تاتشيت، التي كانت على نفس طريقته تماماً في التفكير ورغبت أن تبيّن أن ما جعل المرء يجتاز المحيط الأطلسي البغيض ذاك لم يكن سوى ليتخلص من الجمهوريين: (إن باريس أقل جاذبية بكثير مما في عهد الإمبراطور. فقد عَرَفَ كيف يجعل المدينة مريحة. لقد رأيتُ يا مدام وأنا جالسٌ في الشانزليزيه مقابل قصر الصناعة[1] عجباً؛ رأيتُ عربات البلاط من قصر التويلري وهي تمرُّ غدوّاً ورواحاً سبع مرات في اليوم. وأتذكر في إحدى المناسبات عندما مرت تسع منها. والآن ماذا ترين؟ لا فائدة من الكلام، فقد اختفى هذا النمط تماماً. لقد عرف نابليون ماذا كان يريد الشعب الفرنسي، وستبقى هناك غيمة داكنة فوق باريس، باريسنا، حتى يستعيدوا الإمبراطورية ثانيةً).

كان من بين زوّار السيدة لوس في مساءات الأحد رجلٌ شاب حظيت معه إيزابيل بقدر كبير من الحديث، ووجَدَتْهُ يستوعب معرفةً قيمة. إنه السيد إدوارد غوزييه[2] ـ أو نيد غوزييه كما كان يُدعى ـ كان من أبناء نيويورك، ونشأ في باريس. يعيش هناك تحت رعاية والده الذي صادف أنه كان صديقاً مبكراً ومقرباً للسيد آرتشر الراحل.

تذكَّرَ إدوارد غوزييه إيزابيل وهي فتاة صغيرة؛ فقد كان والده هو من أنقذ الأخوات آرتشر الصغيرات في الحانة في نيوشاتل (كان مرتحلاً في ذلك الاتجاه مع الصبي، وتوقف عند الفندق بالصدفة) بعد أن هربت خادمتهم مع الأمير الروسي وعندما بقي مكان السيد آرتشر سراً لبضعة أيام.

---

(1) هي قاعة عرض في باريس تقع بين نهر السين والشانزليزيه بُنيت عام 1855 من أجل معرض باريس العالمي رغبةً من نابليون الثالث بإظهار تفوق الفرنسيين على معرض لندن الكبير الذي سبقه بأربع سنوات. (المترجمة)

(2) غوزييه: في الأصل روزييه، لكن الفرنسيين يلفظون حرف الراء غيناً في هذا الاسم، فارتأينا أن نكتب لفظ الاسم وهو غوزييه. (المترجمة)

تذكرت إيزابيل تماماً الطفل الصغير الأنيق الذي كانت رائحة شعره طيبة وله لوحده خادمة سُمح لها بأن تتوارى عن نظره بدون أي استفزاز.

تجولت إيزابيل مع قرينها بجانب البحيرة، وتذكَرَتْ إدوارد الصغير وهو جميل كالملاك ـ وهو تشبيهٌ لم يكن مألوفاً إطلاقاً في ذهنها لأنه كان لديها مبدأ واضح جداً عن نوعية الصفات التي افترَضَتْها ملائكية والتي يمثّلها صديقها الجديد بشكلٍ مثالي؛ فوجهٌ زهري اللون صغير متوَّج بقلنسوة مخملية زرقاء ومتزينٌ بياقةٍ صلبة مطرّزة، يليق بمظهر أحلامها الطفولية، وعندما أخبرها إدوارد غوزييه بأنه كان «في حماية» خادمته ليذهب قرب حافة البحيرة وأن على المرء دائماً أن يمتثل لخادمته، تخيلتْ بشدة لبعض الوقت بعد ذلك بأن الحشود السماوية تتحدث فيما بينها بلكنة بسيطة رديئة من الفرنسية ـ الإنجليزية مُعَبِّرَةً عن أصدق عواطفها.

كانت إنجليزية نيد غوزييه قد تحسنت وأظهرت على الأقل التباين الفرنسي بدرجة أقل. كان والده قد توفي، وخادمته صُرفت من العمل، لكن الشاب لا يزال يحترم روح تعاليمها ـ لم يذهب أبداً إلى حافة البحيرة. هناك أيضاً شيء جميلٌ بشأن فتحتي أنفه، شيء ليس بشعاً بالنسبة لشخصٍ نبيل. كان شاباً لطيفاً ومهذّباً، وذا تذوُّق للمعرفة مثلما يُقال ـ معرفة بالخزفيات القديمة، بالخمور الفاخرة، بتجليد الكتب، بأنساب ملوك أوروبا ونبلائها، بأفضل المتاجر، بأفضل الفنادق، أوقات وصول ومغادرة قطارات السكة الحديدية. بإمكانه أيضاً أن ينسق العشاء مثل السيد لوس تقريباً، وكان بإمكانه من خلال تراكم الخبرة أن يكون خليفة حقيقياً لذلك الرجل الذي دعم أيضاً آراءه السياسية الصارمة نوعاً ما بعباراتٍ سهلة وبسيطة. كانت لديه حجرات رائعة في باريس مزينة بالمخرم الإسباني القديم، وأعلنت صديقاته الحسودات بأن رف موقده كان مكسواً بشكل أفضل من الأكتاف العالية للعديد من الدوقات. مع ذلك،

كان يُمضي عادةً جزءاً من كل شتاء في مدينة بو[1]، وفي إحدى المرات قضى شهرين في الولايات المتحدة.

اهتم كثيراً بإيزابيل وتذكَّر تماماً الرحلة إلى نيوشاتل عندما كانت ستصرّ على الذهاب قريباً جداً من الحافة. لقد بدّ أنه فهم هذا الإصرار نفسه في تساؤلها الهدّام الذي ذكَرْتُهُ قبل قليل، وتهيّأ ليجيب على سؤال بطلتنا بدماثة كبيرة أكثر مما استحقّهَ ربما: (إلى أين تؤدي يا آنسة آرتشر؟ عجباً، إن باريس تؤدي إلى كل مكان. لا يمكنكِ الذهاب إلى أي مكان ما لم تأتِ إلى هنا أولاً. فكل شخص يأتي إلى أوروبا عليه أن يشق طريقه. أنت لا تعنينه بهذا القصد كثيراً؟ أنت تعنين ما الفائدة التي ستجنيها من ذلك؟ حسناً، كيف يمكنكِ أن تخترقي المستقبل؟ كيف يمكنكِ أن تعرفي ماذا سيحصل مسبقاً؟ فلو كان طريقاً مريحاً فلن يهمني إلى أين يؤدي، فأنا أحب الطريق يا آنسة آرتشر، أحب الإسفلت القديم المحبوب. لا يمكنكِ أن تتعبي منه ـ لا يمكنكِ حتى لو حاولتِ. أنت تعتقدين بأنه يمكنكِ ذلك، لكنه لن يمكنكِ، فهناك دائماً شيء عصريٌ وجديد. خذي مثلاً فندق دروو[2] الآن، لديهم ثلاثة أو أربعة مزادات في الأسبوع. فأين يمكنكِ الحصول على أشياء كهذه مثلما تحصلين عليها هنا؟ على الرغم من كل ما تقولونه إلا أنني أقول بأنهم أرخص أيضاً، حتى وإن عرفتِ الأماكن المناسبة. أنا أعرف الكثير من الأماكن، لكنني أحتفظ بها لنفسي. سأخبركِ إنْ أحببتِ، كنوعٍ من التفضُّل الخاص، لكن لا يجب عليكِ أن تخبري شخصاً آخر. لا تذهبي إلى أي مكان بدون أن تطلبي مني ذلك، أريد منكِ أن تعديني بذلك. عموماً، تفادَيْ شوارع البوليفارد[3]، فهناك

(1) مدينة بو: بلدة فرنسية تقع جنوب غرب فرنسا. (المترجمة)
(2) فندق دروو: هو دار مزادات كبير في باريس يشتهر بالتحف والآثار. يتألف من 16 قاعة ويستضيف 70 شركة مزادات. (المترجمة)
(3) البوليفارد: هي شوارع عريضة تكتنفها الأشجار. (المترجمة)

القليل لتفعليه في البوليفارد. لنتحدث بضمير ـ بدون مزاح ـ فأنا لا أصدق بأنه يوجد أحد يعرف باريس أفضل مني. يجب عليكِ أنت والسيدة تاتشيت أن تأتيا لتناول الإفطار معي يوماً ما وسأريكما كل حوائجي، أنا أقول ذلك لكِ أنت فقط! كان هناك الكثير من الحديث عن لندن مؤخراً، إنها الطريقة التي تبكي بها على لندن. لكن لا يوجد فيها شيء ـ لا يمكنكِ أن تفعلي أي شيء في لندن.

لم يتبقَّ شيء من الإمبراطورية الأولى ـ ولا حتى لويس الخامس عشر، لا شيء سوى صورة ملكتهم الخالدة آن. إنها مناسِبة لغرفة نوم المرء، الملكة آن لحجرة غسيل المرء، لكنها ليست مناسِبة للصالون).

واصل السيد غوزييه الكلام كإجابة على سؤالٍ آخر من أسئلة إيزابيل: (هل أقضي حياتي في المزادات؟ أوه لا فليس لدي المال. أتمنى لو كان لدي. أنت تعتقدين بأنني مجرد عابث، يمكنني أن أدرك ذلك من خلال تعابير وجهكِ، فلديكِ وجهٌ معبّرٌ بشكلٍ رائع. آمل أن لا تمانعي في قولي ذلك، فأنا أقصده كنوعٍ من التنبيه. أنت تعتقدين بأنه يُستحسَن أن أعمل شيئاً. أنا أيضاً أعتقد ذلك طالما تُبقين الأمر ضبابياً. لكن عندما تأتين إلى صلب الموضوع عليكِ أن تتوقفي. أنا لا أستطيع أن أعود إلى الوطن وأصبح صاحب متجر. هل ترينني مناسباً تماماً؟ آه يا آنسة آرتشر، أنت تبالغين في تقديري. أنا أستطيع أن أشتري بشكلٍ جيد، لكن لا يمكنني أن أبيع؛ عليكِ أن تريني عندما أحاول أحياناً التخلص من بضاعتي. فهو يتطلب قدرة أكبر بكثير لجعل الناس تشتري من أن تقومي أنت نفسكِ بالشراء. أفكر كم هم بارعون الأناس الذين يجعلونني أشتري! آه، لا، لا يمكنني أن أصبح صاحب متجر. لا يمكنني أن أصبح طبيباً، إنها مسألةٌ بغيضة. لا يمكنني أن أصبح رجل دين، فليس لدي الإيمان الراسخ، ثم إنه لا يمكنني أن أتلفظ الأسماء التي في الكتاب المقدس بشكلٍ صحيح، إنها صعبة جداً، خصوصاً تلك التي تأتي في العهد القديم. لا

يمكنني أن أصبح محامياً؛ فلا أستطيع أن أفهم، ماذا تسمونها؟ ـ الإجراءات الأميركية. هل هناك شيء آخر؟ لا يوجد هناك شيء لرجلٍ نبيل في أميركا. ينبغي عليّ أن أكون دبلوماسياً، لكن الدبلوماسية الأميركية ـ ليست لرجلٍ نبيلٍ أيضاً. أنا متأكد لو كنتِ رأيتِ اللحظة الأخيرة.....).

قامت هنرييتا ستاكبول ـ التي كانت متواجدة مع صديقتها عادةً عندما قام السيد غوزييه، الذي وصل في وقت متأخر من المساء ليقدم تحياته، بالتعبير عن نفسه وفقاً للطريقة التي ذكرتُها ـ بمقاطعة الشاب بشكلٍ معهود عند هذه النقطة، وتلت عليه محاضرة عن واجبات المواطن الأمريكي. لقد اعتبَرَتْهُ أكثر تصنُّعاً؛ كان أسوأ حتى من رالف تاتشيت المسكين. كانت هنرييتا في هذا الوقت مدمنة أكثر من أي وقتٍ مضى على الانتقاد الحاد، لأن ضميرها كان قلقاً من جديد على إيزابيل. لم تكن قد هنَّأَتْ هذه السيدة الشابة على ازدياد قوتها، وتضرَّعَتْ أن تكون معفية من عمل ذلك. فأكدت بصراحة: (لو كان السيد تاتشيت استشارني بشأن تركه المال لكِ لقلتُ لهُ لا!).

أجابت إيزابيل: (أفهم ذلك. فأنتِ تعتقدين بأنه سيكون لعنة مستترة. ربما سيكون كذلك).

ـ (اتركيه لأحدٍ ما لا تهتمي لأمره كثيراً ـ ذلك ما ينبغي أن أقوله).

فاقترحت إيزابيل مازحةً: (لكِ على سبيل المثال؟).

ثم سألت بنبرةٍ أخرى تماماً: (هل تعتقدين بأنه سيدمرني؟).

ـ (آمل أن لا يدمركِ. لكنه بالتأكيد سيعزز ميولكِ الخطرة).

ـ (هل تقصدين حب الترف ـ التبذير؟)

قالت هنرييتا: (كلا، كلا، أنا أقصد تخليكِ عن الجانب الأخلاقي. أنا أستحسن الترف، إذ أعتقد بأنه يجب علينا أن نكون متأنقين قدر الإمكان. انظري إلى ترف مدننا الغربية؛ لم أرَ شيئاً هنا لأقارنه به. آمل أن لا تصبحي

تبعين الملذات بشكلٍ مفرط. لكنني لستُ أخشى من ذلك، فالخطر بالنسبة لكِ هو أن تعيشي في عالم أحلامكِ الخاصة بكِ كثيراً، فأنتِ لستِ على اتصال بشكلٍ كافٍ مع الواقع، مع العالم الكادح، المكافح، المتألّم، يمكنني حتى أن أقول العالم الآثِم، الذي يحيط بكِ. أنت شديدة الحساسية ولديكِ أوهام جميلة كثيرة جداً، وستقوم أموالكِ التي حصلتِ عليها حديثاً بالإغلاق عليكِ أكثر وأكثر داخل مجموعةٍ من الأنانيين وقساة القلوب الذين سيهتمون بالحفاظ عليها فقط).

توسعت عينا إيزابيل كلما تفرَّسَتْ في هذا المشهد البشع.

سألت: (وما هي أوهامي؟ أنا أحاول جاهدةً أن لا يكون لدي أية أوهام).

قالت هنرييتا: (حسناً، أنت تعتقدين بأنه يمكنكِ أن تعيشي حياةً رومانسية، أنه يمكنكِ أن تعيشي حياةً بإسعاد نفسكِ وإسعاد أناسٍ آخرين. ستكتشفين بأنكِ مخطئة. فأيّاً ما كانت الحياة التي تعيشينها، عليكِ أن تضعي روحكِ فيها ـ لتحققي نوعاً من النجاح فيها. ومن اللحظة التي تفعلين فيها ذلك ستتوقف عن أن تكون رومانسية. أنا أؤكد لكِ ذلك؛ إذ ستصبح واقعاً قاسياً! وأنتِ لا يمكنكِ أن تسعدي نفسكِ دائماً، إذ عليكِ في بعض الأحيان أن تسعدي أناساً آخرين. أنا أعترف بأن ذلك هو ما أنت مستعدة جداً لعمله. لكن هناك أمراً آخر أكثر أهمية أيضاً ـ وهو أنه لا بدّ أنكِ ستزعجين أناساً آخرين. يجب عليكِ أن تكوني مستعدة دائماً لذلك ـ لا يجب عليكِ أبداً أن تحجمي عنه، فذلك لا يناسبكِ مطلقاً ـ أنت مولعة جداً بإثارة الإعجاب، أنت تحبين أن يُحسَن الظن بكِ. تعتقدين بأنه يمكننا الهرب من الالتزامات البغيضة بتبنّي وجهات نظر رومانسية ـ ذلك هو وهمكِ الأكبر يا عزيزتي. لكننا لا نستطيع. فعليكِ أن تكوني مستعدة في حالاتٍ كثيرة في الحياة لأن لا تُسعِدي أحداً مطلقاً، حتى نفسكِ).

هزت إيزابيل رأسها بحزن، وبدت مضطربة وخائفة، فقالت: (لا بدّ أن، بالنسبة لكِ يا هنرييتا، هذه الحالة هي واحدة من تلك الحالات).

من المؤكد أن الآنسة ستاكبول خلال زيارتها إلى باريس، والتي كانت مثمرة مهنياً أكثر من زيارتها الإنجليزية، لم تكن تعيش في عالم الأحلام. والسيد بانِلِنْج الذي كان قد عاد الآن إلى إنجلترا، كان مرافقها للأسابيع الأربعة الأولى من إقامتها، وبشأن السيد بانِلِنْج لم يكن هناك شيء حالم. علمت إيزابيل من صديقتها بأن الاثنين عاشا حياةً من الانسجام الشخصي الكبير، وإن هذا كان تقدّماً فريداً لهنريتا بسبب معرفة الرجل الملفتة للنظر بباريس. لقد شرح عن كل شيء، وأراها كل شيء، وكان مرشدها السياحي الثابت وترجمانها. تناولا الإفطار سوية، تغديا سوية، ذهبا إلى المسرح سوية، تعشيا سوية، بطريقةٍ كأنهما يعيشان معاً بالفعل. أكدت هنريتا لبطلتنا لأكثر من مرة بأنه كان صديقاً حقيقياً، وأنها لم تعتقد أبداً بأنها ستتمكن أن تحب رجلاً إنجليزياً بشكلٍ جميلٍ بهذه الطريقة.

لم تستطع إيزابيل أن تخبركَ السبب، لكنها وجدت شيئاً دعا للضحك في الاتفاق الذي أبْرَمَتْهُ مراسلة الإنترفيور مع أخ السيدة بينسل. إلى جانب ذلك، فقد طال ضحكها على حقيقةِ أنها اعتقدَتْ بأنه مصدر ثقة لكليهما. لم تتمكن إيزابيل من أن تتخلص من الارتياب بأنهما كانا متناقضين بطريقةٍ ما ـ أي إن براءة كلٍّ منهما قد وقعتْ في الشرك. لكن هذه البراءة كانت من كلا الطرفين جديرة بالاحترام برغم ذلك. فقد كان من اللطيف من جانب هنريتا أن تؤمن بأن السيد بانِلِنْج قد اهتمَّ بالترويج للصحافة الحيّة وبدعم وظيفة المراسِلات النسويات مثلما كان من جانب رفيقته أن تعتقد بأن الداعي للإنترفيور ـ الصحيفة الدورية التي لم يكوِّن عنها رأياً محدداً ـ لم يكن سوى، إنْ حلَّلْنا الأمر بدقة، حاجة الآنسة ستاكبول للظهور (وهو عملٌ شعر السيد بانِلِنْج تجاهه بالمثل). على أية حال، أشبع كل من هذين العازبين المضطربين حاجةً كان الآخر مُدرِكاً لها باستياء. فالسيد بانِلِنْج الذي كان ذا طبعٍ متأنٍ نوعاً ما ومتعقّل، قد استساغَ امرأةً عجولةً وذكية وعملية، سَحَرَتْهُ بنظرةٍ متألقة

ومتحدية وبنوعٍ من السذاجة الخالصة، والتي ولَّدَتْ شعوراً من الحيوية في فكرٍ بدا له الطعام المعتاد للحياة غير مملح. من جانبٍ آخر، تمتعت هنرييتا برفقة رجلٍ نبيل بدا بطريقةٍ ما، وعلى طريقته، وكأنه صُنع بعملياتٍ مكلفة، وملتوية، و«غريبة» قليلاً، لأجل استعمالها الخاص، والذي كانت حالته المترفة، وإن كانت عموماً لا مبرر لها، بركةً حتمية بالنسبة لرفيقةٍ منبهرة، والذي كان مزوّداً بإجابةٍ سهلة وتقليدية وإن كانت ليست تفصيلية مطلقاً، لأي سؤال اجتماعي أو عملي ممكن أن يُثار تقريباً. لقد وجدَتْ دائماً أن أجوبة السيد بانِلِنْج ملائمة جداً، وأنها كانت ستوجهها للجمهور على نحوٍ واسع ورائع في زحمة انتشار البريد الأميركي. إن ما كان يُخشى منه، هو أنها كانت بالفعل تنجرف نحو هاوية التحذلق هذه التي حذَّرَتْها منها إيزابيل وهي ترجو منها إجابةً وديّة. فبالنسبة لإيزابيل، قد يكون هناك خطر محدّق؛ إذ بالكاد كان يؤمَل أن تجد الآنسة ستاكبول من جانبها راحة دائمة في أي تبنٍّ لوجهاتِ نظرِ طبقةٍ اجتماعية رهينة بكل التعسف القديم.

استمرت إيزابيل تحذّرها بشكلٍ ظريف؛ فقد كان الأخ اللطيف للسيدة بينسل أحياناً، وعلى لسان بطلتنا، موضوعاً للتلميح الاستخفافي والفكاهي. رغم ذلك لا شيء يمكنه أن يفوق ظرافة هنرييتا في هذا الشأن؛ فقد اعتادت على أن تعجّ بإحساس إيزابيل بالسخرية وبحساب بمرحِ الساعات التي أمضَتْها مع هذا الرجل الواسع الخبرة ـ وهو تعبيرٌ كانت قد توقفَتْ عن استعماله معها للسخرية مثلما هو من قبل. ومن ثم بعد لحظات كانت ستنسى بأنهما كانتا تتحدثان بشكلٍ مازح، وستذكر بجديّة متهورة الرحلات الاستكشافية التي استمتعَتْ بها برفقته. فكانت ستقول: (أوه، أنا أعرف كل شيء عن فرساي، فقد ذهبتُ هناك مع السيد بانِلِنْج. فقد كنتُ مُكَلَّفَةً أن أراه بشكلٍ شامل ـ لقد نبهتُهُ عندما خرجنا منه بأنني كنتُ شمولية؛ لذا قضينا ثلاثة أيام في الفندق وتجولنا في المكان بأكمله. كان الطقس جميلاً ـ نوعاً من صيف الهند، لكن

ليس لطيفاً تماماً. لقد أقمنا بصعوبة في ذلك المتنزه. أوه، نعم، لا يمكنكَ أن تخبرني كل شيء عن فرساي).

يبدو أن هنرييتا قد عملَتْ اتفاقاً لتلتقي بصديقها النبيل خلال فصل الربيع في إيطاليا.

***

الفصل 21

كانت السيدة تاتشيت قبل وصولها إلى باريس قد حددت موعد مغادرتها، وبدأت في منتصف شباط بالرحيل نحو الجنوب. قطعت رحلتها لتزور ابنها الذي كان يقضي في سان ريمو على الساحل الإيطالي للبحر المتوسط، شتاءً روتينياً بهيجاً تحت مظلةٍ بيضاء ثقيلة. ذهبت إيزابيل مع خالتها كأمرٍ مفروغٍ منه، رغم أن السيدة تاتشيت قد وضعت أمامها خيارين بمنطقٍ بسيط ومألوف: (الآن أنت سيدة نفسكِ طبعاً بشكلٍ تام، وحرة كالطير على الغصن. أنا لا أقصد بأنكِ لم تكوني كذلك من قبل، لكنكِ في الوقت الحالي في منزلة مالية مختلفة تشكّل نوعاً من ساتر. يمكنكِ أن تفعلي العديد جداً من الأشياء إن كنتِ غنية والتي كانت ستُنتَقَد بشدة لو كنتِ فقيرة. فبإمكانكِ أن تخرجي وتدخلي، يمكنكِ أن تسافري وحدكِ، يمكنكِ أن تحظي بمجموعة قوانين خاصة بكِ؛ أعني طبعاً إن كنتِ ستتخذين رفيقة ـ امرأة نبيلة منحلّة بثياب من كشميرٍ مرتق وشعرٍ مصبوغ، وتتزين بالمخمل. أنت لا تعتقدين بأنكِ ستحبين ذلك؟ يمكنكِ طبعاً أن تعملي ما يحلو لكِ. أريد منكِ فقط أن تفهمي كم أنت حرّة. يمكنكِ أن تتخذي الآنسة ستاكبول كوصيفة، فهي ستصدّ الناس جيداً. مع ذلك، أعتقد بأنه من الأفضل كثيراً أن تبقي معي رغم أنني لا أفرض ذلك عليكِ. فذلك أفضل لعدة أسباب، بعيداً تماماً عن تفضيلكِ لذلك. لا أعتقد بأنكِ ستحبينها، لكنني أنصحكِ أن تقومي بالتضحية. طبعاً إن أية روعة كانت توجد في البداية في صحبتي قد اندثرت، وأنتِ ترينني كما أنا ـ امرأة عجوزاً جامدة، مكابرة، ضيقة الأفق).

أجابت إيزابيل على ذلك: (أنا لا أعتقد بأنكِ جامدة إطلاقاً).

قالت السيدة تاتشيت بابتهاجٍ كبير لكونها تم تزكيتها: (لكنكِ تعتقدين بأنني مكابرة وضيقة الأفق؟ أنا أقول ذلك لكِ!).

بقيت إيزابيل في الوقت الحالي مع خالتها، لأنها، برغم الأسباب الغريبة، كان لديها احترام كبير لِما كان يُعتبر عادةً لائقاً، وإن شابةً محترمة بلا أقارب بصحبتها يصيبها بالدهشة كزهرةٍ بلا ورقة. في الواقع، لم يظهر حديث السيدة تاتشيت ثانيةً لامعاً جداً مثلما كان في أول مساءٍ في ألباني عندما جلسَتْ بمعطفها المطري المبلل ووصفَتْ الفرص التي كانت أوروبا ستقدمها لشابّةٍ ذات ذوق. رغم ذلك، فقد كان هذا إلى درجة كبيرة هو عيب الفتاة؛ وهي أنها أخذت لمحةً عن خبرة خالتها، وأن مخيلتها توقعت دائماً حكمةَ وعواطف امرأةٍ كان لديها القليل جداً من نفس القدرة. بعيداً عن ذلك، كان للسيدة تاتشيت ميزة عظيمة؛ وهي أنها كانت صادقة كالبوصلة. كان يوجد عزاء في قساوتها وصلابتها؛ إذ تعرف[1] بالضبط أين تعثر عليها، وأنها ليست عُرضةً للصدمات الطارئة والهزّات. في أرضها، تكون ماثلةً تماماً، لكنها لا تكون فضولية بإفراط فيما يخص منطقة جيرانها. ثم تأتي إيزابيل في النهاية ليصبح لديها نوعٌ من شفقةٍ لا يمكن التعبير عنها تجاهها[2]؛ إذ بدا أن هناك شيئاً محزناً جداً في حالة شخصٍ كان لطبيعته أفقٌ ضيق ـ أي أبدى اعتباراً محدوداً جداً لتنامي التواصل البشري. ولا شيء رقيق، لا شيء عاطفي حظي يوماً بفرصة تعزيز الأمر ـ لا زهرة نثرتها الريح، ولا نباتٍ أخضر لطيف. بكلماتٍ أخرى، كانت حدّتها الظاهرة والخفية كحدّة حافة السكين تقريباً. رغم ذلك، كان لدى إيزابيل سبب لتعتقد بأنها كلما تقدمَتْ في السن سلَّمَتْ أكثر بشكلٍ مبهم بصحة شيء ما للسهولة من أن تتأكد منه بنفسها. كانت تعرف أن تضحي

(1) أي أنت أيها القارئ. (المترجمة)

(2) أي تجاه السيدة تاتشيت. (المترجمة)

بالروابط لاعتباراتٍ ذات مستوى أدنى والتي يجب أن يكون التغاضي عنها موجوداً لسببٍ معين.

لم يكن سداد رأيها المطلق هو ما جعلها تقطع مسافة كبيرة جداً إلى فلورنسا لتقضي بضعة أسابيع مع ابنها المريض؛ لأن في السنوات السابقة كانت من إحدى أكثر قناعاتها وضوحاً هي أن رالف عندما كان يرغب برؤيتها، له الحق في أن يُدرك أن قصر كريشنتيني يتضمن جناحاً كبيراً يُعرف بركن الإنسان المحترم.

قالت إيزابيل لهذا الشاب بعد يوم من وصولها إلى سان ريمو: (أريد أن أسألكَ شيئاً. شيئاً فكرتُ أكثر من مرة أن أسألكَ بشأنه بواسطة رسالة، لكنني ترددتُ عموماً بأن أكتب عنه. مع ذلك، يبدو أن سؤالي وجهاً لوجه سهلٌ تماماً. هل كنتَ تعلم أن والدكَ كان ينوي أن يترك لي الكثير جداً من المال؟)

مدَّ رالف ساقيه أكثر من المعتاد قليلاً وحدَّقَ بثباتٍ أكثر قليلاً على البحر المتوسط: (وما يهم يا عزيزتي إيزابيل سواءٌ عرفتُ أم لا؟ فوالدي كان عنيداً جداً).

قالت الفتاة: (إذن، كنتَ تعرف فعلاً).

ـ (نعم. لقد أخبرني. حتى أننا تناقشنا أكثر قليلاً بشأنه).

فسألت إيزابيل بسرعة: (ولماذا فعل ذلك؟).

ـ (عجباً. كنوعٍ من التقدير).

ـ (تقديراً على ماذا؟).

ـ (على تواجدكِ الجميل جداً).

أعلنت فوراً: (لقد أحبَّني كثيراً جداً).

ـ (ذلك حالنا جميعاً).

ـ (لو صدَّقتُ ذلك فسأكون تعيسةً جداً. لحسن الحظ، أنا لا أصدق ذلك. أنا أريد أن أُعامَل بإنصاف. لا أريد شيئاً سوى ذلك).

ـ (هذا جيد جداً. لكن يجب عليكِ أن تتذكري أن إنصاف مخلوقٍ محبوب هو شعورٌ مزهر).

ـ (أنا لستُ مخلوقةً محبوبة، فكيف يمكنكَ أنْ تقول ذلك في هذه اللحظة بالذات وأنا أسأل أسئلة غريبة كهذه؟ لا بدّ أنني أبدو لكَ ضعيفةً!).

قال رالف: (أنتِ تبدين لي منزعجة).

ـ (أنا منزعجة).

ـ (بشأن ماذا؟).

لم تجب لوهلةٍ، ثم انفجرت في الكلام: (هل تعتقد أن من صالحي أن أُجعَلَ غنيةً فجأةً؟ فهنريتا لا تظن أن ذلك لصالحي).

قال رالف بخشونة: (أوه، فلتذهب هنريتا إلى الجحيم! فلو سألِتني رأيي، أنا مسرورٌ بذلك).

ـ (هل لهذا السبب فعل والدكَ ذلك ـ لتكون مسروراً؟)

ـ (أنا أختلف مع الآنسة ستاكبول).

واصل رالف الكلام بجدية أكثر: (أعتقد أن من المناسب أن يكون لكِ مورد مالي).

نظرت إيزابيل إليه نظرات جادة.

ـ (إنني أتساءل فيما إذا كنتَ تعرف ما هو الشيء المناسب لي ـ أو فيما إذا كنتَ تبالي بذلك).

ـ (إن كنتُ أعلم ما هو المناسب لكِ فاعتمدي على ذلك، فأنا أبالي. هل تعلمين ما هو؟ كي لا تعذبي نفسكِ).

ـ (أعتقدُ بأنكَ تقصد لكي لا أعذبكَ أنت).

ـ (لا يمكنكِ فعل ذلك، فأنا مُحصَّن. خذي الأمور ببساطة أكثر. لا تسألي نفسكِ كثيراً فيما إذا كان هذا أو ذاك هو المناسب لكِ. لا تسألي ضميركِ

كثيراً ـ فسوف يشذّ عن النغمة كالبيانو المرتجّ. ادّخريه لمناسباتٍ كبيرة. لا تحاولي أن تشكّلي شخصيتكِ كثيراً ـ فذلك كمن يحاول قطف زهرةٍ لا تزال غير متفتحة، ويانعة، ورقيقة، ليفتحها. عيشي مثلما تريدين بشكلٍ أفضل وستهتم شخصيتكِ بنفسها. إن معظم الأمور مناسبة لكِ، والاستثناءات قليلة جداً، والمورد المالي المريح ليس واحداً منها).

توقف رالف عن الكلام مبتسماً.

ثم أضاف رالف وأصغت إيزابيل بسرعة: (لديكِ الكثير جداً من قوة الفكر والتي تفوق الجميع، والكثير جداً من الوعي. إن عدد الأمور التي تعتقدينها خاطئة لا تخضع للمنطق تماماً. أعيدي ضبط ساعتكِ. غذّي حماستكِ. مدّي جناحيكِ وحلّقي فوق الأرض. فعمل ذلك ليس خاطئاً أبداً).

فأصغت بلهفة، مثلما ذكرتُ، وكان من طبيعتها أن تفهم بسرعة: (أتساءل إن كنتَ تدرك ما تقول. وإن كنتَ تدرك ذلك فأنتَ تتحمل مسؤولية كبيرة).

قال رالف وهو مُصِرٌّ على ذلك بابتهاج: (أنتِ تخيفينني قليلاً. لكنني أعتقد بأنني على حق).

ـ (رغم ذلك، فما تقوله صحيح جداً).

تابعت إيزابيل الكلام: (لا يمكنكَ أن تقول شيئاً أكثر صحة من ذلك. فأنا منشغلة بنفسي ـ أنظرُ إلى الحياة كثيراً كما ينظر لها الطبيب. لِمَ يجب علينا في الواقع أن نفكر دائماً فيما إذا كانت الأمور مناسِبة لنا أم لا كما وكأننا مرضى يرقدون في مستشفى؟ لِمَ يجب عليَّ أن أكون خائفة جداً من أن لا أفعل ما هو صائب؟ وكأنَّ العالم يهمه إن كنتُ أفعل الصواب أم الخطأ!).

قال رالف: (أنتِ ناصحةٌ خطيرة. أنت تمنعين الرياح عن أشرعتي!).

فنظرَتْ إليه وكأنها لم تسمعه ـ رغم أنها كانت تُتابع للنهاية سلسلة الأفكار التي أثارها هو نفسه.

ـ (أنا أحاول أن أهتم بالعالم أكثر من أن أهتم بنفسي ـ لكنني دائماً أعود لنفسي. وذلك لأنني خائفة).

فتوقفت عن الكلام؛ فقد كان صوتها قد اضطرب قليلاً.

(نعم. أنا خائفة. لا يمكنني أن أصف لكَ ذلك. فالثروة الكبيرة تعني الحرية، وأنا خائفة من ذلك. إنه أمر لطيف للغاية، وعلى المرء أن يستغل ذلك جيداً. وإن لم يفعل فسيكون المرء خجلاً. على المرء أن يستمر بالتفكير؛ فهو جهدٌ متواصل. أنا لستُ متأكدة من أن كون المرء بلا قوة هو أمرٌ تعيس).

ـ (ليس لدي شك بأن الأمر بالنسبة للضعفاء هو أكثر سعادة. لأن الجهد بالنسبة للضعفاء إن لم يكن هيناً فيجب أن يكون كبيراً).

سألت إيزابيل: (وكيف تعرف بأنني لستُ ضعيفة؟).

أجاب رالف وقد احمرّ خجلاً ولاحظت الفتاة ذلك: (آه، إن أنت ضعيفة فأنا قويّ بشكلٍ رهيب!).

ازداد سحر ساحل البحر المتوسط بالنسبة لبطلتنا فقط عند معرفتها بذلك، لأنه كان عتبة إيطاليا وبوابة الأعاجيب. إيطاليا التي لحدّ الآن كانت قد رأتها وشعرت بها بشكلٍ غير كافٍ، قد امتدت أمامها كالأرض الموعودة، أرضٍ قد يكون فيها حبّ الجمال معززاً بمعرفة لامتناهية. كانت كلما تتجول على الساحل مع ابن خالتها ـ فقد كانت هي رفيقة تجواله اليومي ـ تنظر عبر البحر بعيونٍ توّاقة إلى حيث تمتد جنوا. مع ذلك، كانت مسرورة بأن تتوقف عند تخوم هذه المغامرة الكبرى؛ إذ كانت هناك إثارة كبيرة حتى في الغدو والرواح البسيطين. علاوة على ذلك فقد أثّرتْ بها كاستراحةٍ سلمية، كصمت الطبل والمزمار في رحلةٍ ليس لديها عنها دليل كافٍ لحدّ الآن لتعتبرها مثيرة، لكن مع ذلك تعتبرها دائماً على ضوء آمالها ومخاوفها بأنها آمالها ومخاوفها وتخيلاتها وطموحاتها وميولها والتي عكست تلك الأحداث الموضوعية بطريقةٍ درامية تماماً.

صرّحَتْ مدام ميرليه للسيدة تاتشيت بأن صديقتهما الشابة بعد أن تضع يدها في جيبها آلاف المرات ستتصالح مع فكرة أنه كان قد مُلِئ من قبل زوج خالةٍ سخي. وقد أثبت هذا الحدث حكمة تلك السيدة مثلما يحصل دائماً.

أطرى رالف تاتشيت ابنة خالته لكونها سريعة الالتهاب معنوياً، أي لأنها كانت سريعة في أن تفهم أن المقصود من ذلك هو النصح. إذ ساعدت نصيحته ربما في الموضوع؛ فقبل أن تغادر سان ريمو بأية حال ازداد اعتيادها على أن تشعر بأنها غنية، ووجد الشعور المقصود مكاناً ملائماً في مجموعة صغيرة من الأفكار التي كانت تمتلكها عن نفسها والتي كانت غير ملائمة مطلقاً والتي استهانت على الدوام بألف نيّةٍ طيبة. وضاعت في متاهةٍ من التصورات عن الأشياء الراقية التي يجب أن تفعلها فتاةٌ غنيةٌ ومستقلةٌ وكريمةٌ كان لديها تصوُّرٌ إنسانيٌّ كبير عن أعمالٍ والتزامات راقية بالمجمل. وأصبحت ثروتها على هذا الأساس بالنسبة لها جزءاً من ذاتها المُثلى؛ فقد منحَتْها أهمية، منحَتْها حتى جمالاً مثالياً معيناً وفقاً لتصورها الخاص. لكن ما فَعَلَتْهُ لها في تصورات الآخرين هو موضوع آخر، ويجب علينا أيضاً أن نتطرق إلى هذا الموضوع في الوقت المناسب. كانت التصورات التي تحدثتُ عنها للتو ممزوجةً بسجالاتٍ أخرى. لقد فضّلَتْ إيزابيل أن تفكر بالمستقبل أكثر من الماضي، لكن في بعض الأحيان، وهي مُصغيةٌ إلى همهمة أمواج البحر المتوسط، تهرب نظرتها إلى الماضي وتستقر على شخصين، رغم بعدهما المتزايد، إلا أنهما لا يزالان واضحين. يمكن تمييزهما بدون صعوبة على أنهما شخصيتا كاسبار غودوود واللورد واربيرتون. كانت غريبة هي السرعة التي سقطت بها هاتان الصورتان الحيويتان على خلفية حياة سيدتنا الشابة. كان من عادتها في كل الأوقات أن تفقد الإيمان بحقيقة الأشياء غير المتواجدة أمام عينيها، وبإمكانها أن تستعيد إيمانها،عند الحاجة، وبجهد؛ لكن هذا الجهد يكون مؤلماً عادةً حتى عندما تكون تلك الحقيقة سارّة.

كان الماضي يميل إلى أن يبدو ميتاً، وإعادة إحيائه في الواقع يُظهِر الصورة الباهتة ليوم الحساب. علاوة على ذلك، لم تكن الفتاة ميّالة لأن تفترض جدلاً بأنها تعيش في أذهان الآخرين ـ إذ لم تكن حمقاء لتعتقد بأنها تركَتْ آثاراً لا تُمحى. كانت قادرة على أن تكون جريحة باكتشافها أنها كانت منسيّة، لكن من بين الخيارات التي وجدَتْها الأجمل هو خيار أن تقوم هي نفسها بالنسيان. فهي لم تمنح آخر شلن لها، إذا تحدثنا من ناحية المشاعر، لا إلى كاسبار غودوود ولا إلى اللورد واربيرتون، ومع ذلك لم تستطع سوى أن تشعر بأنهما مدينان لها بشكلٍ ملموس. لقد تذكَّرَتْ طبعاً بأنها كان يجب أن تسمع ثانيةً من السيد غودوود، لكن لا يجب أن يحصل ذلك لسنةٍ ونصف أخرى، ففي ذلك الوقت قد تحدُث الكثير من الأمور. لقد أخفقتْ بالطبع في أن تقول لنفسها إن خاطبها الأميركي قد يجد فتاةً أخرى مشجعة أكثر للخطبة، لأن رغم أنه من المؤكد أن الكثير من الفتيات الأخريات كنّ سيثبتن ذلك، إلا أنها لم يكن لديها أدنى ثقة بأن هذه الصفة ستجذبه. لكنها فكرت بأنها هي نفسها قد تعرف ذلّ التغير، وأنها قد تجد السكينة في وجوده هو نفسه الذي يكتم على أنفاسها الآن. ومن المرجّح أن يصبح وجوده يوماً ما نوعاً من النعمة المستترة ـ كميناءٍ ساكنٍ وهادئ محاط بسد غرانيتي جبّار. لكن يمكن لذلك اليوم أن يأتي في موعده تماماً، ولا يمكنها أن تنتظره وهي مكتوفة الأيدي.

إن استمرار اللورد واربيرتون في أن يُبقي صورتها في مخيلته، بدا لها تواضعاً أكثر نبلاً أو فخراً يجب أن تعتز به. لقد أخذت على عاتقها وبشكلٍ حاسم جداً أن لا تحتفظ بشيءٍ مكتوب عن ما دار بينهما بحيث إن مسعىً مماثلاً من جانبه سيكون منصفاً بشكلٍ بارز. لم يكن ذلك، مثلما قد يبدو، مجرد نظرية مطعّمة بالسخرية. فقد اعتقدت إيزابيل بوضوح بأن سيادة اللورد سوف يجتاز خيبة أمله ببساطة. لقد تأثّر بعمق ـ وهذا ما كانت هي واثقةً منه، وكانت لا تزال قادرة على أن تستمدّ سروراً من هذه الثقة. لكن من الغريب

أن يقوم رجلٌ ذكي جداً ويُعامَل بتبجيل، بالاحتفاظ بندبةٍ لا تتناسب مع أي جرح. علاوة على ذلك، فقد قالت إيزابيل بأن الرجال الإنجليز يحبون أن يكونوا مرتاحي البال، وأن اللورد واربيرتون بإفراطه في التفكير بفتاةٍ أميركية غنية النفس لم تكن سوى معرفة عرضية، لن يبعث على الراحة له على المدى الطويل. وداهنت نفسها بأنها سوف تسمع من حينٍ لآخر بأنه تزوج من شابة من بلده الأم كانت قد فعلت الكثير لتستحقه، وبأنها سوف تستقبل الخبر بدون حزن، بل حتى بإعجاب. فذلك سيثبت بأنه اعتقد بأنها كانت قوية ـ وذلك هو ما كانت تريد أن تُظهره له. وذلك وحده كان مستحبّاً لكبريائها.

***

الفصل 22

في يوم من أوائل أيام شهر أيار، وبعد حوالي ستة أشهر من وفاة السيد تاتشيت العجوز، تجمعت مجموعةٌ صغيرة، قد يصفها رسّامٌ بأنها موضوعٌ جيد للوحة، في غرفةٍ من الغرف العديدة لفيلا عتيقة تُتوِّج تلاً مغطىً بالزيتون خارج البوابة الرومانية لفلورنسا. كانت الفيلا طويلة وذات هيئة جوفاء المظهر بعض الشيء، ذات سقف ناتئ كثيراً يحبها أهالي توسكانا، والتي عند رؤيتها عن بعد على التلال التي تحيط بفلورنسا، تشكل مستطيلاً متناسقاً مع أشجار السرو المتسلسلة، الداكنة، الواضحة التي تنتصب في ثلاث أو أربع مجموعات على جوانبها.

كان للمنزل واجهة تطلّ على فناءٍ معشوشب قليلاً، خاوٍ، وقروي الطراز، شغل جزءاً من قمة التل. كانت الواجهة مخترَقة ببضع نوافذ المسافة بينها غير منتظمة، ومزوّدة بدكّة صخرية موضوعة على طوله عند قاعدة البناء، تنفع كمكان للاستراحة لشخصٍ أو اثنين مُنهكَيْن قليلاً من الطقس الرديء الذي يحاصر دائماً وبلطف في إيطاليا لسببٍ أو لآخر أي شخصٍ يتخذ بثقة موقفاً سلبياً تاماً ـ كان لهذه الواجهة العتيقة، والمتينة، والمتهرئة بسبب الطقس، والمهيبة رغم ذلك، صفة كتومة قليلاً. فقد كانت قناع المنزل وليس واجهته. كانت له أجفان ثقيلة لكن بدون عيون؛ فقد بدا المنزل في الحقيقة ينظر باتجاهٍ آخر ـ كان ينظر إلى الوراء، إلى براحٍ رائعة وإلى امتداد نور الظهيرة. كانت الفيلا في ذلك المكان معلّقة على منحدر التل وعلى وادي آرنو الطويل الذي يغشاه الطابع الإيطالي.

كانت لها حديقة ضيقة مستطيلة الشكل، عامرة بشكل رئيسي بتشابكات الزهور البرية والمصاطب الصخرية المكسوة بالطحلب والدافئة بفعل الشمس. كان السور المنخفض للحديقة بارتفاع مناسب للاتكاء عليه، وانحدرت الأرض الذي تحته نحو اشتباكات محاصيل الزيتون والكروم. رغم ذلك، لسنا معنيين بخارج القصر، ففي هذا الصباح المشرق من ربيع الحصاد، كان لمستأجره سببٌ ليفضّل الجانب الضليل من السور. كانت نوافذ الطابق الأرضي عندما تراها من الفناء بتناسقها الرفيع معمارية للغاية. لكن وظيفتها بالاتصال بالعالم بدت أقل من أن تتحدى العالم لينظروا للداخل؛ فقد كانت ذات قضبان متقاطعة بشكلٍ هائل وموضوعة على ارتفاعٍ كبير بحيث ينتهي الفضول، وحتى اللهفة، قبل أن تصلها.

في إحدى الحجرات المضاءة بصفٍ من ثلاث من هذه النوافذ الغيورة ـ وهي واحدة من حجرات عديدة مميزة كانت عندها الفيلا متفرغّة، ومشغولة بشكل رئيسي بأجانب من أعراق مختلفة سكنت فلورنسا منذ مدة طويلة ـ كان هناك رجل نبيل جالس وبصحبته فتاة شابة وراهبتان طيبتان من ديرٍ للراهبات. كانت الغرفة رغم ذلك أقل عتمة مما وصفَتْها تعبيراتنا لأنها امتلكت باباً عريضاً وعالياً انتصبَ الآن مفتوحاً نحو الحديقة المتشابكة التي خلفها، وأدخلت النوافذ ذات القضبان الحديدية المتشابكة بين الحين والآخر أكثر مما يكفي من ضوء الشمس الإيطالي. إضافة إلى ذلك، كانت مكاناً واسعاً، في الحقيقة مترفاً، ينطق عن ترتيبٍ مدروسٍ بدقة وثقافة ظاهرة بوضوح، وتحتوي على أشكال متعددة من تلك الستائر الباهتة المصنوعة من الحرير الدمشقي، والبُسُط، وتلك الصناديق والخزانات المصنوعة من البلوط المنحوت والمصقول بفعل الزمن، وتلك النماذج المربعة من اللوحات الموضوعة في أُطُرٍ عتيقة الطراز، وتلك التحف الأثرية العنيدة المظهر من العصور الوسطى والمصنعة من البراص والخزف والتي كانت إيطاليا ومنذ

مدة طويلة مستودعها الذي لا ينفد تماماً. تم الاحتفاظ بهذه الأشياء مع أصنافٍ من الأثاث الحديث الذي روعي فيه كثيراً جيلٌ متكاسل. تآلفت هذه الأشياء مع قطعٍ من الأثاث الحديث الذي أحدث تفاوتاً كبيراً؛ كان يجب أن يُلاحَظ أن كلِ الأرائك عميقة ومبطنة بشكلٍ جيد، وأن مساحة كبيرة قد شُغلت بمنضدة للكتابة حملت جودتها الإبداعية طابع لندن والقرن التاسع عشر. كانت هناك كتب كثيرة ومجلات وصحف وبضع صور صغيرة غريبة متقنة بالألوان المائية بشكل رئيسي.

انتصب أحد تلك الإنتاجات الفنية على حامل اللوحات الذي وقفت أمامه الفتاة الشابة التي ذكرتُها في اللحظة التي بدأنا نهتم بشأنها. كانت تنظر إلى اللوحة بصمت. لم يهبط هذا الصمت ـ الصمت المطلق ـ على مرافقتَيْها، بل كان لحديثهما مظهر الاستمرارية المرتبكة. لم تجلسِ الراهبتان الطيبتان على أرائكهما المخصصة، وعبَّرت وقفتهما عن تحفُّظٍ حاسم، وأظهر وجهاهما لمعة الحذر. كانتا امرأتين بسيطتين، وممتلئتين، ذاتي مظهرٍ رحيم، مع نوع من التواضع العملي التي ميَّزه الشكل غير المجسم للملابس الكتانية المتصلبة والنسيج الصوفي الذي كساهما، وكأنه ثُبِّتَ بمسامير على ألواح. كانت لإحداهما؛ التي بعمرٍ معين وترتدي نظارات وذات بشرة نظرة ووجنتين ممتلئتين؛ هيئة متميزة أكثر من زميلتها، ولديها أيضاً مسؤوليتها التي تعلقت بوضوح بالفتاة الشابة.

ارتدت الفتاة موضوع الاهتمام قبعتها ـ وهي زينةٌ ذات بساطة بالغة ولا تختلف عن ردائها البسيط المصنوع من نسيج الموسلين والقصير جداً بالنسبة لعمرها، رغم أنه كان يجب «توسيعه» مسبقاً.

كان الرجل الذي من المفترض أن يكون محتفياً بالراهبتين مدركاً تماماً لصعوبة مهمته، فالتحدث مع الخانعين جداً صعب بصعوبة التحدث مع المتجبرين جداً. في الوقت نفسه كان من الواضح بأنه منشغل كثيراً

بمسؤوليتهما[1] الصامتة، وعندما أدارت له ظهرها وقعت عيناه بشكلٍ ساهم على مظهرها النحيل والضئيل. كان رجلاً في الأربعين من عمره، ذا رأسٍ شامخ لكن جميل وكان الشعر الذي فوقه والذي لا يزال كثيفاً لكن أشيب قبل الأوان، مقصوصاً منذ عهدٍ قريب. كان لديه وجه دقيق ضيق، نموذجي للغاية ومتناغم، عيبه الوحيد كان فقط تحريكه قليلاً لحاجبيه، وهو مظهر ساهمت به اللحية بشكلٍ كبير. إن هذه اللحية المزينة على غرار لوحات القرن السادس عشر والتي يعلوها شارب جميل امتلكت نهاياته تأنقاً رومانسياً قليلاً، قد منحت صاحبها مظهراً أجنبياً تقليدياً وأشارت إلى أنه كان رجلاً دَرَسَ الموضة. كانت عيناه اليقظتان، الفضوليتان، الغامضتان والثاقبتان، الذكيتان والقاسيتان، المعبّرتان عن شخصٍ راصد مثلما هما معبّرتان عن شخصٍ حالم، ستؤكدان لكَ بأنه درسها فقط ضمن حدود مختارة بعناية، وأنه بقدر ما بحث عنها وجدها. ستحتار عندما تحدد أقليمه الأصلي وبلده، إذ لم يكن لديه ولا واحدة من العلامات الظاهرية التي تجعل الإجابة على هذا السؤال عادةً إجابة سهلة. لو كان يمتلك دماً إنجليزياً في أوردته فلا بدّ أنه على الأرجح تلقّى مزيجاً مشتركاً من الدم الفرنسي أو الإيطالي؛ لكنه بدا وكأنّه عملة من الذهب الخالص بلا دمغة ولا شعار من العلامات العامة المكفولة للتداول العام؛ لقد كان كوسامٍ محيّر وأنيق أُلغي لسببٍ خاص. كان لديه بنية رشيقة ونحيلة ومتراخية المظهر، وكان يبدو للناظر لا طويلاً ولا قصيراً. كان يرتدي كما يرتدي رجلٌ لا يواجه مشكلة كبيرة في ذلك حتى لو لم تكن لديه أشياء مألوفة.

سأل الفتاةَ الشابة: (حسناً يا عزيزتي، ماذا تعتقدين بشأنها؟)

لقد تكلَّمَ باللغة الإيطالية، تكلَّم بها بسهولة تامة، لكن ما كان ذلك ليقنعكَ بأنه كان إيطالياً.

---

(1) يقصد الفتاة الشابة. (المترجمة)

قالت الطفلة وهي تدير رأسها من جانبٍ إلى آخر بشكلٍ جدّي: (إنها جميلة جداً يا بابا. هل رسمْتَها بنفسك؟).

ـ (بالتأكيد أنا من رسمها. ألا تعتقدين بأنني بارع؟).

ـ (نعم يا بابا، بارعٌ جداً. أنا أيضاً تعلمتُ أن أرسم صوراً) واستدارت وأظهرَتْ وجهاً صغيراً جميلاً غطته ابتسامةٌ دائمة وحلوة جداً.

ـ (يجب أن تجلبي لي نموذجاً من قدراتكِ).

ـ (لقد جلبتُ الكثير منها. إنها في حقيبتي).

أشارت كبرى الراهبات وهي تتحدث بالفرنسية: (إنها ترسم بشكلٍ دقيقٍ جداً جداً).

ـ (سعيدٌ بسماعي ذلك. هل أنت من نصحها بالأمر؟)

قالت الراهبة الطيبة وقد احمرَّت قليلاً: (لحسن الحظ لا. فهذه ليست وظيفتي. أنا لا أعلم شيئاً، فأنا أترك ذلك لمن هم أكثر حكمة. لدينا معلم ممتاز للرسم. إنه السيد......، السيد....) فسألت رفيقتَها: (ما اسمه؟)

تفحَّصَتْ رفيقتُها السجادة وقالت بالإيطالية بطريقةٍ احتاجت إلى ترجمة: (إنه اسم ألماني).

فواصلت الأخرى الكلام: (نعم. إنه ألماني. وقد حظينا به لسنوات عديدة).

كانت الفتاة الصغيرة التي لم تكن تهتم بالمحادثة قد سارت مبتعدة باتجاه الباب المفتوح للغرفة الكبيرة ووقفتْ تنظر إلى الحديقة.

قال الرجل: (وأنتِ، يا عزيزتي الراهبة، فرنسية).

أجابت الزائرة برقة: (نعم يا سيدي. فأنا أتكلم مع التلاميذ بلغتي الأصلية. لا أعرف غيرها. لكن لدينا راهبات من دول أخرى؛ إنجليزيات، ألمانيات، إيرلنديات، كلهن يتحدثن لغتهن الأصلية).

فابتسم الرجل: (هل ابنتي تحت رعاية إحدى السيدات الإيرلنديات؟)
ثم أضاف بسرعة عندما رأى أن زائرتَيْه اعتقَدْنَها مزحة رغم أنهما أخفقتا في فهمها: (أنتم مكتفون جداً).

ـ (أوه، نعم، نحن مكتفون. فلدينا كل شيء، وكل شيء من أفضل الأشياء).

تجرأت الراهبة الإيطالية بالقول: (لدينا ألعاب الجمباز. لكنها ليست خطرة).

ـ (آمل ذلك. هل هذا هو تخصصكِ؟) وهو سؤالٌ أثار سروراً كبيراً من جانب السيدتين، وعند انحساره أشار مضيفهما وهو ينظر إلى ابنته إلى أنها قد كبرت.

قالت الراهبة الفرنسية: (نعم. لكنني أعتقد بأنها مكتملة النمو. سوف تبقى....... صغيرة الحجم).

قال الرجل: (أنا لستُ حزيناً لأجل ذلك. أنا أُفضّل النساء أن تكون كالكتب ـ أي رائعة جداً لكن ليست طويلة جداً. لكنني لا أعرف سبباً محدداً يجعل طفلتي تبقى قصيرة).

هزت الراهبة كتفيها بقناعة وكأنها تريد أن تلمّح إلى أن أموراً كهذه تتجاوز معرفتنا.

ـ (إنها بصحة جيدة تماماً. وهذا هو أهم شيء).

راقب والد الفتاة الصغيرة ابنته.

ـ (نعم. إنها تبدو قوية)

فسألها بالفرنسية: (ماذا ترين في الحديقة؟).

فأجابت بصوتٍ عذبٍ خفيض وبلكنةٍ جيدة كلكنته: (أرى زهوراً كثيرة).

ـ (نعم. لكن ليست كثيرة جداً. على أية حال اخرجي واجمعي بعضاً منها لهاتين السيدتين).

استدارت الطفلة نحوه وقد ازدادت ابتسامتها بسرور.

ـ (هل يمكنني ذلك حقاً؟)

قال والدها: (آه، فقط عندما أقول لكِ ذلك).

نظرت الفتاة لكبرى الراهبتين: (هل يمكنني ذلك حقاً أيتها الراهبة؟).

قالت الراهبة وقد احمرَّت ثانيةً: (أطيعي السيد والدكِ يا طفلتي).

فنزلت الطفلة التي سُرَّتْ بهذا الإذن من العتبة واختفت فوراً عن الأنظار.

قال والدها بمرح: (أنتِ لا تفسديهم).

ـ (عليهم أن يطلبوا الإذن في كل شيء. إنه نظامنا. فإذن الانصراف يُمنَح بسهولة، لكن عليهم أن يطلبوه).

ـ (أوه، أنا لا أختلف مع نظامكم، فلستُ أشك بأنه ممتاز. فأنا أرسلتُ لكم ابنتي لأرى ماذا ستصنعون منها. لدي إيمان بذلك).

ردت الراهبة برقة وهي تحدق عبر نظارتها: (على المرء أن يمتلك الإيمان).

ـ (حسناً. هل أُثِبْتُ على إيماني؟ ماذا صنعتِ منها؟).

أرخت الراهبة نظرها لوهلةٍ: (مسيحية حقيقية يا سيدي).

فأرخى مضيّفها نظره أيضاً؛ لكن المحتمل هو أن لكل حركة من الحركتين دوافع مختلفة.

ـ (نعم. وماذا أيضاً؟).

ظلَّ ينظر إلى السيدة التي من الدير وهو يفكر على الأرجح بأنها ستقول إن المسيحي الحقيقي هو أهم شيء. لكن رغم بساطتها إلا أنها لم تكن صريحةً جداً.

ـ (سيدة شابة رائعة ـ امرأة صغيرة حقيقية ـ ابنة لن تحصل منها سوى على الرضا).

قال الأب: (إنها تبدو بالنسبة لي مهذّبة جداً. إنها رائعة حقاً).

ـ (إنها مثالية. ليس لديها آثام).

ـ (بما أنها طفلة فليس لديها آثامٌ أبداً. وأنا مسرور بأنكِ لم تمنحيها ذلك).

قالت الراهبة التي ترتدي النظارات بوقار: (نحن نحبها كثيراً جداً. وبالنسبة للآثام؛ كيف نمنح ما لا نملكه؟ فالدير لا يشبه الحياة يا سيدي. إنها ابنتنا كما قلتَ، فقد حظينا بها منذ أنْ كانت صغيرة جداً).

همهمت المرأة الأصغر سناً باحترام: (من بين كل الذين سنفتقدهم هذا العام، ستكون هي الفتاة التي سنفتقدها بشكلٍ أكبر).

قالت الأخرى: (آه، نعم. سوف نتحدث عنها طويلاً. سوف نستبقيها مع الجدد).

عندئذٍ، بدا أن الراهبة الطيبة قد وجدت أن نظارتها معتمة بينما قامت رفيقتها بعد أن ارتبكت لوهلةٍ بانتزاع كيسٍ على شكل منديل من القماش المتين.

أجاب مضيّفهما بسرعة ليس وكأنه يتوقع بكاءهما، بل بنبرة رجلٍ يقول ما كان مناسباً أكثر بالنسبة له: (من المؤكد بأنكم لن تفتقدوها. فلا شيء محسوم لحد الآن).

ـ (سنكون سعداء جداً أن نؤمن بذلك، فعمر الخمسة عشر عاماً صغيرٌ جداً لتغادرنا).

صاح الرجل بمرحٍ أكثر من المرح الذي تحدث به لحد الآن: (أوه، ليس أنا من أراد أن يبعدها. فأنا أرغب بأن تستبقوها دائماً!).

قالت الراهبة الكبرى وهي تبتسم وتنهض: (آه، يل سيدي، لقد خُلقَتْ طيبة كما هي خصيصاً لهذه الحياة. الحياة تفوز).

سألت رفيقتُها بلطفٍ وهي تنهض أيضاً: (لو اختفى كل الطيبين في الأديرة، فكيف ستستمر الحياة؟).

كان هذا سؤالاً ذا تأثيرٍ أكبر مما رأته ظاهرياً المرأة الطيبة. فأبدت السيدة التي ترتدي النظارات رأياً يصلح الأمر بشكلٍ مشجّع: (لحسن الحظ، يوجد هناك أناس طيبون في كل مكان).

أشار مضيّفهما بشجاعة: (إن ذهبتما إلى هناك فسيبقى اثنان هنا).

لم يكن لدى ضيفتيه المتواضعتين إجابة لهذه الملاحظة المبالغ فيها، وببساطة نظرت إحداهما إلى الأخرى باستنكارٍ مهذّب. لكن ارتباكهما حُجب بسرعة بعودة الفتاة بباقتين كبيرتين من الأزهار ـ إحداهما كلها بيضاء، والأخرى حمراء.

قالت الطفلة: (أنا أخبّركِ أيتها الراهبة كاثرين؛ إن اللون فقط هو المختلف يا راهبة جاستن، فعدد الأزهار في إحدى الباقات هو نفسه تماماً في الأخرى).

التفتت الراهبتان نحو بعضهما البعض وهما تبتسمان ومترددتان بين (أيهما ستختارين؟) و(أنتِ من يختار).

قالت الراهبة كاثرين التي ترتدي النظارات: (سأختار الحمراء. شكراً لكِ. أنا محمرّةٌ خجلاً. ستريحنا ونحن في طريقنا إلى روما).

صاحت الفتاة: (آه، إنها لن تدوم. أتمنى أن يكون بإمكاني منحكم شيئاً يدوم!).

واصلت الطفلة الكلام: (أتمنى أن تتمكن الراهبات من ارتداء أشياء جميلة. سأمنحكِ مسبحتي الزرقاء).

فسأل والدُها: (وهل ستعودين إلى روما هذه الليلة؟)

ـ (نعم. سنأخذ القطار ثانيةً. لدينا الكثير جداً لنعمله هناك).

ـ (ألستما متعبتين؟)

ـ (نحن لا نتعب أبداً).

همهمت الراهبة الصغرى: (آه، أحياناً أيتها الأخت).

ـ (ليس اليوم على أية حال. لقد بقينا مدة لا بأس بها هنا. حفظكِ اللّه يا ابنتي).

وبينما تتبادلان القبل مع ابنته، تقدَّمَ مضيّفهما ليفتح الباب الذي سيخرجان منه، لكنه وهو يفعل ذلك صاح صيحةً خفيفة ووقف ينظر إلى ما كان وراءها. لقد أفضى الباب إلى حجرة ملحقة مقببة عالية بعلو مصلّى ومكسوّة بالقرميد الأحمر، وكانت في هذه الحجرة الملحقة سيدة قد أُدخلَتْ للتو من قبل الخادم، وهو صبي مهلهل الثياب والذي كان يرشدها إلى الحجرة التي كان أصدقاؤنا متجمعين فيها. بقي الرجل الذي كان عند الباب، بعد أن أطلق صيحته، صامتاً. وبصمتٍ أيضاً دخلت السيدة.

لم يقدم لها تحية مسموعة أخرى ولم يمد يده إليها، لكنه تنحّى جانباً ليسمح لها بالمرور إلى الصالون. عند العتبة، ترددتْ وسألتْ: (هل يوجد أحدٌ هنا؟)

ـ (هل ترغبين برؤية أحدٍ ما؟).

فدخلَتْ ووجدت نفسها بمواجهة الراهبتين وتلميذتهما التي كانت تتقدم بينهما ويدها على ذراع كل واحدةٍ منهما. توقف الكل عند رؤيتهم للزائرة الجديدة، ووقفت السيدة أيضاً وهي تنظر إليهم، فأطلقت الفتاة صيحةً خافتة قليلاً: (آه، مدام ميرليه!).

جفلت الزائرة قليلاً، لكن تصرفها في اللحظة التي تلتها كان رغم ذلك مهذباً: (نعم. أنا مدام ميرليه. أتيتُ لأرحب بعودتكِ للبيت).

فبسطت يديها الاثنتين تجاه الفتاة التي اتجهت نحوها مباشرةً وهي تقدم جبهتها ليتم تقبيلها. حيّتْ مدام ميرليه هذا الجانب من شخصيتها الصغيرة الرائعة ومن ثم وقفت وهي تبتسم نحو الراهبتين. فعبَّرتا عن شكرهما لابتسامتها بانحناءة مهذّبة، لكنهما لم تتمعّنا بوضوحٍ بهذه المرأة الجليلة الرائعة التي يبدو أنها أدخلت معها شيئاً من شعاع العالَم الخارجي.

شرح الرجل: (جلبتُ تلك السيدتين ابنتي للبيت وهما الآن عائدتان للدير).

قالت مدام ميرليه: (آه، هل أنتما عائدتان إلى روما؟ لقد أتيتُ مؤخراً من هناك. إنها رائعة جداً الآن).

تقبَّلَتِ الراهبتان الطيبتان اللتان كانتا واقفتين ويداهما في أكمامهما هذا التصريح بلا حرج.

سأل صاحبُ البيت زائرته الجديدة كم مضى على مغادرتها روما، فقالت الفتاة قبل أن يكون لدى السيدة المُخاطَبة الوقت لتجيب: (لقد أتت لرؤيتي في الدير).

أعلنت مدام ميرليه: (أتيتُ أكثر من مرة يا بانسي. ألستُ صديقتكِ الكبيرة في روما؟)

قالت بانسي: (أتذكر آخر زيارة بشكل أفضل لأنكِ قلتِ لي بأنني سآتي معكِ).

سأل والدُ الطفلة: (هل قلتِ لها ذلك؟).

ـ (بالكاد أتذكر. لقد أخبرتُها ما اعتقدتُ بأنه سيسعدها. كنتُ متواجدة في فلورنسا لمدة أسبوع. لقد تمنيتُ أن تأتي وتراني).

ـ (كنتُ سأفعل ذلك لو عرفتُ بأنكِ متواجدة هناك. فالمرء لا يعرف أشياء كهذه بالإلهام ـ رغم أنني أعتقد بأن على المرء أن يفعل ذلك. من الأفضل أن تجلسي).

إن هذه المحاورة تمت بنبرة صوت معينة ـ نبرة شبه منخفضة وهادئة بحرص، وكأنه أمرٌاعتادا عليه بدلاً من أية ضرورة واضحة.

نظرت مدام ميرليه حولها لتختار المقعد الذي ستجلس عليه.

ـ (هل أنت ذاهب مع السيدتين إلى الباب؟ اسمح لي بأن أُقاطع هذه الرسميات).

ثم أضافت بالفرنسية وهي تخاطب الراهبتين وكأنها تصرفهما: (أحييكما أيتها السيدتان).

قال مضيّفهما: (إن هذه السيدة هي صديقتنا الرائعة. سوف ترونها في الدير. لدينا إيمانٌ كبير بقراراتها، وسوف تساعدني لأقرر فيما إذا كانت ابنتي ستعود إليكم في نهاية العطلة).

تجرأت الراهبة التي ترتدي النظارات بالإشارة: (آمل أن تقرري ما هو لصالحنا يا مدام).

قالت مدام ميرليه بمزاح: (تلك مزحة من السيد أوزموند. فأنا لا أقرر شيئاً، وأؤمن بأن لديكم مدرسة رفيعة جداً. لكن لا بدّ لصديقتَيٍّ الآنسة أوزموند أن تتذكر بأنها خُلقتْ لتعيش بشكلٍ طبيعي جداً في هذا العالم).

أجابت الراهبة كاثرين: (ذلك ما قلتُه للسيد..)، فهمهمت وهي تنظر إلى بانسي التي كانت واقفة على بعد مسافة قصيرة وهي مهتمة بالملابس الأنيقة لمدام ميرليه: (وهو تحديداً لنجعلها منسجمة مع هذا العالم).

قال والد بانسي: (هل سمعتِ ذلك يا بانسي؟ لقد خُلقتِ لتعيشي بشكلٍ طبيعي جداً في هذا العالم).

أحاطته الطفلة على الفور بعينيها الفتيتين جداً.

ـ (ألم أُخلَق يا بابا لأعيش من أجلك؟)

فضحك البابا ضحكةً سريعة وبهيجة.

ـ (ذلك لا يمنع! فأنا واحدٌ من هذا العالم يا بانسي).

قالت الراهبة كاثرين: (اسمح لنا لطفاً بالانسحاب. كوني طيبة وحكيمة وسعيدة مهما يكن يا بُنيّتي).

ردت بانسي: (سأعود وأراكما بالتأكيد).

وعاودت عناقها الذي قاطعَتْهُ فوراً مدام ميرليه والتي قالت: (ابقي معي يا طفلتي بينما يرافق والدكِ السيدتين الطيبتين إلى الباب).

فحدقت بانسي وهي خائبة الأمل، لكن أيضاً غير مُحتجّة. من الواضح أنها كانت مشبعة بفكرة الخضوع التي كانت كافية لأي شخصٍ يستخدم لهجة التسلط، وكانت متفرّجةً مستسلمةً لإدارة مصيرها. مع ذلك سألت بشكلٍ لطيفٍ جداً: (ألا يمكنني أن أرى الراهبة كاثرين وهي تصعد إلى العربة؟)

قالت مدام ميرليه عندما انتقل السيد أوزموند ومرافقتاه، اللتان انحنتا قليلاً مرة ثانية، إلى الحجرة الملحقة: (سيسعدني أكثر لو بقيتِ معي).

أجابت بانسي: (أوه، نعم، سوف أبقى).

ثم وقفت بجوار مدام ميرليه وهي تسترد يدها الصغيرة التي أخذَتْها هذه السيدة. فحدقت خارج النافذة واغرورقت عيناها بالدموع.

قالت مدام ميرليه: (أنا مسرورة بأنهما عَلَّمَتاكِ الطاعة، فهذا هو ما على الفتيات الصغيرات الفاضلات أن يفعلنه).

صاحت بانسي بلهفة رقيقة وبتفاخرٍ تقريباً وكأنها تتحدث عن عزفها للبيانو: (أوه، نعم، أنا مطيعةٌ بشكلٍ جيدٍ تماماً).

ثم تنهدت بضعف وبشكلٍ مسموعٍ تماماً.

قامت مدام ميرليه، التي كانت تمسك بيدها، بتمريرها عبر راحة يدها الناعمة وتنظر إليها. كانت النظرة انتقادية، لكنها لم تجد شيئاً لتنتقده؛ فقد كانت اليد الصغيرة للطفلة رقيقة وناعمة.

فقالت بسرعة: (أرجو بأنهما كانت تراقبان دائماً ارتداءكِ للقفازات، فالفتيات الصغيرات عادةً لا تحبها).

مما جعلَتِ الطفلةَ تجيب: (لقد اعتدتُ أن أكرهها. لكنني أحبها الآن).

ـ (جيد تماماً. سأصنع لكِ منها بعددٍ كبيرٍ جداً كهدية).

تساءلت بانسي باهتمام: (أشكركِ كثيراً جداً. ماذا ستكون ألوانها؟).

فكرَتْ مدام ميرليه: (ألوان عملية).

ـ (وجميلة جداً؟).

ـ (هل أنت مولعة بالأشياء الجميلة؟).

قالت بانسي بأثر قليل من الزهد: (نعم، لكن.... لكن لستُ مولعةً جداً).

ردت مدام ميرليه ضاحكة: (حسناً، لن تكون جميلةً جداً).

فأخذت اليد الأخرى للطفلة وجذبَتْها نحوها بشكلٍ أقرب. بعد ذلك واصلت كلامها وهي تنظر إليها قليلاً: (هل ستفتقدين الراهبة الأم كاثرين؟).

ـ (نعم ـ عندما أفكر فيها).

فأضافت مدام ميرليه: (حاولي إذن أن لا تفكري فيها، فربما يوماً ما ستحظين بأمٍّ أخرى).

قالت بانسي وهي تكرر تنهيدتها الاستعطافية الرقيقة الضعيفة: (لا أعتقد بأن هذا ضروري. فلدي أكثر من ثلاثين أُمّاً في الدير).

أصدرت خطواتُ والدها صوتاً ثانيةً في الحجرة الملحقة، ونهضت مدام ميرليه وهي تترك الفتاة. دخل السيد أوزموند وأغلق الباب، ثم قام بدون أن ينظر إلى مدام ميرليه بإعادة كرسي أو اثنين إلى مكانهم. انتظرَتْهُ زائرتُه لبعض الوقت لتتحدث وهي تراقبه وهو يجوب أرجاء الغرفة، ثم قالت أخيراً: (تمنيتُ لو كنتَ قد أتيتَ إلى روما. فقد اعتقدتُ بأن من المحتمل أنكَ رغبتَ أن تجلب بانسي بنفسكَ من روما).

ـ (كان هذا اعتقاداً طبيعياً. لكنني أخشى بأنها ليست المرة الأولى التي أتصرف فيها باستخفافٍ باعتقاداتكِ).

قالت مدام ميرليه: (نعم. أعتقد بأنكَ عنيد جداً).

أشغل السيد أوزموند نفسه للحظاتٍ بالغرفة ـ فقد كانت هناك مساحة واسعة فيها ليجوب في أرجائها ـ بطريقةِ رجلٍ يبحث بشكلٍ آلي عن ذرائع كي لا يُظهِر اهتماماً قد يكون محرِجاً. رغم ذلك، فقد استنفد الآن ذرائعه

ولم يتبقَّ له شيء ـ ما لم يتناول كتاباً ـ سوى أن يقف ويديه خلف ظهره وهو ينظر إلى بانسي. فسألها بسرعة بالفرنسية: (لِمَ لم تأتِ لتوديع الراهبة الأم كاثرين؟).

ترددت بانسي لوهلة وهي تنظر إلى مدام ميرليه. فقالت هذه السيدة التي جلست ثانيةً في مكانٍ آخر: (أنا طلبتُ منها أن تبقى معي).

اعترف أوزموند: (آه، كان ذلك أفضل).

فهوى على أحد الكراسي وجلس وهو ينظر إلى مدام ميرليه وقد انحنى قليلاً ومرفقاه على ذراعَيِّ الكرسي ويداه مشتبكتان.

قالت بانسي: (سوف تهديني قفازات).

علقت مدام ميرليه: (لا حاجة لأن تقولي ذلك لأي أحد يا عزيزتي).

قال أوزموند: (أنتِ كريمة جداً معها. من المفترض أن تحصل على شيء تحتاجه).

ـ (كان يجب أن أعتقد بأن لديها ما يكفي من الراهبات).

ـ (إن كنا سنناقش هذا الموضوع، فمن الأفضل لها أن تخرج من الغرفة).

قالت مدام ميرليه: (دعها تبقى. فسوف نتحدث عن شيء آخر).

اقترحت بانسي بهيئةٍ صادقة فرضَتْ تأكيداً: (إن أحببتما فلن أستمع).

أجاب والدها: (يمكنكِ أن تستمعي يا طفلتي الرائعة، لأنكِ لن تفهمي).

فجلست الطفلة بشكلٍ مطيع بجوار الباب المفتوحة أمام الحديقة التي وجَّهَتْ إليها عينيها البريئتين الحزينتين واستمر السيد أوزموند يخاطب رفيقته الأخرى بشكلٍ عَرَضي: (من الواضح أنكِ تبدين بأحسن حال).

قالت مدام ميرليه: (أعتقد بأنني دائماً أبدو كما أنا).

ـ (أنتِ دائماً كما أنت، لا تتغيرين. أنت امرأةٌ رائعة).

ـ (نعم. أعتقد بأنني كذلك).

ـ (رغم ذلك، فأنتِ تغيرين رأيكِ أحياناً. فقد أخبرتِني عند عودتكِ من إنجلترا بأنكِ لن تغادري روما ثانيةً في الوقت الحاضر).

ـ (أنا مسرورة لأنكَ تتذكر جيداً ما أقوله. فهذه كانت نيتي. لكنني أتيتُ إلى فلورنسا لأقابل بعض الأصدقاء الذين وصلوا مؤخراً والذين لم أكن في ذلك الوقت متيقنة من تحركاتهم).

ـ (إن ذلك سببٌ مميز. فأنتِ دائماً تفعلين شيئاً ما لأجل أصدقائكِ).

ابتسمت مدام ميرليه حالاً لمضيّفها.

ـ (إنه أقل تميُّزاً من تعليقكَ عليه ـ تعليقكَ غير الصادق تماماً. مع ذلك، فأنا لستُ بذلك أفعل جريمة).

ثم أضافت: (لأنكَ إنْ لم تكن تؤمن بما تقول، فليس هناك سبب لتفعل ذلك. أنا لا أفني نفسي من أجل أصدقائي، ولا أستحق إطراءكَ. أنا أهتم بشكل أكبر بنفسي).

ـ (بالضبط. لكن نفسكِ تشمل أنفساً أخرى كثيرة جداً ـ الكثير جداً من كل شخصٍ آخر ومن كل شيء. لم أعرف أبداً شخصاً لامسَتْ حياتُه حيواتٍ أخرى بهذا القدر الكبير).

سألت مدام ميرليه: (ماذا تسمّي حياة الشخص؟ مظهره، حركاته، ارتباطاته، رفاقه؟)

قال أوزموند: (أنا أسمّي حياتكِ طموحاتكِ).

نظرت مدام ميرليه لوهلةٍ إلى بانسي وهمهمت: (أتساءل إن كانت تفهم ذلك).

ـ (ها أنت ترين بأنها لا يمكنها أن تبقى معنا!) وابتسم والد بانسي ابتسامةً حزينةً قليلاً وواصل كلامه بالفرنسية: (اذهبي إلى الحديقة يا عزيزتي واقطفي زهرةً أو اثنتين لمدام ميرليه).

هتفت بانسي وهي تنهض بسرعة وتغادر بلا ضجة: (هذا تماماً ما أردتُ أن أفعله).

فتبعها والدها إلى الباب المفتوح وتوقف لبرهةٍ وهو يراقبها، ومن ثم عاد لكنه بقي واقفاً، أو بالأحرى يجول جيئةً وذهاباً وكأنه يزرع إحساساً بالألفة قد يكون مطلوباً في موقفٍ آخر.

قالت مدام ميرليه وهي تنظر إليه بشجاعة: (إن طموحاتي هي من أجلكَ أساساً).

ـ (ذلك يعيدنا إلى ما قلتُه. وهو أنني جزءٌ من حياتكِ ـ أنا وآلاف آخرين. أنت لستِ أنانية ـ لا يمكنني أن أعترف بذلك. فإن كنتِ أنانية فماذا سأكون أنا؟ أي لقبٍ سيصفني؟).

ـ (أنتَ كسول. بالنسبة لي تلك هي أسوأ عيوبكَ).

ـ (أخشى بأنها أفضل عيوبي في الواقع).

قالت مدام ميرليه بتجهم: (أنتَ لا تبالي).

ـ (بَلا، لا أعتقد بأنني أبالي كثيراً. ماذا تسمين هذا النوع من العيب؟ إن كسلي على أي حال كان أحد أسباب عدم ذهابي إلى روما. لكنه كان إحداها فقط).

ـ (إن عدم ذهابكَ ـ بالنسبة لي على الأقل ـ ليس بذي أهمية رغم أنني كنتُ سأُسَرُّ برؤيتكَ. أنا سعيدة بأنكَ لستَ في روما الآن ـ والذي قد يحدث، أو من الممكن أن سيحدث، لو كنتَ ذهبتَ إلى هناك قبل شهر. هناك شيء ما أود منكَ أن تفعله في الوقت الحاضر في فلورنسا).

قال أوزموند: (تذكّري كسلي أرجوكِ).

ـ (أنا أتذكره. لكنني أتوسل إليك أن تنساه، فبهذه الطريقة ستحظى بالفضيلة والمكافأة. إن ذلك ليس بالعمل الشاق، وقد يكون ذا فائدة حقيقية. كم مضى من الوقت منذ أن تعرَّفْتَ على امرأةٍ جديدة؟).

ـ (لا أعتقد بأنني تعرَّفتُ على أية واحدةٍ أخرى منذ أن تعرَّفتُ عليكِ).

ـ (إذن حان الوقت لتتعرف على أخرى. هناك صديقة لي أريدكَ أن تتعرف عليها).

عاد السيد أوزموند في سيره إلى الباب المفتوحة ثانيةً وكان ينظر إلى ابنته وهي تتجول تحت أشعة الشمس الزاهية. فسأل بنوعٍ من الصراحة اللطيفة: (وما الخير الذي سيعود علي؟).

انتظرت مدام ميرليه: (سوف يروِّحُ عنكَ).

لم تكن هناك صراحة في هذه الإجابة؛ فقد كانت متوخاة جداً.

قال أوزموند وهو يتجه نحوها: (ما دمتِ قلتِ ذلك فأنا أصدقه، كما تعلمين).

ـ (هناك بعض المواضيع تكون فيها ثقتي بكَ عالية. فمثلاً أنا مدركة تماماً بأنكَ تميّز الرفاق السيئين من الجيدين).

ـ (إن الرفاق كلهم سيئون).

ـ (اعذرني. فذلك التميز الذي أعزوه لكَ ليس نوعاً مألوفاً من الحكمة. لقد اكتسَبْتَهُ بالطريقة الصحيحة ـ أي عن طريق التجربة. لقد قمتَ بتشبيه عدد هائل من أناسٍ بغيضين قليلاً بأحدهم الآخر. حسناً، أدعوكَ إلى الاستفادة من قدرتي في التمييز).

ـ (الاستفادة؟ هل أنت متأكدة جداً من أنني سأستفيد؟).

ـ (ذلك ما أرجوه. فذلك سيعتمد عليكَ، لو تمكنتُ فقط من استدراجكَ لتبذل جهداً!).

ـ (آه، أرأيتِ! عرفتُ أن شيئاً مملاً سيعقب ذلك. فأي شيء في هذا العالم ـ والذي من المرتقب أن يظهر هنا ـ يستحق أن نبذل لأجله جهداً؟).

فاحتقنت مدام ميرليه كشخصٍ جريح: (لا تكن أحمق يا أوزموند. فلا

أحد أفضل منكَ يعرف ما الذي يستحق أن نبذل لأجله جهداً. ألم أفطن لكَ في الأيام الخوالي؟).

ـ (أنا أُميّز بعض الأمور، لكن ولا واحد منها ممكنة الحدوث في هذه الحياة الفقيرة).

قالت مدام ميرليه: (إن الجهد هو ما يجعلها ممكنة الحدوث).

ـ (يوجد أمرٌ ذو شأن في ما تقولين. من هي إذن صديقتكِ تلك؟).

ـ (إنها الشخص الذي أتيتُ إلى فلورنسا لأراه. إنها ابنة أخت السيدة تاتشيت التي لن تنساها).

ـ (ابنة أخت؟ إن الكلمة توحي بالشباب والجهل. أفهمُ إلى ما ترمين إليه).

ـ (نعم. إنها شابة ـ بعمر ثلاثة وعشرين عاماً. إنها صديقتي الرائعة. التقيتُ بها لأول مرة في إنجلترا قبل عدة أشهر وعقدنا معاً تحالفاً رفيعاً. أنا أحبها بشدة، وأقوم بما لا أقوم به يومياً ـ وهو أن أُعجب بها. وأنتَ ستفعل مثلي).

ـ (ليس إنْ تمكنتُ من مقاومة ذلك).

ـ (بالضبط. لكنكَ لن تكون قادراً على مقاومة ذلك).

ـ (هل هي جميلة، حذقة، غنية، رائعة، ذكية عموماً وفاضلة بشكل غير مسبوق؟ لأنني سأحرص على التعرف عليها تحت هذه الشروط فقط. أنت تعلمين بأنني طلبتُ منكِ يوماً ما في الماضي أن لا تتحدثي معي عن مخلوقة لا تطابق هذه الأوصاف. فأنا أعرف الكثير من الأناس الكئيبين ولا أريد أن أعرف المزيد).

ـ (إن الآنسة آرتشر ليست كئيبة، أنها مرحة كالصباح. إنها تطابق أوصافكَ، ولهذا السبب أريد منكَ أن تتعرف عليها. إنها تستوفي شروطكَ).

ـ (قليلاً طبعاً).

ـ (كلا؛ بل فعلياً تماماً. فهي جميلة، بارعة، كريمة، وأصيلة بالنسبة لأميركية. إنها ذكية جداً أيضاً ولطيفة ولديها ثروة ضخمة).

أصغى السيد أوزموند لهذا بصمت وهو يتظاهر بأنه يقلّب الأمر في ذهنه وعيناه على معلمته. فسأل في النهاية: (ماذا تنوين أن تفعلي بها؟)

ـ (ما فَهِمْتَهُ. أي أن أضعها في طريقكَ).

ـ (أليست مناسِبة لشيءٍ أفضل من ذلك؟)

قالت مدام ميرليه: (لا داعي لأن أعرف ما هو المناسب بالنسبة للناس. أنا أعرف فقط ما يمكنني أن أفعله بهم).

أعلن أوزموند: (أنا حزين لأجل الآنسة آرتشر!).

نهضت مدام ميرليه.

ـ (إن كان ذلك بداية الاهتمام بها، فسآخذ ذلك بعين الاعتبار).

وقف الاثنان وجهاً لوجه. عدَّلَتْ وشاحها وهي تنظر إليه وهي تفعل ذلك. فكرَّر أوزموند بشكلٍ عَرَضي أيضاً: (تبدين بأحسن حال. لديكِ فكرةٌ ما. فأنتِ لا تبدين بأفضل حال هكذا مثلما عندما يكون لديكِ فكرةٌ ما. إنها تخطر ببالكِ دائماً).

كان هناك في أسلوب ونبرة هذين الشخصين عندما يلتقيان في أي وقت، وخصوصاً عندما يلتقيان بحضور آخرين، شيء ما غير واضح وحَذِر، وكأنهما يتواصلان مع بعضهما بشكلٍ غير مباشر ويخاطبان بعضهما بشكل ضمني. يبدو أن تأثير كل منهما يعزز استحياء الآخر إلى درجة ملحوظة. إن مدام ميرليه تغلبت طبعاً على أي إحراج أفضل من صديقها، لكن حتى مدام ميرليه لم تمتلك في هذه الحالة الشكل الذي كانت ستودّ أن تحظى به ـ أي تمالُك النفس الذي كانت تتمنى أن ترتديه لمضيّفها. إن القصد من الكلام على أية حال هو أن في لحظةٍ معينة ينهدم دائماً المؤثّر الذي بينهما ـ أيّاً كان ـ ويتركهما وجهاً لوجه بشكل أقرب مما لو حصل بحضور أشخاص آخرين. وذلك هو ما حدث الآن. إذ وقفا هناك وهما يعرفان بعضهما البعض جيداً،

وكل واحد منهما راغبٌ عموماً بتقبُّل هذه المعرفة كبديل عن انزعاج كونهما مكشوفَيْن لأحدهما الآخر.

قالت مدام ميرليه بهدوء: (أود كثيراً أن لا تكون قاسي القلب لهذه الدرجة، فذلك ليس في صالحكَ دوماً ولن يكون في صالحكَ الآن).

ـ (أنا لستُ قاسي القلب كثيراً مثلما تعتقدين، فهناك من حينٍ لآخر شيء يؤثر بي ـ كما على سبيل المثال قولكِ للتو بأن طموحاتكِ هي من أجلي. أنا لا أفهم ذلك، فأنا لا أرى كيف أو لماذا ستكون من أجلي. لكن برغم ذلك فقد أثَّرَتْ بي).

ـ (من المحتمل بأنكَ ستفهم ذلك. خصوصاً عندما يمضي الوقت. فهناك بعض الأمور التي لن تفهمها أبداً. إذ لا توجد ضرورة معينة لتفهم).

قال أوزموند: (على كُلٍّ، أنت أكثر النساء غرابةً، وتفهمين أكثر من أي أحد تقريباً. لكن لا أفهم لماذا تعتقدين أن ابنة أخت السيدة تاتشيت ستعني لي الكثير بينما.... بينما...).

لكنه توقف عن الكلام لبرهة.

ـ (بينما أنا نفسي لم أعْنِ لكَ الكثير؟)

ـ (ليس ذلك هو ما قصدتُ قوله بالطبع، وإنما بينما عرفتُ وقدَّرْتُ امرأةً مثلكِ).

قالت مدام ميرليه: (إن إيزابيل آرتشر أفضل مني).

فضحك مضيّفها: (كم تعتبرينها تافهة لتقولي ذلك!).

ـ (هل تعتقد بأنني جديرة بالغيرة؟ أرجو أن تجيبني على ذلك).

ـ (بالنسبة لي؛ لا. لا أعتقد ذلك عموماً).

ـ (تعال لرؤيتي إذن، بعد يومين من الآن، فأنا موجودة في قصر كريشنتيني التابع للسيدة تاتشيت ـ ستكون الفتاة هناك).

قال أوزموند: (لِمَ لم تطلبي ذلك مني ببساطة في البداية بدون أن تتحدثي عن الفتاة؟ إذ كان يمكنكِ أن تضمَني وجود الفتاة بأية حال).

نظرت إليه مدام ميرليه بطريقة امرأةٍ مهيئة لأي سؤال يسأله.

ـ (هل تريد أن تعرف السبب؟ لأنني حدثتُها عنكَ).

عبس أوزموند واستدار مبتعداً: (لم أكن أعرف ذلك يقيناً).

ثم أشار إلى حامل الرسم الذي كان يسند لوحة الألوان المائية: (هل رأيتِ ماذا يوجد هناك ـ آخر أعمالي؟).

اقتربت مدام ميرليه وفكرت: (هل هي سلسلة جبال الألب ـ إحدى رسوماتكَ في العام السابق؟).

ـ (نعم. لكن كيف تحزرين كل شيء!).

نظرت لوهلةٍ أطول ثم استدارت مبتعدة.

ـ (أنتَ تعلم بأنني لا أبالي برسوماتكَ).

ـ (أعلم هذا. لكنني مع ذلك متفاجئ دوماً للأمر. إنها حقاً أفضل بكثير من رسومات معظم الناس).

ـ (قد يكون ذلك أفضل فعلاً. لكن بالنسبة للشيء الوحيد الذي تفعله.... حسناً، إنه تافه جداً. كنتُ سأودّ لو تفعل أشياء أخرى: تلك هي طموحاتي).

ـ (نعم. قلتِ ذلك لي مرات كثيرة... عن أشياء مستحيلة).

قالت مدام ميرليه: (أشياء مستحيلة). ومن ثم قالت بنبرة مختلفة تماماً: (إن لوحاتكَ الصغيرة بحد ذاتها جيدة جداً).

فنظرت حول الغرفة ـ إلى الخزانات القديمة، واللوحات، والبُسُط المنجّدة، والأسطح الحريرية الباهتة.

(إن غرفكَ على الأقل مثالية. أنا أندهش بذلك المرة تلو الأخرى كلما

أعود، إذ لا أعرف غرفاً أفضل منها في أي مكان. أنت تفهم هذا النوع من الأشياء أكثر من أي شخصٍ آخر. فلديكَ ذوقٌ ساحر).

قال جيلبرت أوزموند: (أنا مشمئز بسبب ذوقي الساحر).

ـ (مع ذلك، لا بدّ أن تسمح للآنسة آرتشر أن تأتي وتراها. فقد حدثتُها عن ذلك).

ـ (لا مانع لدي من عرض حوائجي ـ عندما لا يكون الناس أغبياء).

ـ (ستعرضها بسرور. وستبدو كمرشد سياحي لمتحفكَ لهدفٍ معين).

بدا السيد أوزموند على الفور لقاء هذا الإطراء أكثر رزانة وأكثر اهتماماً: (هل قلتِ بأنها كانت غنية؟).

ـ (لديها سبعون ألف باوند).

ـ (مبلغ جيد).

ـ (لا يوجد شك بتاتاً بشأن ثروتها، فقد رأيتُ ذلك مثلما قلتُ لكَ).

ـ (امرأة قادرة على الإقناع! ـ أقصد أنت. لو ذهبتُ لرؤيتها، فهل سأرى الأم؟).

ـ (الأم؟ ليس لديها أم ـ ولا أب أيضاً).

ـ (الخالة إذن ـ قلتِ ما اسمها؟ ـ السيدة تاتشيت).

ـ (بإمكاني بسهولة أن أُبعدها عن الطريق).

قال أوزموند: (ليس لدي اعتراض عليها. أنا حقيقةً أحبُّ السيدة تاتشيت، فلديها نوع من الشخصية القديمة الطراز والتي انقرضت ـ شخصية قوية. وذلك الابن الطويل المزعج ـ هل هو موجود؟).

ـ (إنه هناك. لكنه لن يزعجكَ).

ـ (إنه يشبه الحمار كثيراً).

ـ (أعتقد بأنكَ مخطئ. إنه رجلٌ ذكي. لكنه غير راغب بالتواجد عندما أكون أنا هنا لأنه لا يحبني).

واصَلَ أوزموند الكلام: (ماذا يمكن أن يكون أكثر حماقة من ذلك؟ هل قلتِ بأنها جميلة؟)

ـ (نعم. لكنني لن أكرر ذلك لئلا يخيب أملكَ فيها. تعالَ وأسِّسْ للبداية، فذلك هو كل ما أطلبه منكَ).

ـ (بداية ماذا؟).

صمتت مدام ميرليه قليلاً.

ـ (أريدكَ بالطبع أن تتزوجها).

ـ (بداية النهاية؟ حسناً، سوف أدرس الموضوع بنفسي. هل أخبرتِها بذلك؟).

ـ (ماذا تظنني؟ إنها ليست قطعة كبيرة من آلة ـ ولا أنا).

قال أوزموند بعد تفكير: (حقاً أنا لا أفهم طموحاتكِ).

ـ (أعتقدُ بأنكَ ستفهم هذا بعد أن ترى الآنسة آرتشر. أرجئ حكمكَ عليها).

كانت مدام ميرليه وهي تتحدث تنسحب قرب الباب المفتوح للحديقة حيث وقفَتْ لبرهة وهي تنظر للخارج.

أضافت على الفور: (إن بانسي تزداد جمالاً فعلاً).

ـ (هذا ما يبدو لي أيضاً).

ـ (لكنها شبعَتْ من الدير).

قال أوزموند: (لا أعلم. لكنني أحب ما صنعوا منها. إنه رائعٌ جداً).

ـ (ليس السبب هو الدير، بل طبيعة الطفلة).

ـ (أعتقدُ بأن السبب هو كلاهما. إنها نقية كاللؤلؤة).

سألت مدام ميرليه: (لماذا لم تعد بأزهاري إذن؟ إنها متأنية).

ـ (سنذهب ونحصل عليها).

همهمت الزائرةُ وهي ترفع مظلتها ويدخلان إلى الحديقة: (إنها لا تحبني).

***

الفصل 23

وصلت مدام ميرليه إلى فلورنسا عند وصول السيدة تاتشيت بدعوةٍ من هذه السيدة ـ إذ عرضت السيدةُ تاتشيت عليها ضيافة شهرٍ واحد في قصر كريشنتيني ـ وتحدثت مدام ميرليه الحكيمة مع إيزابيل من جديد عن جيلبرت أوزموند وعبَّرَتْ عن أملها في أن تتعرّف عليه لكن بدون أن تذكر الغرض الذي رأيناها تقصده في أن توكل الفتاةَ إلى عناية السيد أوزموند. ربما كان سبب ذلك هو أن إيزابيل لم تُبْدِ مقاومة بتاتاً لاقتراح مدام ميرليه. ففي إيطاليا، كما هو في إنجلترا، كان للسيدة الكثير من الأصدقاء من أبناء هذه البلاد والبلدان الأخرى. وذكرتْ لإيزابيل معظم الناس الذين ستجد الفتاة أنه من المناسب أن «تلتقي بهم» ـ وقالت طبعاً إن إيزابيل بإمكانها أن تتعرف على أي أحد ترغب بالتعرف عليه ـ ووضعت السيد أوزموند على رأس القائمة تقريباً.

كان صديقاً قديماً لها. وكانت قد تعرَّفَتْ إليه في هذه السنوات الطويلة، وكان واحداً من أكثر الرجال ذكاءً وطيبةً ـ حسناً، في أوروبا فقط. كان بالمجمل محترماً فوق العادة، كان شيئاً مختلفاً تماماً. لم يكن ساحراً محترفاً ـ بل أكثر من ذلك، والتأثير الذي يسببه يعتمد كثيراً على جرأته وشجاعته. عندما لا يكون في مزاجٍ ملائم فإنه ينهار كأي أحد، عدا فقط أنه يبدو في ساعاتٍ كهذه كأميرٍ فاسدٍ في منفى. لكنه لو يحرص أو يكون مهتماً أو يتم تحديه بعدالة ـ بعدالةٍ تماماً كما يجب ـ فسيشعر المرء بذكائه وتميّزه. إن هذه الصفات لم تقم في حالته، مثلما هو عند باقي الناس، على عدم الالتزام أو الخضوع. كانت له مساوئه ـ وهو ما ستجده إيزابيل في الحقيقة مألوفاً عند كل الرجال الذين

يستحقون التعرف عليهم ـ ولا يجعل بريقه يشع على كل الأشخاص على نحوٍ متساوٍ. رغم ذلك، اعتقدَتْ مدام ميرليه بأنه يمكنها أن تتعهد لإيزابيل بأنه سيكون لامعاً. كان يملّ بسهولة، بسهولةٍ جداً، والناس الأغبياء يُشْعِرونَهُ بالضيق؛ لكن فتاةً ذكية ومثقفة كإيزابيل ستمنحه حافزاً كان مفقوداً تماماً من حياته. بكل الأحوال، كان شخصاً لا يجب أن تُفوّتَه. لا يجب على المرء أن يحاول العيش في إيطاليا بدون أن يطلب صداقة جيلبرت أوزموند الذي يعرف عن البلاد أكثر من أي أحد باستثناء أستاذين أو ثلاثة من الألمان. وإن كانوا يعرفونها أكثر منه، فهو من لديه أقصى درجات الإحساس والذوق ـ لكونه فناناً بكل معنى الكلمة.

تذكرت إيزابيل بأن صديقتها قد تحدثَتْ عنه أثناء استغراقهما في جاردن كورت في أغوار الحديث، وتساءلَتْ قليلاً عن طبيعة العلاقة التي تربط هاتين الروحين الساميتين. لقد شعرَتْ بأن علاقات مدام ميرليه تمتلك دائماً بطريقةٍ ما حكاية، وكان هذا الانطباع جزءاً من الإعجاب الذي خلقَتْهُ تلك المرأة الجامحة. رغم ذلك، فهي لم تُشِرْ إلى شيء فيما يخص علاقتها بالسيد أوزموند سوى أنها صداقة مستقرة قائمة منذ مدة طويلة. قالت إيزابيل بأنها ستكون مسرورة بتعرّفها على شخصٍ تمتع بجرأة عالية جداً ولسنواتٍ كثيرة جداً.

أشارت مدام ميرليه: (يجب أن تَرَي الكثير جداً من الرجال. يجب أن تَرَي أكثر ما يمكن لكي تعتادي عليهم).

فكررت إيزابيل بتلك النظرة المحدقة الجديّة التي بدت بأنها تصرّح بافتقارها لحس الفكاهة: (أعتادُ عليهم؟ عجباً، أنا لستُ خائفةً منهم ـ أنا معتادة عليهم كاعتياد الطاهي على صبيّ القصّاب).

ـ (أقصد أن تعتادي عليهم لكي تستخفّي بهم. فذلك هو ما ينتهي إليه المرء مع معظمهم، وستنتقين لرفقتكِ القليلين الذين لا تستخفّين بهم).

كانت تلك علامة استخفاف لم تسمح مدام ميرليه لنفسها بقولها عادةً؛ لكن إيزابيل لم تكن مندهشة، لأنها لم تعتقد أبداً بأن المرء كلما يرى الكثير من الناس يصبح شعور الاحترام هو الشعور الأكثر فاعلية لديه. مع ذلك، فقد أُثيرَتْ مشاعر الاحترام هذه بواسطة مدينة فلورنسا الجميلة التي راقت لها أكثر مما بشَّرَتْ به مدام ميرليه؛ وإن لم يكن إحساسها المخذول قادراً على تقدير جمالها فلديها رفاق بارعون كالقديسين يساعدونها في ذلك. فهي لم تكن بحاجة فعلاً للتقدير الجمالي، لأن رالف وجدها متعةً ليجدد شغفه المبكر ليعمل كمرشد سياحي لقريبته الشابة المتحمسة. بقيت مدام ميرليه في البيت؛ كانت قد تفرَّجَتْ على كنوز فلورنسا مراراً وتكراراً، ولديها شيء آخر تفعله. لكنها تحدثت عن كل شيء بذاكرةٍ قوية ملفتة للنظر ـ إذ استذكرت الركن الأيمن للوحة بيروجينو الكبير وموقع أيدي القديسة إليزابيث في اللوحة المجاورة لها. كانت لها آراؤها بخصوص مميزات أعمالٍ فنيةٍ شهيرة كثيرة، وهي تختلف بذلك عن رالف ببصيرة كبيرة، وتُدافِع عن تفسيراتها بعبقرية كبيرة بقدر رحابة صدرها.

أصغت إيزابيل إلى المناقشات الدائرة بين الاثنين بوعي بحيث استمدت فائدة كبيرة منها وكانت من بين الفوائد التي لم تستطع التمتع بها مثلاً في ألباني.

في الصباحات المشرقة لشهر أيار قبل وجبة الإفطار الأساسية ـ كانت هذه الوجبة تُقَدَّم في منزل السيدة تاتشيت في الساعة الثانية عشرة ـ تتجول مع ابن خالتها عبر الشوارع الفلورنسية الضيقة المعتمة، ويستريحان لفترة قصيرة تحت الظلال الكثيفة لكنيسةٍ تاريخية أو الحجرات المقببة لديرٍ قليل السكّان.

ذهبَتْ إلى المعارض والقصور؛ تفرَّجَتْ على اللوحات والتماثيل التي كانت تمثّل لها لحد الآن شهرة عظيمة، واستَبْدَلَتِ المعرفةَ المسبقة التي ثَبَتَ عادةً بأنها خاوية بمعرفةٍ كانت أحياناً منتظمة. لقد أدَّتْ كل هذه النشاطات

المُنهكة ذهنياً، والتي ينهمك فيها الشباب والحماس بحرية كهذه عند أول زيارة لإيطاليا؛ إذ شعرَتْ أن قلبها يخفق بوجود عبقريةٍ خالدة وشعرت بحلاوة الدموع المنهمرة في عيونٍ ازدادت الرسوم الجدارية الباهتة والرخام المعتم غشاوةً بالنسبة لها. لكن العودة كل يوم كانت أكثر سروراً حتى من الذهاب؛ العودة إلى البلاط التذكاري الفسيح للمنزل العظيم الذي أسسته السيدة بنفسها قبل عدة سنوات، والى الغرف العالية الباردة حيث تطل الدعامات المنحوتة والرسوم الجدارية الفخمة التي تعود للقرن السادس عشر على الأثاث المألوف للعصر الحديث.

سكنت السيدة تاتشيت بناية تاريخية في شارعٍ ضيّق يعيد اسمه بالذات إلى الأذهان نزاع الطوائف في القرون الوسطى، ووجدت تعويضاً عن عتمة واجهتها في تواضع إيجارها وفي جمالِ حديقةٍ حيث بدت الطبيعة نفسها قديمة بقدم أسلوب البناء المتين للقصر، والتي قامت بتنقية وتعطير الغرف المستعملة باستمرار. بالنسبة لإيزابيل، أن تعيش في مكانٍ كهذا، يعني أن تحمل على أذنها طوال اليوم صَدَفَةً من بحر الماضي. وقد أبقت هذه الهمهمة الأبدية المبهمة خيالها يقظاً.

وصل جيلبرت أوزموند لرؤية مدام ميرليه التي قدَّمَتْهُ إلى السيدة الشابة القابعة في الجانب الآخر من الغرفة. شاركَتْ إيزابيل بهذه المناسبة بجزءٍ قليلٍ من الحديث؛ وحتى بالكاد ابتسمَتْ عندما يلتفت الآخرون نحوها بشكلٍ مشجّع؛ إذ جلسَتْ هناك وكأنها على المسرح ودفعَتْ أيضاً مبلغاً كبيراً مقابل مقعدها.

لم تكن السيدة تاتشيت موجودة، واحتواها هؤلاء الاثنان تماماً بطريقتهما الخاصة بتأثير الذكاء. تحدَّثا عن أهالي فلورنسا وروما المتحررين، وكانا ممثلَيْن ممتازَيْن وهما يمثّلان. لقد امتلَكَ التمثيل كل الاستعدادات الوافية التي كانت ستأتي من المِران المتكرر.

راقت لها مدام ميرليه وكأنها كانت على المسرح، لكنها تجاهلَتْ طبعاً أي تلميحٍ مفهوم بدون أن تفسد المشهد ـ رغم أنها طبعاً بهذه الطريقة أظهَرَتْ وبطريقةٍ مزعجة الصديقةَ التي أخبرَتِ السيدَ أوزموند بأنها يُعتَمَد عليها، بأنها كانت مخطئة. لم يكن لذلك أهمية في الوقت الحالي، فحتى لو تضمَّنَ الموضوع أكثر من ذلك، فهي لن تتمكن من عمل محاولة لتتألق.

كان هناك شيء ما في الزائر الذي أسَرَها وأبقاها في حيرة جعل من المهم أن تأخذ انطباعاً عنه أكثر من أن تقوم هي بتوليدِ انطباعٍ عن نفسها. رغم ذلك، فهي لم تمتلك براعة كبيرة في توليدِ انطباعٍ تشعر بأنه مُنتَظَرٌ منها؛ إذ لا يوجد شيء عموماً أكثر سعادة من أن تبدو متألقة، لكن لديها نفور عنيد من أن تتألق بطريقة التخطيط لذلك.

لكي ننصف السيد أوزموند نقول بأنه رجلٌ له مظهر مهذّب لا يمكن التكهّن منه بشيء، وله طبعٌ هادئ غطّى على كل شيء، حتى على العرض الأول من فكاهته. كان هذا الشيء هو المستحب أكثر لأن وجهه ورأسه كانا دقيقين؛ لم يكن وسيماً، لكنه كان أنيقاً كإحدى اللوحات في المعرض الفني الطويل الذي فوق جسر أوفيزي. كان صوته بحد ذاته رقيقاً ـ والشيء الأكثر غرابة هو أنه رغم وضوحه، إلا أنه مع ذلك لم يكن عذباً بطريقةٍ ما. كان لهذا الأمر في الحقيقة علاقة بجعلها تمتنع عن المداخلة. كان تَلَفُّظُهُ كارتجاج آنيةٍ زجاجية إنْ مَدَّتْ إصبعها إليها يتغير علو الصوت وتُفسد التناغم. مع ذلك، كان عليها أن تتكلم قبل أن يغادر.

قال: (وافقَتْ مدام ميرليه على القدوم إلى قمة التل الخاص بي أحد أيام الأسبوع القادم وشُرْب الشاي في حديقتي. سيسعدني كثيراً لو تأتين معها. فهناك ما يسمونه منظر طبيعي شامل يُعتقد بأنه جميلٌ بعض الشيء. وابنتي أيضاً ستكون مسرورة جداً، مسرورة جداً جداً ـ أو بالأحرى أنا سأكون مسروراً جداً لأنها صغيرة جداً على أن تمتلكَ عواطف قوية).

وتوقف السيد أوزموند عن الكلام بمظهرٍ محرج تاركاً جملته غير مكتملة. بعد ذلك واصل الكلام بسرعة: (سأكون مسروراً جداً لو أمكنكِ أن تتعرفي على ابنتي).

فأجابت إيزابيل بأنها ستكون مسرورة برؤية الآنسة أوزموند، وأنها ستكون ممتنة جداً لو كانت مدام ميرليه ستريها الطريق إلى قمة التل.

وغادر الزائر مباشرةً بعد هذا التأكيد، والذي بعده توقعت إيزابيل تماماً بأن صديقتها ستؤنبها على أنها كانت بليدة للغاية. لكن لدهشتها، بعد قليل قالت لها هذه السيدة التي لم تقع في ما هو متوقع: (لقد كنتِ رائعة يا عزيزتي. لقد كنتِ كما يتمنى منكِ المرء تماماً. أنت لستِ مخيّبة للآمال أبداً).

من المحتمل أن يكون التأنيب مزعجاً، إلا أنه من المحتمل أكثر هو أن إيزابيل كانت ستأخذه برحابة صدر؛ لكن من الغريب أن نقول إن الكلمات التي استخدمتها مدام ميرليه في الواقع سببت لها أول شعور بالاستياء أثارَتْهُ هذه الحليفة. فأجابت ببرود: (ذلك أكثر مما قصَدْتُهُ. فما أعرفه هو أنني لستُ مُلزمةً بأن أفتن السيد أوزموند).

فاحمرَّتْ مدام ميرليه بشكلٍ واضح، لكننا نعلم بأنه ليس من عادتها أن تتراجع.

ـ (يا طفلتي العزيزة، أنا لم أتحدث عنه، ذلك الرجل المسكين؛ أنا أتحدثُ عنكِ. فالمسألة ليست طبعاً هي إعجابه بكِ، إذ لا يهم كثيراً فيما إذا كان قد أُعجب بكِ أم لا! لكنني اعتقدتُ بأنكِ أُعجبتِ به).

قالت إيزابيل بصدق: (لقد أُعجبتُ به. لكنني لا أفهم ما أهمية ذلك أيضاً).

أجابت مدام ميرليه بفخامتها المُضجِرة: (كل ما يتعلق بكِ يهمني، خصوصاً عندما يتعلق في الوقت نفسه بصديقٍ آخر قديم).

يجب الاعتراف بأنه مهما كانت التزامات إيزابيل تجاه السيد أوزموند،

فإنها وجدَتْها كافية لتقودها إلى أن تسأل رالف عنه أسئلة كثيرة. ظنت أن أحكام رالف مشوهة بسبب تجاربه، لكنها داهنت نفسها بأنها تعلَّمَتْ أن تلتمس له العذر في ذلك.

قال ابن خالتها: (هل أعرفه؟ أوه، نعم أنا «أعرفه» ليس تماماً، لكن إلى حدٍّ كافٍ عموماً. أنا لم أُراعِ أبداً صُحْبَتَهُ، ومن الواضح أنه لم يجد أبداً صحبتي ضرورية لسعادته. أمّا من يكون، أو ماذا يكون؟ إنه رجل أميركي غامض، غير واضح، كان يعيش في إيطاليا هذه الثلاثين عاماً أو أقل. لماذا اسمّيه غير واضح؟ كغطاءٍ لجهلي به فقط. فلا أعلم عن أسلافه، عائلته، أصله. مع ذلك أشعر بأنه يمكن أن يكون سيداً في التخفّي، أو بالأحرى يبدو كأميرٍ هُجر في نوبة غضب وبقي في حالة تذمُّر من يومها. لقد اعتاد على أن يعيش في روما، لكنه في السنوات الأخيرة اشترى مسكناً هنا. أتذكَّرُ بأنني سمعتُه يقول: إن روما أصبحت مبتذلة؛ فهو لديه نفور كبير للابتذال. ذلك هو أصله الاستثنائي وليس لديه شيء آخر أعرفُه. يعيش على نفقته التي أشك بأنها ليست كبيرة عادةً. إنه رجلٌ فقير لكن صادق ـ هذا ما يُسَمّي نفسه. تزوج بعمرٍ صغير وفقد زوجته، وأعتقدُ بأن لديه ابنة. لديه أخت أيضاً متزوجة من كونت بسيط أو من هذا القبيل من هذه المناطق. أتذكر بأنني التقيتُها قديماً، إنها أكثر لطفاً منه على ما أعتقد، لكن بغيضة قليلاً. أتذكَّرُ بأنه كان يوجد بعض القصص عنها. لا أنصحكِ بالتعرف عليها. لكن لِمَ لا تسألي مدام ميرليه عن هؤلاء الناس؟ فهي تعرفهم أكثر مني تماماً).

قالت إيزابيل: (أنا أسألكَ لأنني أريد رأيكَ وكذلك رأيها).

ـ (تبّاً لرأيي! إن كنتِ قد وقعتِ في حب السيد أوزموند فماذا سيهمكِ ذلك؟)

ـ (ليس كثيراً على الأرجح. لكن في تلك الأثناء سيكون له أهمية مؤكَّدة. كلما كان لدى المرء معلومات أكثر عن مساوئ امرئٍ آخر كلما كان ذلك أفضل).

ـ (أنا لا أوافق على ذلك ـ فذلك قد يجعلهم سيئين. نحن نعرف الكثير جداً عن الناس في هذه الأيام، ونسمع الكثير جداً، وآذاننا وعقولنا وأفواهنا مليئة بأسماء شخصيات بارزة. لا تُبالِي بأيِّ شيء يقوله لكِ أي أحدٍ عن أي أحدٍ آخر، بل احكمي على كل شخص وكل شيء بنفسكِ).

قالت إيزابيل: (ذلك ما أحاول عمله. لكن عندما تفعل ذلك يسميك الناس متعجرفاً).

ـ (لا يجب عليكِ أن تبالي بهم ـ تلك هي بالضبط رسالتي، أن لا تبالي بما يقولون عنكِ. وأكثر من ذلك ما يقولونه عن أصدقائكِ أو أعدائكِ).

فكرت إيزابيل: (أعتقدُ بأنكَ على حق. لكن هناك بعض الأشياء لا أقاوم المبالاة بشأنها؛ على سبيل المثال عندما تُهاجَم صديقتي أو عندما أمتدَح).

ـ (أنتِ حرة طبعاً في أن تحكمي على من ينتقدكِ. مع ذلك، احكمي على الناس كالنُّقّاد).

ثم أضاف رالف: (وستُدينينَهُم جميعاً!).

قالت إيزابيل: (سوف أرى السيد أوزموند بنفسي. فقد وعدتُّهُ أن أزوره).

ـ (تزورينه؟).

ـ (أنْ أذهب وأرى منظره الطبيعي، لوحاته، ابنته ـ ولا أعلم بالضبط ماذا أيضاً. ستأخذني مدام ميرليه. إنها تقول لي بأن هناك سيدات كثيرات يزرنه).

ـ (آه، يمكنكِ أن تذهبي مع مدام ميرليه إلى أي مكان بكل ثقة. فهي لا تعرف سوى أفاضل الناس).

لم تقل إيزابيل المزيد عن السيد أوزموند. لكنها أشارت بسرعة لابن خالتها بأنها لم تكن راضية عن لهجته عن مدام ميرليه: (يتراءى لي بأنكَ تلمّح إلى أشياء عنها. لا أدري ماذا تقصد، لكن إن كان لديكَ أساس لكرهكَ لها، فأعتقدُ بأنه إما أن تذكره بوضوح أو أن لا تقول شيئاً مطلقاً).

امتعض رالف من هذه التهمة بصراحة واضحة أكثر من المعتاد.

ـ (أنا أتحدث عن مدام ميرليه مثلما أتحدث معها بالضبط؛ أي باحترامٍ مفرط تماماً).

ـ (بالضبط. مفرط. ذلك هو ما أشتكي منه).

ـ (أنا أفعل ذلك لأن فضائل مدام ميرليه مُبالَغٌ بشأنها).

ـ (ومن يبالغ، أرجوك؟ أنا؟ إن كان الأمر كذلك فأكون مُقَصِّرةً في ذلك).

ـ (كلا، كلا. هي من يبالِغ بها).

صاحت إيزابيل بصراحة: (آه، أنا أحتج! فإن وُجِدَتْ يوماً امرأةٌ تدَّعي ادعاءاتٍ تافهة.....!).

فقاطعها رالف: (لقد قُلتِها. إن تواضعها هو المبالَغ به. فهي لن تستفيد من الادعاءات التافهة ـ أي لديها كل الحق بالقيام بادّعاءاتٍ كبيرة).

ـ (إذن ففضائلها كبيرة. أنت تُناقِضُ نفسكَ).

قال رالف: (إن فضائلها هائلة؛ إنها نزيهة بشكلٍ لا يوصَف؛ صحراء من الفضيلة غير مطروقة؛ المرأة الوحيدة التي أعرف بأنها لا تمنح المرء فرصةً أبداً).

ـ (فرصة لأي شيء؟).

ـ (حسناً. فلنقل فرصةً لتسميتها بالحمقاء! إنها المرأة الوحيدة التي أعرف بأن ليس لديها سوى هذا العيب).

استدارت إيزابيل مبتعدة بنفاد صبر: (أنا لا أفهمكَ. أنت متناقض جداً بالنسبة لفكري الواضح).

ـ (دعيني أشرح لكِ. عندما أقول بأنها تُبالِغ لا أعني بالمعنى المبتذل ـ أي إنها تتفاخر، تبالغ، تعطي مكانة رفيعة لنفسها. بل أعني حرفياً أنها تلتمس الكمال بشكلٍ مبالغ به ـ أي إن فضائلها بحد ذاتها متكلّفة. إنها طيبة جداً،

كريمة جداً، ذكية جداً، مثقفة جداً، متمكّنة جداً، كل شيء جداً. باختصار أنها مثالية تماماً. أعترف لكِ بأنها تؤثر في أعصابي بحيث أشعر بشأنها كما يشعر المواطن اليوناني بشأن أرستيدس العادل)[1].

نظرت إيزابيل بقسوة إلى ابن خالتها. لكن إن كانت الروح الساخرة قد توارت بين كلماته، ففي هذه الحالة فشلت في أن تطفو على وجهه.

ـ (هل تتمنى رحيل مدام ميرليه؟).

قال رالف تاتشيت ببساطة: (مطلقاً. إنها رفيقة طيبة جداً. أنا معجبٌ بمدام ميرليه).

صاحت إيزابيل: (أنتَ خبيث جداً يا سيد!) ثم سألَتْهُ إن كان يعرف شيئاً لا يشرّف صديقتها اللامعة.

ـ (لا شيء البتة. ألا تفهمين أن ذلك هو بالضبط هو ما أقصده؟ ففي شخصية كل فرد قد تجدين بقعة سوداء. ولو أُخصّص يوماً ما نصف ساعةٍ لهذا الأمر، فسوف أتمكن بلا شك من إيجاد واحدةٍ على شخصيتكِ. بالنسبة لشخصيتي أنا مبقّعٌ كالفهد طبعاً. لكن لا يوجد شيء على مدام ميرليه، لا شيء، لا شيء، لا شيء!).

قالت إيزابيل بهزّةٍ من رأسها: (ذلك هو تماماً ما تصورتُهُ، ولهذا السبب أحبها كثيراً جداً).

ـ (إنها شخصٌ مهم بالنسبة لكِ لتعرفينه. بما أنك ترغبين برؤية العالم، فلن تحظي أبداً بأفضل من هذا المرشد).

ـ (هل أفترضُ بأنكَ تقصد بذلك بأنها خبيرة بالحياة؟)

قال رالف: (خبيرة بالحياة؟ كلا. إنها الحياة الواسعة العظيمة نفسها!).

---

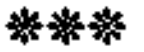
(1) أرستيدس العادل: قائد عسكري ورجل دولة يوناني يلقب بالعادل، اشتهر بدوره الكبير في الحرب ضد الفرس. توفي عام 468 ق. م. (المترجمة)

لم تكن بالتأكيد مجاملة خبيثة منه أن يقول بأنه معجب بمدام ميرليه كما خطر لإيزابيل أن تعتقد لوهلة. فرالف تاتشيت يؤدي مجاملاته كلما استطاع إلى ذلك، وما كان ليتصرف تصرفاً غير لائق إذا كان غير معجب بامرأةٍ كهذه ذات مواهب اجتماعية. يوجد هناك تعاطف وكراهية قابعان عميقاً، وربما تغيّبها عن منزل والدته ما كان ليجعل الحياة فارغة بالنسبة له رغم الإنصاف المحكم الذي تمتعت به من جانبه.

لكن رالف تاتشيت تعلَّمَ أن ينشغل بصورةٍ أو بأخرى وبشكلٍ مبهم، ولا يمكن أن يوجد شيء مؤدّى ببراعةٍ بهذه الطريقة يمكن أن ينشغل به أكثر من السلوك العام لمدام ميرليه. لقد تذوَّقها على جرعات، وجعلها تخضع، بطريقةٍ مناسِبة لم تتمكن هي نفسها من أن تقاومها. هناك لحظات يشعر فيها قليلاً بالحزن لأجلها، وكانت تلك هي اللحظات التي تكون فيها شفقته أقل وضوحاً، وهو أمر غريب تماماً. كان متأكداً بأنها كانت طموحة بحماس، وأن ما حقَّقَتْهُ ظاهرياً كان أقل بكثير من معيارها الخفي. انضمت إلى الحاشيات الراقية، لكنها لم تحصل على الألقاب الرفيعة، وظلت دائماً مدام ميرليه البسيطة أرملة بائع خمور سويسري، وذات دخل صغير ومعارف كثيرين، والتي أمضت مع الناس الكثير من الوقت وكانت «محبوبة» عموماً كأنها كتاب جديد من الثرثرة الهادئة. إن الفرق بين هذه المكانة وأية مكانة لأناسٍ آخرين كثيرين افترَضَ بأنها أسَرَتْ طموحها في لحظاتٍ مختلفة، هو أنها امتلكَتْ أثراً محزناً. اعتقدت والدتُه بأنه انسجم بشكلٍ جميل مع ضيفتهم اللطيفة؛ لأن وفقاً لمفهوم السيدة تاتشيت إن اتفقَ شخصان بشكلٍ كبير بهذه الطريقة في آراءٍ ذكيةٍ جداً عن تعاملهما ـ فسيكون بينهما كثيراً شيء مشترك.

لقد منح أهمية كبيرة لتآلف إيزابيل مع صديقتها المرموقة، لأنه قرر ومنذ وقت طويل بأنه لا يستطيع التآلف مع ابنة خالته بدون أن يتخاصما؛ وقد استغل ذلك التآلف مثلما فعل مع أسوأ الأمور. وآمنَ بأن هذا التآلف سيعتني

بنفسه؛ أي إنه لن يدوم إلى الأبد. فلا واحدة من تلك الشخصيتين المرموقتين عرفَتِ الأخرى مثلما اعتقدتا، وعندما ستقوم كل واحدة منهما باستجلاء شيء مهم أو شيئين، سيكون هناك على الأقل فتور، إن لم يكن قطيعة. وحتى ذلك الحين، سيكون راضياً جداً بالاعتراف بأن حديث السيدة الأكبر سناً كان ذا فائدة للسيدة الأصغر سناً التي لديها الكثير جداً لتتعلّمه وستتعلمه بلا شك من مدام ميرليه بشكلٍ أفضل مما لو تتعلمه من معلمين من الشباب. لن يكون من المحتمل أن إيزابيل ستتضرر من ذلك.





الفصل 24

سيكون من الصعب بالتأكيد أن نفهم ما هو الضرر الذي يمكن أن ينشأ لها من الزيارة التي قامت بها على الفور لقمة تل السيد أوزموند. فلا شيء يمكن أن يكون أكثر روعة من هذه المناسبة ـ مساءٌ شاعريٌّ في عز ربيع توسكانيا.

خرج الرفاق من البوابة الرومانية، من تحت الهيكل العلوي الأجوف الهائل الذي يتوّج القوس الساطع الجميل لتلك البوابة ويجعله رائعاً بشكلٍ واضح، والتفّوا بين الممرات ذات الأسوار العالية والتي تدلَّتْ منها أزهار الأوركيد المزهرة الكثيفة وأطلقت أريجاً طيباً، حتى وصلوا الشرفة الصغيرة ذات الشكل الملتوي حيث شكَّلَ السور البني الطويل للفيلا التي سكنها جزئياً السيد أوزموند، موضعاً هامّاً أو على الأقل مهيباً. اجتازت إيزابيل مع صديقتها فناءً فسيحاً مرتفعاً حيث استقرَّ عليه ظلٌّ رائق، وقام زوجٌ من الأروقة المقوّسة قليلاً، وهما يواجهان بعضهما البعض، بحبس ضوء الشمس فوق أعمدتها الرشيقة وفوق النباتات المزهرة التي كانت مغطاة بها. كان هناك شيء مهيب وعظيم في المكان؛ فقد بدا بطريقةٍ ما وكأنه حالما تدخل إليه ستحتاج إلى إرادةٍ قوية لتخرج منه. رغم ذلك، فبالنسبة لإيزابيل، لم تكن توجد هناك لحدّ تلك اللحظة فكرةٌ بالخروج، بل فقط بالتقدم.

استقبلها السيد أوزموند في الحجرة الأمامية الباردة ـ كانت باردة حتى في شهر أيار ـ وأدخلها مع مرشدتها إلى الحجرة التي قدَّمْناها مسبقاً. كانت مدام ميرليه في المقدمة، وبينما تخلَّفَتْ إيزابيل قليلاً تتحدث معه، تقدمتْ بدون رسميات وحيَّتْ شخصين كانا جالسَيْن في الصالون. إحداهما كانت بانسي

الصغيرة التي طبعت عليها قبلة؛ والأخرى كانت سيدةً أشار السيد أوزموند لإيزابيل بأنها أخته الكونتيسة جيميني.

قال: (وتلك هي ابنتي الصغيرة التي خرجَتْ للتو من دَيْرِها).

ارتدت بانسي ثوباً أبيض قصيراً، وكان شعرها الأشقر مصففاً بعناية في شبكة؛ وارتدت حذاءها الصغير وقد رُبط حول كاحلها بطريقة الصندل. قامت بتحية إيزابيل تحية رهبانية صغيرة ثم اقتربت ليتم تقبيلها. قامت الكونتيسة جيميني ببساطة بالإيماء بدون أن تنهض؛ تمكنت إيزابيل من أن تلاحظ بأنها كانت امرأة ذات أناقة عالية. كانت نحيلة وسمراء وليست جميلة على الإطلاق، ولديها ملامح توحي بملامح طائر استوائي ـ أنف طويل شبيه بالمنقار، عينان صغيرتان تتحركان بسرعة، وفم وذقن متراجعَان بشكلٍ بالغ. رغم ذلك، لم تكن تعابير وجهها بربرية بفضل الدرجات المختلفة من التركيز والدهشة، والفزع والبهجة، وفيما يخص شخصيتها، كان من الواضح بأنها قد ثقَّفَتْ نفسها وتعبّر عن آرائها بصراحة.

كان لردائها الفضفاض والرقيق، والمنتفخ بأناقة، مظهر الريش اللامع، وكانت حركاتها رشيقة وفجائية كحركات مخلوقٍ جاثم فوق الأغصان. كانت خلوقة كثيراً؛ فقامت إيزابيل التي لم تكن قد عرفت امرأةً بهذا الخلق، بتصنيفها فوراً على أنها أكثر النساء تصنُّعاً. لقد تذكرت أن رالف لم ينصحها بمعرفتها، لكنها كانت على استعداد لأن تعترف وفقاً لنظرةٍ عابرة بأن الكونتيسة جيميني كانت سطحية. وقد أوحى مظهرها بتذبذب عنيف لراية استسلام ـ رايات خفّاقة من الحرير الأبيض.

ـ (ستصدقين بأنني مسرورة برؤيتكِ عندما أخبركِ بأنني أتيتُ فقط لأنني عرفتُ بأنكِ ستكونين هنا، فأنا لا آتي لرؤية أخي ـ بل أجعله يأتي لرؤيتي، فتلّه هذا مزعج ـ لا أدري ما الذي يجنيه من هذا. حقيقةً يا أوزموند سوف تتسبب يوماً ما بهلاك خيولي، وإن تأذّتْ، عليكَ أن تمنحني زوجاً آخر. لقد

سمعتُهم اليوم يصفرون عند التنفس، أؤكدُ لكَ ذلك. فمن غير المناسب تماماً أن يسمع المرء خيولَه وهي تصفر عند التنفس عندما يكون جالساً في العربة؛ إذ يُظهِر ذلك أيضاً بأنها ليست على ما يرام. لكنني أحظى دائماً بخيولٍ جيدة، وأي شيء آخر أحتاجُ إليه سأتدبر أمره دائماً. لا يعرف زوجي الكثير، لكنني أعتقد بأنه يعرف حصاناً. فالإيطاليون على العموم لا يعرفون، لكن زوجي يتوجه إلى كل ما هو إنجليزي وفقاً لمعرفته الضئيلة. إن خيولي إنجليزية ـ لذا من المؤسف جداً أن تهلك).

واصلت الكلام وهي تخاطب إيزابيل بصراحة: (يجب أن أخبركِ بأن أوزموند لا يدعوني لزيارته دائماً، إذ لا أعتقد بأنه يرغب مني أن أزوره. وإن مجيئي اليوم كانت فكرتي أنا. فأنا أحب أن أرى أناساً جدداً، وأنا متأكدة بأنكِ جديدة جداً. لكن، لا تجلسي هناك، فذلك الكرسي ليس جيداً. توجد بعض الكراسي الممتازة هنا. لكن توجد أيضاً بعض الحوائج المخيفة).

انطلقت هذه التلميحات بسلسلة من الارتعاشات العصبية الخفيفة والانتقادات، وبصوت عالٍ متعاقب وسريع، وبلهجةٍ يحب البعض أن يسميها في المآزق إنجليزية جيدة، أو بالأحرى أميركية جيدة.

قال أخوها: (لا أريد أن أحظى بكِ يا عزيزتي. فأنا متأكد بأنكِ غالية الثمن).

ردت إيزابيل وهي تنظر حولها: (لا أرى أية حوائج مخيفة في أي مكان، فكل شيء يبدو بالنسبة لي جميلاً ومفرطاً في التأنق).

اعترف السيد أوزموند: (لدي بضع حوائج جيدة. في الحقيقة، ليس لدي شيء سيّئ جداً. لكنني لا أملك ما أحببتُه).

وقف هناك وهو محرَج قليلاً وهو يبتسم وينظر حوله؛ فتصرفه كان خليطاً غريباً من السلوك المخلخل والمشوّش. لقد بدا بأنه يلمّح إلى أنه لا يوجد شيء له أهمية سوى «القيم» السليمة. لكن إيزابيل استنتجت بسرعة

بأن الوضوح التام لم يكن شعار عائلته. حتى الفتاة الصغيرة التي من الدير والتي وقفت هناك بفستانها الأنيق الأبيض ووجهها الصغير المذعن ويداها المشتبكتان أمامها وكأنها على وشك أن تشارك في العشاء الربّاني، حتى ابنة السيد أوزموند الضئيلة الحجم، لديها كياسة لم تكن عفوية بالمرة.

قالت مدام ميرليه: (لقد أحببتَ بضعة أشياء من معرض أوفيزي وبيتي ـ ذلك هو ما أحبَبْتَهُ).

هتفت الكونتيسة جيميني: (مسكين أوزموند، بكل ستائره وصلبانه!).

بدا أنها تسمّي أخاها باسم عائلته فقط. لم يكن لهتافها غرض معين؛ إذ عندما فعلَتْ ذلك ابتسمت لإيزابيل ونظرت إليها من رأسها وحتى قدميها.

لم يكن أخوها قد سمعها؛ فقد بدا أنه كان يفكر بما يمكنه أن يقوله لإيزابيل. في النهاية تذكر أن يشير: (ألا ترغبين بقليلٍ من الشاي؟ ـ لا بدّ أنكِ مرهَقة جداً).

ـ (في الحقيقة، كلا. فأنا لستُ متعَبة. ماذا فعلتُ كي أتعب؟).

شعرت إيزابيل بحاجة أكيدة لأن تكون صريحة جداً، وبأن لا تتظاهر بشيء؛ فقد كان هناك شيء ما في الجو، وفي انطباعها العام عن الأشياء بالكاد عرفت ما هو ـ والذي منعها من كل رغبة من أن تبدي رأياً. فالمكان والمناسبة ومجموعة الناس أشاروا إلى أكثر مما هو ظاهر على السطح؛ فقد ودَّتْ أن تفهم ـ وما كانت تودّ فقط أن تتلفّظ بتفاهات المجاملة.

لم تكن إيزابيل بلا شك مدركة إلى أن الكثير من النساء كن سيتلفظن بتفاهات المجاملة ليخفين قوة الفهم. يجب الاعتراف بأن كبرياءها كانت مُثارة قليلاً. رجلٌ سمعَتْ عنه كلاماً أثار اهتمامها والذي كان قادراً على التميّز، قام بدعوتها، هي السيدة الشابة غير السخيّة بمجاملاتها، للحضور إلى منزله. والآن، وقد فعلت ذلك، أصبح واجب الضيافة معتمداً طبعاً على حصافته. لم يفت إيزابيل أن تلاحظ بأن السيد أوزموند قد أدّى واجبه بشكل

أقل مجاملة مما هو متوقَّع، وسنرى بأنها لم تكن أكثر تسامحاً. فتمكنت من أن تتخيل صراخه على نفسه: (كم كنتُ أحمق بجعل نفسي غير نافع بهذه....!).

قالت الكونتيسة جيميني: (ستكونين متعبة عندما تصلين إلى البيت إن كان سيريكِ كل تحفه الصغيرة ويعطيكِ محاضرةً على كل واحدة).

ـ (لستُ أخشى ذلك. لكن إنْ أصبحتُ مُتعَبة، فعلى الأقل أكون قد تعلمتُ شيئاً).

قال السيد أوزموند: (القليل جداً، على ما أعتقد. لكن أختي خائفة بشكلٍ رهيب من أن تتعلم أي شيء).

ـ (أوه، أنا أعترف بذلك. لا أريد أن أتعلم أي شيء أكثر ـ فأنا أعرف الكثير جداً مسبقاً. فكلما تعلمتَ أكثر، كلما أصبحتَ أكثر تعاسة).

تدخلت مدام ميرليه بابتسامة: (لا يجب عليكِ أن تقللي من قيمة المعرفة أمام بانسي التي لم تُنْهِ تعليمها).

قال والد الطفلة: (لن تعاني بانسي أبداً من أي ضرر. فبانسي زهرة ديرٍ صغيرة).

صاحت الكونتيسة مع ارتجاج كشكش ثوبها: (أوه، الدير، الدير! يتحدثون معي عن الدير!).

فواصلت الكلام وهي تحتكم إلى إيزابيل: (يمكنكِ أن تتعلمي هناك أي شيء؛ أنا نفسي زهرة دير. أنا لا أدَّعي بأنني طيبة، لكن الراهبات يفعلن ذلك. ألا تفهمون ما أعني؟).

لم تكن إيزابيل متأكدة بأنها فهمت ذلك وأجابت بأنها سيئة جداً في فهم الجدالات. فأعلنت الكونتيسة بعد ذلك بأنها تكره الجدال، لكن تلك كانت رغبة أخيها بأن يتجادل دائماً.

قالت: (بالنسبة لي، على المرء أن يحب شيئاً أو لا يحبه. فالمرء لا يمكنه

أن يحب كل شيء طبعاً. لكن لا يجب على المرء أن يحاول التفكير في سبب ذلك ـ فلن تعلم أبداً إلى أين سيقودكَ. إذ توجد لبعض المشاعر الطيبة جداً أسباب سيئة، ألا تعلمون ذلك؟ وهكذا توجد مشاعر سيئة جداً لها أسباب وجيهة أحياناً. ألا تفهمون ما أعني؟ فأنا لا أهتم بالأسباب، لكنني أعلم ما أريد).

قالت إيزابيل مبتسمة وهي تشكّ بأن معرفتها بهذه الشخصية المرفرفة بخفّة لن تؤدي إلى هدوءٍ فكري: (آه، ذلك هو الشيء المهم).

إن كانت الكونتيسة قد رفضت الجدال، فلأن لإيزابيل رغبة قليلة به، ومدت يدها نحو بانسي بشعورٍ مريح وهو أن حركةً كهذه لن تؤدي بها إلى شيء يسمح باختلاف الآراء.

من الواضح أن جيلبرت أوزموند قد تبنّى وجهة نظر مستحيلة قليلاً بشأن أسلوب أخته، فغيَّر المحادثة إلى موضوعٍ آخر. جلس إلى الجانب الآخر من ابنته التي شبكت بخجل أصابع إيزابيل بأصابعها. لكنه انتهى بجذبها إلى خارج كرسيها وجَعَلَها تقف بين ركبتيه وهي تتكئ عليه بينما مرر ذراعه حول جسدها النحيل. ثبتت الطفلة نظرها على إيزابيل بتحديقةٍ جامدة وخالية من الاهتمام وبدت خالية من كل قصد، ومع ذلك شاعرةً بتجاذب. تحدث السيد أوزموند عن أمور عديدة.

قالت مدام ميرليه بأنه يمكنه أن يكون لطيفاً عندما يقرر ذلك. لكن اليوم، وبعد فترة قليلة، لم يظهر فقط بأنه قرر ذلك، بل كان مصمماً عليه. جلست مدام ميرليه والكونتيسة جيميني متباعدتين قليلاً وهما تتحدثان بطريقة عفوية كطريقة أشخاصٍ عرفوا بعضهم البعض بما يكفي ليأخذوا راحتهم؛ لكن إيزابيل سمعت من حين لآخر الكونتيسة وهي تندفع نحو رفيقتها لاستيضاح شيء قالَته الأخيرة مثل كلب البودل وهو يخوض في الماء وراء عصا ملقاة. وكأنَّ مدام ميرليه كانت ترى المدى الذي ستبلغه.

تحدث السيد أوزموند عن فلورنسا، عن إيطاليا، عن متعة العيش في تلك البلاد وعن المنغّصات. توجد هناك محاسن ومساوئ؛ كانت المساوئ كثيرة؛ فالغرباء ميّالون لرؤية عالمٍ كهذا على أنه رومانسي تماماً. لقد حقَّق الغاية بشكلٍ لطيف بالنسبة للإنسان، بالنسبة للخيبة الاجتماعية ـ قَصَدَ بذلك الأناس الذين لم يتمكنوا من «الاعتماد» على إحساسهم على حد قولهم؛ وتمكنوا من استبقائه بجانبهم هناك وهم في بؤسهم، بدون سخرية، مثلما تحتفظ بإرثٍ أو مكانٍ غير مريح لا يدرّ عليكَ شيئاً. وهكذا، توجد هناك محاسن في العيش في البلاد والتي حَوَتْ أقصى درجات الجمال. إذ إن هناك انطباعات مريحة لا يمكنكَ أن تحصل عليها سوى من هناك. وهناك انطباعات أخرى، متجاوبة للحياة، لن تحصل عليها أبداً، وستحصل على انطباعات سيئة جداً. لكن من حينٍ لآخر ستحصل على انطباعٍ متناسب مع كل شيء. رغم ذلك، فقد أفسدت إيطاليا الكثير جداً من الناس؛ وحتى أنه يكون أحمق تماماً لو يعتقد أحياناً بأنه سيصبح رجلاً ناجحاً لو قضى أقل مدة من حياته هناك. لقد جعلت المرء عاطلاً، ومُحِبّاً للفن، ومن الدرجة الثانية؛ إذ ليس لديها ضوابط للسلوك. بمعنى آخر، لا تزرع فيك الجانب الاجتماعي الناجح المنتشر في لندن وباريس.

قال السيد أوزموند: (نحن من أبناء هذا البلد بشكل رائع، وأنا مدركٌ تماماً بأنني أنا نفسي متصدئ كالمفتاح الذي ليس له قفل يناسبه. إن التحدث معكِ يصقلني قليلاً ـ أتجرأ وأدَّعي أن بإمكاني أن أُدير ذلك القفل المعقد لكن ليس معنى ذلك بأنني أشك في ذكائكِ! لكنكِ ستكونين قد رحلتِ قبل أن أراكِ ثلاث مرات؛ وربما لن أراكِ أبداً بعد ذلك. وهذا هو معنى أن تعيش في بلدٍ يتوجه لها كل الناس. فعندما يكونون مزعجين هنا يكون ذلك سيّئاً تماماً؛ وعندما يكونون طيبين يكون أسوأ أيضاً. فحالما تحبهم، يرحلون ثانيةً! لقد خُدعتُ مراراً كثيرة؛ فتوقفتُ عن إقامة علاقات، وعن أن أسمح لنفسي بالشعور بالانجذاب. هل تعتزمين البقاء ـ الاستقرار؟ سيكون ذلك

مريحاً حقاً. آه صحيح، إن خالتكِ نوع من الضمان؛ فأنا واثق من أنه يمكن الاعتماد عليها. أوه، إنها فلورنسية عتيقة؛ أقصد عتيقة حرفياً؛ وليست أجنبية عصرية. إنها معاصرة لآل مديتشي؛ لا بدّ أنها كانت متواجدة أثناء حرق سافونا رولا،[1] ولستُ متأكداً بأنها لم ترمِ حفنة من رقائق البطاطس في اللهب. إن وجهها يشبه كثيراً بعض الوجوه في اللوحات المبكرة؛ وجوه صغيرة، جامدة، وحازمة، تمتلك الكثير جداً من التعبير، لكن دائماً التعبير نفسه. في الحقيقة يمكنني أن أريكِ لوحةً لها على الجص لغرلاندايو[2]. أرجو أن لا تمانعي حديثي بهذه الطريقة عن خالتكِ، إيه؟ فلدي تصوُّرٌ عنها ليس لديكِ. ربما ستظنين بأنه أسوأ أيضاً. أؤكد لكِ بأنه لا يوجد انتقاص من الاحترام فيه لكل منكما. فأنتِ تعلمين بأنني معجب خاص بالسيدة تاتشيت).

بينما اجتهدَ مضيِّف إيزابيل في الترفيه عنها بهذه الطريقة الودية بعض الشيء، نظَرَتْ أحياناً إلى مدام ميرليه التي قابلَتْ نظراتَها بابتسامةٍ ساهية لم يكن فيها، في هذه المناسبة، تلميح غير لبق يبدو لبطلتنا أنها تستفيد منه. في النهاية، اقترحت مدام ميرليه على الكونتيسة جيميني أن تذهبا إلى الحديقة، وبدأت الكونتيسة، وهي تنهض وتهز ريشها، بالتوجه نحو الباب وهي تخشخش بثوبها. فصاحت وهي تعاين الفريق الآخر بنظرة معبِّرة: (مسكينة الآنسة آرتشر، لقد أُقحِمَتْ تماماً في هذه العائلة).

أجاب السيد أوزموند بضحكةٍ رغم أن لها نبرة ساخرة، إلا أنه كان لها أيضاً الصبر الجميل: (ليس بوسع الآنسة آرتشر شيء بالتأكيد سوى أن تشفق على عائلةٍ أنت تنتمين إليها).

---

(1) سافونا رولا: هو جيرولامو سافونا رولا، رجل دين وسياسي إيطالي، ندَّدَ بالفساد الأخلاقي لرجال الدين. أُعدم حرقاً عام 1498 في فلورنسا. (المترجمة)

(2) غرلاندايو: هو دومنيكو غرلاندايو (1494- 1449) من أنجح الرسامين الإيطاليين في فلورنسا في عصره. رسم اللوحات الجصية على سقوف وجدران الكنائس. (المترجمة)

ـ (لا أدري ماذا تقصد بذلك! فأنا متأكدة بأنها لن ترى فيَّ ضرراً سوى ما تقوله أنت لها. أنا أفضل مما يقول يا آنسة آرتشر).

واصلت الكونتيسة الكلام: (أنا فقط حمقاء بعض الشيء ومملة. أليس هذا هو كل ما قاله؟ آه، إذن اجعليه في مزاجٍ رائق. هل قام بفتح واحدة من مواضيعه المفضلة؟ أُبلغكِ بأن هناك موضوعين أو ثلاثة يتحدث عنها بولع. وفي تلك الحالة من الأفضل لكِ أن تخلعي قلنسوتكِ).

قالت إيزابيل التي كانت قد نهضت: (لا أعتقد بأنني أعرف ما هي المواضيع المفضلة للسيد أوزموند).

اتخذت الكونتيسة على الفور وضعية التفكير العميق وهي تضغط إحدى يديها على جبهتها وأطراف أصابعها مجتمعةً.

ـ (سأخبركِ في الحال؛ إحداها هو ميكيافيللي، والآخر هو فتّوريا كولونا[1]، الآخر هو ميتاستاسيو).[2]

قالت مدام ميرليه وهي تمرر ذراعها في ذراع الكونتيسة جيميني وكأنها ترشدها إلى الحديقة: (آه، تعالي معي، فالسيد أوزموند ليس تأريخياً لهذه الدرجة).

أجابت الكونتيسة وهما تبتعدان: (أوه، أنت، أنت نفسكِ مكيافيللية ـ أنت نفسكِ فتّوريا كولونا!).

تنهد جيلبرت أوزموند باستكانة: (سوف نسمع بعدها أن مدام ميرليه هي ميتاستاسيو!).

نهضت إيزابيل على افتراض أنهما أيضاً يجب أن يذهبا إلى الحديقة، لكن

---

(1) كولونا: (1492 ـ 1547) أهم الشاعرات الإيطاليات في عصر النهضة الأوربية، تميز شعرها بغزارة العاطفة والأفكار الفلسفية. (المترجمة)

(2) ميتاستاسيو: (1698 ـ 1782) هو الاسم المستعار لبيترو أنطونيو دومنيكو ترباسي، شاعر وكاتب أوبرا إيطالي. (المترجمة)

مضيفها وقف هناك بلا رغبة واضحة لمغادرة الغرفة، ويداه في جيوب سترته، وكانت ابنته التي شبكت الآن ذراعها في إحدى ذراعيه متشبثةً به تنظر للأعلى بينما تحولت نظراتها من وجهه إلى وجه إيزابيل.

انتظرت إيزابيل باقتناعٍ صامت وأكيد ليتم إرشاد خطواتها؛ فقد أحبَّتْ حديث أوزموند ورفقته؛ فقد أصبح لديها ما منحها دائماً تشويقاً خاصاً جداً، وهو الشعور بعلاقة جديدة.

رأت عبر الباب المفتوحة للغرفة الكبيرة مدام ميرليه والكونتيسة وهما تمشيان عبر العشب الجميل للحديقة. ثم استدارت وجالت نظراتها عبر الحوائج المتناثرة حولها. كان الاتفاق هو أن يريها السيد أوزموند كنوزه؛ فقد بدت كل لوحاته وخزائنه كأنها كنوز. بعد قليل، توجهت إيزابيل إلى إحدى اللوحات لتراها بشكلٍ أفضل، لكن حالما فعلت ذلك قال لها بسرعة: (يا آنسة آرتشر، ما هو رأيكِ في أختي؟).

فنظرت إليه في دهشة.

ـ (آه، لا تسألني هذا السؤال ـ فقد رأيتُ أختكَ قليلاً جداً).

ـ (صحيح أنكِ رأيتِها قليلاً جداً، لكن لا بدّ أنكِ لاحظتِ بأنه لا يوجد الكثير لتريهِ فيها. ما هو رأيكِ بطابع عائلتنا؟).

واصل الكلام بابتسامته الهادئة: (أود أن أعرف كيف يؤثر ذلك على ذهنٍ جديدٍ غير متحيّز. أعرفُ ما ستقولينه ـ وهو أنكِ لم تلاحظي ذلك. إن هذه لمحة فقط طبعاً، لكن في المستقبل، فقط لاحظي إن كانت لديكِ الفرصة. أفكر أحياناً بأننا دخلنا في طريقٍ سيّئ بعض الشيء؛ نعيش هنا عالةً بين أشياء وشعبٍ ليس شعبنا، وبدون مسؤوليات أو علاقات، وبلا شيء يجمعنا أو يبقينا مستمرين، نتزوج من أجانب، نؤسس لأذواقٍ مصطنعة، نتحايل على واجبنا الطبيعي. مع هذا، اسمحي لي أن أضيف بأنني أقول ذلك لنفسي أكثر مما أقوله لأختي. إنها سيدة صادقة جداً ـ أكثر مما تبدو عليه. إنها تعيسة بعض

الشيء، ولأنها ليست ذات نزعة جادة، فهي لا تميل إلى إظهار ذلك بشكل مأساوي؛ بل تظهره بشكل كوميدي بدلاً من ذلك. لقد حظيت بزوج بغيض، رغم أنني غير متأكد بأنها تستفيد أقصى ما يمكن منه. على أية حالٍ، فزوجٌ بغيض هو أمر بشع طبعاً. لقد منحَتْها مدام ميرليه نصيحة ممتازة، لكن الأمر يشبه كثيراً منح طفلٍ قاموساً ليتعلم به لغةً؛ إذ يمكنه أن يفتش عن الكلمات، لكن لا يمكنه أن يجمع بينها. إن أختي تحتاج لقواعد النحو، لكن لسوء الحظ أنها ليست متخصصة بعلم النحو. اعذريني لإزعاجكِ بهذه التفاصيل، فقد كانت أختي محقة تماماً عندما قالت بأنكِ أُقحمتِ في هذه العائلة. اسمحي لي أن أُنزِلَ تلك اللوحة، فأنتِ بحاجة لمزيدٍ من الضوء).

فأنزل اللوحة وحملها نحو النافذة، وروى عنها بعض الحقائق المثيرة للفضول. تفرَّجَتْ على الأعمال الفنية الأخرى ومنحها معلوماتٍ أخرى مماثلة كلما بدا ملائماً بالنسبة لسيدةٍ شابة تقوم بزيارةٍ في مساء صيف.

كانت لوحاته وأوسمته وسجاده مثيرة للاهتمام؛ لكن بعد قليل شعرت إيزابيل بالمالك بأنه مثير للاهتمام أكثر من حوائجه. فهو لم يشبه أحداً رأته يوماً؛ فمعظم الناس الذين عرفَتْهُم يمكن تقسيمهم إلى مجموعتين تتألفان من الكثير من النماذج. يوجد استثناء أو اثنان لذلك؛ فهي لم تستطع أن تفكر على الفور بمجموعةٍ كانت تضمّ خالتها ليديا. يوجد أناس آخرون كانوا ـ إن تحدثنا بشكل نسبي ـ أُصلاء، كما يقال على سبيل المجاملة، مثل السيد غودوود، مثل ابن خالتها رالف، مثل هنرييتا ستاكبول، مثل اللورد واربيرتون، مثل مدام ميرليه. لكن جوهرياً عندما يأتي المرء لينظر إليهم سيرى بأن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى طبقات موجودة مسبقاً في ذهنها. لم يحوِ ذهنها طبقةً تقدم مكانة طبيعية للسيد أوزموند ـ لقد كان نموذجاً مستقلاً. لم تكن قد اكتشفت كل هذه الحقائق ساعتها، بل كانت تتساقط بالترتيب أمامها. لوهلةٍ، قالت لنفسها بأن هذه «العلاقة الجديدة» ربما ستثبت لها بأنها الأكثر تميّزاً. كانت

مدام ميرليه قد ألقت بهذه الملاحظة النادرة، لكن ما أكسب هذه الملاحظة تماماً قوة أخرى هو أنها صدرت من قبل رجل! لم يكن كثيراً ما قاله أو فعله، وإنما ما كتمه هو ما ميّزَهُ بالنسبة لها كأحد تلك الشعارات البالغة الندرة التي كان يريها لها على الجانب الأسفل للصحون القديمة وفي ركن لوحات القرن السادس عشر؛ لم ينغمس في انحرافات صادمة من تلك الانحرافات الشائعة، وكان مبدعاً بدون أن يكون غريب الأطوار. لم تلتقِ أبداً بشخصٍ بالغ الدقة. بدءاً من السمات الجسدية المميزة وامتداداً إلى الأمور غير الملموسة. فشعره الكثيف الناعم، ملامحه البالغة الفتنة والمنمقة، بشرته النضرة اليانعة غير القاسية، اتساق نمو لحيته، وتلك الرشاقة الخفيفة لهيئته التي جعلت حركة إصبع من أصابعه تولِّد تأثير إيماءةٍ معبِّرة؛ كل هذه العلامات الشخصية أدهشت شابتنا السريعة التأثر كعلامات للجودة والقوة وإلى حدٍّ ما لبشائر الاهتمام. كان صعب الإرضاء وانتقادياً على نحوٍ مؤكد، وانفعالياً على نحوٍ محتمل. لقد تحكَّمَت به حساسيته ـ ربما تحكَّمَت به كثيراً جداً، لقد جعلته لا يطيق المشاكل العادية وقادته إلى أن يعيش وحده في عالمٍ منظّم، منتقى، متناسق وهو يفكر في الفن والجمال والتاريخ. كان يستشير ذوقه في كل شيء ـ ربما ذوقه فقط، كرجلٍ مريض مدركٍ لعدم شفائه يستشير محاميه فقط في النهاية؛ هذا هو ما جعله مختلفاً جداً عن أي أحدٍ آخر. كان لدى رالف شيء من هذا القبيل، هذا المظهر في التفكير بأن الحياة هي مسألة خبرة؛ لكن بالنسبة لرالف كانت شيئاً زائداً، نوعاً من الزيادة المضحكة، بينما في حالة السيد أوزموند فكانت نغمة موسيقية، وكل شيء كان متناغماً معها.

كانت بالتأكيد بعيدة عن أن تفهمه بشكلٍ كامل؛ إذ لم يكن قصده واضحاً في جميع الأوقات. كان من الصعب فهم ما يقصده على الفور عندما يتحدث عن جانب انتمائه لهذا البلد ـ والذي كان تماماً الجانب الذي تعتبره أكثر الجوانب التي يفتقر إليها. فهل كانت مفارقة حميدة قصد منها أن يحيرها بها،

أم هل كانت تلك آخر آداب الثقافة الرفيعة؟ لقد كانت واثقة بأنها ستعرف في الوقت المناسب، وسيكون من المثير للاهتمام جداً أن تعرف. فإن كان من التناغم أن ينتمي إلى هذا البلد، فماذا سيَعتَبِر انتماءه إلى بلده الأصلي؟ لقد تمكنت من صياغة هذا السؤال بالرغم من شعورها بالشخصية الكتومة لمضيّفها، لأن خجلاً كهذا ـ خجلُ أعصابٍ قلقة وأحاسيس رقيقة ـ كان له علاقة بالتنشئة الجيدة. في الحقيقة، كان ذلك تقريباً دليلاً على معايير نموذجية وضوابط بدلاً من معايير اعتيادية؛ إذ لا بد أنه كان متأكداً جداً بأن المعايير العادية ستكون هي الأساس. لم يكن رجلاً يطمئن بسهولة، والذي يثرثر ويغتاب بتلقائيةِ شخصٍ ذي طبيعةٍ سطحية. كان ناقداً لنفسه مثلما هو ناقداً للآخرين؛ ولأنه يقاسي كثيراً من الآخرين، يقوم على الأرجح بتبني رأي ساخر عنهم ليتخيلهم مقبولين أكثر؛ وهو دليلٌ على المساومة التي لم يكن مدركاً لها بشكلٍ كبير. لو لم يكن خجولاً ما كان سيتأثر بذلك التحول التدريجي والبارع والناجح الذي عزت إليه ما أعجبها فيه وما حيّرها. إن كان قد سأل عن رأيها فجأة في الكونتيسة جيميني، فذلك بلا شك دليل على أنه كان مهتماً بها، فبالكاد سيشكل ذلك عوناً في معرفته لأخته. إن اهتمامه ذاك قد أظهر عقلاً متسائلاً، لكن كان من الغريب قليلاً أن يُضَحّي بشعوره الودّي لأجل فضوله. فقد كان ذلك أكثر شيء فَعَلَه غرابةً.

كانت هناك غرفتان أخريان خلف الغرفة التي تم استقبالها فيها، مليئتان أيضاً بحوائج تعود للعصر الرومانسي. أمضت إيزابيل في تلك الغرف ربع ساعة، كان كل شيء مثيراً للفضول لأقصى درجة وثميناً. واستمر السيد أوزموند في أن يكون ألطف مرشد سياحي وهو يقودها من قطعةٍ جميلة إلى أخرى، واستمر في إمساك ابنته الصغيرة من يدها. أدهش لطفه قليلاً صديقتنا الشابة التي تساءلت لماذا يزعج نفسه بشأنها. وفي النهاية، كانت متعبة من احتشاد الجمال والمعرفة التي وجدت نفسها تُقَدَّم إليها. فاكتفت للوقت الحالي وتوقفت عن متابعة ما

قاله. أصغت إليه بعينين يقظتين، لكن لم تفكر بما يقوله لها، ربما اعتقدها أذكى وأكثر براعة بكل النواحي وأكثر استعداداً مما كانت. كانت مدام ميرليه ستبالغ في الموضوع بسرور، وهو أمر مؤسف، لأنه في النهاية سيكون متأكداً من أن يكتشف ذلك، ومن ثم حتى ذكاؤها الحقيقي لن يصلح خطأه. إن جانباً من تعب إيزابيل أتى من محاولة الظهور كذكية مثلما اعتقدت أن مدام ميرليه وصفَتْها، ومن الخوف (وهو أمر غير معتاد بالنسبة لها) من إظهار ـ ليس ذكاءها، لأن ذلك اهتمت له قليلاً نسبياً ـ التعاظم المحتمل لإحساسها. لقد أزعجها أن تعبّر عن محبتها لشيء كان سيعرف ببصيرته الفائقة بأنها لا تحبه؛ أو أن تتبع شيئاً كان سيشلّ العقل الخبير بحق. لم تكن تتمنى أن تقع في تلك البشاعة التي رأت نساءً (وكان هذا إنذاراً) تتخبط فيها باطمئنان ومع ذلك بوضاعة. لذلك، كانت متحفظة جداً حيال ما قالت، حيال ما لاحظَتْهُ أو فشلَتْ في ملاحظته؛ ومتحفظة أكثر مما كانت من قبل.

عادا إلى أولى الغرف حيث كان يُقدَّم الشاي، لكن حينما كانت السيدتان لا تزالان على الشرفة، ولأن إيزابيل لم تتعرف لحد الآن على المنظر الطبيعي وعلى التميز الأسمى للمكان، قادها إلى الحديقة بدون المزيد من التأخير.

كانت مدام ميرليه والكونتيسة قد أخرجتا كراسي. ولأن المساء كان رائعاً، اقترحت الكونتيسة أن يتناولوا شايهم في الهواء الطلق. لذلك، أُرسلت بانسي لتدعو الخادم ليُخرج التجهيزات. كانت الشمس قد هبطت، واستحال الضوء الذهبي غامقاً أكثر؛ وعلى الجبال والسهل الذي امتد تحتها احتدمت الظلال الأرجوانية بقوةٍ كما في الأماكن التي لا تزال مكشوفة. كان للمشهد سحر يفوق الطبيعي. كان الهواء ساكناً بشكلٍ كئيب قليلاً. وكان الاتساع الهائل للمنظر الطبيعي ومستنبتاته الشبيهة بالحدائق وتصميمه الرفيع، وواديه المحتشد وتلاله المنحنية برقّةٍ، واللمسات الإنسانية المظهر للمسكن، تمتد هناك بتناغم وبرونق كلاسيكي.

قال أوزموند وهو يقود رفيقته إلى أحد أركان الشرفة: (تبدين مسرورة جداً لدرجة أنني واثق من عودتكِ مرة ثانية).

أجابت: (سوف أعود بالتأكيد رغم ما قلتَه عن أنه من السوء العيش في إيطاليا. ما الذي قلتَهُ عن الواجب الطبيعي للمرء؟ أتساءل إن كنتُ سأتخلّى عن واجبي الطبيعي لو استقريتُ في فلورنسا).

ـ (إن الواجب الطبيعي للمرأة هو أن تتواجد حيث يتم تقديرها أكثر).

ـ (القصد هو أن تكتشف أين يكون ذلك).

ـ (صحيح جداً ـ فهي دائماً تضيع الكثير من الوقت في التساؤل. على الناس أن يوضحوا لها الأمر).

فابتسمت إيزابيل: (إن أمراً كهذا كان يجب أن يُوَضَّحَ لي).

ـ (أنا مسرور بأية حال بأن أسمعكِ تتحدثين عن الاستقرار هنا؛ فقد منحَتْني مدام ميرليه فكرةً بأنكِ تستعدين للسفر نوعاً ما. أعتقد بأنها تحدثَتْ عن امتلاككِ خطةً ما للسفر حول العالم).

ـ (أنا محرجة نوعاً ما من خططي. فأنا أضع خطة جديدة كل يوم).

ـ (لا أفهم لِمَ يجب أن تكوني محرَجة، فذلك قمة الاستمتاع).

قالت إيزابيل: (أعتقد بأنها تبدو طائشة. على المرء أن يختار شيئاً بتروٍّ جداً وأن يكون مؤمناً به).

ـ (إذن، بناءً على هذه القاعدة أنا لستُ طائشاً).

ـ (ألم تضع خططاً أبداً؟)

ـ (بلا، وضعتُ واحدة قبل عدة سنوات وأنا أقوم بتنفيذها اليوم).

سمحت إيزابيل لنفسها بأن تعلّق: (لا بدّ وأنها خطة رائعة جداً).

ـ (لقد كانت بسيطةً للغاية. كانت يجب أن تكون هادئة قدر الإمكان).

كررت الفتاة كلامه: (هادئة؟)

ـ (أي أن لا تسبّب القلق ـ ولا أن نناضل لأجلها ولا أن نتصارع. أنْ أذعن لها، أن أكون قانعاً بالقليل).

لقد قال هذه العبارات ببطء، وبوقفات قصيرة بينها، وكانت نظرته الذكية مثبّتة على نظرة زائرته بمظهر رجلٍ مرتبكٍ يجبر نفسه على الاعتراف بشيء ما.

فسألت بسخريةٍ وديعة: (هل تسمي تلك بسيطة؟).

ـ (نعم، لأنها خاملة).

ـ (وهل حياتكَ خاملة؟).

ـ (سمِّها مؤيِّدة لو أحببتِ. فقد أيّدَتْ زهدي فقط. دعيني أذكركِ بأنها لم تؤيد زهدي الطبيعي ـ فليس لدي شيء منه. وإنما زهدي المدروس والمتعمّد).

بالكاد فهمَتْهُ؛ فقد بدا الأمر فيما إذا كان يمزح أم لا. لماذا سيقوم رجلٌ، أدهشها بامتلاكه لقدرٍ كبير من التكتُّم، بإجبار نفسه فجأة ليكون زاهداً بهذه الطريقة؟ مع ذلك، فقد كان ذلك شأنه، وإن زهده مثير للاهتمام.

قالت بسرعة: (أنا لا أفهم لِمَ أنت زاهد).

ـ (لأنني لا أستطيع فعل شيء. ليس لدي تطلعات، وأنا فقير، ولستُ رجلاً عبقرياً. حتى أنني لا أملك أية مواهب؛ لذا اتخذتُ الاحتياطات اللازمة في وقت مبكر من حياتي. أنا ببساطة أكثر الشباب حساسية على قيد الحياة. يوجد هناك شخصان أو ثلاثة حسدتُهم ـ وهما إمبراطور روسيا على سبيل المثال، وسلطان تركيا! حتى أن هناك لحظات حسدتُ فيها بابا روما ـ للأهمية التي يتمتع بها. سأصبح مسروراً لو كنتُ مهماً لهذا الحد؛ لكن لأن ذلك لا يمكن أن يحدث، فلم أهتم لأي شيء أقل من ذلك، وقررتُ أن لا أسعى لأكون مهماً. إن أكثر الرجال المهذّبين فقراً يمكنه دائماً أن يرى نفسه مهماً، ولحسن

الحظ فأنا وإن كنتُ فقيراً، لكني رجل مهذب. لم أتمكن من فعل شيء في إيطاليا ـ لم أتمكن حتى من أن أصبح مواطناً إيطالياً. ولكي أفعل ذلك عليَّ أن أخرج من البلاد؛ لكن كنتُ مولعاً بها جداً من أن أتركها، ومِنْ أن لا أقول شيئاً عن كوني راضياً بها تماماً، ومن أن أطلب أن تتبدَّل إلى ما كانت عليه آنذاك عموماً. لذا، أمضيتُ هنا سنوات كثيرة جداً بناءً على تلك الخطة الهادئة التي تحدثتُ عنها. لم أكن تعيساً مطلقاً. لا أقصد بأن أقول بأنني لم أهتم بشيء، وإنما كانت الأشياء التي اهتممتُ بها ثابتة ـ محددة. إن أحداث حياتي ليست مفهومة إطلاقاً لأي أحدٍ سواي: الحصول على صليب فضّي قديم في صفقة «لم أشترِ أبداً أي شيء ثمين طبعاً»، أو اكتشاف لوحة ـ مثلما فعلتُ يوماً ـ لكوريدجو[1] على لوحٍ رُسمت من قبل أحمق ملهَم).

ستكون هذه قصة قاسية قليلاً عن رحلة حياة السيد أوزموند لو صدَّقَتْها إيزابيل بشكلٍ وافٍ؛ لكن مخيلتها أمدَّتْها بالعنصر الإنساني الذي كانت متأكدة من أن القصة لم تفتقر إليه. لقد اختلطت حياته بحيواتٍ أخرى أكثر مما صرَّحَ بذلك؛ فهي طبعاً لم تستطع أن تنتظر منه أن يتغلغل في الموضوع. امتنعت في الوقت الراهن عن إطلاق تخيلات أخرى؛ لكي تلمّح إلى أنه لم يقل لها كل شيء مألوفٍ أكثر وأقل أهمية مما ترغب الآن أن يكون ـ إذ سيكون الأمر في الحقيقة مبتذلاً بشكلٍ صارخ. فقد أخبرها بالتأكيد ما يكفي تماماً. رغم ذلك، فقد كانت تميل حالياً إلى أن تعبِّر عن عاطفةٍ محسوبة للنجاح الذي حافظ به على استقلاليته، فقالت: (تلك حياةٌ مريحة جداً أن لا تبالي بأي شيء سوى كوريدجو!).

ـ (أوه، لقد استفدتُ من ذلك جيداً بطريقتي الخاصة. لا تعتقدي بأنني أنتحب بسبب ذلك. فإن كان المرء تعيساً فذلك خطؤه).

---

(1) كوريدجو: (1489 ـ 1534) هو أنطونيو أليغري دا كوريدجو، رسام إيطالي من عصر النهضة. كانت أعماله الفنية تعتبر البذور الأولى لفن الروكوكو الذي ظهر في القرن 18. (المترجمة)

كان ذلك أمراً هاماً؛ فقد أُحبطَتْ.

ـ (هل عشتَ هنا دائماً؟).

ـ (كلا، ليس دائماً. لقد عشتُ فترة أطول في نابولي، وسنين كثيرة في روما. لكنني عشتُ هنا فترةً لا بأس بها. مع هذا، ربما سأقوم بالتغيير؛ أن أفعل شيئاً آخر. شيئاً لم أعد أفكر أن أفعله. إن ابنتي تكبر، ومن المحتمل جداً أنها لن تهتم كثيراً بكوريدجو والصلبان مثلي. سوف أفعل ما هو الأفضل لبانسي).

قالت إيزابيل: (نعم. إفعلْ ذلك. إنها فتاة صغيرة محبوبة).

صاح جيلبرت أوزموند بابتهاج: (آه، إنها قديسة صغيرة من السماء! إنها سعادتي الكبيرة).



الفصل 25

بينما استمرت هذه المحاورة الودية بما يكفي (طالت لبعض الوقت بعد أن توقفنا عن متابعتها) بدأت مدام ميرليه ورفيقتها تتبادلان الإشارات كاسرتَيْنِ صمتاً طويلاً. كانتا جالستين بوضعيةِ تَرَقُّب غير مُعَبَّرٍ عنه، وضعية كانت ملحوظة بشكلٍ خاص على الكونتيسة جيميني التي ـ لكونها ذات مزاج أكثر حدة من صديقتها ـ مارست فن الترقُّب المُضمَر بشكلٍ فاشل. إن ما كانت تنتظره هاتان السيدتان لن يكون واضحاً، وربما لم يكن محدداً جداً بالنسبة لذهنهما. فمدام ميرليه انتظرت من أوزموند أن يطلق سراح صديقتهما الشابة من المحادثة الانفرادية؛ والكونتيسة انتظرت لأن مدام ميرليه تنتظر. علاوة على ذلك، وجدت الكونتيسة من خلال الانتظار أن الوقت مؤاتٍ لمشاكساتها اللطيفة. فقد أرادت أن تستعرضها لبعض الوقت.

تجوَّل أخوها مع إيزابيل إلى نهاية الحديقة، إلى المكان الذي تبعتهما أعينهما.

أشارت إلى رفيقتها: (يا عزيزتي، اعذريني إن كنتُ لن أهنئكِ!).

ـ (عن طيب خاطر. لأني لا أعلم بتاتاً لِمَ ستفعلين ذلك).

ـ (أليس لديكِ خطة صغيرة تعتقدينها جيدة قليلاً؟) وأومأت الكونتيسة باتجاه الشخصين المنعزلين.

أخذت نظرات مدام ميرليه نفس الاتجاه، ثم نظرت بوضوح إلى مجاورتها وابتسمت.

ـ (أنتِ تعلمين بأنني لن أفهمكِ أبداً كما يجب).

ـ (لا أحد يمكنه أن يفهم أفضل منكِ عندما تريدين ذلك. والآن أنا أرى بأنكِ لا تريدين).

قالت مدام ميرليه بتجهّم لكن بدون مرارة: (أنتِ تقولين لي أشياء لا يقولها غيركِ).

ـ (تقصدين أشياء لا تحبينها؟ ألا يقول أوزموند أحياناً أشياء كهذه؟).

ـ (إن ما يقوله أخوكِ له معنى).

ـ (نعم. معنى مسموم أحياناً. إن كنتِ تقصدين بأنني لستُ بارعةً جداً مثله فلا يجب عليكِ أن تعتقدي بأنني سأعاني من إحساسكِ باختلافنا. لكن سيكون من الأفضل أكثر لو تفهمينني).

سألت مدام ميرليه: (ولِمَ ذاك؟ إلى مَا سيؤدي ذلك؟).

ـ (إن لم أوافق على خطتكِ فيستحسن أن تعرفي ذلك لكي تُقَدّري خطورة تدخُّلي فيها).

بدت مدام ميرليه وكأنها كانت مستعدة للاعتراف بصحة ذلك. لكنها قالت بسرعة وبهدوء: (أنتِ تعتقدينني أنانية أكثر مما أنا).

ـ (ليست أنانيتكِ هي التي أعتقدُها سيئة، بل حساباتكِ الخاطئة. وقد فعلتِ ذلك في هذه الحالة).

ـ (لا بدّ أنكِ أجريتِ حسابات شاملة لتكتشفي ذلك).

قالت الكونتيسة: (كلا. فلم يكن لديّ الوقت، إذ لم أرَ الفتاة سوى هذه المرة، وتوصلتُ إلى هذه القناعة فجأة. لقد أحببتُها كثيراً).

قالت مدام ميرليه: (وأنا كذلك).

ـ (لديكِ طريقة غريبة بإظهار ذلك).

ـ (بالتأكيد. فقد منحتُها فرصة التعرّف بكِ).

فصفرت الكونتيسة: (ربما يكون ذلك أفضل شيء ممكن أن يحدث لها!).

لم تقل مدام ميرليه شيئاً لبعض الوقت، فتصرُّف الكونتيسة كان غريباً، كان تافهاً في الحقيقة. لكنها قصة قديمة. فاستسلمت للتفكير وعيناها على المنحدر الأرجواني لجبل مونتي موريللو. فاستأنفت الكلام في النهاية: (يا سيدتي العزيزة، أنصحكِ بأن لا تقلقي، فالأمر الذي تلمَحين إليه يخص ثلاثة أشخاص ذوي إصرار أقوى منكِ).

ـ (ثلاثة أشخاص؟ أنت وأوزموند طبعاً. لكن هل الآنسة آرتشر ذات إصرار قوي أيضاً؟).

ـ (بقدرنا تماماً).

قالت الكونتيسة بتألق: (آه، إذن لو أقنعتُها بأن من مصلحتها أن تقاومكم فسوف تفعل ذلك بنجاح!).

ـ (تقاومنا؟ لماذا تعبّرين عن نفسكِ بخشونةٍ هكذا؟ إنها ليست مُعرَّضة للإجبار أو الخداع).

ـ (لستُ متأكدة من ذلك. فأنتما قادران على أي شيء، أنت وأوزموند. لا أقصد أوزموند لوحده ولا أقصدكِ أنت لوحدكِ. بل أنتما خطران وأنتما معاً ـ كالمركَّب الكيميائي).

فابتسمت مدام ميرليه.

ـ (من الأفضل إذن أن تتركينا وشأننا).

ـ (لا أقصد بأن أجرحكِ ـ لكني سأتحدث مع تلك الفتاة).

همهمت مدام ميرليه: (يا إيمي المسكينة، لا أدري ماذا يدور في رأسكِ).

ـ (أنا أهتم لأمرها ـ ذلك ما يدور في رأسي. فأنا أحبها).

ترددت مدام ميرليه لوهلة: (وأنا لا أعتقد بأنها تحبكِ).

توسعت عينا الكونتيسة الصغيرتان البراقتان ولَوَّتْ قسمات وجهها.

ـ (آه، أنت خطرة ـ حتى وأنتِ لوحدكِ!).

قالت مدام ميرليه: (إن أردتِ أن تحبكِ فلا تهيني أخاكِ أمامها).

ـ (لا أعتقد بأنكِ تزعمين بأنها وقعت في حبه في لقاءين).

نظرت مدام ميرليه لوهلةٍ نحو إيزابيل ونحو سيد المنزل. كان متكئاً على الدرابزين بمواجهتها وذراعاه مطويتان؛ من الواضح بأنها لم تكن مشغولةً حالياً بمجرد مشهد عادي وهي تحدّق إليه باستمرار. عندما راقبَتْها مدام ميرليه، أرخت نظرها؛ إذ كانت تصغي، ربما بإحراج، وهي تضغط على زر مظلتها. فنهضت مدام ميرليه من على كرسيها وقالت: (بلى. أعتقدُ ذلك!).

خرج الخادم الرثّ الملابس ـ الوسخ من حيث الزي والغريب من ناحية الشكل، وكأنه خرج من لوحةٍ من الطراز القديم بعد أن أدخلَتْهُ فيها فرشاة لونغي[1] أو غويا ـ الذي دُعي من قبل بانسي بمنضدةٍ صغيرة ووضعها على المرج ثم عاد وجلب صينية الشاي. وبعدها اختفى ثانيةً ليعود بزوجٍ من الكراسي. راقبت بانسي هذه الإجراءات بأعظم اهتمام وهي تقف ويداها الصغيرتان مطويتان معاً أمام فستانها البسيط، لكنها لم تتجرأ وتقدم المساعدة. لكن عندما تم إعداد مائدة الشاي اتجهت بلطف نحو عمتها وقالت: (هل تعتقدين أن بابا سيعارض إعدادي للشاي؟).

نظرت الكونتيسة إليها بتحديقةٍ ناقدة عن قصد وبدون أن تجيب على سؤالها.

قالت: (يا ابنة أخي المسكينة، هل هذا هو أفضل فساتينكِ؟)

أجابت بانسي: (آه، لا. إنه ثوبٌ متواضع للمناسبات العادية).

---

(1) لونغي: هو بييترو لونغي، رسام إيطالي من القرن 18، اشتهر برسم اللوحات التي تعبّر عن مجريات الحياة اليومية. (المترجمة).

ـ (هل تسمين مجيئي لرؤيتكِ مناسبة عادية؟ لن أقول مدام ميرليه أو السيدة الجميلة التي هناك).

فكرت بانسي لوهلة وهي تتلفت بعبوس من أحد الأشخاص المذكورين إلى آخر. ثم انفلق وجهها بابتسامته الرائعة.

ـ (لدي فستان جميل. لكن حتى ذلك الفستان بسيط جداً. لِمَ يجب أن أعرضه بجانب أشيائكِ الجميلة؟).

ـ (لأنه أجمل فستان لديكِ. بالنسبة لي يجب أن ترتدي الأجمل دائماً. ارتديه أرجوكِ في المرة القادمة، إذ يبدو لي أنهم لا يُلبِسونكِ جيداً مثلما يجب).

مسَّدَتِ الطفلة بتحفّظٍ القسم السفلي من ثوبها البالي.

ـ (إنه ثوبٌ بسيط مناسب لإعداد الشاي ـ ألا تعتقدين ذلك؟ ألا تعتقدين بأن بابا سيوافق على ذلك؟).

قالت الكونتيسة: (من المستحيل عليّ أن أقول يا طفلتي، فأفكار والدكِ بالنسبة لي غير مفهومة. إن مدام ميرليه تفهمها أفضل. اسأليها هي).

ابتسمت مدام ميرليه ببهائها المعتاد.

ـ (إنه سؤالٌ مهم ـ دعيني أفكر. يبدو لي أن والدكِ سيسعده أن يرى الابنة الصغيرة الحريصة تعد شايه. فذلك الواجب الملائم لابنة المنزل ـ عندما تكبر).

صاحت بانسي: (يبدو لي كذلك يا مدام ميرليه! سترين كم سأُعدُّه بشكلٍ جيد. ملء ملعقة لكل واحد).

وبدأت بإشغال نفسها بالمائدة.

قالت الكونتيسة التي بقيت تراقبها لبعض الوقت مع مدام ميرليه: (أنا ملء ملعقتين).

استأنفت الكونتيسة الكلام في النهاية: (اصغِ إليّ يا بانسي. أود أن أعرف ماذا تعتقدين بشأن ضيفتكِ).

فاعترضت بانسي: (آه، إنها ليست ضيفتي ـ إنها ضيفة بابا).

قالت مدام ميرليه: (إن الآنسة آرتشر أتت لرؤيتكِ أنت أيضاً).

ـ (أنا سعيدة جداً لسماع ذلك. لقد كانت لطيفةً جداً معي).

سألت الكونتيسة: (إذن، هل تحبينها؟)

ـ (إنها رائعة ـ رائعة). كررت بانسي ذلك بنبرة حديثها الصغيرة الصافية، ثم قالت: (إنها تسعدني جداً).

ـ (وكيف تعتقدين بأنها تسعد والدكِ).

همهمت مدام ميرليه بشكلٍ رادع: (آه، حقاً يا كونتيسة!). ثم واصلت الكلام مع الطفلة: (اذهبي واستدعيهما لتناول الشاي).

أعلنت بانسي: (سترين إن كانا لا يحبانه!).

وذهبت تستدعي الآخَرَيْن اللذين كانا لا يزالان يمشيان الهوينا في نهاية الشرفة.

قالت الكونتيسة: (إن كانت الآنسة آرتشر ستصبح أمها فسيكون من المثير للاهتمام بالتأكيد معرفة فيما إذا كانت الطفلة تحبها).

أجابت مدام ميرليه: (إن تزوج أخوكِ ثانيةً فلن يكون لأجل بانسي، فهي عما قريب ستصبح في السادسة عشرة، وبعد ذلك ستبدأ تحتاج زوجاً بدلاً من زوجة أب).

ـ (وهل ستوفّرين الزوج أيضاً؟)

ـ (سوف أهتم بتزويجها بالتأكيد لحسن الحظ. أعتقد بأنكِ ستفعلين المثل).

صاحت الكونتيسة: (في الحقيقة، لن أفعل! لِمَ يجب عليَّ أنا من بين جميع النساء أن أُحدِّدَ سعراً لزوج؟).

ـ (لحسن الحظ أنكِ لم تتزوجي، ذلك هو ما أتحدث عنه. عندما قلتُ زوجاً أقصدُ زوجاً مناسباً).

ـ (لا يوجد أزواج مناسبون. ولن يكون أوزموند زوجاً جيداً).

أغلقت مدام ميرليه عينيها لبرهة، فقالت على الفور: (أنتِ منفعلة الآن ولا أدري لماذا. لا أعتقد بأنكِ ستعارضين فعلاً زواج أخيكِ أو ابنة أخيكِ عندما يحين الوقت ليفعلا ذلك. وبالنسبة لبانسي، أنا واثقة بأننا يوماً ما سيكون لنا الشرف بالبحث معاً عن زوجٍ لها. فمعارفكِ الكثيرون سيشكلون عوناً كبيراً).

أجابت الكونتيسة: (نعم أنا منفعلة. وأنتِ تسببين الانفعال لي دائماً. إن هدوءكِ لا يُصَدَّق. أنت امرأة غريبة).

واصلت مدام ميرليه الكلام: (من الأفضل بكثير أن نعمل دائماً سويةً).

سألت الكونتيسةُ وهي تنهض: (هل تقصدين أن ذلك تهديد؟).

هزّت مدام ميرليه رأسها بشأن هذا الترويح الهادئ عن النفس.

ـ (كلا في الحقيقة. فأنتِ لا تمتلكين هدوئي!).

كانت إيزابيل والسيد أوزموند يتجهان الآن على مهل نحوهما، وكانت إيزابيل تأخذ يد بانسي.

سألت الكونتيسةُ: (هل تزعمين بأنكِ مؤمنة بأنه سيجعلها سعيدة؟).

ـ (إن كان سيتزوج الآنسة آرتشر فأعتقد بأنه سيتصرف كرجلٍ مهذب).

فهذرت الكونتيسة بوجهات نظر متعاقبة: (هل تعنين مثلما يتصرف معظم الرجال المهذبين؟ ستكونين مشكورة على ذلك كثيراً! إن أوزموند رجل مهذب طبعاً ولا تحتاج أخته إلى أن يتم تذكيرها بذلك. لكن هل يعتقد أن بإمكانه أن يتزوج من أية فتاة يصادف أن يختارها؟ إن أوزموند رجل مهذب طبعاً، لكن يجب علي أن أقول بأنني لا أفهم أبداً، كلا، كلا، أبداً، أية ذريعة من ذرائع أوزموند! وإن أساس هذه الذرائع هي أكثر ما

يمكنني البوح به. فأنا أخته والمفروض أن أعرف. فمن هو لو سمحتِ؟ ماذا يعمل دائماً؟ هل هناك شيء رفيع بشكلٍ خاص في أصله ـ فيما إذا كان مصنوعاً من طينةٍ راقية ـ أعتقد بأنني يجب أن أحصل على فكرةٍ عن ذلك. لو كانت توجد أية ألقاب شرف عظيمة أو امتيازات في العائلة فسأستفيد بالتأكيد أقصى استفادة منها؛ لأصبحتُ في نَسَبي تماماً. لكن لا يوجد شيء، لا شيء، لا شيء. إن الوالدين كانا رائعين بالطبع، لكن كذلك والديكِ، لا أشك في ذلك. فكل امرئ هو رائع هذه الأيام. حتى أنا شخصٌ رائع، لا تضحكي. فقد قيل ذلك حرفياً أما بالنسبة لأوزموند، فقد بدا دائماً أنه يعتقد بأنه منحدر من الآلهة).

قالت مدام ميرليه التي أصغت إلى هذه الثورة السريعة باهتمامٍ رغم ذلك: (يمكنكِ أن تقولي ما يحلو لكِ).

يمكننا أن نصدق ذلك، لأن عينيها انتقلتا بعيداً عن المتحدثة وانشغلت يداها بتعديل عقدة الشريط على فستانها. قالت: (أنتم يا آل أوزموند سلالة رفيعة ـ لا بدّ أن دمكم منحدر من أصلٍ نقي جداً. إن لأخيكِ قناعة بذلك كأي رجلٍ ذكي، حتى لو لم يملك الدليل على ذلك. أنتم متواضعون بشأن ذلك، لكن أنت نفسكِ مميزة للغاية. ماذا تقولين بشأن ابنة أخيكِ؟ إن الطفلة أميرة صغيرة رغم ذلك).

ثم أضافت مدام ميرليه: (لن يكون الأمر سهلاً على أوزموند أن يتزوج من الآنسة آرتشر. ومع ذلك يمكنه أن يحاول).

ـ (آمل أن ترفضه. سيحبطه ذلك قليلاً).

ـ (يجب علينا أن لا ننسى بأنه واحدٌ من أكثر الرجال براعةً).

ـ (لقد سمعتكِ تقولين ذلك من قبل، لكنني لم أكتشف لحد الآن ماذا فعل؟).

ـ (ماذا فعل؟ لم يفعل شيئاً لم يكن عليه فعله. لقد عرف كيف ينتظر).

ـ (ينتظر أموال الآنسة آرتشر؟ كم تملك منها؟).

قالت مدام ميرليه: (ليس ذلك هو ما أعنيه. لدى الآنسة آرتشر سبعون ألف باوند).

أعلنت الكونتيسة: (حسناً. خسارة. إنها رائعة جداً. أية فتاة كانت ستفعل ذلك لتكون ضحية. إنها لا تحتاج إلى أن تكون راقية).

ـ (لو لم تكن راقية ما كان أخوكِ لينظر إليها أبداً. لا بدّ له أن يحظى بالأفضل).

أجابت الكونتيسة وهما تتقدمان قليلاً لتلتقيا بالآخرين: (نعم. من الصعب عليه أن يقتنع. وذلك يجعلني قلقة على سعادتها!).

***

الفصل 26

حضر جيلبرت أوزموند لرؤية إيزابيل ثانيةً. هذا يعني أنه حضر إلى قصر كريشتيني. كان لديه أصدقاء آخرون هناك أيضاً. كان بالنسبة للسيدة تاتشيت ومدام ميرليه مجاملاً بإنصاف؛ لكن أولى هاتين السيدتين لاحظتْ حقيقةً ما، وهي أنه زارها على مدى أسبوعين خمس مرات، وقارنَتْها مع حقيقةٍ أخرى لم تجد صعوبة في تذكّرها. كانت زيارتان في السنة قد شكَّلَتا لحد الآن تقديره الطبيعي لاستحقاق السيدة تاتشيت، ولم تلاحظه أبداً وهو يختار لزياراتٍ كهذه ـ المتكررة سنوياً تقريباً ـ الأوقات التي تكون فيها مدام ميرليه موجودة تحت سقفها. لم يكن يأتي لأجل مدام ميرليه، فهؤلاء الاثنان كانا صديقين قديمين، وهو لا يُتعِب أبداً نفسه لأجلها، ولم يكن معجباً برالف ـ رالف من قال ذلك ـ ولم يكن من المحتمل أن السيد أوزموند قد أُعجب فجأةً بابنها. كان رالف رابط الجأش ـ كان لرالف نوع من التهذيب غير المحكم والذي طوَّقَهُ كالمعطف الرديء الصنع، والذي لم يخلعه عنه أبداً. لقد ظنَّ أن السيد أوزموند رفيقٌ مناسب جداً، وكان راغباً في أي وقت أن ينظر إليه على ضوء الترحيب. لكنه لم يداهن نفسه بأن الرغبة بإصلاح إساءةٍ سابقة هي الدافع وراء زيارات ضيفهم. لقد قرأ الموقف بشكل أكثر وضوحاً؛ كانت إيزابيل هي القوة الجاذبة. وكانت قوة كافية بالتأكيد.

كان أوزموند كثير الانتقاد، باحثاً عن كل ما هو استثنائي، وكان من الطبيعي أن يكون فضولياً بشأن ظهورٍ غريبٍ كهذا. لذا عندما نَبَّهَتْهُ والدتُه

إلى أن ما يفكر فيه السيد أوزموند كان واضحاً أجاب رالف بأنه متفقٌ مع رأيها تماماً. وجدت السيدة تاتشيت على قائمتها المتواضعة مكاناً لهذا السيد، وإن تساءلَتْ بغموض بأية حيلة وأي أسلوب ـ المرفوض جداً والحكيم جداً ـ فرض نفسه بشكلٍ فاعل في كل مكان. بما أنه لم يكن أبداً ضيفاً مزعجاً، فلم تكن لديه الفرصة ليكون بغيضاً، وقد أوعز مظهره لها بأنه في غنىً عنها تماماً مثلما هي في غنىً عنه ـ وهي سمةٌ أثّرتْ بها دائماً لأنها تمنح سبباً ليتواصل معها[1]، وهو أمر يدعو للغرابة. مع ذلك، لم تقتنع بفكرة أنه قرر فجأةً الزواج من ابنة أختها. فزواجٌ كهذا سيكون من جانب إيزابيل له مظهر الحماقة الكبيرة تقريباً.

تذكرت السيدة تاتشيت طبعاً أن الفتاة كانت قد رفضت نبيلاً إنجليزياً؛ إن سيدةً شابة لم يفلح معها اللورد واربيرتون وتقتنع بأميركي محب للفن، أرمل متوسط العمر مع طفلةٍ غريبة ومورد مادي مبهم، لم يطابق مبدأ السيدة تاتشيت عن النجاح. سيُلاحَظ بأنها لم تتخذ الجانب الشعوري من الزواج بل جانب المصلحة ـ وهي وجهة نظر تنصح بها دائماً.

قالت لابنها: (أنا واثقة بأنها لن تتحامق وتصغي إليه). وعلى ذلك أجاب رالف بأن إصغاء إيزابيل شيء، وإجابة إيزابيل شيء آخر تماماً. كان يعلم بأنها أصغت إلى أطرافٍ عديدة، كما قال والده، لكنها بالمقابل تجعلهم يصغون. وجد تسليةً كبيرة في فكرة أنه خلال الأشهر القليلة تلك من معرفته بها سيرى خاطباً جديداً على بابها. لقد أرادت أن ترى الحياة، وكانت الثروة ستخدمها في هذا الاتجاه؛ وإن تَتابُع النبلاء وهم يركعون لها سيخدمها أيضاً كأي شيء آخر. تطلّعَ رالف إلى شخصٍ مزعجٍ رابع، وخامس، وعاشر؛ فلم يكن مقتنعاً بأنها ستتوقف عند الثالث. كانت ستُبقي

(1) أي مع ايزابيل. (المترجمة)

الباب مفتوحاً وتستفتح بهم مؤتمراً؛ ما كانت لتسمح للرقم ثلاثة بالدخول بالتأكيد. لقد عبَّر عن هذا المشهد، بهذه الطريقة بعض الشيء، لوالدته التي نظرت إليه وكأنه يرقص رقصة شعبية. فقد كانت لديه طرق خيالية وتصويرية كهذه بحيث يمكنه أيضاً أن يخاطبها بلغة الصمّ ـ البُكْم.

قالت: (لا أعتقد بأنني أفهم ما تقول، فأنتَ تستعمل تشبيهات كثيرة في الكلام ولن أتمكن أبداً من فهم الرموز. إن الكلمتين اللتين أحترمهما في اللغة بشكلٍ بالغ هما نعم ولا. إذا كانت إيزابيل تريد أن تتزوج السيد أوزموند فستفعل ذلك رغم كل تشبيهاتكَ. اتركها لوحدها تجد بنفسها واحداً مناسباً مقابل أي شيء تتعهد به. أنا أعرف القليل جداً عن الشاب في أميركا، لا أعتقد بأنها تُمضي الكثير من الوقت في التفكير فيه، وأشكّ أنه تعب من انتظارها. لن يوجد شيء في الدنيا يمنعها من الزواج من السيد أوزموند لو فقط نظرَتْ إليه بطريقة معينة. لا بأس بذلك؛ فلا يوجد أحد أكثر مني يستحسن فكرة أن يُمَتِّعَ المرءُ نفسَه. لكنها تُمَتِّع نفسها بأمورٍ غريبة جداً؛ فهي قادرة على الزواج من السيد أوزموند لجمال آرائه أو لامتلاكه توقيع مايكل أنجلو. إنها تحب أن تكون متميزة وكأنها الشخص الوحيد المهدد بأن لا يكون كذلك! هل سيكون نزيهاً جداً عندما ينفق أموالها؟ كانت تلك فكرتها قبل وفاة أبيكَ، ولقد أكسبتها عزيمة جديدة منذ ذلك الوقت. يجب أن تتزوج شخصاً تكون متأكدة من نزاهته، ولن يوجد برهان على ذلك مثل امتلاكه لثروةٍ خاصة به).

أجاب رالف: (يا أمي العزيزة، أنا لستُ خائفاً. إنها تسخر منا جميعاً. فهي طبعاً ستقوم بإقناع نفسها، لكنها ستفعل ذلك من خلال دراستها لطبيعة الإنسان عن كثب ورغم ذلك تحتفظ بحريتها. لقد بدأتْ رحلةً استكشافية، ولا أعتقد بأنها ستغيّر طريقها عند الانطلاقة بإشارةٍ من جيلبرت أوزموند. قد

تبطئ من سرعتها لمدة ساعة، لكن قبل أن نعلم ذلك ستكون قد أبحرتْ بعيداً ثانيةً بالباخرة. عذراً لتشبيهي الآخر).

ربما عذرت السيدة تاتشيت ذلك، لكنها لن تكون مطمئنة تماماً فيما إذا كانت ستحجب عن مدام ميرليه التعبير عن مخاوفها، قالت: (أنتِ يا من تعرفين كل شيء، عليكِ أن تعرفي هذا؛ ما إذا كان ذلك المخلوق الفضولي يغازل ابنة أختي حقاً).

وسّعَتْ مدام ميرليه عينيها الصافيتين بدهاءٍ بارز.

ـ (جيلبرت أوزموند؟ فلتعيننا السماء)، فصاحت: (إنها فكرة!).

ـ (ألم تخطر ببالكِ؟).

ـ (أنتِ تجعلينني أشعر بأنني حمقاء. لكنني أعترف بأنها لم تخطر في بالي. إنني أتساءل...)، ثم أضافت: (فيما إذا كانت قد خطرت لإيزابيل).

قالت السيدة تاتشيت: (أوه، سوف أسألها).

فكرت مدام ميرليه: (لا تضعي الفكرة في رأسها. الأمر الصائب هو أن نسأل السيد أوزموند).

قالت السيدة تاتشيت: (لا يمكنني أن أفعل ذلك. لن أجعله يسألني ما شأنكِ أنت بالموضوع مثلما يفعل ذلك تماماً بهيئته تلك، بالتسليم بموقف إيزابيل).

أعلنت مدام ميرليه بشجاعة: (أنا سأسأله بنفسي).

ـ (لكن ـ بالنسبة له ـ ما شأنكِ أنت بالموضوع؟).

ـ (لأن ليس لي شأن بالموضوع بتاتاً هو بالضبط ما يجعلني قادرة على التحدث معه. إنه شأني أقل بكثير من شأن أي أحدٍ آخر بحيث يمكنه أن يثير استيائي إنْ أراد، لكن من خلال الطريقة التي يفعل بها ذلك سأعرف).

قالت السيدة تاتشيت: (أرجوكِ أن تُعلميني عندئذٍ بنتائج اقتحامكِ. مع ذلك، لو لم أتمكن من التحدث معه فعلى الأقل يمكنني أن أتحدث مع إيزابيل).

عند هذه العبارة أصدرت رفيقتُها علامة إنذار: (لا تستعجليها، لا تُلهبي خيالها).

ـ (لم أفعل أي شيء في حياتي بخيال أي أحد، لكنني متأكدة دائماً من أنها تفعل شيئاً ـ حسناً، ليس على طريقتي).

قالت مدام ميرليه بدون أن تقصد الاستجواب: (كلا، لن تفضّلي ذلك).

ـ (لماذا لن أفضّله، أرجوكِ؟ فليس لدى السيد أوزموند أقل شيء حقيقي ليقدمه).

كانت مدام ميرليه صامتة ثانيةً وقد سحبت ابتسامتُها المتأملة فمَها نحو الجهة اليسرى بشكلٍ أكثر سحراً من المعتاد.

ـ (دعينا نتبيَّنِ الأمر. فجيلبرت أوزموند بالتأكيد ليس أول الخاطبين. إنه رجلٌ قد يعطي في الظروف الملائمة انطباعاً كبيراً بشكلٍ جيدٍ تماماً. فعلى حد علمي، كان قد عمل انطباعاً طيباً أكثر من مرة).

صاحت السيدة تاتشيت: (لا تخبريني عن شؤونه العاطفية ذات الدم البارد جداً ربما، فهي لا تعني شيئاً بالنسبة لي! فما تقولينه هو تماماً السبب في رغبتي في أن يوقف زياراته. فليس لديه شيء أعرفه عنه سوى الكثير جداً من لوحات الرسامين القدماء، وابنة صغيرة وقحة بعض الشيء).

ـ (إن تلك اللوحات تساوي الآن الكثير من المال، والابنة هي شخص صغير السن جداً وساذجة جداً وغير مؤذية تماماً).

ـ (بكلماتٍ أخرى، إنها طفلة صغيرة تافهة. هل هذا هو ما تقصدينه؟ ليس لديها ثروة ولا تستطيع أن تتمنى أن تتزوج كما يتزوجون هنا، لذا ستوفر إيزابيل لها إما الإعالة أو المهر).

ـ (ربما لن تمانع إيزابيل من أن تكون كريمة معها. فأنا أعتقد بأنها تحب الطفلة المسكينة).

ـ (إذن فهذا سببٌ آخر لوقوف السيد أوزموند هنا في المنزل! فخلال أسبوع من الآن سوف نسمع بطريقةٍ ما أن ابنة أختي وصلت إلى قناعة مفادها أن مهمتها في الحياة هي أن تضحّي بنفسها لتصبح زوجة أب، ولتثبت ذلك لا بدّ لها أولاً من أن تصبح زوجة أب).

ابتسمت مدام ميرليه.

ـ (كانت ستصبح زوجة أب رائعة. لكنني متفقة معكِ بأن من الأفضل لها أن لا تقرر مهمتها بسرعة كبيرة. فتغيير المرء لشكل مهمته صعبٌ بصعوبة تغيير المرء لأنفه؛ لأن كليهما في وسط وجه المرء وشخصية المرء ـ إذ على المرء أن يبدأ من البداية. لكنني سأتحقق وأُبلغكِ).

دار كل ذلك بدون علم إيزابيل تماماً، فهي لم يكن لديها شك بأن علاقتها بالسيد أوزموند كانت موضوع نقاش. لم تقل مدام ميرليه شيئاً لتدافع عنها. لم تعد تشير إليه بوضوح أكثر من رجل فلورنسا المهذب، ابن البلد والأجنبي؛ الذي وصل الآن برزانة ليقدم احتراماته لخالة الآنسة آرتشر. كانت إيزابيل تراه بأنه مثير للاهتمام ـ واستمرت على ذلك، وأحبت أن تراه كذلك. من خلال زياراتها لقمة تله، حملت معها صورةً عنه لم تتأثر بمعرفتها اللاحقة به، والتي ارتَدَتْ بالنسبة لها مظهر التناغم الاستثنائي مع الأشياء الأخرى التي تخيلَتْها وتكهَّنَتْ بها، حكاية داخل حكاية: وهي صورة رجلٍ هادئ، ذكي، حساس، مميز، يسير على شرفةٍ نَمَتْ عليها النباتات فوق وادي آرنو الجميل ويحمل بيده طفلةً صغيرة منحها صفاؤها الشبيه بصفاءِ الكأس بهاءً جديداً لطفولتها. لم يكن للصورة أية زخرفة، لكنها أحبت بساطة انطباعها وجوّ غسق الصيف الذي سادها. لقد نطقت هذه الصورة بموضوعٍ شخصي أثَّر بها على نحوٍ

وثيق؛ نطقت بالاختيار بين أشياءَ وأشخاصٍ وعلاقاتٍ ـ ماذا يمكن أن تسميها؟ ـ ذات ارتباط ضعيف وأخرى ذات ارتباط قوي؛ نطقت بحياةٍ منعزلة ومقصودة في أرضٍ جميلة؛ نطقت بحزنٍ قديم يؤلم اليوم أحياناً؛ نطقت بشعور الكبرياء الذي قد يكون مبالغاً به لكن مع ذلك امتلَكَ أثراً من النبل؛ نطقت بالحرص على جمالٍ ومثاليةٍ طبيعيَّيْن جداً ومهذَّبَيْن جداً معاً بحيث بدت الحياة ممتدة تحتها في المشاهد المنسقة وعلى امتداد الدرجات والشرفات والنافورات لحديقةٍ ايطالية تقليدية ـ سامحةً فقط للأماكن القاحلة أن تنتعش بقطرات الندى الطبيعية لأبوّةٍ مثيرة للعجب، شبه قلقة، وشبه عاجزة.

بقي سلوك أوزموند في قصر كريشنتيني كما هو؛ خجولاً في البداية، مرتبكاً بشكلٍ لا جدال فيه!، وكله إصرار (الواضح فقط للعين المتعاطفة) للتغلب على هذا العيب؛ وهو إصرارٌ أدّى عادةً إلى الكثير من الكلام البسيط، الحيوي، الإيجابي جداً، العدائي قليلاً، والمكشوف دائماً. لم يكن كلام السيد أوزموند مصاباً بإبداء اللهفة للتألق؛ إذ لم تجد إيزابيل صعوبة في التصديق بأن هذا الرجل كان صادقاً والذي امتلَكَ الكثير جداً من إشاراتِ الإقناع القوي ـ كما على سبيل المثال التقدير الواضح والمهذَّب لأي شيء يقال في صالحه بخصوص الموضوع، والذي يقال من قبل الآنسة آرتشر خصوصاً. إن ما سبَّبَ استمرار سرور هذه الشابة هو أنه عندما كان يتحدث بهذه الطريقة للتسلية، لا يتحدث «ليؤثر في الآخرين» مثلما تسمع الناس وهم يفعلون ذلك. بل كان ينطق بما يفكر به وكأنه كان معتاداً عليها وعاش معها، وهو أمر غريب عادةً؛ كمقابض ورؤوس ومِمسَكات قديمة مصقولة من مادة ثمينة يمكن تثبيتها عند الضرورة على عكازاتٍ جديدة ـ وليست أسواطاً تُقتطَع عند الحاجة من شجرةٍ عادية ثم يُلَوَّح بها برشاقة.

جلب معه في أحد الأيام ابنته الصغيرة، وسُرَّتْ بتجديد معرفتها بالطفلة التي عندما قدَّمت جبهتها ليتم تقبيلها من قبل كل عضو في المجموعة، ذكَّرَتْها بشكلٍ واضح بممثلة مبتدئة في مسرحية فرنسية. لم تكن إيزابيل قد رأت أبداً شخصاً صغيراً بهذا النمط. كانت الفتيات الأميركيات مختلفات جداً ـ الفتيات الإنجليزيات مختلفات أيضاً. كانت بانسي مُشَكَّلة تماماً ومُهيّأة لمكانها الصغير في هذا العالم. مع ذلك، كانت من ناحية الخيال ساذجة جداً وصبيانية كما يمكن للمرء أن يلاحظ ذلك.

جلست على الأريكة بجوار إيزابيل؛ كانت ترتدي معطفاً بلون الرمّان وزوجاً من القفازات النافعة التي أعطتها لها مدام ميرليه ـ قفازات رمادية صغيرة ذات زر واحد. كانت تشبه قطعة رقيقة من الورقة البيضاء ـ فتاة شابة نموذجية ذات خيال غريب. ودَّتْ إيزابيل أن تحتوي صفحةً نظيفةً وناعمةً كهذه على نصٍّ تعليمي.

حضرت الكونتيسة جيميني أيضاً لتزورها، لكن الكونتيسة كانت قضية أخرى تماماً. فهي لم تكن صفحة بيضاء مطلقاً؛ فقد كُتب عليها بأيادٍ مختلفة، وقالت السيدة تاتشيت التي لم تشعر مطلقاً بالشرف من زيارتها بأنه سيتم رؤية عدد من البقع الواضحة على وجهها. في الواقع، أثارت الكونتيسة نقاشاً بين سيدة المنزل والضيفة التي من روما، والذي استفادت فيه كثيراً مدام ميرليه (التي لم تكن حمقاء لتغيظ أناساً من خلال الاتفاق معهم دائماً في الرأي) من الحرية الكبيرة للمعارَضة التي سمحت بها مضيّفتُها بحرية بنفس حرية ممارستها لها. أعلنت السيدة تاتشيت أن من الوقاحة أن تقوم هذه الشخصية المتهتكة جداً بالحضور في مثل هذا الوقت من اليوم عند بابِ منزلٍ ليست محترمةً فيه كثيراً، مثلما لا بدّ أنها تعرف نفسها ومنذ مدة طويلة بأنها غير محترمة في قصر كريشنتيني.

كانت إيزابيل عارفة بالتقييم السائد تحت ذلك السقف؛ فقد صوَّرَ أخت السيد أوزموند كسيدةٍ لا تراقب كثيراً بذاءاتها بحيث توقفت عن أن تكون متماسكة مطلقاً ـ وهو ما يطلبه المرء على الأقل في أوقات كهذه ـ وأنها أصبحت فقط الأجزاء العائمة لسمعةٍ محطمة، وتُضايق الحلقات الاجتماعية. كانت قد تم تزويجها من قبل والدتها ـ وهي شخص منظّم أكثر وتقدّر الألقاب الأجنبية التي ربما لأجلها ـ لكي ننصفها ـ قد أُلقي بها إلى نبيل إيطالي في ذلك الوقت والذي التمسَ لها العذر لمحاولتها قمع شعور الظلم. مع ذلك، فقد عزَّتْ الكونتيسة نفسها بشكلٍ مفرط، وضاعت قائمة أعذارها الآن في متاهة مغامراتها.

لم ترضَ السيدة تاتشيت أن تستقبلها أبداً رغم أن الكونتيسة قد عملت مبادرات فيما مضى. لم تكن فلورنسا مدينة متزمتة، لكن كان عليها أن تضع حدّاً لنفسها في مكانٍ ما على حد قول السيدة تاتشيت.

دافعت مدام ميرليه عن السيدة السيئة الحظ بحماسٍ كبير وذكاء. لم تستطع أن تفهم لِمَ على السيدة تاتشيت أن تجعل من امرأةٍ لم تؤذِ أحداً فعلاً والتي فعلت ما هو مناسب بطريقةٍ خاطئة، كبشَ فداء. على المرء بالتأكيد أن يضع حداً لنفسه، لكن حينما يكون المرء على وشك فعل ذلك عليه أن يتزمَّتَ فيه؛ والكونتيسة جيميني لا تستطيع التزمت في ذلك. في هذه الحالة سيكون من الأفضل للسيدة تاتشيت أن تغلق منزلها، فربما سيكون ذلك أفضل أسلوب كلما بقيتْ في فلورنسا مدة طويلة جداً. على المرء أن يكون منصفاً وأنْ لا يعمل خصومات عشوائية؛ الكونتيسة بلا شك كانت طائشة، ولم تكن بارعة جداً كالنساء الأخريات. كانت مخلوقة طيبة وليست بارعة مطلقاً؛ لكن منذ متى أصبح ذلك أساساً للإقصاء عن أفضل المجتمعات؟ واليوم، لم يسمع أحدٌ عنها شيئاً منذ مدة طويلة، ولا يمكن أن يوجد دليل على هجرها لأفعالها الخاطئة أفضل من رغبتها في أن تصبح عضواً من جماعة السيدة تاتشيت.

لم تستطع إيزابيل أن تساهم في هذا النزاع المثير للاهتمام، ولا حتى بالإنصات الحليم. لقد أقنعت نفسها بأنه تم الترحيب بودٍّ بسيدةٍ غير محظوظة والتي مهما كانت أخطاؤها كانت لها على الأقل ميزة كونها أخت السيد أوزموند. فقد فكرت إيزابيل بأنها طالما أحبت الأخ، فمن الملائم أن تحاول وتحب الأخت؛ على الرغم من التعقيد المتزايد للأمور إلا أنها كانت لا تزال جديرة بهذه النتيجة البسيطة. لم تكن قد تلقَّت أسعد انطباعاتها عن الكونتيسة عند مقابلتها في الفيلا، بل كانت ممتنة لفرصةٍ لإصلاح الحدث. ألم يقل السيد أوزموند بأنها كانت شخصاً محترماً؟ كانت تلك مقولة صريحة لكونها صدرت من جيلبرت أوزموند، لكن مدام ميرليه أضفت عليها طلاءً تجميلياً. لقد روت لإيزابيل عن الكونتيسة المسكينة أكثر مما أخبرها به أوزموند، وروَتْ قصة زواجها وعواقبه.

كان الكونت فرداً من عائلة توسكانية عريقة، لكن ذا مالٍ قليل بحيث كان سعيداً بالموافقة على إيمي أوزموند رغم الجمال المختلَف عليه والذي لم يعقْ مجرى حياتها رغم ذلك، والمهر المتواضع الذي كانت أمها قادرة على تقديمه ـ وهو مبلغ مساوٍ تقريباً للمبلغ الذي كوَّنَ سابقاً حصة أخيها من ميراثهم. رغم ذلك، ورث الكونت جيميني من ذلك الحين أموالاً، والآن هما مكتفيان جداً كما يقول الإيطاليون، وإن كانت إيمي مسرفة بشكلٍ مروّع. كان الكونت وحشاً، عاش بشكلٍ حقير، ومنح زوجته كل تبرير. لم يكن لديها أطفال، وكانت قد فقدت ثلاثة خلال سنة واحدة من ولادتهم. كانت والدتها ـ التي عجَّتْ بادّعاء التعليم الراقي ونشرت قصائد وصفية وراسَلَتْ مجلات أسبوعية إنجليزية بشأن مواضيع إيطالية، قد توفيت بعد ثلاث سنوات من زواج الكونتيسة. أما الوالد، التائه في الفجر الأميركي الكئيب والمعروف أساساً بالغنى والقوة، قد توفي بوقت مبكر أكثر.

يمكن للمرء أن يرى ذلك في جيلبرت أوزموند، إذ ترى مدام ميرليه بأن السبب هو لأنه نشأ على يد امرأةٍ. ولكي ننصفه، نقول بأنه نشأ على يد امرأةٍ أكثر حكمة من كورين الأميركية،[1] كما كانت السيدة أوزموند تحب أن يُطلق عليها. لقد جاءت بأطفالها إلى إيطاليا بعد وفاة زوجها، وتذكَّرَتْها السيدة تاتشيت خلال العام الذي تلا وصولهم. كانت تراها مغرورةً مريعة؛ لكن ذلك كان خطأً في الحكم من جانب السيدة تاتشيت لأنها إستحسَنَتْ زيجات المصلحة مثل السيدة أوزموند.

كانت الكونتيسة رفيقة ممتازة وليست في الحقيقة مغفلة مثلما بدا عليها؛ كان كل من له علاقة بها لاحَظَ الحالة البسيطة وهي عدم تصديق كلمة مما تقوله. استفادت مدام ميرليه دائماً إلى أقصى حد منها لأجل أخيها؛ فقد كان يقدّر أي لطفٍ يُظهَر تجاه إيمي، لأنه (إن كان يجب الاعتراف لصالحه) شعر بأنها حطَّتْ من اسمهم المعروف. لم يستطع أن يحبّذ طبعاً اسلوبها، صخبها، غرورها، انتهاكاتها للذوق العام، وفوق كل شيء انتهاكها للصدق؛ فقد لعبتْ بشكلٍ سيّئ بأعصابه، لم تكن من نوع النساء الذي يفضّله. ماذا كان نوع النساء الذي يفضّله؟ أوه، النقيض تماماً من الكونتيسة، امرأةٌ يجب أن يكون الصدق بالنسبة لها مقدس كعادةٍ لها. كانت إيزابيل عاجزة عن عدِّ المرات التي قام بها ضيفها خلال نصف ساعة بانتهاك الصدق؛ فقد منحتها الكونتيسة في الحقيقة انطباعاً عن الصدق السخيف نوعاً ما. لقد تحدثَتْ حصرياً قليلاً عن نفسها؛ مقدار حبها لمعرفة الآنسة آرتشر؛ كم يجب أن تكون ممتنة لصديقٍ حقيقي؛ كم كان الناس

---

(1) كورين الأميركية: هو لقب (ماغريت فولر)، وهي كاتبة أميركية ومحررة وناشطة في حقوق المرأة في القرن 19. تزوجت في إيطاليا من الماركيز (جيوفاني أوسولي). وعند عودتها إلى أميركا عام 1850 غرقا في البحر مع طفلهما. وكورين، هو اسم شخصية خيالية للكاتبة (مدام دي ستايل) في روايتها «كورين، أو إيطاليا». وأصبح هذا اللقب يطلق على النساء الأميركيات اللواتي يعشن في إيطاليا. (المترجمة)

وضيعين في فلورنسا؛ كم كانت مرهَقة من المكان؛ كم كانت ستحب أن تعيش في مكانٍ آخر ـ في باريس، في لندن، في واشنطن؛ كم سيكون من المستحيل الحصول على أي شيء جميل لارتدائه في إيطاليا عدا المخرَّم القديم البسيط؛ كم هو مكلف توسُّع العالم في كل مكان؛ يا لها من حياة معاناة وحرمان عاشتها.

أصغت مدام ميرليه باهتمام لتعليق إيزابيل على هذه الفقرة، لكنها لم تكن بحاجة إليها لتشعر بأنها مستثناة من القلق. على العموم، فهي لم تكن خائفة من الكونتيسة، وأنها تمكنت من تقدير عمل ما هو الأفضل عموماً ـ ليس بقصد أن تَظهر كذلك.

في تلك الأثناء، كان لدى إيزابيل ضيفة أخرى، والتي لم يكن الدفاع عنها أمراً سهلاً، حتى من وراء ظهرها. إنها هنرييتا ستاكبول، التي غادرت باريس بعد مغادرة السيدة تاتشيت إلى سان ريمو، وشقَّت طريقها ـ على حد قولها ـ عبر مدن شمال إيطاليا حتى وصلت إلى ضفاف آرنو حوالي منتصف شهر أيار. تفحَّصَتْها مدام ميرليه بنظرة واحدة، تناولَتْها من الرأس وحتى القدم، ثم قررت بعد لذعةٍ من اليأس أن تحتملها. لقد قررت في الواقع أن تتآلف معها. قد لا يمكن استنشاقها كزهرة لكن يمكن إمساكها كنبات القُرّاص. عانقَتْها مدام ميرليه برقّة وكأنها شيء غير مهم، وشعرت إيزابيل من خلال تكهنها بهذا التسامح أنها أنصفَتْ ذكاء صديقتها. كان وصول هنرييتا قد أُعلن عنه من قبل السيد بانِلِنْج الذي ـ وصل إلى نيس بينما كانت في البندقية وتوقَّعَ أنْ يراها في فلورنسا التي لم تصلها بعد ـ دُعي إلى قصر كريشنتيني ليعبّر عن خيبة أمله. كان وصول هنرييتا قد حدث بعد يومين، وولَّدَ في السيد بانِلِنْج عاطفة سببها إلى حدٍّ كبير عدم رؤيته لها منذ انتهاء الحدث في فيرساي. كان المشهد الطريف لموقفه مفهوماً بشكلٍ عام، لكن مَن نطَقَ بذلك هو فقط رالف تاتشيت الذي فهم

ـ وهو منعزل في حجرته الخاصة عندما دخَّن السيد بانِلِنْج سيجارةً هناك وهو منغمس في العراقة ـ الشيء الطريف في موضوع الخبيرة ومؤيدها الإنجليزي. إن هذا الرجل المهذب قد فهم الطرفة بشكلٍ جيد تماماً وأنه اعترف بصراحة بأنه اعتبرَ المسألة مغامرة ثقافية مفيدة. لقد أحبَّ الآنسة ستاكبول بشكلٍ بالغ؛ فقد رأى بأن لها رأساً رائعاً على كتفيها، وانه وجد راحةً كبيرة برفقة امرأةٍ لا تفكر دائماً بما سيُقال، وكيف سيبدو ما تفعلُه، وكيف سيبدو ما يفعلونه ـ وهم يفعلون أشياء رهيبة! ـ لم تهتم الآنسة ستاكبول أبداً كيف يبدو أي شيء، وإذا لم تهتم هي، فلِمَ يجب أن يهتم هو، أرجوك؟ لكن فضوله قد أثير؛ فأراد بشدةٍ أن يرى فيما إذا كانت ستهتم يوماً. كان مستعداً لأن يذهب أينما تذهب ـ لم يفهم لِمَ عليه أن يتأخر عن ذلك.

لم تُظهِر هنرييتا علامات التأخر عن ذلك. وازدهرت تطلعاتها عند مغادرتها لإنجلترا، والآن هي في تمتعها الكامل بمصادر معلوماتها الفيّاضة. في الواقع كانت مجبرة على التضحية بتطلعاتها فيما يخص موضوعها الصحفي عن الحياة المنزلية؛ إذ تكدَّرَ هذا الموضوع الاجتماعي في القارة الأوربية بسبب صعوبات كثيرة حتى أكثر من تلك التي واجَهَتْها في إنجلترا. لكن الحياة خارجَ المنزل في القارة الأوروبية كانت ملموسة ومرئية عند كل منعطف والتي يمكن تحويلها إلى منفعة أدبية بشكل أسهل من عادات سكان الجزيرة[1] البليدين. ففي البلدان الأجنبية، عندما يرى المرء الحياة خارج المنزل، سيبدو وكأنه يرى الجانب الصحيح من السجّادة، كما لاحظَتْ ذلك بذكاء؛ أما الحياة خارج المنزل في إنجلترا فتبدو بالنسبة للمرء وكأنه يرى الجانب الخاطئ والذي لا يمنح المرء فكرة عن الشكل. إن الاعتراف بذلك يكلّف كاتب قصتها

(1) تقصد بريطانيا. (المترجمة)

غصّةً. لكن هنرييتا بعد أن يئست من الأمور الداخلية، أبدت اهتماماً أكثر للحياة الخارجية. كانت تبحث فيها على مدى شهرين في البندقية، وهي المدينة التي أرسلَتْ منها إلى الإنترفيور تقريراً أنجز بضمير عن الجنادل، ميدان بيزا، جسر التنهّدات، طيور الحمام والمراكبي التي ترنَّمَ بها الشاعر تاسّو.

ربما كانت الإنترفيور قد أصيبت بخيبة أمل، لكن هنرييتا كانت على الأقل ترى أوروبا. كان هدفها الحالي هو أن تنزل إلى روما قبل دخول الملاريا ـ من الواضح أنها اعتقدت بأنها تبدأ في يوم محدد، وبناءً على هذه الخطة كان عليها أن تقضي في الوقت الحالي فقط بضعة أيام في فلورنسا. كان من المفترض أن يتوجه السيد بانِلْنج معها إلى روما، وأشارت لإيزابيل إلى أنه بما أنه كان متواجداً قبل ذلك، وبما أنه حظي بتعليم تقليدي ـ إذ قالت الآنسة ستاكبول بأنه كان قد تخرَّجَ من كلية إيتون حيث لا يدرسون شيئاً سوى اللغة اللاتينية ووايت ـ ملفيل ـ فسيكون رفيقاً نافعاً جداً في مدينة القياصرة.

في هذه الحالة، خطر لرالف فكرة ملائمة، وهي أن يقترح على إيزابيل بأنها هي أيضاً يجب أن تصحبه في حجّه إلى روما. لقد توقعَتْ أن تقضي جزءاً من الشتاء القادم هناك ـ كان ذلك أمراً مناسباً جداً. لكن حتى ذلك الحين لا ضرر في استقصاء المكان. فقد بقي عشرة أيام من شهر أيّار الجميل ـ وهو أعزّ شهر من باقي الأشهر على محبي روما الحقيقيين. ستصبح إيزابيل من محبي روما؛ كان ذلك استنتاجاً سابقاً لأوانه. كانت مزوّدة برفيقةٍ موثوق بها من نفس جنسها والتي لن تكون رفقتها مرهِقة والفضل يعود للزيارات الأخرى تحت رعاية هذه السيدة.

كانت مدام ميرليه ستبقى مع السيدة تاتشيت؛ إذ كانت قد غادرت روما في الصيف ولن تحرص على العودة. لقد تظاهرت بأنها سعيدة

لأنها تُركت بسلام في فلورنسا؛ فقد أقفلت مسكنها وأرسلت طاهيتها للبيت في بالسترينا. مع ذلك، فقد حثَّتْ إيزابيل كي توافق على مقترح رالف، وأكدت لها بأن تعريفاً جيداً بروما ليس شيئاً مستهجناً. في الواقع، لم تكن إيزابيل بحاجة إلى تشجيع. واتفقت المجموعة المكوَّنة من أربعة أشخاص على رحلتها الصغيرة. استسلمت السيدة تاتشيت في هذه الحالة لغياب الوصيفة؛ فقد رأينا بأنها مالت الآن إلى الاعتقاد بأن ابنة أختها يجب أن تكون مستقلة. تضمنت أحد استعدادات إيزابيل رؤيتها لجيلبرت أوزموند قبل أن تنطلق وأن تذكر له ما عزمَتْ عليه، فعلَّق: (ينبغي أن أكون في روما معكِ. أودّ أن أراكِ على تلك الأرض الرائعة).

لم ترتبك كثيراً.

ـ (يمكنكَ أن تأتي إذن).

ـ (لكن هناك الكثير من الناس معكِ).

اعترفت إيزابيل: (آه، طبعاً لن أكون وحدي).

لم يقل المزيد لوهلة. ثم واصل حديثه أخيراً: (ستحبينها. لقد خرَّبوها. لكنكِ ستؤخذين بها).

فسألت: (هل يُحتمل أن أكرهها ـ نيوبي[1] الأمم، العزيزة العتيقة المسكينة، لأنها خُرِّبَتْ؟).

فابتسم.

ـ (كلا، لا أرجو ذلك. فقد خُرّبَتْ مراتٍ عديدة. لو كان يجب علي أن أذهب معكِ فماذا ينبغي أن أفعل بابنتي الصغيرة؟).

(1)نيوبي: شخصية أسطورية أغريقية قُتل أبناؤها وبناتها وظلت تبكي على خسارتها إلى الأبد حتى تحولت إلى حجارة. (المترجمة)

ـ (ألا يمكنكَ أن تتركها في الفيلا؟).

ـ (لا أشعر بأنني أحب ذلك ـ رغم وجود امرأة عجوز طيبة جداً تعتني بها. لا أستطيع أن أتحمّل تكاليف مربية).

قالت إيزابيل بسرعة: (اجلبها إذن معكَ).

بدا السيد أوزموند ساهماً.

ـ (لقد كانت في روما طوال فصل الشتاء، في الدير؛ وهي صغيرة جداً على الرحلات الترفيهية).

تساءلت إيزابيل: (ألا تحب أن تجلبها معكَ؟).

ـ (كلا. إذ أعتقدُ أن الفتيات الصغيرات يجب أن يُبعدن عن العالم).

ـ (أنا نشأتُ على نظامٍ مختلف).

ـ (أنتِ؟ أوه، لقد نجح الأمر معكِ لأنكِ استثنائية).

قالت إيزابيل التي رغم ذلك لم تكن متأكدة من عدم وجود بعض الحقيقة في الكلام: (أنا لا أفهم السبب) لم يفسر السيد أوزموند ذلك، بل واصل كلامه فحسب: (لو ظننتُ أن انضمامها إلى مجموعة اجتماعية في روما سيجعلها تشبهكِ لكنتُ سآخذها إلى هناك غداً).

قالت إيزابيل: (لا تجعلها تشبهني، بل ابْقِها مثلما هي نفسها).

قال السيد أوزموند: (قد أُرسلها إلى أختي).

كان له تقريباً مظهر من يطلب النصيحة، وبدا أنه يحب أن يتحدث مراراً عن شؤونه المنزلية مع الآنسة آرتشر.

وافقَتْهُ إيزابيل: (نعم. أعتقد أن ذلك ليس له علاقة كبيرة بجعلها تشبهني!).

بعد أن غادرتْ فلورنسا، التقى جيلبرت أوزموند بمدام ميرليه في منزل الكونتيسة جيميني. كان هناك أناس آخرون متواجدين. كانت غرفة استقبال الكونتيسة عادةً ممتلئة دائماً، وكان الحديث عاماً. لكن بعد برهة، ترك

أوزموند مكانه وجلس على الكرسي العثماني لمدام ميرليه وقال بصوتٍ منخفض: (إنها تريدني أن أذهب إلى روما معها).

ـ (أنْ تذهب معها؟).

ـ (أنْ أتواجد هناك بينما هي هناك. هي من اقترح ذلك).

ـ (أعتقد بأنكَ تقصد بأنكَ اقترحْتَ الأمر وهي وافقَتْ؟).

ـ (لقد اتفقتُ معها طبعاً. لكنها أيَّدَتْ ذلك ـ أيَّدَتْهُ كثيراً).

ـ (مسرورةٌ لسماعي ذلك ـ لكن لا تهتف بالنصر سريعاً. طبعاً سوف تذهب إلى روما).

قال أوزموند: (آه، إن خطتكِ هذه تجعل المرء يتعذب!).

ـ (لا تتظاهر بأنكَ لا تستمتع بالأمر ـ أنت جاحد جداً. فأنتَ لم تكن منشغلاً بشكلٍ جيد بهذه الطريقة في تلك السنوات العديدة).

قال أوزموند: (إن السرعة التي تفهمين بها الأمور مذهلة. يجب أن أكون ممتناً لذلك).

أجابت مدام ميرليه: (ليس إلى هذا الحد بأية حال).

لقد تحدثتْ بابتسامتها المعتادة وهي تتكئ إلى الخلف على كرسيها وتنظر حول الغرفة.

(لقد عملتَ انطباعاً جيداً جداً، ولقد رأيتُ بنفسي بأنكَ تلقيتَ انطباعاً جيداً. أنت لم تأتِ إلى منزل السيدة تاتشيت سبع مرات لتجاملني).

اعترف أوزموند بهدوء: (إن الفتاة ليست بغيضة).

أوقعَتْ مدام ميرليه بصرها عليه وزمَّتْ شفتيها أثناء ذلك.

ـ (هل هذا هو كل ما تمكنتَ من إيجاده لتقوله عن هذه المخلوقة الرقيقة؟).

ـ (كل ما تمكنتُ؟ أوليس كافياً؟ كم من الناس سمِعْتِني أقول عنهم أكثر من ذلك؟).

لم تجب على ذلك، لكنها ثرثرت حول استحسانها بالغرفة. ثم غمغمت في النهاية: (لا يمكن فهمكَ. أنا خائفة من جهنم التي سألقيها فيها).

فاستخفَّ بالموضوع قليلاً: (لا يمكنكِ أن تتراجعي ـ فقد قطعتِ شوطاً طويلاً جداً).

ـ (جيد جداً؛ لكن يجب أن تفعل الباقي بنفسكَ).

قال جيلبرت أوزموند: (سأفعل ذلك).

بقيت مدام ميرليه صامتة، وغيَّر مكانه ثانيةً. لكنها عندما نهضت لتغادر غادر هو أيضاً).

كانت فكتوريا[1] السيدة تاتشيت تنتظر ضيفتها في الفناء. وبعد أن ساعد صديقته على الركوب فيها، وقف هناك يعيقها، فقالت بضجر: (أنتَ متهور جداً. ما كان يجب عليكَ أن تتحرك عندما غادرتُ أنا).

فخلع قبعته ومرر يده فوق جبهته.

ـ (أنا أنسى دائماً. فأنا أتصرف بدون تفكير).

فكررت وهي تنظر إلى الأعلى على نوافذ المنزل الذي كان بناءً حديثاً في الجانب الجديد من المدينة: (لا يمكن فهمكَ بالمرّة).

لم يكترث لهذا القول سوى أنه تحدَّثَ بمنطقية: (إنها جذابة جداً بالفعل. بالكاد عرفتُ واحدة أكثر جاذبية منها).

ـ (يطيب لي أن أسمعكَ تقول ذلك، فكلما أحببتَها أكثر كلما كان ذلك أفضل لي).

ـ (أنا أحبها كثيراً جداً. إنها كل ما وصفْتِهِ عنها، وأنا أشعر بأنني قادر على التمسك كثيراً بالصفقة. لكن لديها عيب واحد).

---

(1) فكتوريا: هي نوع من العربات المكشوفة التي تجرّها الخيل تكفي لراكبين. استعملت لأول مرة في فرنسا وتمتاز بأنها منخفضة وخفيفة وذات أربع عجلات وذات سقف متحرك قابل للطيّ، ومقعد السائق فيها يميل إلى الأمام. (المترجمة)

ـ (ما هو؟).

ـ (لديها أفكار كثيرة جداً).

ـ (لقد نبهتُكَ بأنها ذكية).

قال أوزموند: (إنها أفكار سيئة جداً لحسن الحظ).

ـ (لِمَ تقول لحسن الحظ؟).

ـ (إن كان لا بدّ من التضحية بها يا سيدتي!).

اتكأت مدام ميرليه للخلف وهي تنظر أمامها مباشرةً؛ ثم تحدثت إلى الحوذي. لكن صديقها أعاقها ثانيةً: (لو ذهبتُ إلى روما، ماذا سأفعل ببانسي؟).

قالت مدام ميرليه: (سأذهب وأراها).

***



"اليزابيث" فتاة أميركية محبوبة ومثقفة لكنها فقيرة، تهبط عليها ثروة من السماء مما تجعلها هدفاً لصائدي الثروات، فماذا ستفعل؟

هنري جيمس

روائي وناقد انجليزي من أصل أميركي ولد عام ١٨٤٣ في نيويورك لعائلة غنية وتوفي سنة ١٩١٦، قرأ في سن صغيرة الأدب الإنكليزي والفرنسي والألماني. شارك في تحرير العديد من المجلات الشهرية مثل مجلة "اتلانتيك". يعتبر مؤسس وقائد مدرسة الأدب الواقعي، آمن بأن الفن الروائي يعتمد على الانطباعات الغنية التي تغذي خيال الكاتب من البيئة المحيطة. كتب أكثر من ٢٤ رواية طويلة مثل (ديزي ميلر) و(أجنحة اليمامة) و(الطبق الذهبي) و(ساحة واشنطن) وعدداً كبيراً جداً من الرسائل والمحاضرات الأدبية. إشتهر هنري جيمس في رواياته بتلاقي أميركا وأوروبا من خلال شخصياته الروائية، وكذلك استخدامه البديع للحوار الداخلي للشخصيات كما سنلاحظ ذلك في رواية بورتريه سيدة والذي تحول إلى عمل سينمائي بنفس العنوان عام ١٩٩٦ قامت ببطولته نيكول كيدمان ونال العديد من الجوائز.

إخراج وتصميم:



